مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية
سلسلة تاريخ المغرب

سَلا ورباط الفتح

أسطولهما وقرصنتهما الجهادية

تأليف
جعفر بن أحمد الناصري

تحقيق
أحمد بن جعفر الناصري

الجزء السادس

(من ستة أجزاء)

1428هـ - 2007م

مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية

سلسلة تاريخ المغرب

سَلا ورباط الفتح

أسطولهما وقرصنتهما الجهادية

تأليف

جعفر بن أحمد الناصري

تحقيق

أحمد بن جعفر الناصري

الجزء السادس

(من ستة أجزاء)

1428هـ - 2007م

أكاديمية المملكة المغربية

أمين السرّ الدائم	:	عبد اللطيف بربيش
أمين السر المساعد	:	عبد اللطيف بنعبد الجليل
مدير الجلسات	:	عبد الهادي التازي
مدير الشؤون العلمية	:	أحمد رمزي

العنوان : شارع الإمام مالك، كلم 11، ص. ب. 5062

الرمز البريدي 10100

الرباط – المملكة المغربية

تليفون 75.51.46 (037) / 75.51.99 (037)

البريد الإلكتروني : **E-mail** : alacademia@iam.net.ma

فـاكس 75.51.01 (037)

الكتاب : «سَلا ورباط الفتح، أسطولُهما وقرصنتهما الجهادية»

تأليف : جعفر بن أحمد الناصري

تحقيق : أحمد بن جعفر الناصري

التصفيف الضوئي : أكاديمية المملكة المغربية

السحب : مطبعة المعارف الجديدة، الرباط

الإيداع القانوني : 2007/1179

ردمك : 9981-46-042-7 (المجموعة)

ردمك : 9981-46-055-9 (الجزء السادس)

الفصل الأول

عن رجال الأسطول القرصاني السلاوي - الرباطي وسفنهم

المبحث الأول

رجال الأسطول القرصاني السلاوي - الرباطي
أصنافهم ولباسهم وسلاحهم

مدخل

لمَّا أصدر فيليب الثالث قراره الشهير بنفي كل من كانت فيه رائحة الإسلام، أوْ يَمُتُّ إليه بصلة من البلاد الإصبانية، هاجر بقية المسلمين الذين كانوا لا يزالون مقيمين في ذلّ وهوان، وفتنة في الدّين وحرمان من الدنيا، وتتابعت هجرتهم مدة سنة 1609/1018، وانتشروا في الأقطار الواقعة على شواطئ البحر الأبيض المتوسط، وخصوصاً بالمغرب والجزائر وتونس...

وكان من جملة من التحق منهم بالمغرب طائفة نزلت بسلا، وهم المعروفون بالموريسكوس، ويقال لهم الأندلسيون، وانضمَّت إليها طائفة أخرى كانت هاجرت إليها قبلها، وهم الحورناشيروس، فاستقرّوا بها، ثم انتقل جلُّهم إلى العدوة الرباطية، وهي يومئذ لا عمارة فيها تذكر، فعمَّروها، وسكن الموريسكوس بالمدينة، وسكن الحورناشيدوس بالقصبة بإذن من السلطان زيدان، وأصبحت الرباط من ذلك العهد تدعى «سلا الجديدة»، أو «رباط سلا»، كما نجده في مؤلفات الأوربيين في ذلك العصر، وجوانحهم تتأجَّج حقداً وغيضاً وغضباً على الإصبان الذين طردوهم من أوطانهم وديارهم ومقرِّ أسلافهم، وأرضهم التي وُلدوا ودرجوا ونشأوا فيها ﴿لو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليلا منهم﴾ فصمَّموا العزم على أخذ الثأر منهم، وشنِّ الغارة عليهم في أطراف بلادهم وعقر

ديارهم، فأسَّسوا حكومة انفصالية عن الحكومة المركزية، لانحلال عرى الدولة السعدية وقيام الثوار عليها في أطراف البلاد ...

وكان البرتقال والإصبان لا زالت لهم مراكز حربية بالسواحل المغربية، كحلق المعمورة والبريجة (الجديدة)، وسبتة ومليلية وأصيلة، وطنجة بيد الإنجليز، والمغرب يتَّقدُ ناراً، وشيوخ الطرق يدعون إلى الجهاد في كل صقع وناد، ومرجل الحمية الدينية يغلي في الصُّدور، وروح الانتقام تتجلَّى في الورود والصدور، وزفرات المسلمين تتصاعد في الأصول والبكور، فصمَّموا العزم حينئذ على الأخذ بالثأر، وشنَّ الغارة على المحتلِّين، وانْضَمَّ إليهم جماهير السلاويين الأصليين، فحبَّذوا فعلهم ووقفوا في صَفٍّ واحدٍ منهم...

وكان ذلك أول بادرة لظهور القرصنة السلاوية الرباطية التي قصَّ علينا التاريخ أخبارها، ونقل الآباء والأجداد للأحفاد أساطيرها، فأصلحوا دار الصناعة بسلا، وأحيوا معالمها وجدَّدوا آثارها، وحفروا من جديد قنالها، ونقلوا ما كان ارتطم واجتمع فيه من الرمال والأوحال، ورجعت المياه إلى مجاريها ...

وأنشأوا بها أسطولا مهمّاً جداً، وذلك سنة 1609/1018، وهي سنة الهجرة المتقدمة. وكان القصد الأول من إنشائه الانتقام من المراكب الإصبانية التي كانت تغدو وتروح في المحيط الأطلسي لنقل الذهب من القارَّة الأمريكية التي تمَّ اكتشافها، إثر سقوط الدولة الأحمرية...

وبَقِيَ هذا الأسطول عاملاً إلى سنة 1825/1241، أي مدة تنيف عن اثنين وعشرين سنة ومائتين.

وبلغ عدد سفنه نحو الستين سفينة. في كل واحدة منها مَا يجاوز المائتين من البحّارة، ونحو العشرين مدفعاً نحاسياً.

ولمَّا استولى الدلائيون على العدوتين السلاوية والرباطية، استفحل أمر هذا الأسطول، واستعملوه في حروبهم، وسخَّروه في تجارتهم، وكانت لهم بسببه اتِّصالات ومعاهدات مع الدول الأوربية...

ثم اتَّصل أهل المدينتين الرقراقيتين بقراصنة ترك الجزائر وتونس وطرابلس، وانضمَّ إليهم جماعة من البحَّارة الأجانب : الهولانديين والإنجليزيين والفرنسيين، وغيرهم، بعد إسلامهم...

أصول رجال الأسطول القرصاني السلاوي – الرباطي

كان رجال هذا الأسطول، في أوليته، من الأندلسيين المهاجرين، بعد طردهم من بلادهم إلاَّ أن يقولوا ربنا لله. ثم انضمَّ إليهم سكان البلاد الأصليين من مدينة سلا والقبائل المجاورة لها، وبعد ذلك التحق بهم عدد من الأوربيين المسيحيين الذين أسلموا، وهم كثيرون، وصاروا جزءاً لا يتجزأ منهم، لهم ما لهم، وعليهم ما عليهم.

وكان رؤساء البحر في أول عهد القرصنة السلاوية – الرباطية من أهل النجدة، وممَّن سبقت لهم ممارسة الجندية، وشاركوا في المعارك البرية والبحرية ، ومن ذوي الخبرة في المسائل البحرية بصفة عامَّة...

وكان كل واحد، أو جماعة منهم ، يشترك في إنشاء السفينة، ويتولَّى أمرها وتدبير شؤونها، ويتوارثها أولادهم وأحفادهم من بَعْدِهِم...

لما جاءت الدولة العلوية، وتأسَّست دعائم أركان ملكها، واهتمَّت بالأسطول المغربي عموماً، والسلاوي الرباطي خصوصاً، وبالأخصّ في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله، صارت تختار رؤساء البحر وبحارته وقواد المراكب والسفن من عِلّيَة أُسَرِ أهل العدوتين السلاوية الرباطية، وتشترط فيهم شروطاً : منها أن يكونوا من ذوي النَجدة والصدق والأمانة التامَّة والأخلاق الكريمة والثروة، لتكون ثروتهم بمنزلة ضمانة للسفن والسلع المحمولة فيها. وكل رئيس كان مسؤولاً أمام السلطان عن سفينته، فإذا وقع بها عطب، أو ضاعت، وتبيَّن أنَّ ذلك نتج عن تفريطه، ألزمه هذا الأخير بغرمها...

أصنافهم ورتبهم

ومن اهتمام السلطان سيدي محمد بن عبد الله برؤساء البحر وبحّارته أنه جعل لهم دفترا خاصّاً، كدفتر الجيوش البرِّية، أحصى فيه أسماءهم ومراتبهم، وقسَّمهم على طبقات وأصناف.

وقد وقفت على دفتر الرؤساء والبحّارة السلاويين، وهو دفتر الرئيس الحاج الطاهر بن الرئيس الأميرال الحاج الهاشمي بن الرئيس أحمد عوّاد، وقد سبق الكلام عنه بتفصيل في مبحث خاص به[1]، فوجدته دستوراً جامعاً لأسماء الأسر الكبرى التي كانت موجودة في ذلك العهد بسلا ومستخدمة في أسطولها...

1) راجع، ج 5، ص 185 إلى 217.

وقد جاء تصنيف هؤلاء القائمين بهذا الأسطول على النحو التالي :

- الطبقة الأولي للرؤساء
- الثانية لباشا رايس
- الثالثة لرياس عسّة
- الرابعة لـ اليكانجية
- الخامسة لـ الدمانجية
- السادسة للوارديانات، وعددهم كثير جداً
- السابعة للبحرية، وهم أكثر عدداً ممّن قبلهم
- الثامنة لوصفان السلطان، أهل المهدية، من عبيد البخاري
- التاسعة للمقعدين من البحرية الذين تجري عليهم الجراية،

ثم عدّد رجال النار، وهم الطُّبجية، وعددهم خمسون، ومنهم فرقة تُعرف بالطُّبجية المدافعية، وعددهم مائة وخمسون، ورايس جند النار من الطُّبجية، في ذلك العهد، هو الحاج عبد الله يعقوب السلاوي.

وقد كان السلطان، رحمه الله، كلّفه، زيادة علي رتبته هذه، بسائر ثغور إيالته، بسواحل البحر الأبيض المتوسط وسواحل المحيط الأطلسي، وأسند إليه النظر فيما يرجع لأبراجها، ومدافعها، ومهاريسها، ومتعلقاتها من بارود وبنب وكور، وتنظيم رجال، وإصلاح أحوال، حسبما أفصحت عنه ظهائره الشريفة التي خاطبه بها : أولها بتاريخ سنة 1764/1177، وأخرها بتاريخ 1780/1199[2].

---

2) ابن زيدان «الإتحاف»، ج 5، ص 257.

لباسهم وسلاحهم

كان لباس رجال الأسطول السلاوي - الرباطي مُقلَّداً فيه لباس رجال الأسطول التركي. ويتكوّن من قميص وبدعية وجَبَضُول قصير وسروال، وكلها مُزيَّنة بما يُعرف عندنا في المغرب بالسفايف والبرشمان والگالون المذهَّب، في صورة أشكال هندسية في غاية الجمال والإتقان...

وكان سلاحهم يشتمل على السيوف واليقطانات والخناجر المذهَّبة والمنبَّتة بالأحجار الكريمة، وكذلك الأسلحة النارية كالبنادق والطبنجات...

المبحث الثاني

أنواع السفن المنشأة بسلا

كانت السفن المنشأة بدار الصناعة السلاوية، يُعتبر فيها، قبل كل شيء، أمران :

– الأول : إتقان صنعتها، ومراعاة سائر الصفات الفنية التي تخوِّلها مقاومة زوابع البحر المحيط.

– الثاني : أن لا تتعدّى في الجرم، طولاً وعرضاً، قدراً معيَّناً، وخصوصاً العمق الغاطس في الماء، ليمكنها الدخول والخروج من مصبّ الوادي بسهولة، وفي كل وقت، ولا سيما في حالتي المدِّ والجزر.

وكانت على أنواع : منها ما يجري بالمجاذيف فقط ؛ ومنها ما يجري بالشراع فقط ؛ ومنها ما يجري بهما معاً، في حالتي هبوب الريح المطاوعة وسكونها.

وكان لكل منها عمودان (صاريان)، وربما ثلاثة تُنشر عليها القلوع والشروع، وتُربط بها الجمالات، وترفرف عليها راية الدولة.

– وكان من أنواعها نوع يُعرف بالسفن المربَّعة، وهي التي تكون نسبة طولها لعرضها ثلاثة أو أربعة، وهذه السفن، إن كانت قليلة السرعة، فإنها سهلة الدوران والانقياد، ولو مع هيجان البحر.

– ونوع يُعرف بالسفن الطويلة، وهي التي تزيد نسبة طولها عن عرضها من خمسة إلى تسعة، وهذا النوع سريع الجري، خفيف الحركة.

– ونوع يعرف بالفركاطة، ذو طبقتين، عُليا وسُفلى، وفي كل طبقة صفّان من المدافع، وأول سفينة من هذا النوع صُنعت بالعدوتين، في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله، استعملوا فيها الأخشاب التي كانت باقية بجامع حسّان، وأضافوا لها أخشاباً أخرى من دورهم، فحازها السلطان المذكور، وسمّاها : «المعونة» أو سفينة «الكراكجية»(3).

– ونوع آخر يعرف بـ «السنبوك»، يحمل نحو 25 بحّار، و30 مدفعاً.

– ونوع آخر يسمى «كارافيل»

– ونوع يسمّى «پولاكر»

– ونوع يُسمّى «قبق» (Chebek)

– ونوع يُسمّى سِينُوْ (Senau)... وأنواع أخرى لانطيل بذكرها.

ولكل نوع من هذه الأنواع خصائص في البناء والحمل والحركة يمتاز بها عن غيره.

وبالجملة، فقد كان عدد بحّارة كل سفينة يتراوح ما بين مائة وخمسة وعشرين إلى مائتين، وربّما بلغ ثلاثمائة بحّار، ومدافعها تتراوح ما بين الخمس إلى الستة عشر مدفعاً، أو أكثر.

ومحمولها يتراوح ما بين مائتين إلى ثلاثمائة طنّ، وربّما زاد على ذلك قليلاً...

---

3) «تاريخ الضعيف»، ج 2، ص 263-264، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

الفصل الثاني

عن رجال الأسطول السلاوي - الرباطي
في بداية قرصنته الجهادية

مبحث فريد

بعض مشاهير رؤساء الأسطول القرصاني السلاوي - الرباطي في العهد السعدي والأندلسي الانفصالي والدلائي

*** الرئيس الحاج علي**

هذا الرئيس من رؤساء الأسطول السلاوي - الرباطي في عهد زيدان السعدي. ولَمْ أقف على تحقيق نسبه حتى الآن. والغالب على الظن أنه كان أندلسياً لظهور أهل الأندلس في ذلك العهد في ميدان القرصنة، والقيام بها ورياسة أساطيلها بالعدوتين، وهم المؤسسون لها.

وقد ورد له ذكر في كتب الفرنسيين الذين كتبوا في القرصنة السلاوية - الرباطية. ومن ذلك ما ذكره كواندرو (Coindreau) في كتابه : «قراصنة سلا»،(4) قال : «في سادس عشر

4) كُوانْدْرو «قراصنة سلا»، ص 80، طبع 1948، وص 89، طبع 1998.
ولد روجي كُوانْدْرو سنة 1891، وتخرج من المدرسة البحرية برتبة ملازم.
ثم التحق بمدرسة الحرب البحرية، وتخرج منها سنة 1924، وفي سنة 1926 سُمي مديراً لميناء القنيطرة - المهدية، وفي سنة 1931 أصبح مديراً لشركة الموانئ المغربية - سلا - الرباط - القنيطرة - المهدية.
وقد دفعه اهتمامه بالشؤون المغربية إلى البحث في ماضيه، فنشر بالتتابع المؤلفات التالية :
- «قصبة المهدية» (1946).
- «قراصنة سلا» (1948).
- «المغرب» (1949) بالاشتراك مع شارل پينز (Penz).
ولما تُوُفِّيَ سنة 1964، كان يترأس مؤسسة الكُتَّاب الفرنسيين للبحر وما وراء البحر.

أكتوبر سنة أربع وعشرين وستمائة وألف (16 أكتوبر 3/1624 محرم 1034)، استولى الرئيس الحاج علي هذا، قرب رأس فينيستير (Finisterre)،[5] على بعد خمسة عشر ليوه (15 Lieues)[6]، على سفينة هولاندية كان يقودها القبطان (Euwout Henriexz) فجمع هذا الأخير وأحَدَ البحَّارة في وثاق واحد، وجلدهما جلداً مُبَرِّحاً مرَّتين ، وهدَّدهما بإغراقهما في البحر، ليرغمهما على التصريح بأن محمول السفينة من السلع للفرنسيين، ليتمكَّن من الاستيلاء عليها، حسبما يوخذ ذلك من كتاب حكومة هولاندا لمولاي زيدان بتاريخ ثالث عشر دجنبر سنة أربع وعشرين وستمائة وألف (13 دجنبر1624/ فاتح ربيع الأول 1034).

وجاء في «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة» لدوكاستري[7]،أن هذا الكتاب يتضمَّن المطالبة بإرجاع السفينة المأخوذة، وما كان فيها من السِّلَع للتُّجَّار الهولانديين، أو تعويضهم عمَّا ضاع لهم. وهل قُبلت هذه المطالب ؟ لا ندري...

وقد صرَّح هذا الرئيس إلى الحكومة الهولاندية، لمَّا طالبته بإظهار أمر حكومته الصَّادر إليه بالسفر في البحر، ومهمَّة سفره، كما كان العمل جارياً به عندهم في ذلك العهد، بأنَّ سفن القرصنة السلاوية – الرباطية تسافر حيث شاءت، ومتى شاءت، بدون شرط ولا قيد من أحد...

وقد ورد لهذا الرئيس ذكر أيضاً في الكتاب الذي رفعه الفرنسي مازيط (Mazet) إلى الكاردينال رِيشُولْيُوهْ (Richelieu) بتاريخ عاشر إبراير، سنة إحدى وثلاثين وستمائة (10 يبراير 7/1631 رجب 1241). أخبره فيه بأنه طلب من حكومة القصبة الرباطية إطلاق سراح شاب فرنسي من مدينة كالي (Calais)، كان أسيرًا عند هذا الرئيس، وأنَّه امتنع من تسليمه، وأراد إرغامه على الدخول في الإسلام، وأقام دعوى عليه في هذه القضية، وأدلى بالشهود، بأنَّه

5) فِينِيسْتِرْ (Finisterre) : رأس ساحلي يقع في أقصى شمال غربي إسبانيا.

6) «ليوه» (Lieue) : اسم مؤنث في الفرنسية، يُعبر به عن الأبعاد في حساب المسافات برّاً وبحراً، ويختلف مقداره باختلاف البلاد والأقاليم، و«الليوه» الكيلوميتري عند الفرنسيين يساوي أربع كيلومترات. وهو في اصْطِلَاحِ علماء الهندسة محقَّق على الدرجات في الأطوال والعروض، وينقسم إلى ثلاثة أقسام : أرضي وبحري ومتعارف في جميع إطلاقاته الهندسية، كما ذكره الفرنسيون في قوامسهم ؛ والبحري عندهم من عشرين درجة، يعني 5,555,55 وعليه فإن 15 «ليوه» تساوي بالكيلومترات : 83 كيلومتر، 25,333.

7) المجلد IV، من «الينابيع» البلاد المنخفضة، ص 74.

مستمسك بالمسيحية، فلم يقبل الحاكم شهادتهم، لأنهم مسيحيون، والمسيحي لا يشهد على مسلم.

وهكذا بقيت القضية موقوفة، لم يُحصِّل فيها على طائل، وبقي الأسير عنده.

هذا ما أمكننا العثور عليه من أخبار هذا الرئيس.

*** مورا رايس أو الرئيس مراد**

كان هذا الرئيس بالجزائر أوّلاً، ثم بارحها سنة خمس وثمانين وخمسمائة (994/1585) ومعه ثلاثة سفن شراعية صغيرة ، طالباً الغنيمة بالمحيط الأطلسي، فعرَّج على سلا، ولذلك يُعَدُّ من رؤسائها الأولين، وهي يومئذ في طور الاستعداد للدخول لميدان القرصنة...

ومنها توجَّه إلى جزر الخالدات (Les canaries) ووصل إلي لانزاروط (Lanzarote)، وبعد تردُّد من قائد سفينته الرئيسية، لأنَّ سفنه الثلاث كانت تجري بالمجاديف، ولا تستعمل الشراع إلاَّ إذا وافقها الريح، استباح هو ومن معه مدينة لانزاروط، وأسر من سكانها ثلاثمائة أسير، فيهم أم وزوج وبنت حاكم المدينة، وتمَّ فداؤهم بعد ذلك بمال باهظ.

وبعد هذه الغارة البحرية، حنقت عليه الحكومة الإصبانية، وأخرجت طرفاً من أسطولها يتركَّب من خمسة عشر قطعة، وأمرت قائده بمتابعته وأخذه، فتمكَّن من الهروب منه، والالتجاء إلى مرسى خفيّ غَيْر مشهور من المراسي المغربية، قيل لعله المعمورة، فبقي مختفياً فيها مدة شهر كامل.

وفي ليلة من الليالي المظلمة، تمكَّن من الخروج في سفنه من ملجئه، وطمس الله على أعين الإصبان المتتبِّعين لحركته، المترقِّبين لظهوره، فلم يروه، ونجا منهم، ودخل إلى البحر الأبيض المتوسط، والتحق بالجزائر.

وَقَدْ أتمَّ هذا الرئيس رياسته البحرية بها، وسُمِّيَ فيها رئيساً سنة خمس وتسعين وخمسمائة وألف (1003/1595-1004) بعد عشرة أعوام من غارته على جزيرة لانزاروط (Lanzarote).(8)

---

8) «قراصنة سلا»، لكواندرو – ص 66، طبع 1948، وص 74-75، طبع 1998.

* مامي رايس[9]

أصل هذا الرئيس مسيحي من هولاندا... أسلم سنة 1046/1636، ودخل في القرصنة السلاوية - الرباطية.

وكان رئيس سفينة في عهد الأندلسيين الحورناشيروس (Hornacheros)[10] بالقصبة، محمولها مائتا طن، بالتثنية، ومُسلَّحة بثلاثة عشر (13) مدفعاً، وفيها مائتا بحّار.

وخرج مرّة في غارة بحرية، فاستولى على سفينة إنجليزية، وأخذ ما فيها، وأغرقها.

كما استولى على سفينة نقل حربية فلاماندية (Flamande)، وحمل فيها جميع ما غنمه في السفينة الأولى، وهو :

خمسون (50) بحاراً إنجليزياً، ومائة (100) حمل من الصوف، والحديد، والملح، وغير ذلك...

ولمّا وصل إلى شواطئ سلا، تعرّضت له بعض القطع من الأسطول الفرنسي، فلم يقدر على مقاومتها لتفوّقها في العدد والقوة النارية، فاستسلم لها، وأخذته أسيراً، واستحودت على ما كان معه من غنيمة، وسِلَعٍ وأسرى...

وبذلك انتهى أمره.

* الرئيس مراد، أميرال سلا والرباط[11]

أصله من هولاندا، ويُسمى القائد موراطو، أو موادرايس، أو موراطو الرايس، أو القبطان جوهن (John)، أمّا اسمه الحقيقي فهو جان جانسين (Jean janssen).

---

9) استقينا أخبار هذا الرئيس من كتاب روجي كواندرو (Roger Coindreau)، «قراصنة سلا»، ص 81، طبعة 1948، وص 89، طبعة 1998.

10) انظر ج 2، ص 204-206.

11) إلتقطنا أخبار هذا الرئيس مما ذكره دوكاستري (De Castries) في «ينابيع تاريخ المغرب غير المنشورة»، مجلد III، سلسلة فرنسا، وما سجله كواندرو في كتابه : «قراصنة سلا»، ص 67، طبعة 1948، وص 74-78، طبعة 1998، وكذلك «الينابيع»، سلسلة البلاد المنخفضة، مجلد IV، ص 558.

ورد ذكره في عدّة مصادر تاريخية أوربية تحت اسم : جوهن باربر (John Barber)، أو القبطان جوهن (John).

يُعَدُّ هذا البحّار من الرؤساء الذين نشروا اسم سلا والرباط وأسطولهما القرصاني في العالم الأوربي.

ولد بمدينة هارليم (Haarlem)، وهي مدينة كبيرة، فلاحية من مدن البلاد المنخفضة الشمالية، ونشأ بها، وانخرط في سلك بحارتها...

وكان في ابتداء أمره يقوم بالقرصنة لدولته هولاندا. ثم اشتغل بهذه المهنة لنفسه، وانفصل في عمله عن حكومته، وصار إذا هاجم سفينة إسبانية أظهر علم أمير أورانج، وذلك احتراماً لأصوله، وإذا لقي سفن دول أخرى، نشر العلم التركي، الحامل للهلال الأحمر، وذلك حسبما تقتضيه الظروف والأحوال.

وفي سنة 1028/1618، أسره قراصنة الجزائر الأتراك، بلانزاروط (Lanzarote)[12]، وساقوه إلى مدينة الجزائر، فحينئذ نبذ المسيحية، واعتنق الإسلام، واستأنف أعماله القرصانية بالبحر الأبيض المتوسط، تحت إمرة الرئيس التركي الجزائري الشهير سليمان - رايس.

ولما تُوفي هذا الرئيس، سنة تسع عشرة وستمائة وألف (1029/1619)، بارح الجزائر، وانتقل إلى العدوتين الرقراقيتين : سلا ورباط الفتح، واستقرّ بهما، واستحوذ على رؤساء ديوانهما الانفصالي الذي كان في ابتداء نشأته ونظامه القرصاني، فاستولى عليهم بإرادته القوية الفعّالة، وَزيادة في التّزلُّف إليهم، وربط حبل الوصلة بهم، تزوّج امرأة مسلمة منهم، وكانت له زوجة أخرى وأولاد بهولاندا.

وفي سنة اثنتين وعشرين وستمائة وألف (1032/1622)، خرج في غارة بحرية من سلا، ووصل إلى بحر المانش، ودخل بعض مراسي زيلاندا (Zeeland)[13]، لتجديد المؤنة، وبعض الاحتياجات الضرورية، فبلغ خبره إلى زوجته وأولاده، فزاروه، واستقبلهم على ظهر سفينته، ولم يؤثّروا عليه بعاطفتهم، وزيادة على هذا، فقد أخذ عدداً من الهولانديين، وألْحَقَهُمْ بطاقم بحّارة سُفنه، ورجع بعدد أكثر من العدد الذي جاء به معه. ثم كرّر غاراته على سواحل بلاده...

---

12) إحدى جزر الخالدات، (Les Canaries).

13) إحدى مقاطعات البلاد المنخفضة، عند مصبّيْ نهري الإيسْكُو (L'Escaut) والموز (La Meuse).

وفي سابع وعشري مارس، سنة ثلاث وعشرين وستمائة وألف (27 مارس 24/1623 جمادى الأولى 1032)، أسر، برأس روكا[14] سفينة هولاندية اسمها الأسد الأخضر (Le Lion vert) حمولتها 240 طونوا[15]، وبعد يومين من ذلك، جاء دور سفينة هولاندية أخرى اسمها لوڤونور (Le Veneur) بنواحي لشبونة.

وفي شهر يوليوز (شوال) من نفس السنة استولى كذلك، عند مستوى رأس مونديگو (Mondégo)[16]، على سفينة حمولتها 200 طونوا، جهّزها بعض أثرياء روطردام (Rotterdam)، واسمها «المغامرة الحسنة» (La Bonne Aventure).

ولما اشتهرت غاراته وأعماله البحرية، وَلاّهُ السلطان المولى زيدان السعدي أميرَالِيّة سلا والرباط، وذلك سنة أربع وعشرين وستمائة وألف (1034/1624).

وفي سنة خمس وعشرين وستمائة وألف (1035/1625)، أسندت إليه المخابرة مع حكومة لهاي (La Haye)، المتعلقة بالغنائم والأسرى بين المغرب وهولاندا.

وكان يعطف على أبناء جنسه، إذا وقعوا في الأسر، وسعى في إطلاق سراحهم.

وأعظم أعماله البحرية التي أحدثت الرعب في البلاد الأوربية، وتحدّث الناس بها في ذلك العهد، غارته على إيسلاندا (L'Islande)، الجزيرة الأوربية الواقعة بالمحيط الشمالي، سنة سبع وعشرين وستمائة وألف (1037/1627)، في ثلاث سفن، وكان بصحبته ثلاثة من الإنكليز الذين أسلموا، ودانماركي واحد، واكتسح أكبر مدينة فيها، ريكجاڤيك، (Reykjavik)[17] ورجع منها بأربعمائة أسير إيسلاندي، ما بين رجال ونساء، زيادة على بعض الجلود والسمك المدخّن...

وفي سنة إحدى وثلاثين وستمائة (1041/1631)، أغار بأسطوله على إيرلاندا، وَطَرَقَ ليلاً قرية صغيرة اسمها بالتيمور (Baltimore)، وأنزل فيها نحو مائتي (200) عسكري، فأخذوا منها

14) يعرف بالبرتغالية بـ (Cabo de Roca)، ويقع غرب مدينة لشبونة، في أقصى حد سلسلة جبال سينْتْرا (Serra de Sintra).

15) مقياس دَوْلي لتحديد حمولة السفن يساوي 100 قدم مكعّبة بريطانية، وهو ما يُساوي في النظام الميتري 2,83 م².

16) نهر يوجد في وسط البرتقال، طوله 225 كيلومتراً، ينبع من جبال إستريلا (Estrella)، يمر بمدينة كويمبرا (Coimbra)، ويسقي سهول ساحل بيرا (Beira) ليصب في المحيط الأطلسي.

17) هي عاصمة إيسلاندا (Islande)، تقع على الساحل الجنوبي الشرقي للجزيرة، ويفوق عدد سكانها الثمانين ألف نسمة، وبها مصانع تصبير الأسماك.

سبعاً وثلاثين ومائتي شخص، رجالاً ونساءً وصبياناً، وحتى الذين لازالوا في المهد، وأتى بهذا السبي إلى الجزائر، فبيع في أسواقها.

وقد حصَّل من هذه الغارات المتوالية على ثروة عظيمة، فاتخذ قصراً بالجزائر، وأسكن به أسرته، ولم ينقطع عن غاراته البحرية...

فخرج مرة يتجوَّل، أو يتحيَّن الفرصة في بعض السُّفن الأوربية، مابين جزر البحر الأبيض المتوسط، فخانه السعد، وأسره فرسان جزيرة مالطة (les Chevaliers de Malte)[18].

فكان خبر أسره كالصاعقة بالجزائر، واجتمع النساء في الأزقة صارخات بالبكاء والعويل، وذهبن إلى زوجه وأولاده يسألونهم عمَّا أصابهم من أسره، وهُنَّ في حالة حزن وأسَى.

وفي سنة 1050/1640، أُطلق سراحه من هذا الأسر، في ظروف غامضة، فرجع لتَوِّه إلى المغرب مرة أخرى، وعرض على سلطان الوقت، محمد الشيخ بن زيدان السعدي الدخول في خدمته، فَوَلَّاهُ إذ ذاك على قصبة الوليدية، قرب أسفي، والمغرب آنذاك يلتهب ناراً، والدولة السعدية تعالج لفظ أنفاسها الأخيرة.

وفي آخر السنة نفسها، وردت سفينة إيرلاندية على مرسى أسفي، حاملة سفيراً هولاندياً إلى المغرب، وكانت بنت مورا رايس هذا، واسمها ليزبيث، (Lisbeth)، في رفقته، فجاء للسلام عليها، وصعد للسفينة لاستقبالها في أُبَّهَة وعَظَمَة، وبصحبته عدد من الأتباع والخَدَمة. وكان اجتماع الأب وابنته مؤثراً جدّاً، أُذرفت فيه دموع الفرح، وبعد محادثة قصيرة، ودَّع الوالي وانسحب في أُبَّهَة الملوك. ثم لحقت ليزبيث بوالدها في إقامته بالوليدية، لكنها لم يَرُقْهَا المكوث هناك، فارتحلت في 24 غشت 1641 منتصف جمادى الأولى 1051 إلى هولاندا.

وقد كان هذا الحدث آخر عهد بحياة هذا الرئيس الجريء المتطوِّر، ولم ندر خاتمة أعماله وأيامه، ولا كيفية موته، ولا أين وافاه أجله، ولا أين دفن...

ولعل الْفِتَن التي كانت سائدة بالمغرب في ذلك العهد ابتلعته فيمن ابتلعت من رؤسائه وأعيانه وكبرائه، والمتصدِّرين للأمر فيه، ولله عاقبة الأمور.

---

18) أخوية رهبانية، استشفائية وعسكرية، منبثقة من فرقة «الاستشفائيين» (Les Hospitaliers) للقديس يوحنا المقدسي، أسست سنة 1099، ثم التجأت إلى رودوس سنة 1308، ثم إلى مالطة من سنة 1518 إلى سنة 1798، ثم استقرت بروما سنة 1834، ووُضع لها قانون أساسي جديد سنة 1961.

*** شعبان رايس[19]**

أصله برتقالي، أسلم وألتحق بالأسطول السلاوي - الرباطي.

كان هذا الرئيس سنة ست وأربعين وستمائة وألف (1056/1646)، يعني في عهد استيلاء الدلائيين على فاس والعدوتين، متولّياً رياسة سفينة أصلها جزائرية قرصانية مسلّحة بستة عشر مدفعاً، ومائة وخمس وسبعين بحّاراً.

ولمّا التحق بسلا، أعاد تسليح سفينته وجدّده، وخرج إلى البحر غازياً، وجَالَ فيه نحو ثلاثة أشهر، فلم يحصل إلاّ على سفينة صغيرة إنجليزية مشحونة بِالْمِلْحِ، ومركب صيد بِخَلِيجِ كَاسْكُونْيْ (Gascogne)[20].

وفي الثاني والعشرين من شهر يوليوز /8 جمادى الآخرة من السنة المذكورة، إلتقى بأحد قراصنة هولاندا اسمه (Cornelis Verbek) في سفينته الحربية القرصانية، ولم يقدر علي مقاومته، فاستسلم له، وأخذه أسيراً، واختفى ذكره، بعد ذلك.

*** الرئيس الهسكوري[21]**

كان هذا الرئيس متولياً قيادة سفينة قرصانية سلاوية - رباطية في آخر عهد الدلائيين واستيلائهم على القصبة بالرباط، وذلك سنة أربع وخمسين وستمائة وألف (1065/1654).

فصادف في إحدى غاراته البحرية سفينة فرنسية أقوى من سفينته، فأحجم عن مقاومتها، واستسلم لها، وأسرته، وبذلك انتهى أمره.

*** الرئيس حسن إبراهيم**

هذا الرئيس من جملة رؤساء الأسطول السلاوي - الرباطي في عهد الأندلسيين وحكومتهم الإنفصالية بالقصبة الرباطية.

وكان مستعملاً في خدمة أسطولهم سنة ست وثلاثين وستمائة وألف (1046/1636).

---

19) التقطنا أخبار هذا الرئيس من كتاب كواندرو «قراصنة سلا»، ص 89 و90، طبعة 1998.

20) خليج بالمحيط الأطلسي، بين فرنسا واسبانيا.

21) إلتقطنا أخبار هذا الرئيس من كتاب كواندرو، الذي سبق ذكره، ص 89، طبعة 1998.

* الرئيس شافار[22]

أصله إنجليزي، أسلم سنة ثلاثين وستمائة وألف، (1040/1630)، في عهد الأندلسيين وحكومتهم الإنفصالية بالقصبة الرباطية، وكان مُسَخَّراً في خدمتهم.

* الرئيس الحاج محمد فَنِّيش

تولّى عمالة سلا والرباط آخر دولة الدلائيين بهما، خلفاً عن العامل قبله : القائد أجَنْوي، سنة 1654/1065، وعُيِّن سفيراً في سفارة أبي إسحاق إبراهيم معنينو لهولاندة، بقصد عقد الصلح وتأسيس المواطنة التجارية بينها وبين المغرب.

* الرئيس علي مارشيك

هذا الرئيس كان معدوداً من رؤساء الأسطول المغربي، ولكنه كان يعمل لحساب الأسطول التركي الجزائري، إلي أن أسره القبطان الهولاندي براكيل (Brakel) في فاتح شتنبر سنة سبع وخمسين وستمائة وألف (1 شتنبر 20/1657 حجة 1067) أمام ساحل تطوان، أيام العهد الدِّلائي.

* الرئيس أحمد القرطبي

زعم روجي كواندرو (Roger Coindreau) أنه من أصل إصباني وأسلم.

والظاهر أنه من أصل مسلم، ومن مهاجري الأندلس، من قرطبة، أو ناحيتها، كما يدلُّ على ذلك اسمه ونسبته، ولا زال آلُ القرطبي موجودين بالرباط، منذ الهجرة الأولى، إلى يومنا هذا.

قالوا : وكان رجلاً ضخم الجسم، مبدَّنا.

وخرج مرة إلى البحر في مركب حربي قرصاني سَلَاوِي يُسَمّى «الأرض الموعودة»، وذلك في اليوم الثلاثين من شهر شتنبر سنة إحدى وخمسين وستمائة وألف (30 شتنبر5/1651 محرم 1062)، في أواخر عهد الدلائيين وحكمهم بالقصبة، فلقي سفينة هولاندية، قرب سانط

22) التقطنا أخبار هذا الرئيس من كتاب كواندرو، ص 89، طبعة 1998.

فانسان (Saint-Vincent)[23] فدنا منها، والتصق بها، وسلبها من جميع ما كان فيها من الأدوات والآلات والأقوات، وغير ذلك ممّا كانت مشحونة به، وصبّ على الرئيس والبحّارة الذين كانوا مَعَهُ سَوْطَ عذاب...

وبعد ذلك ببضعة أعوام، كان هذا الرئيس بطل قضية السفينة المسماة : «النبي دانيال».

وهي أنه في السادس من شهر أكتوبر سنة ثمان وخمسين وستمائة وألف (6 أكتوبر 1658/ أول محرم 1069)، بينما كانت عِدّةُ سفن تجارية مشحونة بالسِّلع، في طريقها من قادس إلى رأس فينيستير (Finisterre)، من ناحية الزاوية الغربية لإصبانيا، لقيت سفينة قرصانية مغربية للرئيس أحمد القرطبي تُسمّى «الشمس» مزودة بوصية رسمية مصادق عليها من قبل قنصل البلاد المنخفضة، حتى لا يتعدّى عليها أحد، ويحترمها من لقيها من السفن الأجنبية.

ولكن بعد إنذارها، وإيقافها، وزيارتها، وبحثها بواسطة رئيس السفينة الحربية المصاحبة للسفن التجارية، هجمت عليها بغتة إحدى السفن المجتمعة في صفة سفن تجارية ،اسمها «النبي دانيال» برياسة القبطان دولوبيك (De Lebeck) وقتل بعض النوتية، وأسر الآخرين، ومن جملتهم الرئيس أحمد القرطبي.

وأخيرا، أخذ جميع ما وَجَدَهُ في السفينة وأحرقها.

فأحدثت هذه الحادثة ضجّة عظيمة بالمغرب وهولاندا، وتردّد صداها في الدول الأخرى، وكل كان يرويها ويُحدِّث بها كيف شاء.

وطلب الرباطيون التعويض عمّا ضاع لهم، واسترجاع ما بقي بحماسة وشدّة.

وأمّا إدارة البحرية الهولاندية التي كانت حديثة عهد بعقد الصلح مع رباط الفتح وسلا، وكانت حريصة على استمراره والمحافظة عليه، فقد وقعت في حيص بيص، وحيرة، ودهشة شديدة، واعتبرت هذه القضية من الأهمِّية بمكان، ولها ما بعدها، بما ينشأ عنها.

ثم أصْدَرَتْ حُكماً بتاريخ تاسع عشر يناير سنة تسع وخمسين وستمائة وألف (19 يناير 5/1659 صفر 1069)، على القبطان المذكور بأدائه للرئيس أحمد القرطبي تعويضاً عمّا ضاع له قدره تسعة آلاف وخمسمائة فلوان[24] (9.500 Florins)، سكة بلادها.

---

23) عاصمة البرتقال الجنوبي، تقع في أقصى شمال منطقة «الغرب» (L'Algarve).

24) قطعة نقدية، كانت في أولها ذهبية، ثم أصبحت اليوم فضية، وهي الوحدة الرئيسية في البلاد المنخفضة، وينقسم الفلوران (Florin) إلى 100 سينت (cents).

وقررت أيضاً أن تدفع له سفينة أخرى محمولها وسلاحها كسفينته الضائعة له، واصلة إلى مرسى العدوتين بأبي رقراق.

وبمقتضى ذلك بيعت السفينة المسماة : «النبي دانيال» لأجله، وترتَّب عنه احترام الأسطول السلاوي - الرباطي مدة عَشْرَةِ أعوام، وبذلك انتهت قضية الرئيس أحمد القرطبي، وطويت صحيفته.

الفصل الثالث

عن رجال الأسطول القرصاني السلاوي - الرباطي في عهد العلويين

المبحث الأول

بعض مشاهير رؤساء البحر في عهدي المولى الرشيد والمولى إسماعيل

مدخل

لما استقرَّ الأمن بالمغرب باجتماع الكلمة على السلطان المولى الرشيد، وانقطع دابر الفتنة بسقوط ما يُسمَّى «الجمهورية السلاوية» والقضاء على الدلائيين وغيرهم من الثوار، بأطراف المملكة، كان من جملة ما اعتنى به ملوك الدولة الجديدة الشريفة، تجديد الأساطيل البحرية، وجَعْلُهَا خاضعة لِسَيْطَرَةِ الدولة، لا ملك لأحد من الأفراد أو الجماعات عليها، كما كان الشأن قبل ذلك.

وكان المولى الرشيد بن الشريف، رحمه الله، أول من اهتمَّ بهذا الأمر، فوضع يده على ما وجده من الأسطول السلاوي والدلائي، واحتكر صناعته للمخزن، وبذلك قلَّت السفن التي كان يملكها الأفراد، أو تجهِّزُها الجماعات إلاَّ بإذن خاصّ. وأنشأ المولى إسماعيل، رحمه الله، أسطولاً علوياً يقوم بحراسة الشواطئ المغربية، ويتردَّد بين باديس وسلا وحصن المهدية، ويغير على سبتة ومليلية، ويتعرَّض لسفن الدول التي لم تكن مسالمة للمغرب، أو في عهد معه، فيأسرها ويسوقها للمراسي المغربية. ولذلك كثر الأسرى عند المولى إسماعيل، فكان يستخدمهم في بناء هياكله وقصوره الضخمة بمكناسة الزيتون .

ولما تولى حفيده السلطان سيدي محمد بن عبد الله، نظر نظرة أخرى في الأسطول، واعتنى به اعتناء خاصّاً، فأحيا معالمه، وأقام مراسمه.

وكان ينفق عليه الأموال الطائلة، ويهتمّ بشؤونه بنفسه، ويبعث السفراء والرسل لشراء الآلات الحربية والسلاح لتجهيزه، ويشترط على الدول، في معاهداته معها، أن تمدّه بكل ما يتوقّفُ عليه أسطوله من مدافع وغيرها.

قال أبوعبد الله محمد بن علي الدكالي السلاوي في بعض مقيداته في الأسطول المحمدي : «إن عدد قطعه تجاوزت ستين قطعة، وفي كل قطعة ما يجاوز المائتين من الرجال الصناديد، ونحو العشرين مدفعاً من النحاس، على ظهر كل قطعة أو داخل طبقاتها.

وقال في محل آخر : «إنّ عدد مراكب الأسطول المحمدي كانت تُعَدُّ بالمئين» ولعلّه بإضافة أساطيل المراسي الأخرى، غير سلا، كالعرائش وطنجة وأنفا...

وزاد «أنه كان يمتاز عن غيره بسرعة الحركة، بمشاركة المجاذيف للقُلوع، فكان يُضرب به المثل في الخِفّة، ويرجح سواه حيث مالت إلى حيز الاستحسان الكفّة.

وكان يغزو شطوط أوربا البرتقالية، فياسر ويغنم، ويرجع ظافراً سالماً.

واستُعمل الأسطول السلاوي في حصار مدينة البريجة (الجديدة)... وأبلى رجاله في فتحها بلاء صادف الاستحسان...».

هذه حالة الأسطول المغربي عموماً، والسلاوي خصوصاً، في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله، ألمعنا إليها باختصار.

*** الرئيسان : القرطبي ومحمد رايس**

– أمّا الأول فهو ولد الرئيس أحمد القرطبي المتقدم الذكر. وقد اقتفى أثر والده في الرياسة البحرية.

– وأما الثاني فهو أحد رؤساء سلا ورباط الفتح في عهد السلطان المولى الرشيد، لمّا انتزع العدوتين الرباطية والسلاوية من يد الدلائيين، وقضى عليهم، واستولى على الأسطول، وصيّره تحت نفوذ ملوك الدولة العلوية...

وقد اشتهر هذان الرئيسان معاً باستيلائهما على الدارعة المسماة : «الملكية (La Royale)، سنة سبعين وستمائة وألف (1081/1670).

* الرئيس علي بُونْرِي

يُعدُّ هذا الرئيس من جملة رؤساء الأسطول المغربي في العهد الاسماعيلي. وكان عاملاً فيه بجدّ وإخلاص إلى أن أسره وأخذ ما كان بيده من غنيمة المركي دولانجورو (Le marquis de Langeron) المنتمي إلى أسطول شاطورونو (Château-Renault)[25] الفرنسي، في شهر يوليوز سنة إحدى وثمانين وستمائة وألف (يوليوز 1681/ رجب 1092)، بعد إمضائه على هدنة المعمورة. وكان أسره مدعاة لبعض التعقيدات الدبلوماسية بين المغرب وفرنسا[26].

* الرئيس محمد السنشولي

كان نصرانياً وأسلم، والتحق بالأسطول المغربي، وتولّى رياسة سفينة شراعية من نوع كليوط (Galiote)[27] وورد له ذكر عند الفرنسيين [28].

* الرئيس محمد التّاج

هذا الرئيس أصله من تطوان، ولعلّه من مهاجري الأندلس. وكان متزوجاً بها. قالوا : وسكن سلا، وكان متزوجاً بها أيضاً...

وهو من رؤساء الأسطول المغربي السلاوي - الرباطي في العهد الإسماعيلي. وكانت غاراته القرصانية بالبحر الأبيض المتوسط حتى اشتهر بها.

وفي سنة ثلاث وثمانين وستمائة وألف (1095/1683) توجّه من سلا إلى الجزائر، ومعه باسابورط (Passeport) من السفير الفرنسي بالمغرب سانط آمان (Saint-Amans)[29] بقصد

---

25) اشتهر هذا البحّار في بلاده بالحملات التي قام بها ضد قراصنة سلا عام 1082/1671، وعام 1091/1680، وعام 1092/1681، وكان في هذه المدّة حاكماً لمرسى بريسط (Brest).

26) كواندرو - «قراصنة سلا»، ص 90، طبع 1998، وص 82 طبع 1948.

27) سفينة هولاندية، حمولتها من 50 إلى 300 طونو، مسطّحة القعر، مستديرة الأمام والخلف، ذات ثلاثة صوار، أكبرها الذي في وسطها.

28) المصدر السالف الذكر، ص 92.

29) راجع أخبار سفارته عند السلطان المولى إسماعيل بالمغرب، في ج 3، ص 69-79.

شراء سفينة قرصانية وتجهيزها، فاشتراها وجهّزها، وبينما هو راجع في الطريق، صادف سفينة إنجليزية حاملة للرخام والريال وبعض الثياب والليمون، فأسرها، وأركب معه ستاً وعشرين بحّاراً مسلماً.

وسار في طريقه مُلَجّجاً في البحر، فلقي سفينة فرنسية، فهجمت عليه، وساقته ومن مَعَهُ من البحّارة والأسرى أسيراً إلى فرنسا، واستعملهم الفرنسيون جدّافين في سُفُنهم.

ولمّا بلغ الخبر إلى السلطان المولى إسماعيل، إغتاظ من ذلك، واحتجّ عليه، لأنّ هذا الرئيس كان من خيرة رؤسائه...

وتَطوّرت القضية في عدة أطوار، وطالت المُدَّة. فاحتجّ السلطان المولى إسماعيل ثانياً على ذلك برسالة كتبها لملك فرنسا لويس الرابع عشر، بتاريخ تاسع شعبان سنة خمس وتسعين وألف (9 شعبان 22/1095 يوليوز 1684)، جاء فيها، فيما يتعلّق بهذه القضية، بعد ذكر عِدَّة قضايا أخرى...

«وأعظم من ذلك كلّه، هو أنّ رئيساً من بلادنا اسمه التّاج، كان أعطاه صاحبك الذي أتانا خطّ يده على أنه يشتري سفينة من الجزائر، يسافر فيها القرصان، وما عليه فيمن يلقاه في الفرنصيص.

فلمّا اشتراها وسافر بها، وغنم قطارمة (كذا) موسوقة بالرخام والريال، مع ما فيها من الحرير وغيره، وبعثها مع أصحابه، مع ستة وعشرين مسلماً، تعرّضت لها سفنكم، وأخذوها، وثقّفتها أنت أياماً. ثم بعد ذلك مزّقتها، والمسلمون الذين كانوا فيها استخدمتهم في الغُراب.

فلماذا لم تردّها، أو تُثقّفها ثلاث سنين، كما ثقّفنا نحن سفينتكم ؟ وهل هذه هي صحة القول ؟ فهذا ما يدلّ على عدم صحة كلامك، وممّا يثُبت الإخلال بقولك، وقلّة وفائك.

فحتى الآن، فَالّذي يظهر لنا، أنه ما يليق بنا معك إلا الشرّ. وإن أردت تثبيت المهادنة، وانبرام الكلام فيها، وإِقصاء حجتها، فابعث لنا من عندك، قونصو، بالتفويض على هذا الأمر، ويجلس هنا في إحدى مراسينا، ويكون كلامنا معه، في هذا كلّه، ونبرم معه هذا الأمر، ويكون من أهل الحلّ والربط عندكم، وإلاّ فإنْ ظهر لك خلاف هذا، فاعلمنا وعرّفنا بما بِه عَمَلُك، وما أضمرته طويتك.

والسلام على من اتبع الهدى».

في التاريخ المتقدم

ولمّا صدرت هذه الرسالة من السلطان المولى إسماعيل، هاج الفرنسيون بالمغرب، وأبْرقوا وأرعدوا، وخوّفوا وهدّدُوا، وكتب سفراؤهم وقناصلهم بالرباط وتطوان وطنجة، ومكناس، عدّة مكاتب إلى رؤساء ووزراء حكومتهم بباريس، ورفعوا تقارير مختلفة اللّهجة، بحسب أغراضهم، معترضين على ما جاء في الرسالة السلطانية، ومعترضِّين في إطلاق سراح الرئيس الأسير، وإرجاع سفينته، وقامت ضجّة، بين المغرب وفرنسا في هذه القضية.

وتأخّر جواب لويز الرابع عشر، فلم يصل إلى السلطان في إبّانه، كما هي العادة.

وخاطبه القائد المفوّض على بن عبد الله التطواني برسالة مؤرخة بتاريخ ثالث إبراير سنة خمس وثمانين وستمائة وألف (3 أبراير 1685/متم صفر 1096)، يعلم فيها بتوجُّه السفير الحاج محمد تميم التطواني إلى فرنسا، في سفارته الثانية، وأنّه كُلِّف بفصل هذه القضية ومعالجتها، كما يوخذ ذلك من كتاب القنصل الفرنسي بتطوان پيريلي (Périllé)[30] إلى وزير حكومته سينيولي (Seigneley)، بتاريخ حادي عشر ابراير سنة خمس وثمانين وستمائة وألف (11 إبراير 6/1685 ربيع الأول 1096). فلم تلن قناة فرنسا، وادّعت أن الحق معها، واشترطت عدة شروط، منها سراح الأسرى الفرنسيين الذين بالمغرب بفداء، بقدر قليل، وهدّدت بتوجيه أسطولها لحصار بعض المراسي المغربية، كسلا مثلاً، وعدم مراعاة السفن المغربية، كلّما لقيتها سفن فرنسية بالبحر.

ورجع السفير تميم التطواني إلى المغرب بوعد أنه إذا نفّذت الحكومة المغربية ما قرّرته حكومة فرنسا، يطلق سراح الرئيس التّاج ، وتُردُّ له سفينته .

وأخيراً، وقع الاتّفاق على معاهدة صُلْحية، تتضمّن احترام أساطيل الجانبين بعضها لبعض، وفداء الأسرى، ومنهم التّاج، وبيع السفينة المحجوزة، لكونها أصبحت لا فائدة فيها[31].

---

30) جان بيريي (Jean Perillé)، أصله من مرسيليا وكان منْ بطانة الوزير كولبير الذي عيّنه قنصلاً بتطوان وسلا في 1 أبريل 1683، وسلّمه المولى إسماعيل براءة الاعتماد (Exequatur) في 10 يوليوز 1684، ورخّص له بالمقام بمدينة سلا، ومباشرة سلطته على جميع التجّار الفرنسيين الموجودين بالمغرب.

31) استخرجنا ترجمة هذا الرئيس، والتقطناها ممّا جاء من أخباره المفرّقة في المجلد II من «الينابيع» لدوكاستري، وقد سبق ذكر هذا المصنف مراراً.

* الرئيس علي كامبو

أصله إصباني، وأسلم . . .

وفي شهر أكتوبر سنة أربع وخمسين وستمائة وألف (1064/1654)، خرج في جولة بحرية، في زورق صغير مسلّح بأربعة مدافع، فاستولى، - بناحية البرتقال - على سفينة صغيرة هولاندية، فيها بحارة إنجليزيون. فتمكّن هؤلاء من الفرار.

أمّا السفينة المغنومة التي كانت تحت إمْرة كيس ماريس (Case Mareys) قُرْصَان إنجليزي من سلا، فقد صادفت في طريقها الأميرال دوريتر (De Rayter) الذي سمح لها بالالتحاق بمدينة سلا.

* الرئيس فينيسا (Venetia)[32]

هذا الرئيس أصله إيطالي، وأسلم في العهد الإسماعيلي، وانضمّ إلى رؤساء العدوتين سلا ورباط الفتح، وصار معدوداً منهم.

وكان جسوراً، مِقداماً، شجاعاً...

استولى سنة ثلاث وثمانين وستمائة وألف (1094/1683)، بعد معركة بحرية شديدة صعبة، على دارعة إنجليزية، وأسر جميع من كان فيها، رئيساً وبحّارة...

* الرئيس الحاج إبراهيم[33]

هذا الرئيس كان من جملة رؤساء الأسطول المغربي السلاوي - الرباطي، في عهد السلطان المولى إسماعيل، رحمه الله.

وكان مسلماً، مخلصاً للّه، متمسّكاً بدينه.

وضاعت له سفينته، لمّا كان راجعاً من إحدى غزواته البحرية، وذلك سنة خمس وتسعين وستمائة وألف (1107/1695)، أثناء محاولتها مجاوزة مصب نهر أبي رقراق، فَحَمِدَ الله على سلامته، واحتسبها عند الله.

32) استقينا أخباره من كتاب كواندرو الذي سبق ذكره، ص 85، طبعة 1948، وص 90، طبعة 1998.

33) استقينا أخباره من كتاب كواندرو، ص 82، طبعة 1948، وص 90، طبع 1998.

* الرئيس علي حكم(34)

آل حكم، أسرة مشهورة برباط الفتح، وأصلها من الأندلس، مرموقة بعين الاعتبار والاحترام، لدى الخاص والعام، لِمَا تقدم فيها من الرجال ذوي الذكر والشهرة في الرياسة.

ومنهم أحد رؤساء الأسطول الإسماعيلي، وهو الرئيس علي حكم.

ذكره روجي كواندرو (Roger Coindreau) في كتابه «قراصنة سلا» فقال إنه كان نائب أميرال الأسطول السلاوي - الرباطي، وزاد أنه، بلاشك، أطول رئيس مدة في الرياسة البحرية، والممارسة القرصانية، لأنه ابتدأ عمله القرصاني سنة إحدى وسبعين وستمائة وألف (1083/1671)، واستمرّ فيه إلى سنة خمس عشرة وسبعمائة وألف (1127/1715)، يعني نحو أربع وأربعين سنة، إلاّ أنّه لم يشتهر بأي عمل مثير للانتباه، طيلة هذه المدّة.

وكان له اتِّصال في الأعمال القرصانية بالرئيس الأميرال الشهير، عبد الله بن عائشة...

ومن ذلك أنه في سنة سبع وتسعين وستمائة وألف (1078/1697)، توجّه بأمر سلطاني، حاملاً في سفينته السلاح إلى مدينة أكادير، والتقى في وجهته هذه بعبد الله بن عائشة، واستعان به في معركة بحرية قرب جزر أسوريس (Acorces) واستولى على سفينتين إصبانيتين للصيّد، في كل واحدة منهما عشرة من البحّارة، ورجع إلى المعمورة في شهر نونبر (ربيع الثاني من السنة المذكورة)، دون الحصول على غنيمة أخرى.

* الرئيس العربي حكم

وكان من آل حكم رئيس أخر اسمه العربي حكم. ورد له ذكر في مقدمة «كتاب الإغتباط بتاريخ الرباط» لأبي عبد الله محمد بوجندار، و«سوق المهر إلى قافية ابن عمرو» لأبي عبد الله محمد بن عبد السلام السائح.

وفي تاريخ الضعيف :

أن السلطان سيدي محمد بن عبد الله أمر سنة إحدى وسبعين ومائة وألف (1758/1171) بإنشاء سفينة له وكان رئيساً لها.

34) استقينا أخباره من كتاب كواندرو، ص 76، طبعة 1948، وص 85، طبع 1998.

*** الرئيس محمد الحاج كانديل**

قال كواندرو في كتابه : «قراصنة سلا»[35]

لا شك أن هذا الرئيس كان من أصل مسيحي فرنسي، وأسلم وصار من جملة رؤساء الأسطول القرصاني السلاوي- الرباطي.

وكان والده رئيساً للقبطان بيير دوقال (Pierre Duval) الذي كان متولّياً أمر السفينة المسماة ماري فْرانْسوازْ (Marie-Françoise)

ولمّا استولى عليها الرئيس الْبوسْطانْجي في ثامن وعشري ابراير سنة ثمان وثمانين وستمائة وألف (28 إبراير 24/1688 ربيع الثاني 1100) أسر فيها الرئيس دوقال (Duval)وأتى به إلى سلا فبقي بها. ثم سقط الرئيس كانديل بدوره في الأسْر، في ظروف وحوادث أخرى، وأُرسل إلى إحدى السفن المجدافية ليعمل فيها.

وفي ثاني شتنبر سنة ثمان وثمانين وستمائة وألف (2 شتنبر 25/1688 قعدة 1100) أُطلق سراحه مقابل إطلاق سراح القبطان دوقال (Duval) الذي كان مسجوناً بسلا.

وبمجرّد ما أُطلق سراحه، رجع الرئيس كانديل إلى العدوتين، واستأنف غاراته البحرية بالبحر الأبيض المتوسط طيلة سنة أربع وتسعين وستمائة وألف (1106/1694).

وفي سنة خمس وتسعين وستمائة وألف (1107/1695) كان يتولّى رياسة سفينة فيها تسع وسبعون (79) بحاراً، من تجهيز السلطان المولى إسماعيل، وخاصّة بشخصه.

وكانت مهمته أن يهاجم، بالخصوص، السفن الفرنسية الموسوقة بالحبوب.

وفي ثاني عشر مايو سنة خمس وتسعين وستمائة وألف (12 مايو 28/1695 رمضان 1107) انتهى عمله القرصاني بنواحي مينورقا (Minorca) بجزر الباليار (Les Baléares) وأُخذ أسيراً بعد معركة دامت يومين، مع الأسطول الفرنسي بقيادة القبطان أنطوان دومانتوزان (Antoine de Montauzin). وكافأته إدارة المصلحة التجارية بمرسيليا على عمله هذا، وأسره للرئيس محمد كانديل بمدالية وساعة ذهبيتين.

وجاء في كتاب : «الأسرى الفرنسيون بالمغرب، في القرن السابع عشر» لمؤلفه شارل بينز (Charles Penz)[36] أنه كان من جملة الأسرى بمكناس، فتاة فرنسية جميلة للغاية، عمرها

---

35) ص 88، طبعة 1998.

36) ص 218-219.

أربع وعشرون سنة، متزوجة بأسير فرنسي أيضاً، رآها أحد الأمراء، فأعجبته، وحاول إغراءها على الدخول في الإسلام، لتفارق زوجها، ويتزوَّجها هو، وربَّما مالت إلى ذلك.

فاطَّلع عليها الرهبان الذين كانوا مع الأسرى بمكناس، فاحتالوا حتى أبعدوها وزوجها عن مكناس إلى سلا (الرباط)، وبعد استقرارها به، لم يأمن القنصل جان بابتيست إيستيل (J. B. Estelle)[37] عليها أن تصير مسلمة، وتتزوَّج الأمير الذي يرغب في زواجها، فكتب رسالة إلى الوزير الفرنسي پونشرتران (Pontchartrain)، وأعمله بحالها، وطلب منه أن يفديها بالرئيس كانديل (Candil) الذي أسرته سفينة قرصانية فرنسية بِنَوَاحِي مينورقة (Minorqua)، كما تقدَّم، فأنعم الوزير بذلك، وتبرَّع التُّجَّار بقدر من المال يُشترى به أسير مغربي آخر من الأسرى المغاربة الذين كانوا بليشبونة، عاصمة البرتقال، يُعوَّض به الرئيس كانديل في السفينة التي كان جدَّافاً فيها بمرسيليا، وبذلك أُطلق سراحه، ورجع إلى بلاده، كما رجعت الأسيرة الفرنسية إلى فرنسا.

وكان ذلك في شهر دجنبر سنة خمس وتسعين وستمائة وألف (دجنبر 1695/ جمادى الأولى 1108).

* الرئيس الرُّوسِّي

هذا الرئيس من مشاهير رؤساء الأسطول المغربي السلاوي - الرباطي، في العهد الاسماعيلي.

وقد ذَكَرَهُ في مؤلفاتهم عدد من الأوربيين الذين كتبوا في تاريخ المغرب واتِّصاله بأوربا، كهانري دوكستري (De Castries) في الجزء الرابع لـ «الينابيع غير المنشورة لتاريخ المغرب»، وپيير دوسينيڤال (Pierre De Cénival) في نفس المصدر، وروجي كواندرو (R. Coindreau) في «قراصنة سلا».

وجاء في هذا الكتاب الأخير[38] أنَّه في سنة ثلاث وتسعين وستمائة وألف (1104/1693)، كان الرُّوسِّي رئيساً بسفينة بها أربعة عشر مدفعاً ومائة بحّار، ونَجَحَ فيها بعملية قرصانية كانت سبب شهرته وانتشار ذكره.

37) كان من أسرة نبيلة پروڤانسالية، وكان أبوه قبل ذلك قنصلاً لبلاده بمدينة تطوان ثم طنجة. عُين في 19 يبراير سنة 1689 ولقي صعوبة في القيام بمهامِّه، قيل لعدم خبرته، ولكنه لعب دوراً مهماً في إعانة مواطنيه المحتجزين بالمغرب.

38) ص 77، طبعة 1988، وص 85-86، طبعة 1998.

وذلك أنه استولى على سفينة من نوع خاص، ذات أربعة صواري، وهي الكارافيل[39] (La Caravelle)، برتقالية، بنواحي جزر مَادير (Madère)[40] ، وكان راكباً بها حاكم هذه الجزر، ومعه جميع موظفيه وأتباعه، في طريقه إلى محل حكمه، بالجزيرة المذكورة. ولم يكن بها أي مدفع يمكن أن تقاوم به، وإنّما كان بها بعض البنادق، وست منجنقات قادفات للأحجار، فقاوم الركّابُ بها، مدة يومين كاملين وثلاث ليال...

وأخيرا استسلموا، وطووا قلوعهم بعد ما قُتل منهم أربعة من الرجال الركاب. والباقي من النوتية والركاب أُخذوا أُسارى، ومن بينهم حاكم الجزر المتقدم الذكر، وولده من اثنين وعشرين سنة، وأحد الأعيان، وراهبان كانا مصاحبين للحاكم، وأحد أولاد الأشراف كان في خدمة الحاكم، وجماعة من الخدمة والقومة الملازمين له، الجميع واحد وثلاثون، ومن بينهم أمرأتان.

وكان وصول الرئيس صحبة غنيمته إلى سلا والرباط يوم تاسع عشر أكتوبر من السنة المذكورة (19 أكتوبر 2/1693 جمادى الثاني 1105).

فتدخّل قنصل فرنسا في قضية الأسرى، وطلب معاملتهم معاملة حسنة، والإحسان إليهم، والبرور بهم، لأنهم من ذوي المقام المرموق بعين الاعتبار بين قومهم[41] وخاطب عامل البلد في شأنهم، فأجابه بأنهم ليسوا فرنسيين، ولذلك لا مدخل له فيهم، ثم حاوره، وضرب له المثل بأنهم من ذَوِي الحاجة والغربة والجامعة الدينية تجمع بينهم، كما هي عادة ملكهم، فساعده حينئذ...

وأخذ الحاكم ومن معه من الأسرى عنده، وأطعمهم، وبرَّ بهم، وتوسّط لهم في إبلاغ رسائلهم إلى ذويهم ببلادهم.

---

39) سفينة ذات أربعة صواري، سريعة لكن حمولتها ضعيفة.

استعملها البرتقاليون في القرن الخامس عشر/التاسع الهجري ؛ وفي القرن السادس عشر/العاشرالهجري، أصبحت سفينة الاكتشافات البحرية.

ويقال إنه على متن 3 من هذا النوع من السفن ذهب كريستوف كولولوب إلى اكتشاف العالم الجديد.

40) جزيرة برتقالية في المحيط الأطلسي، غربي المغرب، قاعدتها فونشال (Funchal) فيها الخمور الشهيرة وقصب السكر والموز والبرتقال.

41) دوسينيڤال (De Cénival)، ج 4، ص 223.

وفي الخامس والعشرين من شهر يوليوز (25 يليوز /2 قعدة) من السنة المذكورة، رجع من جولته إلى المغرب، ودخل مرسى المعمورة، بمنظر ومحضر من الأسطول البرتقالي، ولم ينله منه أذى.

ثم خرج في جولة بحرية أخرى، في فصل الخريف، ورجع منها في شهر دجنبر من السنة (دجنبر/ربيع الثاني)، ولكن لم يحصل في هذه المرة على غنيمة.

وفي آخر سنة خمس وتسعين وستمائة وألف (دجنبر 1695/ربيع الثاني 1107)، استأنف غاراته البحرية، واستولى حَوْلَ جزر الكاناري على زورق إصباني، كان استولى رئيسه قبل ذلك على قارب فرنسي، وأسر رئيسه ومن معه ، فأخذ الرئيس الروسِّي الجميع أسرى عنده.

وكان من بين طاقم القارب الفرنسي ربَّاناً ماهراً في صنع البنب، ويريد الدخول في الإسلام، فقرَّر الرئيس الدخول إلى سبتة، وهي يومئذ محاصرة، ليرى الإصبانيون عمله، فلم يتمكَّن من ذلك لعدم مساعدة الريح له، فَوَلَّى وجهه شطر الجزائر، ودخلها دخول المنتصر، وأقام بها شهراً كاملاً، ثم رجع إلى بلاده في الخامس عشر من شهر مارس، سنة ست وتسعين وستمائة وألف (15 مارس 10/1696 شعبان 1107) وهذا ما وقفنا عليه من أخبار هذا الرئيس حتى الآن.

*** الرئيس معيز**

هذا الرئيس كان أحد رؤساء الأسطول المغربي السلاوي - الرباطي الذين ذكرهم الفرنسيون، وسجَّلوا أعمالهم فيما كتبوه في تاريخ المغرب وقرصنته.

وكان يُلقَّب بالشجاع، أو الجسور. ووصفه الفرنسيون، حسب زعمهم، بأنه كان يعامل من تسوقه الأقدار إليه من الأسرى، بلا عطف، ولا شفقة ولا رحمة...

وإذا قابلنا أعماله بأعمال ما كان يعامل به الأسرى المغاربة بأوربا في ذلك العهد، بالنسبة لغيره من القراصنة المنسوبين لسلا ورباط الفتح، نقول : «رمتني بدائها وانسلَّتْ...»

جاء في «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة» - سلسلة فرنسا[42]، عن هذا الرئيس ما يلي :

42) ج 4، ص 222.

في أول شهر مايه ، سنة إحدى وتسعين وستمائة وألف (1 مايه 1/1691 شعبان 1102)، كان الرئيس معيز متولّياً رياسة سفينة ذات تسعة مدافع، وسبعين بحّاراً. فالتقى قرب رأس فينيستير (Cap Finisterre)[43]، سفينة صغيرة فرنسية مشحونة بالصابون، في طريقها من مرسيليا إلى روان (Rouen)[44] فاستولى عليها، بعد معركة هائلة، دامت أربع ساعات، وقابل رُكَّابها، لمّا أسرهم بشدة وغلظة وغضب، حتى إنه طعن عدداً منهم بالخناجر والسيوف، ونكأ جراحهم، وقتل أربع بحّارة فرنسيين منهم، ورمى جثتهم في البحر، عقاباً لهم على مقاومتهم له، وجلد الرئيس بران (Brun) مائتا جلدة بالتثنية، ولم تأخذه رأفة فيه، ونزع عنه ثيابه، وتركه عرياناً، وصار يعطيه في غذائه مدة عشرين يوماً في البحر، خبزاً رديئاً، ويسقيه ماءً أسناً، فَيَتَجرَّعُهُ ولا يكاد يصيغه...

وكان وصوله إلى العدوتين السلاوية - الرباطية، يوم سادس يونيو (6 يونيو/9 رمضان) من السنة المذكورة، ومعه أسراه، وعشرة من النوتية.

وبمجرد ما بلغ الخبر لقنصل فرنسا بما عومل به رئيس السفينة التي أُخذت غنيمة، ومن كان معه من البحّارة والرُّكّاب، غضب غضباً شديداً، واشتكى وتدمّر، وكتب رسالة أعلم فيها بما وقع وزيره پونشرتران (Pontchartrain) بتاريخ سادس عشر يونيو (16 يونيو/19 رمضان) من السنة المذكورة، وطلب منه إصدار الأوامر لسائر السفن الفرنسية بأن تكون تعامل أسرى سلا والرباط بنفس المعاملة التي عامل بها الرئيس معيز الأسرى الفرنسيين، كُلَّما سقطوا في أيديهم، أو توصَّلوا إليهم، وأنه ما كان ينبغي لهذا الرئيس أن يجلد الرئيس الأسير المنكوب، وكان الأولى به أن يعطف عليه، ويلاطفه، ويُخفِّف عنه، كما يقع مع رؤساء تونس والجزائر وطرابلس.

وبعد عامين من هذه القضية، تمكّنت دارعة فرنسية من أسر الرئيس معيز نفسه، قرب شواطئ سانت - ڤانسان (Saint-Vincent)[45]، فتأثر المولى إسماعيل غاية التأثّر من أسره، لأنه كان من خيرة رؤساء أسطوله الذين يعتمد عليهم، وطلب فداءه بتعويضه بأسير فرنسي آخر من الأسرى الذين عنده، فاعترض قنصل فرنسا إسطيل (Estelle) في ذلك، وكتب إلى وزيره بفرنسا باعتراضه، مُشَدِّداً فيه، وقال :

43) رأس ساحلي يقع في منتهى الشمال الغربي لإصبانيا.

44) مدينة تقع على نهر السين (La Seine)، على بعد 123 كيلومتر من باريس، وهي قاعدة مقاطعة النورماندي (La Normandie) وبها أحرقت جان دارك (Jeann d'Arc) سنة 835/1431، خلال حرب 100 سنة بين إنجلترا وفرنسا.

45) عاصمة البرتقال الجنوبي، وتقع في أقصى جنوب شمالي شبه الجزيرة الإبيرية، واسمها بالبرتقالية : (Sao Vicente).

«من العدل أن يبقى هذا الرئيس أسيراً جدّافاً في السفن الفرنسية، ولا يَرْجِعُ إلى المغرب وهو قبطان أيضاً».

ومع ذلك لم يلتفت الوزير إلى ما كتب له به قنصله المذكور، وساعد علي إطلاق سراح الرئيس معين، وفدائه بأسير فرنسي من الأسرى الموجودين بالمغرب، ولكن لا ينفذ ذلك حتى يُعاقب هو أيضاً بالجلد، كما فعل بغيره، فجُلد مائتا جلدة ، وقيل له : «إن الرؤساء الذين يأخذون الفرنسيين أسرى ويجلدونهم، سيجلدون هم أيضاً كذلك...»

وتمَّ فداؤه، وأُطلق سراحه، وانتهى أمره سنة ست وتسعين وستمائة وألف (1107/1696).

*الرئيس الحاج عبد الله بن محمد فنيش

تولّى عبد الله بن محمد فَنِّيش العمالة بسلا في العهد الإسماعيلي. و كان ر ئيساً للديوان الأندلسي السلاوي المنعقد سنة إحدى وسبعين وستمائة وألف (1082/1671)، وبيده رياسة أسطولها...

وكان له اتصال ومواصلة مع الرئيس الأميرال عبد الله بن عائشة، وشاركه وتعاون معه في عدة غارات بحرية.

– ومن جملة أعماله القرصانية أنه في سنة إحدى وتسعين وستمائة وألف (1102/1691) أسر سفينة صغيرة إنجليزية، فيها ثمانية من النوتية، وكانت متوجِّهة إلى جزر مادير (Madère)، لوسق الخمر منها.

– وفي سنة ثلاث وتسعين وستمائة وألف (1104/1693) كان رئيساً لسفينة بها ثمانية عشر مدفعاً.

واستولى بناحية جزر أسور (Açores) على مركب فرنسي، محموله مائة طُونُو (Tonneaux)، كان آتيًا من مدينة لوريان (Lorient)[46] وعلى ظهره زيت وملح وبعض الثياب بقصد بيعه لِسُكّان الجزر المذكورة.

– وفي سنة أربع وتسعين وستمائة وألف (1105/1694)، كان رئيساً على سفينة بها ثمانية عشر مدفعاً، ومائة وخمسون بحّاراً، وخرج في غارة ورجع منها، ودخل مرسى سَلاَ

46) قاعدة مقاطعة الموربهان (Le Morbihan) ببريطانيا الجنوبية بفرنسا.

بأبي رقراق، وهي محاصرة بالأسطول البرتقالي، بدون أدنى مشقّة ولا مقاومة. ولم يقدر البرتقاليون على مواجهته، فسخر منهم، واستهزأ بهم.

وفي سنة خمس وتسعين وستمائة وألف (1106/1695)، أسر بنواحي جزر سانط ميشل (Saint Michel) سفينة برتقالية كان بها ثمانية عشر من الركّاب الرجال وامرأتان وسبعة من الرهبان...

وكانت هذه خاتمة أعماله، لأنه هلك خلالها، وضاعت سفينته بما فيها، ولم يظهر له أثر بعد ذلك.

المبحث الثاني

الرئيس الأميرال
عبد الله بن عائشة السلاوي

كان عبد الله بن عائشة شخصية بارزة لامعة في ميداني القرصنة البحرية والسياسة الخارجية، في عهد الدولة الإسماعيلية.

ولا نعلم من أخباره وأحواله إلاّ ما جاءنا، أونُقل إلينا من طريق المؤرخين والكتاب الأوربيين الذين كتبوا الشيء الكثير عن القرصنة المغربية عموماً، والسلاوية - الرباطية خصوصاً، ولاسيما بعد سفارته إلى باريز سنة 1110/1698، من قبل السلطان المولى إسماعيل إلى لويس الرابع عشر لفداء الأسرى، وعقد معاهدة صلح وأمن مستقر بين الدولتين، حسبما تقدم مبسوطاً مفصلاً في الفصول المتقدمة في مبحث موقف المولى إسماعيل من الأسرى.

وقد أدرك شهرة عظيمة أثناء هذه السفارة، وبعدها، وتردّد اسمه في الصحف والمجلاّت والمؤلّفات الصادرة في ذلك العصر بفرنسا، وكذا بغيرها من الدول الأوربية، كإنكلترا وهولاندا.

أمّا نسبه وأسرته ومولده ونشأته وحياته الأولى قبل وُلوجه ميدان القرصنة والرياسة البحرية، ودخوله لعالم السياسة الخارجية، فهي فصول من ترجمته ما زالت غامضة، ولا نعلم عنها شيئاً حتى الآن.

نسبه وأسرته :

فمن هو نسبه ؟ ومن هي أسرته ؟ فهل كانت من المهاجرين الأندلسيين، أو من المغاربة الأصليين ؟ أو كان من اللاجئين والنازلين بالرباط من دولة أجنبية أخرى، كغيره من القَرَاصِنَة

الذين أووا إلي سلا ورباط الفتح، واتخذوها داراً ومنزلاً وقراراً ؟ ومن هي عائشة التي يُنسب إليها ؟ فهل هي أمه أو جدته أو هي من صالحات النساء اللاتي عشن في ذلك العصر ؟

وفي الرباط أضرحة لبعض النساء المسمّيات بهذا الإسم، ومِنْ هُنَّ من كان عصرها قريباً من عصره.

ومتى ولد ؟ وهل ولد بالرباط أو بغيره من المدن والقبائل المغربية، وجاء إلى الرباط ونشأ به ؟ وكيف كانت نشأته الأولى، وحياته قبل تعاطيه القرصنة حرفته ؟

هذه أشياء غامضة مازلنا لم نهتد، أو نُوفَّق إلى الوقوف على نصّ أو نقل، يكشف غموضا، أو شعاع من الحقيقة يُبيِّن سبيلها، لأننا لم نعثر على ذكر اسمه عند أحد من مؤرخينا وكُتَّابنا، سواءً في العهد الإسماعيلي أو بعده. وما عرفناه حتى وصلتنا مؤلفات الأوربيين، فاكتشفنا فيها اسمه وأخباره المتعلقة بهم، واتصاله بقناصلهم وأمرائهم وملوكهم.

ولا نجد اسمه عندنا الآن إلاّ في الفندق المنسوب إليه بسوق القناصل بالرباط وهو فندق «بن عيشة» على أنَّ كايي (Caillé) ذكر في تاريخه لمدينة الرباط[47] أن هذا الفندق، كما هو المتناقل، من بناء بنته، لا من بنائه هو.

ونُقل أيضاً عن بعض شيوخ الرباط الطاعنين في السن، أن هذا الفندق تأخّر وجوده بالرباط إلى زمن السلطان سيدي محمد بن عبد الله. فهل بِنْتُ ابن عائشة، إنْ صحَّ هذا النقل، بَنَتْهُ في آخر عمرها، أو هي حفيدته ؟ وهل هي التي حبّسته أو غيرها ؟ وهذه أمور يمكن أن يُرجع فيها إلى الرسوم وحوالة الأحباس الرباطية.

وغاية ما أدركناه من أخبار حياة هذا القرصان الشهير، وأسرته بالرباط، أنه كان له ولد اسمه محمد، قبطان ورئيس بحري، وأخ اسمه عبد الرحمان، قبطان ورئيس بحري كذلك، وسياتي ذكرهما وأعمالهما القرصانية بعد هذا.

وأنَّه كان مصاهراً لآل عطية بالرباط، حسبما يُوخذ ذلك من كتاب كتب له به أخوه الرئيس عبد الرحمان، لمّا كان سفيراً بباريز، أخبره فيه بأحوال أسرته وبلاده ووفاة صهره، أخي زوجته، المسمى عبد الله عطية فجأة.

وأسرة عطية معلومة بالرباط، وإليها ينسب جامع عطية ، الكائن بحي تحت الحمام، على رأس الزقاق المسمى باسمه، وتاريخ بنائه سنة 1682/1093، وهو زمن عبد الله بن عائشة .

---

47) «مدينة الرباط من التأسيس حتى عهد الحماية الفرنسية، تاريخ وأركيولوجيا» لجاك كايي - باريز 1949 : ص 547.

وقد ذكر هذه الأسرة كوسطي (Cousté)[48] في كتابه الذي ألَّفه في الأسر القديمة والحديثة بسلا، وعدَّها من الأسر التي انقرضت، فقال : «أولاد عطية قدموا من إشبيلية أواخر القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)، واستوطنوا أوَّلاً مدينة الرباط، وكان لهم بها صيت وسمعة حسنة، وكانوا من الأغنياء المشهورين، وهم الذين أسّسوا بها مسجداً يُعرف اليوم بمسجد عطية، ثم انتقلوا لسلا وسكنوها دهرا.

واشتهر من رجال هذه الأسرة أبو عبد الله محمد بن عطية ، وأبو العباس أحمد بن عطية، وهما ممَّن اشتهرا بعلميْ التوحيد والأحكام في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)، والاتّصاف بالخير والصلاح، ثم انتقلا من سلا إلى فاس، وحصل لهما بها ذكر وشهرة.

ثم قال : ولهما مؤلفات في الفقه، وكانا يُدرِّسان العلم بالمدارس الفاسية. وبفاس كانت وفاتهما، وقبرهما معروف هناك، يُزار.

ثم زاد : وآلُ عطية مشهورون بالعلم والصلاح عموماً، وتميّز منهم أفراد بعلم الحساب والفلك، منهم العالم الحاج الهاشمي عطية، كان حيّاً في عهد المولى سليمان، وتولّى ولده النيابة عن قاضي سلا ورباط الفتح، وتوفي سنة 1815/1230».

وعليه فإنَّ ابن عائشة كان مصاهراً لأسرة من أشهر الأسر علماً وصلاحاً وثروة في وقته.

ويوخذ من تصريح صدر منه في بعض الحفلات التي كانت تُعقد على شرفه في أندية باريس ومجتمعاتها، أيام سفارته بها، أنه كان يحبّ هذه الزوجة، ورُزق منها ستة أولاد، ثلاثة ذكور وثلاث بنات. وقد تقدَّم ذكر ذلك في فصل زيارته لمعاهد باريس وأنديتها، ونوادره بها[49].

هذا ما تحصَّل لدينا الآن من المعلومات الضئيلة عن أسرة هذا الرئيس وأوليته.

وقد كان سألني عنه بعض الباحثين السلاويين منذ مدة طويلة، سنة 1927/1346، وأجبته إذ ذاك بنتف يسيرة بما كان تحصّل عندي من أخبار، ولمّا ظهرت المؤلفات الجديدة، ونُشرت الوثائق التاريخية التي كانت محفوظة في المكاتب العلمية والخزائن الحكومية الفرنسية،

48) جان كوستي (Jean Cousté) كان مراقباً مدنياً بمدينة سلا، في أوائل الحماية الفرنسية المفروضة على المغرب.

49) راجع ج 3، ص 135-138.

تتبّعناها، والتقطنا منها ما عثرنا عليه من أخبار سفارته ورياسته القرصانية، وحياته السياسية، وهو ما سنسطره في المباحث الآتية.

أعمال عبد الله ابن عائشة القرصانية(50)

في العصر الذي تطوّرت فيه القرصنة في طورها الجديد، لمّا صارت تابعة للدولة العلوية منذ تبثّ دعائمها المولى الرشيد، ظهر في دولة أخيه السلطان المولى إسماعيل، رحمه الله، في ميدان القرصنة السلاوية - الرباطية الرئيس المسلم الحقيقي عبد الله بن عائشة، كما عبّر عنه كواندرو (Coindreau)، فذاع صيته، وسُمع في العالمين الأوربي والمغربي صوته، وعمّت شهرته الممالك والدول التي على البحرين، الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي، أواخر القرن السابع عشر الميلادي الموافق لأوائل القرن الثاني عشر الهجري، واعتبرته أوربا آخر مشاهير قراصين سلا ورباط الفتح، جرأة، وشجاعة، وصولة، سواء الذين تقدّموه أو جاؤوا بعده.

وازداد ظهوراً وبروزاً في عالم السياسة الخارجية لبلاده، لمّا وجّهه سلطانه المولى إسماعيل سفيراً عنه إلى لويس الرابع عشر، «الملك الشمس» (Le roi Soleil) بفرنسا سنة 1110/1698، لإثبات السلم وفداء الأسرى، كما تقدّم. ولم يكن قبل اختيار السلطان له لهذه المُهمَّة إلاّ مجرد قرصان من قراصنة البحر الممتازين بالعدوتين.

وكان ابتداء تعاطيه للقرصنة والشؤون البحرية منذ سنة 1083/1672.

ولم يكن له في السنين الأولى من حياته القرصانية، ما يُفضَّل به عن غيره، أو يُذكر به من الأعمال الحربية البحرية التي توجب الذكر والشهرة في ذلك العهد إلى سنة 1095/1684 لمّا سُمِّي قائد الأساطيل السلاوية.

* وافتتح أعماله القرصانية التي سُجّلت عليه، وباسمه، باصطدامه مراراً عديدة مع الأساطيل الإنجليزية، وبعد معارك شديدة عنيفة بينه وبينها كاد أن يُضطرّ إلى الذهاب معها.

* وفي 15 يوليوز من السنة نفسها (15 يوليوز/2 شعبان)، تابعه قرصان إنجليزي آخر، ونجا منه لمّا جنح إلى الشاطئ قرب سلا، ولم يصل إلى البر إلاّ بعد مشقّة عظيمة، وسيأتي خبر أسر الإنجليز له بعد هذا.

50) إقتبسنا هذه الأخبار من كتاب كواندرو «قراصنة سلا»، ص 70 والتي تلي، طبعة 1948، وص 78 والتي تلي، طبعة 1998. وكذلك من «ينابيع تاريخ المغرب غير المنشورة» لدوكاستري.

* وفي 15 نونبر سنة 1686/ متم حجة عام 1097، استولى على سفينة فرنسية ذات مائة طن، مشحونة بالأقمشة والمنسوجات القطنية، وساقها إلى مرسى العدوتين، فطفى عليها البحر وأغرقها، عند محاولتها مجاوزة مصبّ أبي رقراق، ونجا بحّارتها من الغرق، فأُسروا جميعاً.

ثم تضاعفت أعماله القرصانية سنة 1098/1687، لمّا صنع سفينة خاصّة به، وجهّزها باثنين وعشرين مدفعاً، وخرج بها إلى البحر، رافعاً عليها العلم الجزائري، تضليلاً للسفن التي سيلقاها في البحر.

* فصادف سفينة فرنسية ذات ستة مدافع، ذاهبة من مرسى الهاڤر (Le Havre)[51] إلى مرسيليا، مشحونة بالقمح، فأسرها، وساقها إلى الجزائر وباع شحنتها بها.

* وفي 20 من مارس سنة 5/1687 جمادى الأولى عام 1098 أسر زورقين مشحونين بحجر الشبّ والأرز والنبيذ، والبندق، واستولى عليهما وعلى ما فيهما.

* وفي 25 مارس/10 جمادى الأولى من السنة المذكورة، سقطت في يده سفينة إنجليزية مشحونة بالأشربة والخمور.

* ومن 11 إلى 14 من مايو/28 جمادى الثاني و2 رجب من السنة المذكورة أسر ثلاث سفن فرنسية، فساق واحدة منها إلى تطوان، واثنتين إلى مرسى الجزائر.

وبهذه الأعمال شاع ذكره، وانتشرت في العالم الأوربي شهرته، وشغلت بال فرنسا قرصنته، ونبّه حكومتها على ما سيؤول إليه أمره قناصلها بتطوان وسلا (الرباط) والجزائر إذا تغاضت عنه، ولم تقابل المثل بالمثل، لتكفّ من غربه، ووجّه قائد السفن الحربية الفرنسية إنذاراً إلى القائد علي بن عبد الله، حاكم طنجة، يسترعي عليه، ويحذره من أعمال عبد الله ابن عائشة القرصانية وما سينتج عنها.

ولكن ابن عائشة لم يكترث بالتهديد الذي كان يُوجَّه إليه لجُرْأته وممارسته للقرصنة ومهارته في أساليبها وحيلها وترصّد أوقات غاراتها، واعتياد سفنه الجَوَلان في البحرين : الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي، كأنها نسور جائعة تنقضّ على ما تصادفه من السفن الأوربية، فتلقى منها عسفاً وذعراً، وتسوقها للخسف والأسر قهراً، ولا تكاد تنجو منها سفينة إلاّ نادراً، وبذلك ازدادت القرصنة السلاوية الرباطية خطراً، وتضاعفت غنائمها بدون عوض ولا تعويض.

---

(51) مرسى يقع عند مصب نهر السِّين (La Seine) في المحيط الأطلسي، وهو قاعدة مقاطعة السِّين البحرية (La Seine-Maritime).

وقد كانت حروبه القرصانية التي قام بها في المحيط سنة 1691/1102 ناجحة ومثمرة جداً. حيث انتصر وغنم ست مرات غنائم مُهِمَّة، ما بين شهري مارس ومايو/رجب وشعبان ورمضان من السنة المذكورة.

* وفي شهر يوليوز/ذي القعدة من السنة نفسها أخذ سفينة برتقالية قرب مرسى ليشبونة مشحونة قمحاً، ووجَّه بحّاراتها الثلاثة والعشرين أسارى إلى السلطان المولى إسماعيل. وفي الغالب كان يغزو بمرافقة وموافقة الرئيس فنيش السلاوي[52].

* ومن ذلك أنهما في شهر شتنبر سنة 1691/محرم عام 1103 أسرا معاً، قرب جزر كانريا (الجزائر الخالدات) أربع سفن في طريقها إلى أمريكا، الأولى فرنسية، والثانية جنوية، والثالثة والرابعة إنجليزيتين، فسرّ بذلك السلطان المولى إسماعيل، وقرَّبهما معاً إليه.

* وفي 26 من الشهر المذكور، استوليا على سفينتين فرنسيتين كانتا متوجِّهتين إلى أمريكا، بعد مقاومة لَمْ تُجدهما شيئاً.

ولمهارته وشجاعته وجرأته كان يركب البحر، ويغزو، ولو في فصل الشتاء، ولا يتهيَّب العواصف والزوابع واضطراب الأمواج.

* واتَّفق أنه هاجم سفينة فرنسية في شهر يناير سنة 1692/جمادى الأولى عام 1103، وأسرها، وفي الحين طلعت عليه سفينتان فرنسيتان أخريتان كانتا مترصِّدتين له، ففرَّ منهما، وتخلَّى لهما عن الغنيمة، واختفى وراء الأمواج، ناجياً بِجُرَيْعَاءِ الذقن.

* وفي سنة 1104/1693 خرج من مرسى العدوتين في سفينة مُسلَّحة بأربع وعشرين مدفعاً، وفيها مائة وثمانون بحّاراً، فلقي سفينة برتقالية في طريقها من البرازيل إلى ليشبونة مشحونة باللوز الهندي (كاوكاو) والقرفة والقرنفل والسُكّر، وسلع أخرى تُقدَّر قيمتها بخمسين ألف ليبرة، وكان فيها أربع وثلاثون بحّاراً، وامرأة وثلاثة صبيان، كلهم أُخذوا أسارى.

ومع أن هذه السفينة كانت مجهزة بعشرين مدفعاً، وعدد كبير من البنب، فإنها خَشِيَتْ بطشته، واستسلمت له، ولم تُخْرِج طلقة مدفع واحد من مدافعها.

52) كواندرو، ص 80، طبعة 1998.

أعماله القرصانية مع أخيه
الرئيس عبد الرحمان وولده الرئيس محمد

كان عبد الله ابن عائشة في الشطر الأول من حياته القرصانية يغزو وحده، ثم اتفق ورافق الرئيس فنيش. وفي الشطر الثاني، اشتد عضده بأخيه الرئيس عبد الرحمان وولده الرئيس محمد بن عبد الله ابن عائشة، فصار يغزو معهما، وتجول في البحر تحت رياسته أساطيلهما، وكانت أول غزوة رافقه فيها أخوه عبد الرحمان سنة 1105/1694.

وعبد الرحمان هذا من قراصنة العدوتين، كان يتولّى قيادة سفينة مُسلَّحة بثمانية عشر مدفعاً ومائة وثلاثين بحارًا.

* فخرج مع أخيه في شهر يوليوز/قعدة من السنة المذكورة، فجالا في البحر ورجعا، فوجدا البرتقاليين ضاربين منطقة الحصار على مرسى العدوتين، ومرسى المعمورة، فلم يعبئا بهم، وخرقا منطقتي حصارهم، ودخل أحدهما إلى مرسى الرباط، والآخر إلى مرسى المعمورة. فجاء الناس إلى عبد الله بن عائشة مهنئين له بسلامة الرجوع، وبالفوز في مجاوزة منطقة الحصار، فأجابهم باستهزاء بأن التهنئة بسلامة الرجوع من الغزوة في محلها، وفي حق البرتقاليين لا محل لها احتقاراً لهم، واستهانة بأسطولهم المحاصر.

* وفي فصل الخريف من هذه السنة أيضاً، خرج الأخوان معاً إلى البحر كالمرّة السابقة، ورجعا إلى المعمورة في 12 من شتنبر 22/1695 محرم فاتح عام 1106 سالمين غانمين.

وكانت الغنيمة التي حصلا عليها هذه المَرّة سفينة إنجليزية ذات مائة طن، مشحونة بالسمك المُملّح على أنواع، أسراها قرب جزيرة مادير (Madère)، وسفينة أخرى فرنسية ذات مائتي طن، وأربعة مدافع، وواحد وعشرين بحّاراً، أسراها بين جزر آسور (Açores) ومادير، مرجعها من المارتينيك[53] (La Martinique)، مشحونة باللوز الهندي (كاوكاو) والسكر الخام، والقرفة، بما تقدر قيمته بثمانين ألف ليبرة.

وكانا أثناء عمليتهما القرصانية هذه مُتكيِّفين بصفة جزائرية.

وبينما السفينة الإنجليزية المأسورة في طريقها إلى مرسى العدوتين، لقيتها عند رأس سبارطيل (Cap Spartel)[54] قطع من الأسطول الإنجليزي، فحاربتها تريد خلاصها، ففرّ بحّارتها في زورق إلى البر، بعد مشقة عظيمة.

53) إحدى جزر الأنتيْ الصُغْرى (les Antilles) التي تُكَوِّنُ مع الأنتيْ الكبرى أرخبيلاً يفصل بين المحيط الأطلسي وبحر الأنتيْ.

54) يقع هذا الرأس بالمغرب، عند مدخل جبل طارق ، ويعرف عندنا بالمغرب بأشقار، وبه شيّد منار بحري سنة 1861/1277.

وأمّا السفينة الأخرى الفرنسية، فإنّها سيقت إلى مرسى العدوتين ، وجُدِّد تسليحها،لأنها كانت جيِّدة الصُّنع، سريعة الجرْي، وأعطاها ابن عائشة لولده محمد، وكان إذ ذاك في ابتداء أمره وتعاطيه القرصنة حرفة أبيه.

* وفي سنة 1695/1106 كانت أسرة آل عائشة كلها في البحر، ومعها خمسة سفن قرصانية، ثلاثة منها تحت رياسة الأب والأخ عبد الرحمان، والولد محمد، واثنتان مصاحبتان لهم.

* وفي صيف هذه السنة، أسر الوالد وولده، على بعد سبعة أو ثمانية أميال من جزر أسور، سفينة هولندية صغيرة مشحونة بمائة وثمانين طنّاً من الخمر، وبها عشرة من البحّارة، فاستوليا عليها، ووجّهاها صحبة خمسة وعشرين بحّاراً مغربياً إلى مرسى العدوتين، فلم تصل إليها ؛ ويقال إنّهَا سقطت في يد قراصنة السان مالو (Saint-Malo)[55].

* ثم خرج آل عائشة مرة أخرى كلهم إلى البحر في شهر شتنبر/جمادى الأولى من السنة نفسها، وكانوا يعملون جماعة، فأسروا مركباً هولاندياً مشحوناً بثلاثمائة وست وعشرين بوطة[56] مملوءة بالنبيذ، وأربعة أطنان من الخمر بما تُقدر قيمته بأربعين ألف بياسطر (Piastres)، ورجعوا إلى المعمورة في شهر يناير من سنة 1696/جمادى الآخرة عام 1107، بعد ما غنما في طريقهما مركباً لصيد السمك قرب جزر كاناريا (الخالدات).

* وفي شهر نونبر/جمادى الآخرة من السنة المذكورة، خرج عبد الرحمان ابن عائشة في سفينته إلى البحر الأبيض المتوسط، فتابعته قطعتان من الأسطول الفرنسي، واضطرّ إلى الجنوح بمرسى بجاية بالجزائر، وتوقّف بسبب ذلك عن العمل في القرصنة مدة سنتين، ثم استأنف أعماله.

وقد كانت لعبد الرحمان هذا صداقة متينة مع القنصل الفرنسي بالعدوتين، جان بابتيست - إستيل (J. B. Estelle)[57] ، فتغيّرت أوضاعها، وانقطعت أسبابها، بعد هذه الحادثة، وكتب فيه تقارير إلى دولته يحذرها منه، ووصفه فيها بأنه العدو الأكبر، والخصم الألدّ لفرنسا.

---

55) يَقَعُ هذا المرسى في شبه جزيرة عند مصب نهر الرانس (La Rance)، وهو قاعدة مقاطعة الإيل وفيلين (L'Ille et Vilaine). اشتهر من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر الميلاديين، بالصراع الذي كان قائماً بين قراصينه وإنجلترا.

56) كلمة إسبانية مرادف لكلمة بلكاظة الإسبانية أيضاً. واستعمالها شائع بالمغرب ؛ وتطلق على برميل يسع 225 ليتراً.

57) عيِّن هذا القنصل سنة 1101/1689، ولم يلتحق بمقر مَأموريّته إلاّ سنة 1102/1690 واضطرّ إلى مغادرة المغرب سنة 1110/1698 بأمر من السلطان المولى إسماعيل، بإشارة عبد الله بن عائشة الذي كان يخشى أن يكون مكوثه بسلا يجعله جاسوساً يخبر حكومة بلاده بتحركات الأسطول القرصاني السلاوي - الرباطي.

ومما قاله فيه مُتَشفّياً : «إن الله تعالى ساق هذا الكلب لأسطول القرصنة الفرنسية، لينتقم منه، تخفيفاً من كرب الفرنسيين، سواء المستعبدين منهم أو الأحرار، وتنفيساً عنهم وتفريجاً لهمّهم».

ولكن هذا الدعاء، أو التمني لم يكن مقبولاً ولا مستجاباً عند الله.

* وفي صيف هذه السنة، أسر عبد الله ابن عائشة، قرب رأس سان ڤانسان (Saint-Vaincent)، زورقاً إصبانياً كبيراً، به ثمانية عشر من الركّاب، ولكنّه اضطرّ إلى تخلية سبيله لطغيان البحر وهيجان أمواجه، من كثرة العواصف الهائلة به.

* وفي سنة 1109/1698 خرج الأميرال عبد الله ابن عائشة من مرسى العدوتين غازياً على عادته في سفينة كبيرة خاصّة به، مسلّحة بعشرين مدفعاً، وأربع وعشرين منجنيقاً لقذْف الحجارة، وأركب معه فيها مائتي بحّار من خيرة بحّارة العدوتين : سلا ورباط الفتح، وأغدق عليهم العطايا، وزوّدهم بما يكفيهم من المؤون، ومتّعهم بالأجور والرواتب المرضية.

وبهذه السفينة الكبيرة القوية المجهّزة أحسن تجهيز وأكمله، أسر خمسة سفن : ثلاثة فرنسية، واثنتان إنجليزيتان، بعضها بخليج غاسقونيا (Gascogne)[58]، وبعضها قرب بوردو (Bordeaux)، وإذا لم تكن بهذه السفن غنائم مادية كثيرة، فقد أسر فيها ثمانية عشر فرنسياً.

وبعد هذه الانتصارات الباهضة المتوالية عدّة سنين، توجّهت إليه أنظار دول أوربّا، واعتبرته القرصان الماهر المخيف المفزع بشجاعته وجرأته وإقدامه، فجهّزت فرنسا وإنجلترا قطعاً مهمّة من مختار أساطيلها، وأسندت قيادتها لخيرة أميرالاتها، وأمرتهم بمتابعته في البحر واصطياده والانقضاض عليه، والتقاطه، بكلّ حيلة ووسيلة تؤدّي إلى ذلك :

فعملت هذه الأساطيل كل أعمالها، وتتبّعته في عرض البحرين : المحيط الأطلسي، والأبيض المتوسط وكادت أن تأخذه سنة 1110/1698 أسيراً، وتقوده للعبودية دليلاً حقيراً، وهي السنة التي عُيِّنَ فيها سفيراً. ولكنه تفلّت منها، بإعانة أخيه عبد الرحمان، ورجع إلى بلده في أمن وأمان، وسلامة واطمئنان.

وفي مدة اشتغاله بالسفارة والسياسة، ومسائل فداء الأسرى والمخابرة مع البعثات الرهبانية التي كانت تتردّد على السلطان المولى إسماعيل لهذه الغاية، بقي ولده الرئيس محمد بن عبد الله ابن عائشة مُدّةً يتعاطى القرصنة كأبيه، وإنْ كان لم يبلغ مبلغه، ولا سمعته ولا شهرته.

58) خليج بالمحيط الأطلسي يفصل بين إسبانيا وفرنسا.

وكان آخر عمل قام به في هذا الميدان أنه جهز سفينة سنة 1118/1706، وسلّحها بستة عشر مدفعاً، وأركب فيها مائة بحار من العدوتين، وخرج إلى البحر، فصادف سفينتين بريطانيتين، فأخذهما، وأسر من فيهما من الركاب، وعددهم أربعة وستون إنجليزياً، وساقهم إلى سلا (الرباط)، ومنها وجّهم إلى السلطان المولى إسماعيل بمكناس.

وكان هذا أكبر عمل قام به الولد بعد والده، ولم يسجل له التاريخ عملاً مهمّاً بعد هذا.

أمّا الأسرى الذين وُجهوا إلى السلطان بمكناس. فقد قيل إنه عُرض عليهم الإسلام، فأبوا، فامتُحنوا، وسُجنوا بالمطامير.

ولعلّهم صدرت منهم أقوال في الدين الإسلامي ولذلك عوملوا هذه المعاملة.

ثم آل أمرهم إلى إطلاق سراحهم بواسطة القائد علي بن عبد الله[59].

وإلى هؤلاء الأسارى، يشير عبد الله ابن عائشة في كتابه الذي خاطب به ولي عهد فرنسا ووزيرها بونشرتران (Pontchartrain) بتاريخ 6 ربيع الثاني عام 15/1121 يونيو سنة 1709 بقوله :

«وقبل هذه الساعة تعدّوا عليّ في ستين أسيراً كان أخذهم ولدنا الرئيس محمد، ثم إنهم تكلّموا مع خديم سيدنا نصره الله، القائد علي بن عبد الله، وخدعوه وموّهوا عليه حتى أخذوا أولائك الأسرى من غير موجب، وبذلك ازدادت عداوتي مع الإنجليز...».

وسيأتي هذا الكتاب بنصّه الكامل في فصل سياسة عبد الله ابن عائشة وتقلّبه فيها .

أسر عبد الله بن عائشة بإنجلترا

قال دوكاسري في كتابه : «جاك الثاني والمولى إسماعيل »[60] :

لمّا كان جاك الثاني، دُوقُ يورك (Duc d'York)، أميرال المملكة البريطانية، في عهد أخيه شارل الثاني، التقى أسطول إنجليزي في البحر بالأميرال المغربي عبد الله ابن عائشة

59) المجلد VI، السلسلة 2 من وثائق الدولة العلوية، من «الينابيع» لدوكاستري، ص 420، تعليق رقم : 3.
60) ص 48 وما بعدها.

المشهور، وهو أبرز قراصنة العهد الإسماعيلي، زيادة على ما كان له من الحضوة والامتياز عند سلطانه، حتى كان يحلِّيه بأوصاف تدلُّ على ذلك، فأخذه أسيراً، وساقه إلى إنجلترا، فأقام بها في الأسر ثلاثة أعوام، تعلَّم أثناءها اللغة الإنجليزية، وكان يتكلم بها.

وكان له اتصال في مُدَّة أسره بالدوق المذكور، وأثَّر عليه، واستماله إليه، واهتمَّ هذا الأخير به غاية الاهتمام، وطلب من أخيه الملك شارل الثاني المنَّ عليه بإطلاق سراحه، بدون فداء، فأطلق سراحه، ورجع إلى بلاده حافظاً لمنقذه الدوق المذكور الجميل الذي أسداه إليه، وأحبَّه محبة صادقة، وشكر صنيعه إليه، وقرَّر ذلك لسلطانه المولى إسماعيل حتى أثَّر عليه، ومال في سياسته إليه، وكان المولى إسماعيل يهتمُّ بمعرفة ملوك أوربَّا، ويحبُّ الاطِّلاع على ما يروج في بلاطاتهم وبينهم.

وكانت هذه العلاقة أول اتصال بين السلطان والدوق المذكورين، وخصوصاً بعد أن صار ملكاً، وبعد أن خُلع ونُفي لفرنسا، حتى كتب له كتابه المشهور، يدعوه فيه إلى الإسلام[61].

ونشأ عن هذا الميل والاتصال استمرار مواصلة المغرب الودية لإنجلترا، وانتشار تُجَّارها وتجارتهم بالمملكة الإسماعيلية، وضعف المواصلة الفرنسية إلى أن كانت سفارة ابن عائشة، فانعكست القضية كما سيأتي :

ثم قال دوكاستر : «هذا ما عندنا عن أسر ابن عائشة بإنجلترا، وفيه إجمال، لعدم وجود الوثائق التفصيلية بإنجلترا».

سفارة ابن عائشة إلى انجلترا[62]

لمَّا رجع ابن عائشة من الأسر إلى بلاده، وكان بالمقام السامي بين رؤساء البحر في الدولة الإسماعيلية، وله اتصال سابق بإنجلترا ومعرفة بلُغَتِهَا، لطول إقامته أيام أسره بها،

61) هذا الكتاب مؤرخ ب 12 يبراير عام 1109(1698)، وهوباللغة الإسبانية . والنص العربي يحمل تاريخ:النصف من شعبان المبارك عام تسعة ومائة وألف (1109) (26 فبراير 1698).
وقد تمَّت ترجمته إلى الفرنسية من لدن ترجمان لويس الرابع عشر(Pétis de la Croix)، وأصله محفوظ بوثائق وزارة الخارجية الفرنسية، وقد نشر الكل هانري دوكاستري في كتابه «مولاي إسماعيل وجاك الثاني» (ص 101-103).

62) «مولى إسماعيل وجاك الثاني» لهانري دوكاستري، ص 50.

فإنَّ المولى إسماعيل، لمَّا تولّى دوق يورك الملك خلفاً عن أخيه شارل الثاني سنة 1097/1685، اختاره للسفارة إلى لوندرا لينوب عنه في تهنئة الملك الجديد بالمُلْك، وتعزيته في أخيه الراحل.

فتوجَّه ابن عائشة إلى لوندرة ، وقام بمهمته التي كُلِّف بها في سفارته أَحْسَنَ قيام، وجدَّد العهد بمنقذه من الأسر، وتأصلَّت علقة الاتصال والمواصلة بينهما، وحقَّق له اعتبار المولى إسماعيل له، واهتمامه به.

اجتماع عبد الله ابن عائشة بجاك الثاني بفرنسا[63]

لمّا كانت ثورة سنة 1100/1698[64] بإنجلترا، ونشأ عنها خلع جاك الثاني والتجاؤه إلى فرنسا، عاد إلى الاتصال به عبد الله ابن عائشة أثناء سفارته بباريز سنة 1110/1698، فكان يزوره ويتردَّد عليه بقصر سان جرمان أن لي (Saint-Germain-En-Laye) ويقدم له الهدايا، اعترافاً بجميله، وحفظاً لعهده وسابق ودّه، وكلما زاره احتفى به هو وأسرته، وبثّ إليه شكواه ممَّا أصابه من الحرمان من الملك والتشريد في بلاد أجنبية، وربَّما بكى كل منهما حسرة وأسفاً.

ومن جملة الهدايا التي قدم له : كيسان من التَّمْر الجيِّد المغربي، وأربعة وعشرين قطعة من الجلد المدبوغ المغربي الرفيع، وكان يتبادلان، كُلَّما تلاقيا، العبارات الدالة على العواطف القلبية والامتنان.

مذهب ابن عائشة السياسي وتقلُّبه فيه

كان عبدالله ابن عائشة في أول أمره إِنجليزي السياسة ومحبذًا لها، وداعياً إليها، ومناضلاً عنها، منذ إقامته بها في الأسر مدة ثلاث سنين، واتصاله بمخلّصه ومنقذه جاك

---

63) جاك الثاني، من إسرة الستوارت (Stuart) (1633-1701) الإبن الثاني لشارل الأول وهانرييت (Henriette) الفرنسية ؛ وأخو شارل الثاني. حكم إنجلترا من سنة 1685 إلى سنة 1688.
خُلع عن العرش ونُفي، فالتجأ إلى فرنسا مع عائلته، وسكن قصر سان جرمان أن لي (St Germain en Laye)، حيث كانت وفاته سنة 1701.

64) هذه الثورة قامت ضد الملك جاك الثاني، لأنه اعتنق الكاثوليكية، وانحاش إلى لويز الرابع عشر، وتعالى على البرلمان، ومارس سياسة عنيفة، بعيدة كل البعد عن التقاليد البريطانية، ممَّا أثار غضب الجميع ضده، واضطرَّ آنذاك إلى التخلّي عن الملك والالتجاء إلى فرنسا.

الثاني، كما تقدم، وبسبب ذلك كانت السياسة الإنجليزية رائجة في البلاط الإسماعيلي، وأظهر المولى إسماعيل انحياشه إلى أسرة الستوارت (Les Stuarts)[65].

وفي مقابلة ذلك كان ابن عائشة يُغري المولى إسماعيل بالتصلُّب أمام الفرنسيين في مسائل الأسرى والتجارة ببلاده، ويُحرِّضه على مُعَاكَسَة قناصلهم، ومنهم القنصل إسطيل (Estelle)، ويتَّهمه بالجاسوسية، واتهمه مرة بأنه يجلب البارود والبنب إلى مرسى العدوتين، لا لمصلحة السلطان، ولكن للمناوئين له، أو استعداداً لنزول الفرنسيين بها في وقت من الأوقات، وأنَّ ذلك الكور والبنب يُجلب من معامل طولون Toulon[66]، حسبما حققه الأسرى المغاربة الذين رجعوا من هذه المدينة، إلى أنْ اضطرَّ القنصل المذكور إلى إقامة الدليل على أنَّ ذلك الكور والبنب المقصود به إعانة الدولة المغربية لا غير[66م].

ثم حدثت حوادث في الجو السياسي، فَأَثَّرَتْ عليه، ونسي ما كان يدعو إليه، وقلب ظهر المجن للإنجليز، وحوَّل وجهه شطر الفرنسيين.

وكان من جملة هذه الحوادث والأسباب، الانقلاب الذي وقع في إنجلترا سنة 1100/1698، ونشأ عنه خلع صديقه جاك الثاني وفراره إلى فرنسا، فتعصَّب له، وبثَّ في فكر السلطان ظلم الإنجليز لسلطانهم واغتصابهم لحقوقه، وكانت النتيجة انقلاباً في السياسة المغربية نحو إنجلترا، لم تنقطع معه المواصلة، ولكن توتَّر حبلها.

* سفارة ابن عائشة إلى فرنسا

واستمرَّ الحال على ذلك إلى أن توجَّه ابن عائشة سفيراً إلى فرنسا سنة 1100/1698، واتصل برجال حكومتها وأقطاب السياسة فيها، وقابل ملكها، وزار متاحفها ومعاهدها ومعابدها، وأقيمت له الأفراح والحفلات في قصور الأشراف والمنتديات العامَّة، والفرنسيون يعرفون كيف يحضرون ذلك، ويجلونه، ولهم مهارة وتقدم فيه، فأدهشته حضارتهم، وأُعجب بها كل الإعجاب، فكفر حينئذ بالإنجليز، وأعلن انحياشه للفرنسيين، حسبما صرح بذلك في

65) أسرة سكوتلاندية، خرج منها ملوك سكوتلاندا منذ 773/1371، ثم أصبحوا ملوكاً لإنكلترا ابتداء من 1012/1603 إلى سنة 1100/1688.

66) حاضرة مقاطعة «الفار» (Le Var) بأقصى جنوب فرنسا، ومرسى عسكري كبير على بحر الأبيض المتوسط، وبه دار صناعة الأساطيل.

66م) «إسماعيل العظيم إمبراطور المغرب» لـ : دوفانتان ماكسانج، ص 223.
Le Grand Ismaël, Empereur du Maroc par Defantin Maxange. Paris 1929.

كتابه الذي خاطب به ولي عهد فرنسا ووزيرها بونشارطران (Ponchartrain) بتاريخ 6 ربيع الأول عام 1121 الموافق لـ 5 يونيو سنة 1709 يؤكِّد لهُمَا فيه إعجابه بفرنسا، ويعلمهما بأنَّ المولى إسماعيل كتب لملكة إنجلترا يتوعَّدها، ويحبِّذ عمله، ويصرِّح بعداوته للإنجليز لمّا عاملوه به لمّا كان أسيراً عندهم، ويعرض على الفرنسيين مساعدتهم على أخذ جبل طارق منهم، ويطلب كتمان ما أخبرهم به، خوفاً أنْ يطَّلع عليه السلطان ويلحقه شرٌّ منه.

وهذا الكتاب آخِرُ ما وقفنا عليه من رسائله السياسية.

وأمضى عليه معه عامل سلا الحاج محمد معنينو السلاوي، ونصه :[67]

بسم الله الرحمان الرحيم

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

﴿ومن يعتصم بالله فقد هُدي إلى صراط مستقيم﴾.

من خديم المقام العالي بالله، وربي نعمته، المتشرف بخدمة جنابه، وملازمة أعتابه الرئيس عبد الله ابن عائشة السلاوي داراً ومنشئاً.

إلى الدوفان، ولد عظيم الفرنسيس، الطاغية لويس، والمنيستر بونشارطران، وكافة أهل الديوان الفرنسي.

سلام على من اتبع الهدى، وسلك سبيل الحق واهتدى.

أمَّا بعد، فاعلموا أني ما زلت ولا أزال أشكركم، وأذكر ما عملتم معي من الخير لضيفي نصره الله، حين وجّهني، أيده الله، باشادوراً إليكم ذلك العام، وأبالغ في حسن ملاقاتكم، وحسن مباشرتكم وإكرامكم لنا، وتعظيمكم لجناب سيدنا نصره الله، حتى قرَّرت عنده، أيده الله، محبَّتكم له، ومودَّتكم لخدمته، والموالات له، والكلام معه، والانحياش إلى جنابه الأعظم أيده الله، وذلك كله إقرار بما عملتم معنا من الخير، لأنَّ الاعتراف بالخير وشكر الوسائط واجب عندنا في ديننا.

ولمَّا رأيت الآن سيدي نصره الله، كتب لطاغية إنجلترا آن الرَّان (La Reine Anne)[68] وهو نصره الله يتوعَّدها، ويهدِّدها ويقول لها في براته، نصره الله : «والله لو أنَّ العرب

67) المجلد VI، من «عيون تاريخ المغرب غير المنشورة»، السلسلة 2 من وثائق الدولة العلوية، ص 413، وما بعدها.

68) كانت بنت جاك II، اعتلت عرش إنجلترا من سنة 1114/1702 إلى سنة 1126/1714.

يساعدوننا على ركوب البحر وركوب السفائن والسفر فيها، لما تركنا أحداً من الإنجليز يَمُرُّ بكوشطة البوغاز، ولكنّ العرب لا معرفة لهم بأمور الحرب بالبحر، ولا خبرة لهم بشؤونها، ولا يعرف العرب إلا ظهور الخيل». وقد حذرها سيدنا، نصره الله، لِيَلاَّ تغترَّ هي بالإنجليز، مخافة أن يُسَوِّلوا لها شيئاً من الحماقة، أو يُزيِّنوا لها في عداوة المسلمين، وقال لها : فإياك ثم إياك أن تَغتَرِّي بكلام الإنجليز، فإنَّهم لا عقول عندهم ولا يخفاكم أنتم ما بيني وبين الإنجليز من العداوة، وما عملوا في من العيب أيام كنت أسيراً عندهم.

وقبل هذه الساعة تَعَدَّوْا في ستين أسيراً كان أخذهم ولدنا الرئيس محمد، ثم إنهم تكلّموا مع خديم سيدنا نصره الله ، القائد علي بن عبد الله وخدعوه وموّهوا عليه، حتى أخذوا لي أولائك الأسرى من غير موجب.

وبذلك، ازدادت عداوتي مع الإنجليز، مع ما رأيت من سيدي، نصره الله، من غضّه الطرف منهم، ولاسيما حين كان سيدنا، نصره الله، وجه إليهم خوسي دياس (Jose Dias)، مولى دار البارود، السبنيولي، وأعطاه، نصره الله، أربعة أشبال من أشبال السباع، على أنه يأتيه بواحد[69]... أرقط، ويقضي له بعض الحوائج، فأبطأ ذلك النصراني عن سيدنا، نصره الله، ولم يظهر له خبر، ولا جاء من عنده كتاب. ووالله، لقد كان سيدنا، نصره الله، غاظه ذلك وأعرض عن الكلام مع الإنجليز، وكرهه، وكتب إليهم، وقال لهم : «ذلك الصُّلح، وتلك المهادنة، التي كنتم تعملون مع خديمنا القائد علي بن عبد الله لا علم لنا بها، ولا موافقة لنا عليها.

واليوم إذا أردتم الكلام، فمعنا تتكلمون. وإذا أردتم الشر فمعنا تتكلمون، وإذا أردتم الخير فمعنا تتكلمون».

وأنتم تعرفون أني نبغيكم، ونميل إليكم، ونوثركم على الإنجليز، وغيرهم، لما سلف لنا معكم من الخير. واليوم إذا أردتم الكلام مع سيدنا، نصره الله، والمهادنة معه، والانحياز إلى جانبه العلي بالله، فبادروا، واعزموا، وابعثوا واحد الباشادور يتكلم مع سيدنا، نصره الله، ونحن نقف لكم في هذه المسألة، ونعينكم على قضائها عند سيدنا، نصره الله، فإنه أيده الله يثيق بكلامنا في جانبكم.

وإذا كتب الله لكم شيئا من الخير مع ضيفنا، نصره الله، فجبل طارق لا تعدوه إلا في يدكم، ولا تعرفوه إلا يصير إليكم، بحول الله وقوته، ولا يبيت فيه الإنجليز حتى ليلة واحدة،

69) بياض بالأصل المنقول منه.

بحول الله وقوته. وإذا يسرَّ الله عليكم في قبض جبل طارق، ففي ذلك خير كبير، وبرّ العرب قريب منكم، وكل ما يخصّكم، وكل ما تحبّونه عند ضيفنا، نصره الله، نقضيه لكم، ولا تُخسِّروا لكم غَرَضاً.

وهذه المسألة إنا نتكفل لكم بها إن شاء الله، فإنْ كان لكم غرض في هذا الكلام، فبادروا به، واعزموا، واسبقوا إلى الكلام فيه مع ضيفنا، نصره الله، قبل أن يرجع جواب الرّينة آنّ.

وربَّما يطلبون الصلح، ويرغبون في الخير مع سيدنا، نصره الله تعالى، فلذلك أردت أن تسبقوا أنتم. وهذه نصيحة مني إليكم، على قدر الخير الذي بيني وبينكم.

وإنْ لم تكن لكم إرادة ولا رغبة في جانب سيدنا، نصره الله، فاستروها في هذا الكلام، ولا تبرزوه، ولا تفشوه لآخر، لأنَّنا نخاف أن يسمعه سيدنا، نصره الله، وربما يلحقنا منه شيء، لأننا نخاف من سيدنا، نصره الله، الخوف الكثير.

وهذه المسألة ، إنَّما كتبناها لكم من تلقاء أنفسنا ، والجواب يأتينا بالعزم ، ولابد .

والسلام على من اتبع الهدى

وفي السادس من ربيع الثاني عام واحد وعشرين ومائة وألف

(6 ربيع الثاني 15/1121 يونيو سنة 1709)

وكتب مُكرِّراً إسمه : خديم المقام العالي بالله القبطان بن عيشة، وفقه الله، أمين، أمين،

وخديم المقام العالي بالله : محمد مَعْنِينُ السلاوي، وفقه الله، آمين

استدراك

وهذا الرجل الذي كتب معي البراة من بلادنا، وتشاورنا معه على هذه المسألة، وعلى هذه النصيحة، وهو من خيار خدام سيدنا، نصره الله، وهو اليوم حاكم سلا.

وعمه الحاج علي مَعْنِينُ السلاوي[70] كان سيدنا، نصره الله، وجَّهه إليكم باشادوراً قبلنا، وهو يعرفكم ويبغيكم.

70) الحاج علي مَعْنِينُو هو الذي رافق الحاج محمد تميم في سفارته إلى فرنسا سنة 1092/1681 و 1682-1093.

وهذه المسألة كتبناها باتفاق واحد، وأنتم تجاوبوا لنا عليها ولابد .

وكتب القبطان : بن عيشة، وفقه الله.

والدي يوخذ من هذا الكتاب صراحة، هو أنّ عبد الله ابن عائشة تطّور في سياسته الخارجية، بعد سفارته إلى الديار الفرنسية، فأعلن إعجابه بفرنسا وإعانته لها، وعداوتة لإنجلترا.

وقبله، صدرت منه مكاتب أخرى كلها تدلُّ على هذا الميل، والانقلاب السياسي، والمجاهرة بالدعاية إليه.

وقد أثَّر على المولى إسماعيل بدعايته، فأصدر كتاباً إلى الملك لويز الرابع عشر يخبره فيه بأن ابن عائشة يذكره دائماً عنده بخير، ويثني عليه، وعلى وزرائه، لحسن معاملتهم له، ويطلب منه أن يوجِّه له بعض المهندسين لبناء قنطرة مهمَّة ببلاده،

ونصه :(71)

بسم الله الرحمان الرحيم

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

لا إلاه غيره

ولا رب سواه

من عبد الله، المعتمد على الله، المفوِّض جميع أموره إلى مولاه، أمير المومنين، المجاهد في سبيل رب العالمين، الشريف الحسني، أيده الله.

(الطابع الشريف)

إلى لويس، عظيم جنس فرانصية، وصاحب كرسيها وولايتها، سلام على مَنْ اتبع الهدى، وآمَنَ بالله ورسله ثم اهتدى.

أما بعد، فاعلم أن خديمنا الباشادور، القبطان، عبد الله ابن عائشة السلاوي، لمَّا رجع إلينا من عندكم، وآب من وجهته إليكم، وكنا نسأله عن أحوالك، وغاية تصرفك، وعن أحوال أهل ديوانك، الخاصّ بك، وعن تصرفاتهم بالنسبة إليك، فرأيناه، وسمعناه يثني عليك، ويذكرك بخصال الملوك، ولا يُقصِّر في حقّك بشيء من جميع ما يرجع إلى أبّهة المُلك، وقدر السلطنة،

71) المجلد V من «عيون تاريخ المغرب غير المطبوعة»، السلسلة الثانية، ص 458، من وثائق الدولة العلوية.

وناموسها وشروطها وقوانينها. ويذكر ذلك بمحضر القُوَّاد والكُتّاب وأكابر المملكة وأعيانها ووجوهها، ولا يجحد لك برواية ولا إحساناً إليه، ولا اعتناءً بشأنه، وقط ما ذكر مسألة عنك تحطّ من منصب المملكة وواجبها.

ومن جملة ما أُخبر به عنك وعن أهل ديوانك، لمّا سألناه عنك، وعن كيفية تصرُّفك وتصرفهم، قال لنا : إنك إن أحببت مسألة، وعزمت عليها تَعْمَلُهَا، ولا يردُّك عنها أهل الديوان، ولا يصدّونك عن عملها، وهم إذا أبرموا أمراً وعوّلوا عليه، وسمعته أنت، لا تمنعهم منه ولا تَردُّهُم عنه، ولكن مع ذلك مرجع الحلّ والعقد إليك في الحقيقة، فأعجبنا ذلك، واستحسناه منك ومنهم، فإن الملك لا يُطْلق عليه إسم الملك إلاَّ إذا كان له التصرُّف المطلق من غير حجر عليه.

وما رأينا هذا الرجل الباشادور غاظه الحال، ولا نسب بعض الرغبة لأهل الديوان عن رأيك ونظرك إلا في مسألة لم يذكرها لنا إلا بعد مدة، وهي مسألة ما أتى به من عند أهل ديوانكم، وأنهم قالوا له : بيننا وبينكم گيرّة، وذكر أنَّك راودتهم على المهادنة معنا كثيراً، وقلت لهم : هادنوا هذا الرجل، فلم يساعدوك، وما ساعفوك، وخاصمناه على تأخير هذا الكلام عنا، ولماذا لم يعلمنا به حيث جاء، فاعتذر لنا وقال : والله ما رأيت لذكر ذلك لضيفي، نصره الله، وجهاً ولا فائدة، فديوان الفرنصيص ما معهم كبير تمييز في هذه المسألة وما عبت عليهم غيرها، وفي أي شيء جاؤونا، سواء كان پّي (Paix)، أو گيرّة (Guerre)، فما عرفوا في هذه المسالة شيئا، ولا أحسنوا فيها رأياً، ولا تدبيراً، ولا نظراً. فالمعاهدات إنما يحرص الناس عليها إذا هم رأوا غرّة ينتهزونها، أو فائدة يحصلونها، ويفوزون بها. وأي غرة يرى الفرنصيص في نواحي المغرب، وماذا عسى أن يحصل عليه إذا أتت سفنه وقواربه، وهَبْ أنهم أرادوا رمْي البونبات كعادتهم، فعلى من يرمونها. وهل يرمونها إلاَّ على الدوم والفسيح من الأرض، فما تَمَّ إلاَّ الدوم والساحل الذي لا يتضرر ببونبة، ولا غيرها من غاية ضروبهم وحركاتهم . وهل توهّموا أو ضنّوا أن يعاملوننا نحن كأهل تونس وطرابلس، ودابة الجزائر، فنحن، والحمد لله، ما عندنا شيء بالكوشطة(72) نهتم به أو نهادنهم من أجله، ولا يلحقنا ضرر منهم، قلّوا أو كثُروا. فلا يجب علينا أن نخبر ضيفنا، أيده الله، إلاَّ بمن يروم رمي المغرب بالجنود والعساكر في البر، ولا يخطر لهم ذلك على البال، ولا طماعة لهم فيه بوجه ولا بحال، إذ هو كما علمت من حيز المحال، وعقل ملكهم لويس أفضل وأرجح وأصوب من عقولهم في هذه المسألة. فإنه تحقق هذا وعرفه وميّزه، وكان يراودهم ويرغبهم في المهادنة، حيث لم ير للكيرة معنا وجهاً ولا فائدة.

72) لعلها كلمة كُويسطة (Cuesta) الإسبانية التي تعني الساحل، وبالفرنسية (لاكوط) La côte.

فعلمنا من كلام هذا الرجل الباشادور المذكور فضيلة عقلك ورجحانه على عقولهم، وكذلك جرت عادة الله سبحانه أن عقول الملوك أيا كانوا تفضل عقول من عداها من الخاصّة والعامّة.

ثم لم نزل نسأله على حسب المؤانسة والمحادثة عن غاية بلادك ومساحتها وبناءاتها، فذكر لنا أنه رأى هنالك بناءات أعجبته واستحسنها[73]، وشكر صُنّاعها وعملتها ومهندزيها الذين بنوها، فقلنا له : ماذا ترى إن نحن بعثنا لصاحب فرنسية لويس على أن يوجه لنا بعض الصناع البنّائين من الذين شكرت واستحسنت صنعتهم، أيبعثهم لنا ؟ فقال لي: كل ما يطلب منه ضيفي، نصره الله، من مثل هذا وأكثر منه أعز ما عنده قضاؤه بطيب نفس منه.

وقد عزمنا بتوفيق الله أن ننشئ قنطرة من القناطر في مكان مستوعر مرتفع ومنخفض يحتاج إلى هندسة ونظر كبير، فأحببنا منك أن تُوجِّه لنا بعض الصنّاع المعلّمين البنّائين الذين لهم الخبرة بأمور البنيان، ونستوصي بهم خيرا، ونجازيهم على عملهم أحسن المجازات، وإذا كانوا يخدمون هنالك بريالة، أعطينا لهم نحن ريالتين تكبرة بهم، واحساناً إليهم. وما زالت الملوك تتقاضى الحوائج بينها، وتهتم بأمور بعضها أي اهتمام، في الجاهلية والإسلام. ونحن مقتادون في هذا بسلفنا الصالح، رضي الله عنهم، وكانوا أقرب منا لزمان النبوة والرسالة، فقد ذكر الواقدي، رحمه الله، وهو من الأئمة الجلة، ومن أكابير علماء الملة، أن الوليد بن عبد الملك بن مروان، لمّا أراد تجديد المسجد الشريف، بعث إلى ملك الروم، جدك، إن كان لك به اتصال، وكنت من أولاده بالحق كما تدعو، وكما يذكر عنك، وأعلمه أنه أراد أن يجدد بالبناء مسجد سيدنا رسول الله ﷺ، وسأله أن يبعث له أهل البناء العارفين بإتقان البناء وأهل الحدق من الفعلة والصنّاع، فبعث إليه ملك الروم بمائة ألف مثقال، ومائة صانع، فأمر الوليد عمر بن عبد العزيز، قدّس الله وجهه، أن يتولّى النظر في ذلك، ففعل، وكمل البناء على أكمل حالة، وأفخم هيأة، وأحسن بنية، وأتم إتقان. وملك الروم على ولايته ونصرانيته، والوليد أمير المومنين على إسلاميته، فهذه المسألة لا تتوقف فيها، وكن مقتدياً بمن سلف في شأنها.

وإذا توقّف لك غرض أو حاجة لا يقدح قضاؤها في شيء من أمور الدين، قضيناها لك نحن كذلك عن طيب نفوسنا.

---

73) راجع ج 3، ص 134 و135.

ثم اعلم أيضاً أنّ الباشادور عبد الله ابن عائشة المذكور، أخبرنا عن زرد رآه عندك[74]، إذا أنتم جعلتموه على لوحة يتحرك تحركاً بيناً، فأذكرنا زرداً كان لنا من الدروع الداوودية، وانجلى لنا في الخزانة أو غيرها، ولا عرفنا يد من دخل هذه مدة تنيف على عشرين سنة، فأحببنا أن نَرى ذلك الدرع الذي عندكم، فإن فيه ما يُرى على ما وصف لنا منه الباشادور، وأردنا منك أن تبعثه إلينا بنفسه حتى نَرَاهُ على حسب الرؤية والمراجعة، ونردُّه إليكم كما جاءنا إن شاء الله تعالى.

ومثل هذه المسائل لا تتوقَّف فيها الملوك، ولا تضنّ بها، سواءً كانت سلماً أو حرباً، بل هي من مفاخرتهم فيما بينهم.

فنؤكّد عليك أن تعتني ببعث ذلك الزرد على وجه الرؤية والردّ على حال سبيله.

وتبعث لنا المعلمين البنّائين، كما أحببنا منك، لِلْغَرَضِ المذكور.

وقد كنا أثرنا (كذا)، عليك، وألمعنا إليك ببعض ما في هذا الكتاب في كتاب كنا سطَّرناه إليك قبل هذا، فالعمل عليهما معاً. وهذا غاية ما أحببناه منك الآن، والله وليُّنا في السِّرّ والإعلان، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

كُتب في الثاني عشر من جمادى الأولى سنة إحدى عشرة ومائة وألف. انتهى.

(12 جمادى الأولى 5/1111 نونبر 1699)

ومع هذه الرسائل المتبادلة بين الجانبين، وسعي ابن عائشة في ربط صلة الوصل بين الطرفين، فإن مسألة الأسرى بقيت مُعلَّقة، ولم يُوفّق إلى حلّها رجال الدولتين ، وآلت إلى بعثات الفداء الرهبانية، وتولّى المخابرة فيها القائد علي بن عبد الله، حسبما تقدمت الإشارة إليه في محله.

ولاية عبد الله ابن عائشة النَّظَرَ في الشؤون البحرية والمخابرة مع الدول الأوربية

لمّا ألفت هذا الرئيس القرصاني الشهير أنظار الدول الأوربية نحوه، بأعماله القرصانية، وغنائمه البحرية المتعددة، تحوّل نظر السلطان المولى إسماعيل إليه، وكان حسن الاختيار في

74) ورد الكلام عن هذا الزرد في رسالة أخرى من المولى إسماعيل إلى لويز الرابع عشر مؤرخة بـ 2 صفر 30/1111 يوليوز 1699.

معرفة الأكفاء الذين يحمون الدولة، ويتحمّلون عبء شؤونها، ويديرون دفة سياستها، براً وبحراً، داخلاً وخارجاً، فيجتبيهم ويصطفيهم ويقرّبهم منه ويدنيهم، فجعله من رجال دولته، وأعيان قواده، وأميرال بحريته، فالتحق بركابه، وعُدَّ من عيون أصحابه، فكان يَغْشَى مجالسه، ويستدعيه إليها، فيجالسه، ويسمع أحاديثه ويُؤَانِسُهُ، ويسند إليه المهمات، ويقدمه للمخابرة في المعضلات، إذا اشتدت الأزمات، وصحَّت العزمات، ويأخذ رأيه في كل مهمة هامَّة، ومصلحة عامَّة.

ثم أسند إليه النظر في الشؤون البحرية، والمخابرة مع الدول الأجنبية، والبعثات الرهبانية، وأصدر له ظهيراً شريفاً بذلك، يقول فيه :(75)

بسم الله الرحمان الرحيم

وصلى الله على سيدنا ونبينا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

عن أمر عبد الله، المتوكِّل على الله، المفوِّض أمره إلى مولاه، في سرِّه ونجواه، أمير المومنين، المجاهد في سبيل رب العالمين، أيده الله ونصره، وأنفذ شرقاً وغرباً أوامره، بمنّه أمين.

ثم الطابع الشريف ، بداخله :

إسماعيل بن الشرف الحسني أيده الله

﴿إنما يريد الله أن يذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾

مسطورنا هذا أسماه الله وأعزّ أمره، وخلّد في صحف المجد والمكرومات ذكره، وأعلى في سماء المعالي والصالحات قدره، وأسعد زمانه المبارك وعصره، يستقرّ بيد حامله خديمنا الأحظى الأقرب الأنصح الرئيس الأكبر القبطان عبد الله ابن عائشة وفّقه الله وسدّده، وإلى ما يرضيه تعالى ألهمه وأرشده، بمنّه.

يُتعرّف منه بحول الله وقوته، أننا عملنا له، وفَوَّضْنَا فوق التفويض، ووكلنا إليه بعد الله جلَّ وعز، النظر والكلام في سائر أمور البحر، وأسندنا إليه، بتوفيق الله وحسن عونه، جميع ما هو من خطته في السرِّ والجهر، وفوَّضنا له في جميع مصالحه وقوانينه المألوفة له، وعلى مقتضى جري عوائده الجارية المعروفة، وعلى النهج الذي يسوغ شرعاً ويُقبل طبعاً، ويكون

---

75) المجلد IV من «عيون تاريخ المغرب غير المطبوعة» السلسلة 2، من وثائق الدولة العلوية، ص 673 وما بعدها.

نظراً وحقّاً وصواباً وسداداً، ويرتضيه الوقت، ويبدو له هو صلاح، ويقبله العقل، ويؤدي إليه النظر والاجتهاد والنصح والحزم في جميع أوقاته، من عقد وإبرام، أو سلم أو غير ذلك، مع جميع أجناس النصارى. وقد كلنا إلى الله وإلَيْه هذا الأمر كما يجب، وثقنا به، ووثقنا به فيه، وألقينا إليه جميعه، وطوّقنا عنقه أمانته، لمَا عرفنا فيه، وبلوْناه منه من الجدّ والنصيحة للّه، ولمن ولاّه الله أمر عياله، في جميع أحواله كلها، ولرسوخ محبّته وقربه، وقديم خدمته، ولكونه أعْرَفُ برياسة البحر وخطّته، وأكثر ممارسةً ومماسةً بأحوال أهله ودويه، وأدرى بما يليق به في ولايته هذه، وفي جميع شؤونه.

وعليه بالمحافظة والرعْي الجميل لمَا قلّدناه إياه من هذه الأمانة. وأن ينهج فيها مناهج أهل الجدّ والصدق والديانة، وأن يراقبَ الله تعالى في جميع أحواله، في سره وإعْلاَنه، وأن يمتطي مطية النصح، ويسلك بنفسه سبيل النجح لله ولرسوله ﷺ، ولجميع المسلمين، في كل وقت وحين، بحيث لا ينازعه في هذا منازع، ولا يدافعه عنه مدافع، ولا يُعَارِضُهُ فيه معارض، من كل أحد، كَائِناً من كان.

والله تعالى يوفقنا وإياه لما يحبه ويرضاه، في سره ونجواه، وحسب الواقف عليه العمل بمقتضاه، ولا يخالفه ولا يتعداه، بمنه، ولابد.

والسلام.

وكتب في أواسط ربيع الأول النبوي من عام عشرة ومائة وألف.

(أواسط ربيع الأول النبوي 1110/أوائل العشرة الثالثة من شهر شتنبر 1698)

ومن هذا الظهير الإسماعيلي الشريف تُعلم منزلة ابن عائشة عند المولى إسماعيل، ومقدار التفويض الذي أعطاه له في المُهمَّة الكبرى في ذلك الْعَصْرِ، والتي أسندها إليه. ويؤخذ منه أنه كان عنده بمنزلة وزير البحر، وهو وزير الخارجية سابقاً في اصطلاح الدولة العلوية.

ويؤخذ أيضاً من عِدَّة رسائل صادرة من ابن عائشة إلى بعض أصدقائه من الوزراء والتجّار، بعد رجوعه من سفارته ببلادهم، أنَّ المولى إسماعيل وسَّع نطاق ولايته ، وزاده حظوة وقرباً منه .

ومن ذلك ما جاء في الرسالة التي خاطب بها الوزير بونشانطران (Ponchartrain) وولده موريا (Maurepas) بتاريخ آخر ربيع الأول عام ألف ومائة وإحدى عشر (آخر ربيع الأول 25/1111 شتنبر سنة 1699)[76] :

---

76) المجلد V من «الينابيع» السلسلة 2، من وثائق الدولة العلوية، ص 406 والتي تلي.

«قد كلفني ضيفنا المنصور بالله خدمته في البساط الشريف، ولا نغيب عنه لمحة إلاّ فيما يرضيه، وأسقط عني ركوب البحر طول عمري، أدام الله علينا حياته ، وألزمنا النظر والتصرُّف في كل ما يرضي من صلاح المسلمين، وأدخلني سرايا أنفاضه بحضرته المكناسية، وخيّرني فيها حتى اخترت منها ستين نفضاً من النحاس، بعضها من أنفاض العرائش والمهدية والسفينة الإصبانية التي حرّثت بتطوان[77] وغير ذلك ممَّا لا يوجد الآن بخزانة أحد كائناً من كان.

وقال لي : «يا ابن عائشة، فرِّقها على حصون ثغورنا، زيادة على ما فيها، وألزمناك النظر في مصالحها بعين قلبك، فاعتني بها من صميم قلبك، وقد كنت عاهدتكم أن أخبركم بما سألقى يوم سنتلاقى مع سيدنا نصره، وهذا وفاء بعهدنا». اهـ

ومنه ما كتب به للقنصل إسطيل (Estelle) بتاريخ فاتح رجب عام 23/1111 دجنبر سنة 1699، مؤكِّداً عليه في قضاء ما كلّفه به من الحوائج، وتنجيز إطلاق سراح بعض الأسرى، ثم قال له :

«والحمد لله لقد زادنا ضيفنا عزّاً ورفعة، وأسند إلينا حكومة البلاد وحوزها ، وقيادتها لجلب نفعها، وفوّض لي في كل شيء، وفي حديثكم الذي كنا عليه عند سيدكم، وكل ما يحدث عند الوزراء من الكلام فيما كنا عليه عندكم وها أنا لم أزل على تفويضه ومضائه على حسن نظرنا ومرادنا، فاقطع معهم ما يريدون في جوابنا، والكمال على الله، وعلى سيدنا نصره الله».

ومثله ما جاء في رسالة خاطب بها زوجة صديقه التاجر جردان (Jourdain) بتاريخ 23 رجب 14/1111 يناير سنة 1700، بعد ذكر أمور تتعلَّق بصلته معه وتجارته بالمغرب، ونصه : [78]

... «وقد أعطاني سيدنا، أيده الله، الأمر في البلاد وحوزها، وجمع لي كلامها وتفويضها، وما بقي لأحد كلام في هذه البلاد، وأكَّد علي في الكلام مع سيدكم، فيما كنا عليه عنده فإذا أتمَّ الله ذلك على يدنا، ها نحن نقبله، وأعلمناكم به، وكل مَنْ يأتي ببراوات من سيدكم، نسبق لهم الخدمة، حتى يبلغوا نهاية مرادهم».

---

77) راجع قصة هذه السفينة في المجلد II من السلسلة 2 من «الينابيع» المذكورة آنفاً، ص 413 و 414.

78) المجلد VI السلسلة 2 من وثائق الدولة العلوية بفرنسا، ص 92.

والذي يُفهم من هذه الرسائل كلِّها، أنَّ السلطان المولى إسماعيل كان راضياً على ابن عائشة، ومُقرِّباً له، وله به ثقة كاملة، كما يُفهم أيضاً من قول ابن عائشة : «إن سيدنا أسند إلي حكومة البلاد، وأعطاني الأمر والحكم في البلاد وحوزها»، يعني ولاّه عليها.

ولم يعيّن ابن عائشة هذه البلاد، وإن كان يريد بلده، وهي العدوتان سلا ورباط الفتح. فقد كانت آخرَ العشرة الأولى من القرن الثاني عشر الهجري، الموافقة لآخر القرن السابع عشر الميلادي، مقسّمة إلى أربعة أقسام. فكان بمدينة سلا القديمة، كما كانوا يعبرون به في ذلك العصر، قائد مستقل، وبسلا الجديدة، وهي رباط الفتح، قائد مستقل، وفي القصبة، قائد مستقل، وبالمرسى، والٍ مستقل.

ولعلّ ابن عائشة أُسندت إليه ولاية المرسى في ذلك العهد، لأنه كان أميرال البحر، وهي داخلة في نطاق مأموريته، وفوّض له السلطان في الوسق والوضع منها وإليها، داخلاً وخارجاً، ليطابق قوله، وجلب النفع إليها، وإن كان قوله : «وأعطاني الأمر والحكومة في البلاد وحوزها»، يُفهم منه أنه كانت كلمته نافذة في العمران الذي على مصبّ أبي رقراق كلّه، وما أضيف إليه، والله أعلم.

توسُّطه في خِطبة الاميرة دوكونتي (De Conti) بنت لويس الرابع عشر للسلطان المولى إسماعيل

تقدم لنا أن ابن عائشة لمَّا رجع من سفارته بفرنسا، كان يحدِّث عنها، وعمّا شاهده بعاصمتها الباريزية من الغرائب والعجائب التي لم يشاهدها في غيرها، ولا سيما مجتمعها السياسي والعلمي والأدبي الذي كان متجلّياً في ذلك العصر، عصر لويس الرابع عشر، ولعل شمس تلك الحضارة كما قال بعض كتاب ذلك العصر الفرنسيين[79]، أدهشته وأغشت عينيه أشعتها اللاّمعة في بساط «الملك الشمس» (Le Roi Soleil)، وكان من جملة ما قصّه على السلطان المولى إسماعيل، وحدّثه به في مجالسه، وأوقات مآنسته، عن انطباعاته وما حفظه

79) يعدُّ الكُتَّاب والنقَّاد الفرنسيون عصر لويس الرابع عشر ألمع عصورهم، حيث تجلَّت فيه الحضارة الفرنسية في أبهى حلَلها. وقد قال عنه الكاتب والفيلسوف (Voltaire) في الكتاب الذي خصّه به وهو : (عصر لويس الرابع عشر) : «إنه العصر الأكثر نبوغاً على الإطلاق»، ثم زاد قائلاً : «العبقرية لا يمكن أن تدوم أكثر من قرن ، وبعد ذلك لابد أن تتدنّى».

وبقي راسخاً في ذهنه من شؤون لويس الرابع عشر وأخبار أسرته وذويه، حديثه عن الأميرة الشهيرة دوكونتي (La princesse De Conti)[80] وهي بنت تُنسب له، لأنها كانت وُلدت له من علاقة غرامية مع فتاة تسمى الآنسة دولا ڤاليير (Mademoiselle De La Valière)[81] واعترف بها بعد ولادتها بثمانية أشهر، وألحقها به، وكانت تسمى الأميرة دو بلوا (La princesse De Blois) ثم زوجها لأمير يُسمَّى دوكونتي (De Conti)[82]، فحملت إسمه، ومات عنها، وبقيت أرملة.

فأخبره عنها بأنها بارعة في الحسن والجمال واللطف والأدب والأخلاق الراقية، وقصّ عليه ما شاهده منها أثناء الحفلات والمراقص التي كان يحضرها، وتُقام له في قصورالأمراء والأعيان ، وأنها لها معرفة تامّة بالرقص والموسيقى والاطلاع الواسع على الأدب الفرنسي، وما لها من الصلة المتأصِّلة مع شعراء وأدباء البساط الملكي.

فكلّفه المولى إسماعيل بخطبتها له من والدها الملك، لتكون زوجة له، على مقتضى الشريعة الإسلامية، مع بقائها على دينها إن أرادت ذلك. وحبّذ ابن عائشة هذه المصاهرة الغير المنتظرة، إذ ربما ينشأ عنها تقارب في الوجهة السياسية، والمواصلة الودية بين الدولتين المغربية والفرنسية.

80) كانت تسمى، عند ولادتها، ماري - آنّ دو بوربون.

81) لويز دو لا بوم لو بلان (Louise de la Baume Le Blanc)، دوقة لاڤاليير (La Vallière)، حظية لويز الرابع عشر. كانت لطيفة وجميلة جداً، رغم أنها كان بها عرج خفيف، أنجبت مع لويز الرابع عشر أربعة أبناء، من بينهم ماري - آنّ المتحدث عنها أعلاه.

إلتجأت إلى دير سانط ماري دوشايو (Sainte-Marie de Chaillot)، لمَّا اتخذ لويز الرابع عشر خليلة جديدة، ثم إلى دير الكارميليين (Les Carmélites) بحي سان - جاك (Saint-Jacques)، حيث قضت بقية حياتها في الزهد والعبادة.

82) هو لويز أرمان (Louis-Armand) الأول دوبوربون (De Bourbon)، أمير دو محتد ملكي ؛ أحد أقيال فرنسا، وابن أخي كوندي العظيم (Le Grand Condé)، ومن كبار رجال الحرب بفرنسا في القرن السابع عشر. ولد سنة 1661، وتزوج الأميرة دوبلوا، بنت لويز XIV سنة 1680، وتوفي وهو في الرابعة والعشرين من عمره، سنة 1685 بفونتنبلو (Fontainebleau).

فوجّه ابن عائشة من حينه رسالة في هذا الشأن للوزير بونشارتران، صدّرها بالثناء عليه وذكر عهده ومحبّته له عند سلطانه، يقول فيها :(83)

بسم الله الرحمان الرحيم

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

من عبد ربه، وأسير ذنبه، خديم المقام العالي، والجانب النبوي الشريف أسماه الله، عبد الله بن عيشة، وفقه الله آمين.

إلى صاحبنا، ومن أخذنا معه العهد لقضاء مآرب ضيفنا المنصور بالله، الوزير الأعظم في بلاده ومملكة ضيفه، الإمبراطور دي فَرَانْصِيَة، العاقل، الحادق، موسيو بونشارتران.

سلام على من اتبع الهدى، وسلك منهاج الحق واهتدى، وبعد،

فإني نسأل عنكم سؤال المحبة التي اشترطنا دوامها، واتصال آنائها أساس قوامها، فأعطيت أنت لسانك بالانعام، ويدك لمصافحتنا تمام السلام، ونحن كذلك بالجد والاهتمام. ولم نزل على ذلك حتى قدمت بلادي، وتلاقيت مع ضيفي، أيده الله، ولا كان لي كلام في فرانصية إلاّ وأنت فيه مصدر مشكور، فقلت لضيفي : لو كان بونشارتران أمامك لرضيته من ساعتك، قبل أن تكلمه، لِمَا أعطاه الله من حسن الأدب والعقل الراجح، والتمييزُ من قسمة الله سبحانه، ما بين العجم والعرب.

وقلت له والله الحق كما ظهر لنا، فدخلت في قلبه معرفتك، ورسخت في ذهنه سريرتك حتى عاد يقول لي : «حدثني يا ابن عائشة عن صاحبكم بونشارتران الذي أخذ بمجامع قلبك». فنقول : يا ضيفي، أيدك الله، كل ما قلت لك في حقه قليل. وَقُلْتُ له الحق. فانتهى الأمر، حتى بلغ في قلبه، أيده الله، من حديث بنت الإمبراطور لويس ملك فرانصية سيدكم العظيم في بلاد النصرانية وهي ابنة أخت الدوفان(84) من أمه وأبيه (؟)، والتي هي الآن بلا زوج، المفرق عنه بالموت، فذكرت له أوصافها وحسن أدبها، مع أخيها الموسيو لو دو فان (Monsieur Le Dauphin)، وعقلها وهيئة الملك، وضبط أشغال الآلات الموسيقية وما رأينا

83) المجلد V، السلسلة 2 من «الينابيع»، وثائق الدولة العلوية، ص 482.

84) اسم شخصي أصبح لقباً لولي عهد فرنسا وكان يجيئ في المقام الأول بعد الملك، وبعد عهد لويس الرابع عشر، صار ولي العهد يكني بمولاي (Mon seigneur)، دون أي وصف آخر.

تلك الليلة بدار عمهم موسيو ونسير[85] من عظمة الفرح بنا، وتأدبهم لبعضهم بعضاً بمحضرنا، وشكرنا ذلك على حقه حتى رسخ ذلك في عقل ضيفي، نصره الله، واهتم به أتمّ الاهتمام، فقال لي: «اكتب لصاحبكم الوزير بونشارتران يخطب لنا عند سيده ابنته التي هي أخت الموسيو لو دو فان من أمه، وهي الآن بلا زواج افترقت عنه بالموت»، يأخذها ضيفنا نصره الله، على سنة الله ورسوله المصطفى ﷺ، وتبقى هي على دينها وغرضها وسيرتها، وتجد إن شاء الله فينا كل غرض لتطييب نفسها بما يرضي الله، ويجوز شرعاً إن شاء الله.

فها أنا يا موسيو بونشارتران كتبت لكم بهذا السرّ العظيم الذي حدث في قلب الملك الأعظم، امبراطور مراكش وفاس، فإذا رأيت منه ما يقع ويزداد فيه الكلام المعتمد فيه العقل، فتكلم به أنت مع موسيو جوردان (M. Jourdain) يكتب لي به عزماً، ويكون الجواب بموافقتك على هذا الوجه المكتوب عليه جدا، فأول مركب يظهر من سفنكم القرصانية يكون خط يدكم عنده بالجواب الذي نرجوه مصحح الجهات، ونقدم عليكم فيه من غير معارض على هذه المصاهرة إن كتبها الله بين الملكين.

وهذا يعرفك بأني تكلمت في حق السلطان لويس الخير وعظمته لسيدي، وعظمت ملكه وسيرته ووفاء قلبه مع الناس وأخلاقه لكل أحد، حتى قال لي: «مثل هذا الرجل يُعرف ويُصاحب ويُصاهر». فهذا ما عندنا من أمر ما سطرناه. اهـ

كتب في اليوم الحادي والعشرين من جمادى الأولى عام أحد عشر ومائة وألف.

(21 جمادى الأولى عام 15/1111 نونبر سنة 1699)

ثم أردف هذه الرسالة برسالة أخرى مؤرخة بتاريخ رسالة الوزير، إلي صاحبه التاجر موسيو جوردان صدَّرها بالثناء عليه أيضاً وتجديد العهد به وما يتعلَّق بتجارته بالمغرب التي سياتي الكلام عليها، ثم تخلَّص إلى ذكر خطبة الأميرة لسلطانه فقال:[86]

... وإليك اسمع ما أقول لَكَ يا موسيو جوردان، إنني والله من حيث جئت من بلاد فرانصية، وبلغت مقام ضيفي، نصره الله، وأنا أذكر في جانب السلطان لويس وفي ديوانه

85) ونسير: هكذا. وهي كلمة صعبت قراءتها وفهمها.

86) المجلد V من «الينابيع»، السلسلة 2 من وثائق الدولة العلوية بفرنسا، ص 490 و491.

وملكه وسيرته، وبشره في وجهه وأخلاقه وأغراضه مع جميع الناس، وعظمة ملكه وسطوته على جميع ملوك النصارى حتى رسخ ذلك في عقله، وقال : «مثل هذا الرجل يعرف ويصاحب».

وكان أيضاً من جملة حديثي له ليلة كنا في بلادكم في باريز في دار موسيو[87]، ونْسِرْ(؟) أخي الإمبراطور، وكان هناك موسيو لو دو فان ولد الامبراطور المذكور مع أخته من أمه التي هي الآن بلا زوج، مات عنها زوجها، وذكرت له من أوصافها وأدبها وعقلها وكيف كانت تلك الليلة بنا بالفرح والسرور، فبقي ضيفي متوهماً متفكراً، ويقول لي : «حدثني» فنقول له : بنت ملك فرانصية، فلانة أخت موسيو لو دو فان من أمه وأبيه (هكذا) من أوصافها وأدبها تلك الليلة مع أخيها، وفرحها بنا، وتأدبها بين أيدينا تعظيماً وتكريماً لضيافة خديم ضيفنا نصره الله، ففرح بذلك أشد الفرح، وقال لي قم يا ابن عائشة في الحين والساعة واقدم إلى فرانصية بقصد أن تخطب لي هذه البنت التي ذكرت لي بعض أوصافها، ولا نرى وجهك إلا بجواب يُرضيني، إن رضي الله، نتزوجها على سنة كتابنا وسنة نبينا المصطفى ﷺ، وتبقى هي على دينها، وهيأة سيرة أسلافها، ولا ترى منا إلاَّ ما يرضيها في أمورها كلها.

فلما رأيت منه ذلك، وتحقَّقته منه، وأنه لا يرجع عن هذا الأمر إلاَّ بوجه يبلغ منتهاه، قلت له : يا ضيفي أيدك الله هذا وقت متعذر فيه الركوب في البحر، وسفنهم التي كانت ببلادنا ذهبت لمكانها لما رأت من وقت أهوال البحر وفرتنته.

والآن أكتب إن شاء الله لصاحبي جوردان ليبلغ مكاتبنا لبساط ملكهم، وبراة لصاحبنا الوزير موسيو بونشارتران[88]، إذ هو الذي يكون الواسطة لنا، والمشاور في هذه الحاجة العظيمة، فقال لي : «افعل».

وها أنا كتبت للوزير المذكور بما اقتضى به الكلام في الوقت، ووجهناه إليكم مع هذا الكتاب حتى تبلغه إليه، ويجاوبك عليه، فإن رأى منه ما يبلغ الكلام فيه، فليبعث لنا الوزير

87) اسم موسيو (Monsieur) كان يطلق على أخي الملك بفرنسا. وبعده في الأصل كلمة «ونسر» غير مفهومة.

88) (Louis Phélypeaux, Comte de Ponchartrain) (1643-1727).

عُيِّن كاتباً للدولة في قطاع البحرية سنة 1690. بعد وفاة (Seignelay)، وبقي في هذا المنصب إلى سنة 1699. وعندما أصبح (Chancelier de France)، خلفه ولده (Maurepas) في منصبه الذي كان فيه.

المذكور خط يده الذي نركب به بعض سفنكم القرصانية، فإذا جاءت نركب على بصيرة على الوجه.

وإذا أتبته الله، فمنه يكون الاتصال بالمحبة بين الملوك، وتبقى المزية بما قضى الله على يده مثل هذا.

ومنه يعرف يا موسيو جوردان أنني ما قلت في جانب سيدكم وفي مملكته وسيرته وديوانه ووزرائه إلا الخير الذي ذكرت لك في بلادكم التي نقوله، ونجري فيه حتى يكمله الله ويكمل علينا ما كان في نيتنا من حسنة الأسارى من المسلمين والنصارى. وهذا الحديث استدرج منتهاه إلى هذه الحاجة التي هي في ديوان الملوك المتقدمة أكبر من أمور الأسارى وغيرها. فهي أم الأمور الكبار إذا كملها الله سبحانه، فانظر في أمرك ماذا ترى، وشُدّ حزامك على أحسن المراد، واعلمنا عزماً وبجميع أمورك التي أنت مهتم بها...

ثم رجع إلى الكلام في مسائله التجارية.

ولمّا وصلت هذه الرسائل إلى الوزير بونشارتران والتاجر جوردان، وأطلعا عليها الملك لويس الرابع عشر، أحدثت ضجّة إعجاب في بساطه الملكي. ولكن هذه الخطبة لم تصادف قبولاً. ووقع الاعتذار عنها بالمباينة في الدين والعقائد، والأخلاق والعوائد بين الخاطب والمخطوبة له.

وكانت حديث الأندية والمجالس. وتناقلتها الصحف الوقتية، وأنشد فيها شعراء فرنسا في ذلك العصر قصائد شعرية، تضمّنت وصف محاسن الأميرة المخطوبة التي تجاوزت، على حد تعبيرهم العالم الأوربي إلى العالم الإفريقي، وتناقلها الأدباء والكُتّاب في مؤلفاتهم وكتاباتهم وأبحاثهم الراجعة إلى المواصلة المغربية الفرنسية في ذلك العهد، بل خصّصوها بمؤلفات خاصّة، وكل يُعبِّر عن آرائه وأفكاره فيها بالنقد والتسليم، وتطبيقها على السياسة الوقتية بالتخصيص والتعميم.

والعجب أن هذه القضية مع ما لها من الشهرة والذكر الشائع الذائع في العالمين التاريخي والأدبي الفرنسيين، لا نجد لها ذكراً لدى مؤرخينا وكُتابنا في العهد الإسماعيلي وبعده، لا تصريحاً ولا تلويحاً، مع أنَّ صكوك الرسائل التي راجت فيها وأصولها كلها محفوظة في الأوراق والرسائل الرسمية المتعلقة بالمواصلة المغربية الفرنسية في عهد الدولة الإسماعيلية وعهد دولة لويس الرابع عشر.

ولعلها لم تبلغهم، وما راج فيها كان سرّياً، فبقي غامضاً مطوياً، لم يطلع عليه أحد. ولذلك لم يأت لها ذكر في مصنف من المصنفات ولا ورد[89].

كما أن ابن عائشة الذي راجت على يده وبواسطته، مع شيوع ذكره في العصر الإسماعيلي وشهرته، طواه الزمان طياً، فأصبح نسياً منسياً، وحديثاً مقطوعاً لا مسنداً ولا مروياً. وقد أتى عليه حين من الدهر كأن لم يكن شيئاً مذكوراً.

اتصاله بالتاجر جوردان الفرنسي واتفاقه معه على تأسيس حركة تجارية بالرباط

لمّا كان عبد الله بن عائشة بباريس، اتّصل بأحد أعيان كبار تُجارها المسمى موسيو جان جوردان (Jean Jourdan)[90]، وربط معه صداقة في مجالس الوزراء وأشراف الدولة من

---

89) تعرض لهذه المسالة، مؤرخ الدولة العلوية، الشريف النقيب، المولى عبد الرحمن بن زيدان، رحمه الله، في كتابه : «المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل بن الشريف» (ص 269-272)، وبعدما أبدي استغرابه لها، وتشكيكه في حدوثها، علّق على ذلك بقوله :

« ... وليت شعري، لو صحّت هذه القضية، ولم تَقْتَرِنْ بها قرائن الريب، أي عار ديني، أو أدبي يلحق جانب المترجم (يعني المولى إسماعيل)، إذا سعى لذلك في توثيق عُرى العلائق وتحسينها، وزيادة تأصيل المواصلة، واستتباب الأمن بين الدولتين : الفرنسية والمغربية، لينام الكل على مهاد الأمن والراحة، الموجبين لنموّ التجارة ووفور الثَّرْوَة، وغير ذلك من المقاصد السياسية الحسنة ...»

كما ذكرها الدكتور عبد الهادي التازي في مؤلفه : «التاريخ الدبلوماسي للمغرب» (ج 9، ص 85-86-87)، حيث قال :

« ... وقد عرفت هذه الفترة حدثاً ردّدته الوثائق الفرنسية، تعززها بعض المراسلات المغربية، ويتعلق الأمر بخطبة السلطان المولى إسماعيل للأميرة الفرنسية دوكونتي (De Conti)، ثم ذكر الرسائل الثلاث المتعلقة بهذا الحدث، وعلّق عليه بقوله : «مهما يكن، فإن هذا الحدث لو تمّ لكان له أثر دون شك على صلة العالم الإسلامي بالعالم المسيحي».

90) ولد سنة 1667، وأصله ربما من مرسيليا. تزوج سنة 1690 بماري نيكول كييوبون (Marie-Nicole Guillebon)، التي كانت ترتبط عائليا بأحد القناصل.

يبدو جان جوردان سنة 1699 كأحد أغنياء البورجوازية الباريزية، صاحب مكاتب، وعضو نشط في بعض الشركات التجارية والمالية.

كما كان مستشاراً – كاتباً للملك، وتاجراً مستورداً للتوابل، وكانت له عدة مخازن (Magazins) في مدن ليلْ (Lille) ولاَرُوشيلْ (La Rochelle) ومرسيليا ونانط وأورليان كما كان مستورداً لمنتوجات البلطيق والشرق، وكان مساهماً في معمل صُنْعِ المرايا بضاحية القديس أنطوان (Saint Antoine).

توفي جوردان سنة 1725، وهو في الثامنة والخمسين من عمره.

الأمراء التي كان يغشاها، ويتبوأ مقاعدها، ويتعرَّف بمن يلوذ بمغناها، أو يطوف حول حماها.

وكان هذا التاجر من أعظم وأشهر تُجار باريز في ذلك العصر، وله شركات واتصالات ومواصلات بجل أشهر مدن فرنسا ومراسيها، ومراكز للجلب والتصدير بواسطة سفنه التجارية الخاصّة به، المتردِّدة بين سواحل آسيا وإفريقيا وأمريكا، وحظوة ومكانة، وكلمة مسموعة عند الملك لويس الرابع عشر وَوُزَرَائِه، وأشراف أسرته.

ولمّا تأصّلت أصول المواصلة بينهما، وجد فيه ابن عائشة رجلاً يمثله في المجالس والمجتمعات، ويقوم بقضاء أغراضه وسائر ما يحتاج إليه أو يتوقّف عليه من التُّحف والنفائس والفُرش والأثاث والرياش الجميل الذي كان مطلوباً ومرغوباً فيه في ذلك الوقت بقصور الملوك والأمراء والرؤساء، سواءً بفرنسا أو بالمغرب، كما يوخذ ذلك من مكاتبه ومراسلاته معه.

كما أنَّ جوردان وجد فيه رجلاً يمكن له أن يستغلَّ نفوذه وكلمته المسموعة بالمغرب، وخصوصاً في البلاط الإسماعيلي.

وبصفته أميرال القرصنة السلاوية – الرباطية، يحمي سفنه المتردِّدة على مرسى العدوتين، السلاوية – الرباطية في طريقها إلى سواحل إفريقيا، وحتى أمريكا، لموقع المغرب الجغرافي بين هاتين القارتين، وامتداد سواحله الشمالية والغربية على البحرين المهمَّين في التجارة والحرب القرصانية : الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي، زيادة على ترويج سلعه ومجلوباته إليه، وتصديره منه ما يكون فيه الربح والغنى المحقَّق، ولا سيما إذا أسَّس بالرباط، مثلاً، مركزاً تجارياً لهذا الغرض.

فاتَّفقا معاً، وكل يرى مصلحته، على تأسيس شركة تجارية فرنسية يكون مركزها الرئيسي برباط الفتح، وتكون لها فروع أخرى بغيره من المدن.

وتكفَّل ابن عائشة بحمايتها، والتوسُّط لدى السلطان في إسقاط الضرائب الديوانية، والمكوس المخزنية عنها، وتأخَّر الإمضاء على هذه الشركة إلى ما بعد رجوع ابن عائشة إلى المغرب، وعرض المشروع على السلطان في سابع وعشري يناير سنة سبعمائة وألف (27 يناير 6/1700 شعبان 1111)، وسُمِّيت «شركة سلا»، وكان رأس مالها مائة وعشرين ألف ليبرة (120.000).

وقبل مغادرة ابن عائشة باريس، كتب له جوردان كتاباً يستأذنه فيه أنْ يوجِّه أحد أصحابه يستقرُّ بالمغرب، ليهيِّء أسباب التجارة به، فأجابه ابن عائشة بكتاب يقول فيه :(91)

الحمد لله وحده ولا حول قوة الا بالله العلي العظيم

وبعد، فإنَّه من عُبَيْد ربه، وأسير ذنبه، من ياتي باسمه وطابعه ووسمه، بعد تاريخه وختمه، إن شاء الله تعالى.

إلى صاحبنا موسيو جوردان الكاتب اللبيب، المحقّق الأديب، المعروف بمدينة باريس.

بعد السلام على من اتبع الهدى، وسلك طريق الحقّ واهتدى.

اعلم أنَّه لمَّا بلغنا كتابك بخط القلم الفرنصاوي، ونسخة بخط القلم العربي على يد فقيهكم، محبِّنا الترجمان الصليبي ذي كروس (Pétis de la croix)(92)، وفرحنا به، وقرأناه حتى عرفنا ما تضمّنه من أوله إلى آخره، وفهمنا مقصودكم، وما انطوت عليه نيتكم، ممَّا أشرتم لنا به، على أنْ تبعث لبلادنا أحد أصحابكم، يستقرُّ هنا بقصد التجارة والتسبُّب بالبيع والشراء والأخذ والعطاء، مع جملة المتسبّبين، فأفضل ما تفعل. وعلى الله فتوكَّل.

وقد فرحنا لذلك، وانشرحت به صدورنا لمحبتك، لكن ما رأينا ما نكافي به على ما فعلت معنا من الخير، سوى أنّي أشهد على نفسي بهذا الكتاب لِنُعْطِيَ لصاحبك داراً يسكن فيها،

---

91) ص 160 والتي بعدها من المجلد V من «الينابيع» السلسلة II، من وثائق الدولة العلوية بفرنسا.

92) (François Pétis de La Croix)(1653-1713) كان مستشرقاً مشهوراً، صاحب تآليف عديدة. خلف والده سنة 1695، بعد موته، كسكرتير - ترجمان للملك، بعد ما كان عيِّن أستاذاً للعربية، سنة 1692 بالمعهد الملكي (le Collège Royal) وقبل ذلك كان بعثه لويس XIV، على نفقته، إلى المشرق، حيث مكث10 سنوات لتعلم العربية والفارسية والتركية، وكان رجوعه إلى بلاده سنة 1681.

و في سنة 1683 -1682 رافق البارون (De Saint-Amans) في رحلته إلى المغرب، حيث كُلِّف بشراء بعض المخطوطات العربية، وألقي خُطباً بالعربية بين يدي جلالة السلطان المولى إسماعيل ثلاث مرات. وبمجرد ما أُعلن عن بعث عبد الله ابن عائشة سفيراً إلى فرنسا، قرَّر (Pontchartrain) إرسال (Pétis de La Croix) إلى بريسط (Brest) لفحص محتوى التفويض الذي أعطاه المولى إسماعيل لسفيره.

وإثر وصوله إلى هذه المدينة في 15 دجنبر 1698، جاءه الامر بالرجوع إلى باريس صحبة (Saint-Olon) و(Estelle) ومبعوث السلطان، لمَّا تقرر فتح المفاوضات ب (Versailles).

مادام في بلادنا وهي المسماة بدار القصري[93]، بجميع مخازنها ومنافعها، المحسوبة منها وإليها، بحيث لا يلزمه فيها كراء ولا حقوق شيء قليلاً ولا كثيراً، جليلاً ولا حقيراً، ونُعْطِيهِ، إن شاء الله، وصيفنا بواباً يحرسها، وهو الذي كان بواباً لدارنا، ومتربِّياً مع أولادنا، ولا يلزمه معه أكل ولا شرب ولا فراش، ولا من يدخل عليه كائناً من كان، سوى من يريده في وقت حاجته وتسبُّبه المذكور، ولا يسمع عنه من جانبنا إلا ما يسرّه ويرضيه، مادام فضل الله علينا، برضى ضيفنا، نصره الله، وأدام لنا حياته، آمين.

فهذا ما وُجد لنا في حق صحبتك، وإذا كنا ببلادنا، الله يعيننا على مكافأتك. اهـ

وفي أوائل شهر الله شوال من عام عشرة ومائة وألف

(أوائل شهر شوال 1110/2-11 أبريل 1699).

فأجابه جوردان بكتاب آخر بتاريخ (21 أبريل 1699/20 شوال 1110) يشكره فيه على اعتنائه، ويطلب منه مصادقة جلالة السلطان على شركته، وتعهده بحمايتها، ولو في وقت الحرب.

فأجابه عبد الله بن عائشة من بريسط (Brest) قبل إبحاره منها إلى المغرب، برسالة يطلب منه فيها أن يُوجِّه له زمام التجارة بالخطين العربي والفرنسي، ويصرِّح له بأنَّ له أن يبعثها مع صاحبه إلى المغرب، وأنَّه سيكون وكافَّة أصحابه وتجارته تحت كنف السلطان وحمايته، ولو كانت الحرب بين المغرب وفرنسا، وتأسَّف غاية الأسف على عدم نجاح المخابرة في فداء الأسرى، ووعده بأنه سيعمل كلَّ ما في وُسعه لدى سلطانه حتى تنحلّ هذه المسألة وفق المراد بين الدولتين، وفي الكتاب أمور أخرى شخصية ونصه :[94]

93) لعلَّ هذه الدار هي الموجودة بالرباط بناحية الحمَّام المسمَّى بهذا الإسم، الكائن بشمال غرب زنقة القناصل، حيث كانت المراكز التجارية الأوربية في ذلك العهد. وهي تُنْسَبُ كالحمَّام إلى القصري الذي كان من جملة قُواد القصبة في عهد ما كان يسمى بـ «الجمهورية السلاوية – الرباطية» وقد تقدَّم له ذكر في أخبارها.

94) ص 282 من المجلد V من «الينابيع» السلسلة II من وثائق الدولية العلوية بفرنسا.

الحمد لله وحده

ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

من خديم المقام العالي بالله، القبطان بن عيشة، وفقه الله، آمين، آمين.

إلى حبيبنا وعوض أخينا وولدنا موسيو جوردان.

بعد السلام التام، الممزوج بالتحية والإكرام، على من اتبع الهدى، وسلك به الله طريق الحق فاهتدى.

فقد بلغنا العزيز كتابك، وفرحنا به، وعظّمناه، وعلى رأسنا رفعناه، وفهمنا كل ما كتبته فيه، ومَعَهُ الزمام بقصد مرادك، ففهمناه وحقّقناه حرفاً حرفاً، لكن ذكر فيه الكاتب أنه مترجم من براتك بخط يدك، والزمام أيضاً هو بخط يدك، وما بلغنا إلاّ خط الصليب دي لا كروس، وأنت أخونا، ولابد ابعث لنا خطّ يدك، بما في ترجمة الصليبي، ويكون متّصلاً معه في ورقة، وحين نبلغ مقام ضيفي نصره الله، نقرأه عليه حرفاً حرفاً إن شاء الله تعالى، ولا يكون إلاّ خيرا.

لأن مولانا أمير المؤمنين يحب أن يعمل الخير في خدامه، وأنت عملت معنا خيراً كثيراً، الله يجازيك به من فضله.

وأنا لا أغيب عن سيدي نصره الله حتى مقدار فولة أو حبة خردل، وأنا نعرف أنه يحبك ويجازيك خيراً بفضلك، وأكثر ما تظن يفعله، لأنه ملك عظيم، وفيه الحياء والسخاء وكيف لا، وهو من معدنه وفرعه.

وأما ما ذكرت من صاحبك الذي يمشي معنا لو قلتها لي في باريس، لكنت أركبته مَعِي في الكروسة، ونقدر نرقد معه في فراش واحد، حتى نبلغه بين يدي سيدنا، نصره الله، وأنا أكون لسانه، ونخدمه بنفسي على وجهك.

وحيث لم تقل لي هذا الأمر، وأنا بباريس، تغيرت كثيراً. لكن ابعثه حَيْثُمَا تريد، والله العظيم الكريم، إلاّ كأنك تبعثه لدارك، ملكك ومالك، والذي قلته في غير هذه البراة على داري يسكنها فيه كفاية، وخط يدنا يشهد علينا. فثق بالله وبه.

وما ذكرت من أمر الأمان، حيث لم يرد الله أمر المهادنة، والله العظيم الكريم، لو يكون الشر ليلاً ونهاراً بيننا وبين الفرنصيص، والدم الذي يجري من أجله، ما تضيع حبة خردل، فانظر غيرك لا يتشوش من جميع التجار في طاعة مولانا قاطبة، وهم تحت أمان الله

والتسبُّب في التجارة، فأحرى أنت وأصحابك. ولو كانوا ألف رجل، عليهم أمان الله ورسوله. وهذا ليس منَّا إليك إلاَّ من طبع ضيفنا نصره الله، ولا يرضى أن يسمع عن أحد غيَّر المتسبّبين أصلاً متَّصلاً.

وأما نحن معك : ابن عيشة جوردان، وجردان بن عيشة. لا تلتفت لشيء تكرهه، وأنا عملت يدي في يدك بعهد الله ورسوله، وعملت ابنتيك في حجري، وأمهما مع جنبي جالسة في فراشي. وفي دارك كنا نأكل طعامك ما ابنتيك. جفَّ القلم بما سبق في علمه سبحانه. وكل شيء بإرادته. وأمَّا أنت ما كنت تعرفني، وأنا لا أعرفك، ولا عوّلت نراك ولا أنت تراني، حتى قدر الله علينا، وجئنا لبلادكم على نيتنا ونية ضيفنا نصره الله، في أمر الأسارى من المسلمين والنصارى، وبقي أجل أسرهم في علم غيبه. وها نحن تعارفنا معرفة الخير، ولعلَّ الله يجعل السبب فيه للكلام بين يدي ضيفنا ساعة نراه. والله العظيم حتى نجتهد في ملاقاة خواطر الملوك ليلاً تضيع لنا حسنة في رعيتهم جميعا. ونعمل ما تسمع، إن شاء الله، فوق جهدي حتى يقضي الله هذا الأمر كيف يشاء، وأنت رجل عاقل، كيف أننا نحب نشقى ولا نقضي. فما عندي أخسر من يوم رجعت والأسارى من الجانبين يرتجون رحمة الله. ولم نزل على ذلك العهد مع الله سبحانه حتى يفعل مايريد. نسأله التيسير، إنه على ما يشاء قدير، أمين، آمين، آمين . يا رب العالمين...

ثم ذكر ابن عائشة أموراً أخرى شخصية لا علاقة لها بالموضوع، وختم كتابه بتاريخ عشرين من ذي القعدة عام عشرة ومائة وألف.

(20 ذي القعدة 20/1110 مايو سنة 1699).

عن إذن القبطان الأسعد، خديم أمير المؤمنين المنصور بالله المؤيد.

محبكم على الدوام عبد الله بن عيشة، وفقه الله بمنه وكرمه.

الإمضاء : والطابع، بداخله : غلام مولانا، نصره الله، عبد الله بن عيشة.

ثم أردف ابن عائشة هذا الكتاب بكتاب آخر من بريسط أيضاً، يطلب فيه من جوردان أن يحذف من قائمة ما سيُروّجه من التجارة بالمغرب بعض الأشياء التي لا يجوز بيعها ولا شراؤها، ويؤكد عليه في شراء الزربية والمرايا، وذيّله بالاسترعاء على ما بلغه من ضرب بعض الأسارى المغاربة وتعذيبهم، وأنه سيقابل ذلك بمثله مع الأسارى الفرنسيين، بمجرد رجوعه إلى المغرب[95].

95) ص 291 من المجلد V من «الينابيع»، السلسلة II من وثائق الدولة العلوية بفرنسا.

مسألة الأسير السمّار

ثم ذكر مسألة الأسير، فقال : «وأؤكد عليك توكيد المحبة في التكلم لنا في حاجة ذلك الأسير، أخي صاحبنا قاسم السمار[96] بما يمكن لك من الدراهم وغيرها، وكل ما يلزمه احسبه علينا. وهذه الحاجة أوكد الحوائج عندنا معك ومع محبتك، ولابد، ولابد».

مسألة الزربية والمرايا

ثم قال : «ومسألة الزربية أيضاً، اشتريها لنا بما أمكن لك، وكَيْفَمَا أمكن، وابعثها لنا عزماً مع أول قادم. وكل ما تحسب علينا من مال ما ذكرنا ولوازمه عند بلوغه إلينا، لا يبيت عندنا منه درهم إن شاء الله، وسوف ترى ذلك، ويكتب لك به صاحبك الذي أرسلت إلى سلا مع أول قادم من عنده، والله يصلح رأينا ورأيكم، والسلام على كافّة أولادكم، ومن لاذ بكم.

وكذلك الزوج مرايات اللتين أوصيت عليهما، واحدة لداري، وواحدة لدار أخي عبدالرحمان، يكونان متوسطتي القامة، لا صغيرتين ولا كبيرتين، وتكون دائرتهما بالأزرق من أفضل الصناعة التي تسر الوجه، وتطيب النفس، كما لا يخفاكم حال الأهل ولابد، ولابد.[97]

والسلام على القارئ، ولعله الفقيه الصليبي أو غيره، اهـ

خديم المقام العالي بالله، عبد الله بن عيشة، وفقه الله بمنه آمين.

يوم الجمعة الحادي والعشرين من شهر الله ذي القعدة، عام عشرة ومائة وألف.

(21 قعدة عام 21/1110 مايو سنة 1699)

الطابع بداخله : غلام مولانا، نصره الله، عبد الله بن عيشة.

وأما الذيل المتعلق بضرب الأسرى وتعذيبهم، فقد تقدّم ذكره عند الكلام على الرسائل الصادرة منه إلى بعض أقطاب فرنسا – لمّا عزم على الإبحار من بريسط إلى المغرب – فيما يتعلّق بالأسرى ومسائل استمرار الهدنة بين الطرفين.

---

96) الأسير محمد السمّار أخو قاسم السمّار السلاوي، صاحب ابن عائشة في سفره إلى فرنسا. وسياتي بقية الكلام عليه في رسالة أخرى، وفي زمام الأسارى المغاربة الذين كانوا بفرنسا.

97) كانت المرايا في ذلك العهد تصنع بمعمل «سان آنطوان» (Saint Antoine) ولا ينالها إلاّ الخاصّة وأهل النفوذ، ولذلك كلّف ابن عائشة جوردان بشرائها.
وبما أنّ جوردان كان أحد أعضاء الشركة التى تصنعها، وكان مكلّفاً بترويجها، فلم يكن أحد أجْدَرَ منْهُ لبيعها له.

مصادقة المولى إسماعيل على شركة جوردان التجارية وإصداره له ظهيرا شريفا بذلك

لمَّا تمَّ الاتفاق بين عبد الله ابن عائشة والتاجر جوردان على تأسيس شركته التجارية بالرباط، طلب منه، مشافهة وكتابة، في رسائل متعدِّدة، راجت بينهما، أن يتوسَّط له لدى السلطان المولى إسماعيل، في إصدار ظهير شريف بذلك.

وبمجرد رجوع ابن عائشة إلى المغرب، واجتماعه بالسلطان، قرّر له ذلك، فأنعم به، وأصدر له ظهيراً شريفاً بتاريخ 15 محرم عام 13/1111 يوليوز سنة 1699[98]، يتضمن الإذن له في التجارة بالمغرب وحمايته وحماية سائر أعوانه وشركائه بكافة المملكة المغربية، واحترام سفنه التجارية المترددة على المراسي المغربية، ومعاملتها معاملة اعتناء وتوقير.

وأصدر أوامره بذلك لعُمَّاله بمرسى العدوتين ليعملوا بمقتضاه وينفذوه حرفاً حرفاً، وبعد ذلك، وقعت المصادقة على صكّ المشروع في التاريخ المتقدم.

وبمقتضى ذلك، صرَّح له عبد الله ابن عائشة في رسالته التي كتب له بها بتاريخ أوائل ربيع الأول عام 16/1111-26 شتنبر سنة 1699[99]، وذكر له أنه لمَّا أخبر السلطان في أثناء أحاديثه عَنْ فرنسا، وما أتحفه به من التحف والنفائس الهندية، ارتاح لذلك، وأمره أن يكتب بالأمان عليه وعلى ماله ومراكبه حيث ما ظهرت بالسواحل المغربية، ولا ترى إلاَّ الخير، وأمر حكام المراسي وأمراء البحر بذلك اعتناء به، ومكافأة له.

ثم أصدر المولى إسماعيل بوساطة عبد الله بن عائشة ظهيراً شريفاً آخر جواباً عن كتاب كتب له به، أنعم عليه فيه بحقوق وامتيازات خصّه بها دون غيره من التجَّار، وقصر كلامه في جميع شؤونه على ابن عائشة، وحظه على المجيء بنفسه إلى المغرب[100].

وفي هذا الظهير تنويه بابن عائشة ورفع من قدره.

ويحمل تاريخ 6 جمادى الأولى عام 30/1111 أكتوبر سنة 1699.

وقد أشار ابن عائشة إلى هذا الظهير الشريف والتفويض الذي خوّله السلطان في شؤون جوردان في كتابه الذي كتب له به بتاريخ 22 جمادى الأولى عام 15/1111 نونبر سنة

98) ص 378 من المجلد V من «الينابيع»، السلسلة II من وثائق الدولة العلوية بفرنسا.
ولم نعثر على الصك العربي لهذا الظهير، وإنما جفظت ترجمته إلى الفرنسية.

99) ص 420 من المجلد V من «الينابيع»، السلسلة II من وثائق الدولة العلوية بفرنسا.

100) ص 449 من المجلد V من «الينابيع»، السلسلة II من وثائق الدولة العلوية بفرنسا.

1699[101]، بقوله : والذي نعلمكم به ونؤكد عليكم في شأنه، هو أني والحمد لله عَلَى سلامة وعافية مع ضيفنا، نصره الله، ولم يزل، نصره الله، يزيدنا عزّاً ورفعة، من فضل الله ورسوله.

وبعد هذا، استقرّ مبعوث جوردان التجاري بالرباط، وصار يتعاطى تجارته، وفق ما رُسِمَ وقُرِّر له. وترددت سفن جوردان على مرسى العدوتين جالبة السلع المرغوب فيها، ومصدرة الحبوب والزيوت والشحوم والقصدير والرصاص والصوف والشمع وغير ذلك من المنتوجات المغربية. وربّما كان يروج في هذه الموسوقات والموضوعات أشياء ممنوعة كالذهب والفضة.

وتوالت رسائل الودّ والمحبّة بَيْنَ ابن عائشة وجوردان، وكل يظهر الاعتناء بصاحبه. وإذا تأخَّرت أجوبة الرسائل التي كان يتبادلانها، عاتبه عليها بالكتابة إلى زوجته، وحظّها على عدم تأخيرها، والاهتمام التام بما كلفه أو يكلفه بقضائه من حوائجه.

وأخبرته هذه الزوجة في رسالة لها بأنها ازداد عندها ولد وسمّته جان فرانسوا عبد الله بن عيشة جوردان، تذكاراً لاسمه وزيارته لمنزلها، لمّا كان بباريز.

فكتب ابن عائشة إلى زوجها يهنئه بهذا المولود.

وجاء في رسالة له خاطبه بها في موضوع هذه التهنئة :[102]

... «وبلغنا خبر الولد الذي ازداد عندكم، واشتدّ فرحنا، وزاد بسطنا في حقكم. وبلغ الخبر لأهل داري وبناتي، وخدامي، وأحبابي، فاجتمع رأيهم على أن يفرحوا جميعاً لكم، لِمَا عرفوا وسمعوا من ألفاظنا من الثناء الجميل على محبتكم، حتى لا يخفى ذلك على أحد...»

وجاء أيضاً في رسالة أخرى قبل هذه لجوردان، مؤرخة بأواخر ربيع الأول عام 25-16/1111 شتنبر 1699، ذكر فيها ما كان يوجّهه لزوجته، ولنساء بعض أعيان الفرنسيين من الهدايا :[103]

... «وتصلكم حويجات بعثهم أولادنا إليها (يعني زوجته) نريد منها أن تقبلهم وتعذرنا، حيث نحن مكلّفون بالمقام في حضرة مكناس، كما يخبركم بذلك صاحبكم...

101) ص 490 من المجلد V من «الينابيع»، السلسلة II من وثائق الدولة العلوية بفرنسا.

102) رسالة ابن عائشة إلى جوردان بتاريخ 14 محرم 2/1112 يوليوز 1700، المجلد VI من «الينابيع» السلسلة II من وثائق الدولة العلوية بفرنسا، ص 185.

103) ص 420 من المجلد V من «الينابيع»، السلسلة II من وثائق الدولة العلوية بفرنسا.

ثم قال آخر الكتاب : «ويصلك يا صاحبنا موسيو جوردان خمسة عباريق لزوجتك وابنتيها منك وأخواتها، ولها سباط (شربيل) لرجليها، والعباريق كذلك.[104]

كما يصلك أيضاً عباريق أخرى، اثنان لمدام سانط - أولون[105] (Saint-Olon) مع بنتها، وعبروق آخر لمادام لوكاموس ميلسون (Le Camus Melson)[106] ومكتوب على كل واحد عنوانه واسمه، بلّغ كل منها لصاحبه ولابد، ولابد.

ويصلك أيضاً سُفرة تجعلها مدام جوردان على الميسة (المائدة) للعب الكارطة، ولابد.

كما يصلك أيضاً غزالة ليستأنس بها بناتك العزيزين علينا كبناتنا، وهم الذين بعثوا لكم ولأولادكم ما ترى، إن شاء الله ...» اهـ.

ثم أكّد عليه في توجيه ما كان كلّفه بشرائه له وتخصيصه به من التُّحف والطرائف التي ستاتيه من بلاد الهند وسيام، قال : «... وفق ما تختاره لنا من الأوان الرفيعة، ذات الصنائع البديعة، والتحف المختلفة التي تزين الوجه. ولا بأس بالثمن إذا غلا أو علا، ممّا عرّفتنا به وما لم تُعَرِّفْنا».

ومن جملتها اثنتا عشرة مخفية للأكْل، قال :

«... مقدار ما ترى في براة صاحبك بخط يده، والصفة التي ذكرت له، والقياس الذي رأيته...».

ثم عرّفها بأنها مثل التي كان يأكل فيها الكسكسون، ورآها عنده لما كان بباريس.

ومنها أربعة وعشرون من الطير المسمّى بـ «الدّرّاج»[107] وذكر له أنه رآه في طريقه بين باريس وبريسط.

---

104) ص 425-426 من المجلد V، السلسلة II من «الينابيع»، وثائق الدولة العلوية بفرنسا.

105) هو الفارس، فرانسوا پيدو دو سانت أولون (François Pidou de Saint Olon) (1641-1720) بعثه لويس الرابع عشر - وهو في الواحدة والخمسين من عمره - سفيراً إلى المولى إسماعيل لإثبات السلم وفداء الأسرى (راجع ج 3، ص 109-118). وقد خلّف رسالة عن هذه السفارة، طبعت مرتين بباريس سنة 1694 وسنة 1695. وتحمل الطبعة الأولى عنوان : «الواقع الحالي للإمبراطورية المغربية»، والطبعة الثانية عنوان : «أخبار الامبراطورية المغربية وأحوالها».
ويقول مُتَرْجِموهُ إن هذه الرحلة إلى المغرب تُعَدُّ إحدى ألمع ذكريات حياته، وهو ما كُتب على شاهدة قبره.

106) هي شارلوط ميلسون (Charlotte Melson)، أرملة أندري - جيرار لوكاموس (André-Girard Le Camus Melson) ، المستشار بالمجلس الأعلى، والوكيل العام للإعانات ووكيل الدولة الذي توفي سنة 1698...
وكانت شهيرة بخفة روحها ورقة أشعارها.
بعث إليها عبد الله ابن عائشة، مرتين، رسائل غرامية، نشر البعض منها پول ماسون (Paul Masson) في كتابه المعنون : «تاريخ المؤسسات والتجارة الفرنسية في إفريقية الباربارية» (ص 210-211).

107) اسمه بالعربية الفصحى «تُدْرُج» (المنهل)، وبالفرنسية يسمى (Faisan) للذكر و(Faisanne) للأنثى، وهو طائر ذو حجم متوسط، وريش مزخرف ذي ألوان زاهية عند الذكور منه، ويزين رؤسهم رعثة حمراء أو زرقاء تتخذ أحجاما كبيرة إبان المزاوجة بينما الإناث ألوانها باهتة داكنة. وهذا الطير يمشي غالبا على الأرض، ولا يعتلي الأشجار إلا عند النوم.

وأكّد عليه في توجيه الزربية التي كان وعده بها، وأشياء من الأواني البلورية، كالكؤوس (أو الاكؤس) والصحون، وغيرها.

وأخبره بأن إحدى المرايا التي كانت موجّهة لجلالة الملك، تحطّمت في الطريق، ولم يبق سالماً منها إلاّ دائرتها، وتأسّف عليها غاية.

ونصّ له على أن يوجّه له أربعة وعشرين من المرايا أيضاً، التي تصلح لتزيين عربة الملك.

ووجّه له ثلاثة قطع من الأحجار الموجودة في المغرب، بقصد بحثها، وتحليلها، لعلّه يعثر على شيء فيها ينتفع به.

وثلاثة قطع من الجلود الجاموسية الرفيعة واللطيفة، وصندوقين كبيرين من الأبنوس الأسود الرفيع، وأشياء أخرى يطول تعدادها.

وأخيراً، جاءت سفن جوردان إلى المغرب، فَسُرَّ ابن عائشة بها، وكتب كتاباً يتضمّن وصف وصولها، ومقَابَلَتَهُ لها، واقتبال جلالة السلطان لمبعوثه، ونصّ ما يتعلق بذالك :(108)

... «لقد كنت متوحشاً في وجهكم... حتى جاءت إلينا مراكبكم، وفرحنا بقدومها لبلاد ضيفنا، نصره الله، وأرست خارج المرسى، وخرج ولدي الرئيس محمد إليها، وتلقّاها فرحاً مسروراً، إذ هو لا يخرج لأحد، ومع ذلك خرج، وظلّ عندهم إلى عشية النهار، وهبط مع الرئيس للبرّ، حتى أدخله الدار المعهودة لكم ولإصحابكم كما ذكرت لك من قبل(109).

فتلاقيت مع صاحبك الذى أرسلته يجلس هنا، وهو مانيي دو لا كلوزري (Manier de la Closerie) ومع الرئيس، وفرحت بِهِمَا غاية الفرح، كأني رأيت وجهك...»

ثم قال : ... «ودفعوا لي مكاتبكم الثلاثة. فقرأتها جميعاً، وكملت المرغوب من فائدة أخباركم، حتى جئت إلى ما بعثته إلي من الحوائج التي أوصيناكم عليها، وأوكدها الزربية والمرايا وغيرها من الدبابيز للكحل، والملف والسكاكين الاثنين، وأواني الزاج و البلور.

وذكرت في كتابك محبتكم وتعظيمكم قدرنا، وأنها هدية منكم إلينا لتطييب خاطر ضيفنا، نصره الله علينا، وانشرحت، صدورنا وطابت أنفسنا، وطالت كلمتنا في حقكم...».

108) ص 135 وما بعدها من ج VI من «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»، السلسلة الثانية، لوثائق الدولة العلوية بفرنسا.

109) عينوا هذه الدار بأنها كانت قرب حمّام القصري، بالرباط.

ثم قال : «... وتوجّهت إلى الحضرة العلية مكناسة المحمية، إذ كنت كيف قدمت منها، ولا بِتُّ إلا ليلتين، فرجعت ليلة العيد الكبير، وأصبحت عند ضيفي، نصره الله، وصاحبكم تركته خلفي، مع كاتبي محمد سوسان.

ولما رآني ضيفي بُهت، حيث رجعت إليه بغير وعد، سريعاً، فأخبرته بأمركم، وبلغ صاحبكم المذكور إلى بين يديه، وفرح به، أيده الله، وسأله كثيرا عنكم...»

ثم ذكر له أنه قبل صاحبه الذي جاء للإقامة بالرباط خلفاً عن الذي كان قبله، وأحلّه محلّه، وهو جان - بابتيست مانيي دو لا كلوزري، وأخبره بأن أصحابه وسقوا له في سفنه الصوف وأن أغلاها قيمة ثلاثين أوقية، وفيها أوقيتان زائدتان، وأنهم عجّلوا بشرائها، مع أنه قال لهم ادخلوا سفنكم للمرسى، واصبروا أياماً قلائل حتى ترخص الصوف بأربعة أوقي أو خمسة أواقي ناقصة، فلم يسمعوا له.

وبقيت السفن خارج المرسى حتى استوفت وسقها، وطلب منه صاحبه الجواب، فكتبه له عاجلاً، وحين يقدم مرة أخرى إلى مكناس يتذاكر مع السلطان في كمال غرضه الذي وصفه له، وكان مآل هذه الصوف أن خسرت الشركة فيها بفرنسا، ولم تحصل على ثمنها عند بيعها.

وقد بقي هذا المدير يدير أعمال الشركة إلى أن حاول ابن عائشة تسميته قنصلاً بالرباط، استبداداً على الحكومة بباريس، فاستدعاه جوردان بأمر من الوزير بونشارتران (Pontchartrain)، وعيّن خلفاً عنه مديراً آخر، اسمه ميرسيي (Mercier)[110]، وكان مآله ما سنبينه في مبحث آخر خاص بتدخل ابن عائشة في تسمية القنصل.

وجاءت رسالة أخرى بتاريخ منتصف محرم عام عام 2/1112 يوليوز سنة 1700[111]، خاطب بها مدام جوردان، يطلب منها فيها، أن تشتري له رطلاً كاملاً من الجوهر الغليظ الصافي الغالي الثمن، وقال لها إنها عوض ابنته، ولذلك وكّلها أن تحُثَّ زوجها على قضاء الغرض.

فأجابه جوردان بتاريخ 20 غشت سنة 5/1700 ربيع عام 1112[112]، بأنه لا يوجد بفرنسا إلاّ الضيامنط والجوهر الصناعي، وهو في منظره وإتقان صنعته، يضاهي الطبيعي، وألفت نظره إلى أنه لمّا كان بفرنسا لاحظ أن النساء في الحفلات الرسمية، بالقصور الملكية لا

110) جان ماتيوه ميرسيي (Jean-Mathieu Mercier) كان دُعي لشغل منصب مُؤْتَمَنٍ للشركة السلاوية في فاتح أبراير سنة 1700.

111) المجلد VI من «الينابيع»، السلسلة 2 من وثائق الدولة العلوية، ص 187.

112) نفس المصدر، ص 202.

يتزينّ إلا بهذا الحلي المصطنع، وأنه وجّه له منه اثنين وعشرين عقداً، وهي بجودتها لا فرق بينها وبين الأصلي، مع رخص ثمنها جدِاً...

وقد بقيت هذه الشركة تُروِّج تجارتها، وتوالى عملها بواسطة ج .ب مانيي دولا كلوزري، والرسائل والمخابرات في شأنها متوالية مُتردِّدة بين ابن عائشة وجوردان، وابن عائشة يُكلِّفه بشراء أشياء كثيرة غالية الأثمان. فكان أولاً ينفذ ما يطلبه من شرائها وأخيراً صار يماطل فيها، أو يُوجِّه له عوضاً عنها أشياء أقل ثمناً منها. وفي الأخير كان مآلها الإفلاس لأسباب كثيرة.

– منها عدم مَعْرِفَةِ مديرها بأحوال البلاد والمعاملة مع أهلها.

– ومنها أن هؤلاء حاولوا الاستبداد على مؤسس الشركة أو على عبد الله ابن عائشة، واتَّصلوا برجال الحكم، أولي الأمر، بدون واسطته.

– ومنها وقوع الخلاف بينهم وبين باقي التُّجّار الأجانب بالرباط في عدة مسائل، تجارية ودينية.

وترتب على الشركة ديون، نشأ عنها سجن مديرها ميرسيي، وحُجزت سلعها في الديون المترتبة عليها.

– ومنها عدم الأمن في البحر لانتشار القرصنة، وأَسْر السُّفن المصدّرة للسلع للمغرب، والجالبة لها منه إلى فرنسا، سنة 1116-1115/1704 ولا سيما أثناء الحرب التي كانت قائمة بإصبانيا، فتُنوسي أمرها، وخاب أملها.

ويُضاف لهذه الأسباب ما حصل لجوردان في ذلك العهد من المشاكل في إدارة شبكة تجارته الواسعة بفرنسا وخارجها، وما ترتَّب على ذلك من الدَّعاوي التي استعصى حلُّها، والتوصل إلى نهايتها.

تدخل ابن عائشة في تسمية قنصل فرنسي بالرباط

كان منصب القنصلية بالرباط فارغاً منذ فارقه القنصل إسطيل في 21 يونيو سنة 11/1698 قعدة 1109، على وجه غير مرضي، لأنه كان يتدخَّل فيما لا يعنيه، وخصوصاً مع بعض العمّال والموظفين.

ولمّا توجّه ابن عائشة إلى فرنسا في سفارته، التحق به، وكان له صوت في المخابرة التي كانت رائجة في فداء الأسرى. وربّما كان من العوامل التي أثّرت على عدم نجاحها. وابن عائشة، تارة يداريه، وتارة يواجهه بعبارات شديدة اللهجة، ليكفّ من غربه. وكانت الحكومة الفرنسية تعلّق إرجاع إسطيل لماموريته، أو تعيين شخص أخر خلفاً عنه، على تسوية مسائل معاهدة إثبات الأمن والسلم وفكاك الأسرى ومصادقة السلطان عليها، إلى أن رجع ابن عائشة إلى المغرب من سفارته التي لم يقدّر له نجاح فيها، وأُسِّسَتْ الشركة التجارية الجردانية بالرباط بواسطته، وعيّن لإدارتها ماني دو لا كلوزري[113] (Manier de la Clauzerie) من طرف جوردان.

وكان ماني هذا ذا وجهين، ويلعب على الحبلين، وصار يرفع التقارير السرّية إلى وزيره بونشارتران ويخبره بأحوال المغرب، وما يروج في البلاط الملكي، ويزيد وينقص في ذلك.

وحصلت بينه وبين التجّار الأجانب المقيمين بالرباط خلافات ومشاجرات، واستولى على ابن عائشة ظاهراً، وكان يؤذيه، ويوشي به لدى حكومته باطناً، وابن عائشة يجهل ذلك، حتى أنه قال فيه في تقريره السري الذي رفعه لوزيره بونشارتران بتاريخ 6 أكتوبر سنة 11/1699 ربيع الثاني عام 1111[114]، إن عبد الله ابن عائشة لا يستحقّ ما عاملته به فرنسا من التشريف والاعتبار، وأنه رجل برباري الأخلاق والأفكار، ويُصرِّح بآلاف التصريحات التي تعاكس سياسة فرنسا وتؤذيها، وتحطّ من قدرها، ولا عهد له ولا ميثاق، ولا يهتم إلاّ بمصلحته، وتضاعف ثروته، بما يحصل عليه من الهدايا والعطايا المتنوعة، وما يطالب به، في كل وقت وحين، من تحف الهند والصين والنفائس والطرف الغالية الأثمان، ولا تشبع بطنه، ولا تُقَلِّلُ نهمه...

كل هذا، وابن عائشة في غفلة عنه، ويعزّزه ويقرّبه ويدنيه ويعطف عليه في معاملاته كلها ويَجْتَبِيه وأوصله إلى حضرة السلطان، وأثنى عليه.

واتّفق معه على تسميته قنصلاً بالرباط، خلفاً عن القنصل المتغيِّب، ليكون تحت نظره، وطَوْعَ أمره. وقبل تنفيذ ذلك، مهّد له بكتاب أصدره إلى صديقه، والمتكلم بلسانه لدى الحكومة الفرنسية، جوردان، قال فيه، بعد الخطاب المعتاد :[115]

113) كان قد استقر بسلا منذ أكتوبر 1699، واشتغل بخدمة مصالح ملكه، بقيامه بدور مُخْبِر سرِّي.

114) ص 441 من المجلد V من «الينابيع»، السلسلة II، من وثائق الدولة العلوية بفرنسا.

115) ص 500 من المجلد V من «الينابيع»، السلسلة II، من وثائق الدولة العلوية بفرنسا.

«اعلم يا صاحبنا أنّ البلاد ومرساها وتجّارها، الكل بلسان الحال والمقال يحيون قونصو من جنسكم، يكون هنا بصيرة وسنيدة لتجّار جنسكم، ولا يقدر أن يمكن لبلادنا تبقى بلا قونصو. فأنت صاحبنا تكلم مع الوزير بونشارتران ليأمر بمن يكون، ويبعثه إلينا على حسن الرضى والعادة. وإذا كان من هؤلاء المتسبّبين هنا، فأفضل ما يكون، لأنّ القونصو إذا كان بماله وتجارته مع التجّار أفضل ممّن يكون مفلساً لا يقبله القلب، لا من تُجّار النصارى ولا من المتسبّبين المسلمين. ونظره في ذلك أوسع، ورأيه فيه أرجح وأنفع. ولابد تجاوبنا على هذا وغيره ممّا تقدم الكلام فيه، أصلح الله رأيك في جميع ما تقضيه لنا ممّا نزين به وجوهنا مع الضيف...»

وختمه بتاريخ 22 جمادى الأولى عام 15/1111 نونبر سنة 1699.

الإمضاء : خديم المقام العالي بالله عبد الله بن عيشة، وفقه الله بمنه آمين.

ثم كتب رسالة أخرى إلى القنصل إسطيل بتاريخ فاتح رجب من العام نفسه (1 رجب عام 23/1111 دجنبر سنة 1699).

في أمور تتعلق بمواصلاته مع التاجر جوردان المذكور جاء فيها[116] :

«وسمعنا في هذه الأيام من براوات الأسرى بأنك قادم إلينا، كما تركناك محتالاً للقدوم...»

وبعد هذا التمهيد حرّر رسالة أخرى إلى الوزير بونشارتران يعلمه فيها بأنه طال انتظاره لمجيئ القنصل الفرنسي إلى الرباط، ولم يظهر له أثر، وعرض عليه تسمية مانيي دو لاَ كلوزري، مدير شركة جوردان، وأثنى عليه ثناءً كبيراً، قال فيها بعد الخطاب :[117]

«ونعلمكم خيراً بأننا انتظرنا قنصلا ياتي من ناحيتكم إلى بلادنا، فطال الانتظار، ولم يقدم أحد.

والآن ها نحن رأينا بنظرنا السديد، وفهمنا البليغ الرشيد، ما ظهر لنا في رجل من جنسكم صاحب الموسيو جوردان هُنَا بقصد التسبُّب والتجارة اسمه جان بابتيست

116) المصدر السالف الذكر، ص 506.

117) ص 119، المجلد VI من «الينابيع»، السلسلة II من وثائق الدولة العلوية بفرنسا.

دو لا كلوزري (Jean-Baptiste Manier de la Closerie) ورأينا فيه العقل والتمييز وحسن الخُلُق، وما رأينا فيه من يصلح سواه[118]، فإن اتفق رأيك على قنصل تبعثه، فابعث خط يدك لهذا الرجل المذكور ليكون قنصلاً يفصل بيننا وبين تجّاركم، ويكون واسطة فيها يقضي للجانبين من حوائج نريدها ؛ وأنتم كذلك ؛ وإذا جاء غيره بعد كتبنا هذا إليكم، وإعلامنا به لِجنابكم، فإننا لا نقبلوه، ولا يبلغ مراده منّا..

ولذلك قدمنا لكم هذا الخبر قبل أن ياتي ويرجع، وقليل أن يكون في حق وزارتكم ذلك. ولهذا احترزنا فيما سطرناه لكم.

وها نحن في انتظار الفائدة بجوابكم، والسلام على من اتّبع ما أمر الله به واهتدى بهديه، ورضي بأوامره». اهـ.

في عشرين خلت من شوال 1111 (10 أبريل 1700)

الإمضاء : عبد الله بن عيشة وفقه الله بمنه آمين آمين

وبعد صدور هذا الكتاب للوزير الفرنسي، صادق السلطان على تعيين القنصل ماني المذكور، وأصدر له صكًا بذلك تمسّك به.

وقد أشار ابن عائشة إلى هذا التعيين في كتابه إلى جوردان، بتاريخ 3 حجة عام 22/1111 مايو سنة 1700، بقوله :[119]

«واعلم يا حبيب قلبي وصاحبي أن ضيفي كتب مسطوره العزيز لصاحبكم ماني دو لا كلوزري، ليكون قنصلاً ببلادنا ومرسانا ولا يقبل غيره، وها كتابه بيده، فأكمل له أنت عند ضيفك والوزير بونشارتران، بعد أن تسلم لنا عليه سلام السنة الجائز شرعاً...»

ثم صدر منه كتاب آخر بعد هذا إلى مدام جوردان في أمور أخرى تتعلّق بمطالب زوجها، بتاريخ منتصف محرم عام 2/1112 يوليوز سنة 1700[120]، وتعرض فيه لتسمية هذا القنصل بقوله :

---

118) هذا ثناء ابن عائشة عليه، وانظر ما قاله هو في تقريره، كما تقدم.

119) ص 138 من المصدر السالف الذكر.

120) ص 185 من نفس المصدر السالف الذكر.

«... وها صاحبكم ماني دو لاكلوزري... رأيته رجلا عاقلا، ويحب عشرة الناس، ويجلب خواطرهم للمعرفة والسبب أكثر من غيره، ونحبّ من الله ومنكم أن تكمّلوا له (مراده) بالمُقام هنا، وتتكلّمي مع زوجك ليأخذ بيده عند موسيو بونشارتران، يكتب له براة القونصو ببلادنا، لينظر في أحوال التجار وما هو جائز له في حقهم، ويكون لنا واسطة بيننا وبينكم في قضاء أغراض ضيفي، نصره الله، ومتى وقفت له حاجة من الأسارى أو غيرهم ببلادنا، وطاعة ضيفنا نصره الله، يبلغها إلينا، وأنا أبلغها لضيفي نصره الله، ونحن في قضائها إن شاء الله في أمر الجانبين أمراً مستويا...»،

وفي 27 يبراير سنة 8/1700 رمضان 1111، وجّه جوردان رسالة إلى ابن عائشة[121]، ومن جملة ما ذكر له فيها، أنه اقتضى نظره تأخير ماني عن إدارة شركته، واستدعاه للرجوع لِفَرَنْسَا، وأعرض عما كتب له به ابن عائشة في شأنه، وعيّن خلفاً عنه السيد ميرسيي (Mercier).

ولما أنهى ذلك لماني، تأثر منه، وحاول اتخاذ الأسباب لبقائه في محله، فلم ينجح في مسعاه.

أما الوزير بونشارتران، فإنه لم يلتفت أيضاً إلى ما كتب له به ابن عائشة، وأخذته الحمية على الاستبداد عليه، وأصدر أوامره إلى ماني بالقدوم عزماً إلى باريس، ليجيب عمّا أُلصق به من التهم والشكايات من طرق التُّجار، ورفض ما كان يطالب به من التعويضات عن أسفاره لمكناس، وأهمل تسمية القنصل بالرباط، ولم يأذن برجوع القنصل السابق إسطيل (Estelle) إلى محلّه، وبقيت المسألة معلقة.

فاستاء ابن عائشة من هذه الأوامر الصادرة من الوزير الفرنسي، المعاكسة لما كان يريده ويطالب به، وكتب له رسالة أخرى يعاتبه على ذلك ويخبره بأن السلطان لا يقبل قنصلاً آخر يأتي لمملكته.

ونص ما كتب له به[122] :

121) ص 111 من المجلد VI من «الينابيع»، السلسلة 2 من وثائق الدولة العلوية بفرنسا.
122) نفس المصدر والمجلد، ص 209.

الحمد لله

ولا حول ولا قوة بالله العلي العليم

من عُبَيْد ربه، وأسير ذنبه، خديم المقام العالي بالله، الشريف أسماه الله، قبطان البر والبحر، عبد الله بن عيشة، وفقه الله بمنه آمين.

إلى وزير طاغية فرانصية، العاقل الديواني، موسيو بونشارتران.

السلام على من اتبع الهدى، وسلك طريق الحق واهتدى.

فإني نسأل عنكم وعن خبركم ونتسنسوا به في بساط ضيفنا نصره الله، آمين، إذ كثير من مرات حبذت حديثكم ونجدتكم وحزمكم في خدمة ضيفكم، وضبطكم لملكه، ويستحسن ذلك ويشكرونه، ولم أزل أحدثهم بما فيك إلى الآن.

وسبب كتب هذا إليكم هو أمر خديمكم مانيي دو لا كلوزوي جاءته براتكم، وتغير منها غاية، وخاف من خاطركم يخسر عليه، وحين رأينا أنه لا يخالف أمركم، ويحتال للمسير إليكم، رددت خبره على ضيفي نصره الله، فقال لي : «وهل ما قال يجلس هنا ؟ ووعدناه أن يكون قنصلا وكتبنا له أمرها (أي القنصلية) بيده.» فقلت له : «بعث له الوزير موسيو بونشارتران.»

فأذن لي سيدي أن أكتب لكم كلامه في شأن دو لاكلوزري وهو : «إذا أكملتم له أن يكون قنصلا فيها ونعمت حين تقدم الكلام لنا معه، وإن لم تكملوا له ذلك، فإننا لا نقبل غيره يكون قنصلا أصلا».

هذا قول ضيفي أيده الله، حسبما ترونه مكتوبا له بطابعه الشريف، في براته لسيدكم الإمبراطور.

وأنت أيها الوزير، إن كنت تثيق بقولنا، فإنه رجل مليح عاقل، ولا قط سمعنا منه مسألة حقيرة في حقكم، إلا ما يجلب للخواطر من العافية والسداد من الجانبين.

وقد فتح ضيفنا فيه لحظة، وأوصانا عليه، وعلى وجوهكم عززناه ورفعنا أمره لضيفنا نصره الله، حتى دخل بساطه الشريف، وعرفه، وقبله، كما وصفنا، واليوم ها هو يصلكم، ونظركم أوسع.

وقد كان سطيلة هنا معزوزا مكروما موقرا في جميع حركاته، والناس يرونه بعين الأمان والوقار، حتى اشتغل بما لا يعنيه بين القياد، وبلغ ذلك لسيدي أيده الله، فأمره بالرحيل لبلاده، وطرده من أرضه وبلاده، وهذا ما وجب نعرفكم به تفصيلا». اهـ.

ثم أقراه السلام على جميع أولاده وخدامه، وأثنى عليهم، وأرّخ كتابه بعاشر شهر رجب الفرد عام اثني عشر ومائة وألف (10 رجب الفرد 21/1112 دجنبر 1700).

وأمضاه : وكتب خديم المقام العالي بالله : عبد الله بن عيشة.

وبهذا الكتاب خُتمت مسألة تسمية مانيي قنصلا بالرباط، ورجع إلى فرنسا.

أمَّا خلفه ميرسيي، فإنه لم ينجح في عمله، وعَدِمَ الثقة من رؤسائه بفرنسا، وطلبوا منه الرجوع لبلاده، فامتنع من ذلك، وانقلب حاله إلى تعاسة وفقر، وحلَّت به مشاكل، وارتكب ديوناً، وطالبه الغرماء بالأداء فعجز، فأقاموا عليه عدة دعاوي بالمحاكم القانونية، وحكم عليه بالسجن، وسُجن، وطال الأمد، وتنوَّعت المشاكل، وهو يعاني الضنك والضيق في حياته إلى سنة 1120/1708، ففرَّ من الرباط ناجياً بنفسه من أعوان السلطان ووزعته، وركب البحر متوجهاً إلى فرنسا، فلقيت السفينة التي ركبها سفينة قرصانية قرب قادس، فأسرتها، وهلك هو أثناء المعركة التي شبت بينهما.

ولم تَنْتَهِ بموته الدعاوي التي كانت متعلِّقة به، وراجعة إليه، فأصدر مجلس الدولة بباريس قراراً بتاريخ 8 مارس سنة 26/1709 حجة عام 1120 بالحكم على جوردان وشركائه في مؤسسته التجارية الرباطية بأداء قدر كبير من المال لتسديد الديون التي يطالب بها الغرماء. وهكذا انتهى أمر هذه الشركة ومديرها الذي حاول أن يكون قنصلاً بالرباط، وما آل إليه أمر خلفه.

مسألة الصور الأثرية المكتشفة بشالة

لايخفى أن شالة مدينة أزلية، بها آثار أركيولوجية قديمة من عهد الرومان مدفونة تحت الأرض، ويظهر بعضها من حين لآخر، كلَّما تَجدَّد العمران بها، أو وقع البحث والتنقيب عنها ببعض ساحاتها وأرجائها.

واتَّفق أنه بعد رجوع عبد الله ابن عائشة من سفارته الباريزية سنة 1111/1699، بينما كان أحد العمال يشتغل بحفر الأرض بربوة من رباها، إمَّا للبناء أو غرس بعض الأشجار،

اكتشف آثار بناء دار أو هيكل روماني قديم، وعثر فيه على ثلاثة صور منحوتة في الرخام، واهتمَّ بها الأوربيون من القناصل والتُّجّار الذين كانوا مقيمين بالرباط في ذلك العهد، وبحثوا فيها، ورفعوا بها التقارير والمكاتب إلى دولهم.

ولمَّا علم بذلك القنصل الفرنسي إسطيل (Estelle)، أخبر به الوزير بونشارتران بكتاب بتاريخ : 28 أكتوبر سنة 4/1699 جمادى الأولى عام 1111، جاء فيه :[123].

«يوجد على نحو ميل من مدينة سلا (يعني الرباط) محل مقدّس عند المغاربة، يقال له شالّة، ينقسم إلى ثلاثة ربى، وفوق كل ربوة مسجد أو ضريح مقدس.

وبينما كان أحد العمال يشتغل في خدمته بحفر الأرض، اكتشف داراً مبنية أتمَّ بناء مطمورة تحت الأرض، وعثر فيها على ثلاثة صور إنسانية، اثنتان منها رخامية، والثانية فضية. ولم يبيِّنْ هل هي كبيرة أو صغيرة. قال : ولكنها متقنة الصنعة والنحت.

وبمجرد اكتشافها، أعلم بها الملك، فوجّه القائد أحمد بن حدّو لرؤيتها والاطِّلاع عليها، وإعلامه بما سيتقرَّر عنده في شأنها».

وحيث كان عبد الله ابن عائشة ممَّن له معرفة بأهمية الصور الأثرية التاريخية لاطِّلاعه عليها، ورؤيته لها، فيما زاره من المتاحف والهياكل والمعابد بلوندرة وباريس، وما يعلقه علماء البحث في الآثار القديمة من النتائج العلمية والتاريخية عليها، فإنَّه أظهر اهتماماً كبيراً بما اكتُشف منها بوطنه وبلده، فطيّر الإعلام بها إلى الوزير بونشارطران في رسالة وجّهها إليه بتاريخ آخر ربيع النبوي عام 25/1111 شتنبر سنة 1699[124].

وأردف هذا الكتاب بكتاب أخر في تاريخه إلي صديقه التاجر جوردان[125].

ولمَّا بلغت هذه الرسائل إلى فرنسا، بادر جوردان بالكتابة إلى ابن عائشة، ولعله بإيعاز من الوزير بونشارتران بتوجيه هذه الصور المكتشفة إلى باريس، بقصد الاطلاع عليها ودرسها وردِّها إلى محلها...

فأجابه عنها ابن عائشة في كتابه المؤرخ في 3 حجة عام 22/1111 مايو سنة 1700[126].

[123] المجلد VI من «الينابيع»، السلسلة 2 من وثائق الدولة العلوية بفرنسا، ص 118، هـ 1.

[124] المجلد V، السلسلة 2 من وثائق الدولة العلوية بفرنسا، ص 406-411.

[125] نفس المصدر والمجلد، ص 434.

[126] ص 138 من المجلد VI من «الينابيع»، السلسلة II من وثائق الدولة العلوية بفرنسا.

والظاهر أن ابن عائشة لم يتمكّن من هذه الصور، أو لم يساعَد على بعثها لباريس، تلبية لطلب صديقه، فاعتذر له بأنه لم يجد فرصة يُطلع الملك فيها على هذا الطلب.

ثم جدَّد اعتذاره عن التأخير في كتاب آخر خاطب به مدام جوردان بتاريخ منتصف محرم عام 2/1112 يوليوز سنة 1700 (127)

وقد كان مآل هذه الصور ما ذكره الأب نولاسك (Nolasque) في أخبار رحلاته والبعثات الرهبانية التي تردَّدت على المولى إسماعيل لفداء الأسرى من سنة 1116/1704 إلى سنة 1129/1716 على وصف شالة، قال :(128)

إن هذه الصور المكتشفة كانت في هيأتها وزيّ لباسها رومانية. وبمجرد العثور عليها وُجِّهت إلى السلطان بمكناس، وحاول شراءها منه أحد الفرنسيين المسمى بيريلي (Perillié)(129) فامتنع من ذلك، وأعطاها لليهودي أبرهام ميمران، فدفنها عند ملتقى أربعة أسوار من البناءات الاسماعيلية، وبذلك عادت إلى الاختفاء بعد الظهور مرة ثانية، لأنّ الديانتين الإسلامية واليهودية تحرمان الصُّور المجسّمة، سواء كانت إنسانية أوحيوانية.

محنة عبد الله ابن عائشة

كان لعبد الله بن عائشة أنداد وحسدة يحسدونه على ما يتمتّع به من حظوة لدى السلطان ، وما له من جاه ومال وشان وشهرة في العالم الأوربي والقطر المغربي، من أبناء جلدته ووطنه، ومن الأجانب الذين كانت لهم علاقة سياسية وتجارية بهم.

ومنهم السفير لدى السلطان المولى إسماعيل، سانت أولون (saint-Olon)، والقنصل الذي كان بالرباط إسطيل، حسبما يُعلم ذلك من التقارير السرية، والمكاتب الرسمية، التي كان يرفعها به لحكومته، سواء قبل سفارته لفرنسا، أو أثناءها أو بعدها، وينعته فيها بأنه لا همّة له إلاّ في جمع المال واحتجانه، بكل وسيلة، وأنه لا ضمير له ولا عهد ولا ميثاق.

وقد تقدم بعض ذلك مفصّلاً عند الكلامْ على سفارته بفرنسا ومخابرته في فداء الأسرى.(130)

---

127) المجلد VI من «الينابيع»، السلسلة الثانية، ص 184.

128) نفس المصدر والمجلد، ص 630.

129) جان پيريليي : كان قنصلاً فرنسياً بتطوان وسلا، من سنة 1095/1683 إلى سنة 1099/1687.

130) انظر ج 3، من ص 109 إلى ص 114.

ومنهم مدير شركة جوردان بالرباط، مانيي دو لا كلوزري.

فقد جاء في كتاب له إلى الوزير بوشارتران بتاريخ 6 أكتوبر سنة 11/1699 ربيع الثاني عام 1111[131] : «أن ابن عائشة مع ما قوبل به من التشريف والاعتبار بباريس لم ينس «بربريته»، وأطلق لسانه في الفرنسيين بعد رجوعه من بلادهم، وقال فيهم ألف شيء قبيح، ولا عهد له ولا ذمة، ولا يحب إلا مصلحته، وهي التي تهيمن عليه، وسائر تحف الهند وطرائفه لا تشبع نهمه...»

ثم قال مخاطبا وزيره :

«لولا أنْ أخاف أن أكون تجاوزت حد الحرية والأدب معك، لقلت أكثر من هذا»

هذا ما كان يقوله فيه مانيي، ويتقرَّب به إلى وزيره، مع أنه جاء إلى المغرب في حرمته، وتحت رعايته، وأكرمه ونعّمه، وأنزله في بيته، وتوسَّط له أن يكون قنصلاً ببلده، وهذا لعمر أبيك اللؤم بعينه.

ومن جملة ما تقوّله التجَّار الفرنسيون عن ابن عائشة أنه قرّر للسلطان المولى إسماعيل امتناع الفرنسيين من عقد الصلح معه، وإطلاق سراح الأسرى المغاربة (وهو الواقع)، وأنه لم يحسن القيام بماموريته...

وأنَّ السلطان، لمَّا بلغه ذلك، استدعى ابن عائشة إلى مكناس[132] ليجيب عمّا اتُّهم به، وأن حالته مع السلطان في خطر، وربَّما تَتِمُّ بأدائه قدراً كبيراً من المال، ليفدي به نفسه، ولكنه لم يكن شيء من ذلك.

والحقيقة أن ابن عائشة إنما أخبر السلطان بما أصدرته الحكومة الفرنسية من الأوامر لأسطولها بالخروج إلى البحر، وتتبُّع قراصنة المغرب، وحصار سلا والرباط. وكان ذلك قبل مغادرة ابن عائشة لفرنسا، واحتجّ عليه في إبّانه.

وترتّب عن هذه الآوامر الحربية، استدعاء السلطان للتُّجار الفرنسيين الذين كانوا بالرباط وتطوان، وتهدُّدهم بالنفي من بلاده.

وقد تقدم ذلك كله مفصَّلاً في أخبار ما نتج من سفارة ابن عائشة.[133]

131) المجلد V، من «الينابيع»، السلسلة 2 من وثائق الدولة العلوية بفرنسا، ص 441.
132) المصدر السالف الذكر، ص 97 و 98 من المجلد VI.
133) انظر ج 3، من ص 119 إلى ص 158.

ثم رفع مـانيي تقـريراً آخر لوزيره بونشـارتران بتـاريخ 19 دجنبـر سنة 8/1699 رجب عـام 1112، بسط له فيه الحالة السياسية بالمغرب جاء فيه[134]، فيما يرجع لابن عائشة أن هذا الأخير، استُدعي لمكناس في 7 دجنبر سنة 25/1700 جمادى الثانية عام 1112، ليجيب عن الشكايات المتعددة المرفوعة به إلى الحضرة السلطانية، وذلك لحبّه المال حبّاً جمّاً، وتلهُّفه على جمعه وأخذه بأي وجه أمكن، حتى أنَّ ذلك أحدث له همّاً وحزناً مُلازمين له، ولكن من المحقَّق أنه ستُبرّأ ساحته.

وقد طلب منه الملك أداء، خمسين ألف إيكوس (Ecus) أو ريال.

أمّا ما كتبه فيه الأحبار والرهبان الذين كانوا يتردّدون على المغرب لفداء الأسرى، كالآباء : بسنو (Busnot)، ودان (Dan) ، ونولاسك (Nolasque)، وغيرهم، فهو شيء كثير، وكلّه تنقيص واتّهام بحب المال، وقساوة في معاملة الأسرى، وممالأة على بقائهم في الأسر، وتعصّب في الدِّين، وغير ذلك... ممّا يطول جلبه وتتبُّعه.

ومن جملة من كان يجاهر بعداوة ابن عائشة من قومه، وأبناء جلدته وبلده، الحاج المجذوب مورينو الذي كان متولياً عمالة الرباط سنة 1712/1123-1124[135].

وهو الذي وشى به عند السلطان المولى إسماعيل بأنّه أعان على فرار أحد الأسرى الفرنسيين الأغنياء الذي كان مهيأً لفداء أحد الأسرى المغاربة، وأداء فداء من المال له بال، وقرّر للسلطان أنَّه قبض في هذه القضية مالاً كثيراً، وستره في داره التي كان ساكناً بها مَانْيِي، مدير شركة جوردان، وهي دار القصري، أو بدار نائب القنصل الفرنسي بالرباط كوتيي (Gautier). وزاد في وشايته أنّه لمّا رجع من فرنسا، باع الهدايا التي قُدِّمت له بها كسفير سلطاني، واستبدّ بثمنها.

فأمر المولى إسماعيل بتفتيش الدارين المذكورتين، ففُتّشتا، ولم يُعثر فيهما على شيء.

ثم صدر الأمر السلطاني لاستدعاء ابن عائشة ومانْيي، مدير الشركة للتَّحقيق معهما، فتوجَّها إلى مكناس في خوف ووجل.

ولمّا قابل ابن عائشة المولى إسماعيل وتذاكر معه، برأ ساحته، ولم تؤثّر وشاية مورينو في نفوذه ومكانته لديه شيئا.

134) المجلد VI، من «الينابيع»، السلسلة 2 من وثائق الدولة العلوية بفرنسا، ص 207 و208.

135) ملخص من كتاب مانيي دو لا كلوزري إلى الوزير بونشارطران بتاريخ 25 ماي 6/1700 قعدة 1111، ص 150 وهامش 2، من المجلد VI، من «الينابيع»، السلسلة 2 لوثائق الدولة العلوية بفرنسا.

المحنة الكبرى

ثم حلّت به المحنة الكبرى[136]، وهي أنّه لمّا رجع من فرنسا، أشاع عنه أنداده وحاسدوه أنه احتجن بهذه السفارة ثروة طائلة، فتشوّفت إليه العيون، وأشارت له الأصابع، وويل لمن أشرت له، قالوا : ولو بالخير، في كل زمان ومكان.

فانتهز أحد أولاد السلطان المولى إسماعيل، وهو المولى الحفيد شقيق المولى زيدان، فرصة غيبة والده في حربه مع الجزائر سنة 1112/1701-1702، وكان قد استقرّ في ذهنه كغيره أنه يملك أموالاً عظيمة، فاتّخذ سبباً يمكّنه منه، ما بلغه عنه من أنه يتكلم فيه بالسوء، وينتقده، فقبض عليه، وجلده خمسمائة جلده، حتى أشرف على الهلاك.

ثم عذّبه، وطوّقه بطوق من حديد، بداخله مسامير بارزة تضيق وتتّسعُ دائرته بواسطة لواليب، وضيّقه عليه، حتى انتفخ وجهه، وجحظت عيناه، وتفجّر الدم من رأسه، وتمزق لحمه لأنّه كان بدناً، قوي العضلات، ففاحت منه روائح كريهة.

وحيث كانت زَوْجَتَهُ تعلم أنّ مقصد هذا الأمير هو المال، فقد بادرت بنُصحه بأن يدفع له ما يرضيه، ويتخلّص من محنته. ونصحه كذلك جماعة من أصحابه والملابسين له بأن يقدم هدية للشريف تناسب قدره ومقامه، وتريحه من عذابه، فلم يستجب لما ندبوه إليه. ولم تسمح نفسه بما طلبوه منه، حتى بلغ منه الألم مبلغه، وغُشي عليه مراراً، وشاهد الموت عياناً.

وحينئذ لانت قناته وسمحت نفسه بأداء خمسة قناطير فِضّة، ليخفّف عنه العذاب فأدّاها، وأُطلق سراحه.

ولمّا رجع المولى إسماعيل من حركته، واطّلع على القضية، غضّ الطرف عنها، ورجع ابن عائشة لما كان عليه من الاشتغال بمسائل فداء الأسرى، والمخابرة مع الرهبان المطالبين بفدائهم...

ومع طول الأيام، وتعاقب الشهور والأعوام، انخفض صوته، وضعف صيته، وتضاءل شخصه، أمام قواد آخرين كانوا معه في الميدان السياسي الإسماعيلي، كالقائد علي بن عبد لله، والقائد أحمد بن حدّو العطار، وغيرهما.

---

136) اقتبسنا أخبار هذه المحنة التي حلت بابن عائشة من كتاب الأب بوسنو (Le Père Busnot) المعنون : «في عهد لويز الرابع عشر» (Au temps de Louis XIV)، ص 37 و38 ومن أخبار «جمعية الرحمة الرهبانية» (Ordre de La merci) الموجودة في المجلد VI من «الينابيع»، السلسلة II من وثائق الدولة العلوية بفرنسا، ص 689 وما بعدها.

ومع اتّصال مواصلاته ومراسلاته لأقطاب السياسة الفرنسية في ذلك العصر، فيما يرجع لعدة مسائل وقضايا سياسية وتجارية وشخصية، فإنّ حالة الأسرى بقيت على ما هي عليه لتمسك كل من الطرفين برأيه ومبدئه، فيما يرجع لإطلاق سراحهم، وكذلك المسائل الأخرى القرصانية والتجارية لم يحصل فيها تغير يُعتبر، أو نتيجة تُذكر.

وآخر ما وقفنا عليه من رسائله السياسية، الرسالة التي خاطب بها ولي عهد فرنسا ووزيرها بونشارتران وكافة أهل الديوان الفرنسي بتاريخ 6 ربيع الثاني عام 15/1121 يونيو 1709[137]، يؤكد لهم فيها صداقته لفرنسا، وعداءه لانجلترا، قال لسوء معاملتهم له لمّا كان أسيراً عندهم، ويعلمهم بأن المولى إسماعيل كتب لملكتهم حنّة (Anne)[138]، يتوعّدها ويُحبّذ عمله، ويعرض على الفرنسيين مساعدتهم على أخذ جبل طارق منهم، وقد تقدم ذلك مبسوطاً في المبحث المعقود لسياسته وتقلبه فيها.

أسر ابن عائشة بهولاندا

جاء في الرسالة التي خاطب بها عبد الله ابن عائشة الوزير بونشارتران، بتاريخ آخر ربيع الأول، عام 25/1111 شتنبر سنة 1699[139] :

أن المولى إسماعيل لما كلّفه بالخدمة ببساطه الشريف، وألزمه عدم التغيّب عنه، أسقط عنه ركوب البحر طول عمره. واشتغل، منذ ذلك الحين، بالشؤون السياسية البحرية ومسائل فداء الأسرى إلى ما بعد سنة 15/1121 يونيو سنة 1709 حيث اختفى صوته، كما تقدم.

ولا ندري لماذا رجع إلى ركوب البحر، واستأنف أعماله القرصانية بعد التاريخ المذكور حتى أسره أسطول هولاندي من مرسى فليسانگ (Flessingue) الحربية الهولاندية سنة 1123/ 1711، ولم يُطلق سراحه إلاّ في شهر يناير سنة 1713/حجة سنة 1124-1125، في مقابلة أحد عشر أسيراً من الأسرى الهولانديين الذين كانوا بالمغرب[140].

---

137) المجلد VI من «الينابيع»، السلسلة 2 من وثائق الدولة العلوية بفرنسا، ص 413-417.

138) هي آنّا ستوارت (1665-1714)، ملكة بريطانيا العظمى من سنة 1702 إلى 1714.
وبنت جاك الثاني وآنّا هايد (Anna Hyde) قاومت نفوذ لويس الرابع عشر، وضمّت سكوتلاندا إلى إنجلترا تحت اسم «بريطانيا العُظْمَى»، سنة 1707.

139) المجلد V من «الينابيع»، السلسلة 2 من وثائق الدولة العلوية بفرنسا، ص 410.

140) المجلد VI من «الينابيع»، السلسل 2 من وثائق الدولة العلوية بفرنسا، ص 540، هامش 1.

وليست لدينا الآن معلومات كافية عن كيفية هذا الأسر والمخابرة التي ترتّبت عليه، حتى تمّ الفداء وإطْلاَقُ السراح.

وبعد أسره، أسند المولى إسماعيل للقائد علي بن عبد الله الحمامي منصب مباشرة فداء الأسرى والشؤون الخارجية البحرية التي كان مكلفاً بها. وأعلم بذلك لويس الرابع عشر في جوابه المؤرخ في منتصف جمادى الآخرة عام 15/1123 يوليوز سنة 1711[141] عن الرسالة التي كان وجّه له بتاريخ 3 يوليوز 6/1710 جمادى الأولى 1122، في شأن فداء الأسرى، ونوّه به، وأنه قصر مباشرة هذه المسائل المعلقة عليه وحده دون غيره.

ولم نقف لابن عائشة على ذكر في المجال السياسي بعد هذه الحوادث إلى أن وافاه أجله كما سيأتي.

دار سكنى عبد الله ابن عائشة بالرباط

تقدم لنا أن عبد الله ابن عائشة كان يملك دار القصري الذي كان من جملة قواد القصبة في عهد ما كان يسمى بـ«الجمهورية السلاوية - الرباطية»، وبها أسكن مدير شركة جوردان كما تقدم[142].

أما دار سكناه، فقد أخبرني صديقي ورفيقي في الخدمة المخزنية، وزير عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية أبو العباس أحمد بن عبد الرحمان بركاش، أن المتناقل عندهم بالرباط، والمسموع من الناس الأقدمين هو أن عبد الله ابن عائشة كانت داره التي يسكن بها إزاء الزاوية التهامية، وهي إحدى دور الأشراف الوزانيين حول زاوية مولاي المكّي.

وكان له نفق تحت الأرض، يمتد منها إلى المرسى، وربما كان لمقصد حربي وكان هذا النفق معروفاً عند الناس إلى عهد قريب.

قلت : وهذا النفق نظير النفق الذي كان للمجاهد العياشي بسلا، ممتداً من دار سكناه بها إلى البحر. وقد أدركنا بقيته وأثره، ووقفنا عليه، حسبما قدّمنا الكلام عليه في أخبار العياشي.

141) نفس المصدر، ص 464.
142) المجلد V من «الينابيع»، السلسلة 2 من وثائق الدولة العلوية بفرنسا، ص 163، هـ 2.

شخصية عبد الله ابن عائشة

تبيَّن لنا ممَّا وقفنا عليه ودرسناه من أخبار وأحوال عبد الله ابن عائشة أنه كان ذا شخصية بارزة، وشهرة دائعة في العالم الأوربي والدولة الإسماعيلية.

وقد امتاز على أقرانه من رؤساء البحر وقراصنته المعاصرين له بمزيد ذكاء وشهامة وجدّ في عمله ومهمته، بحيث كان لا تلين قناته، ولا يقبل مهاودة ولا مساومة مع خصومه وأنداده، وخصوصاً في مخابراته مع رجال الحكومة الفرنسية في فداء الأسرى، واثبات السلم والأمن بين الدولتين.

وكان إذا غضب، تنمّر وتجلّى فيه غَضَبُ القراصنة، كما حدَث له ليلة وداعه مع لويز الرابع عشر، لمَّا تقوّل عليه سانت أولون (Saint-Olon) بأنه قبل مشروع الصُّلْح كلَّه، فغضب، وسبّ ولعن وقال : «إنه لا يحمل السيف والخنجر إلاَّ ليقول الحق لمن جحده، أو تقوَّل عليه ما لم يقله». ولم يسامح خصمه إلاَّ بعد جهد جهيد، حسبما تقدم مفصّلاً في مباحث سفارته.

كما كان إذا رضي وانبسط، صدرت منه أقوال ونكث وعبارات وأجوبة مسكتة أو مضحكة تدلُّ على أنسه وانشراحه واطمئنانه لجلسائه إلى حدِّ الإفراط.

وإذا تظاهر بوداد شخص أو صداقته، أظهر عواطفه له بعبارات فيها مبالغة كبيرة، بدون احتراس ولا غموض، وخطّها في رسائله بقلمه، وأقسم عليها بالأيمان المغلَّظة، ممَّا يدلّ على بساطة أخلاقه، وعدم تكلّفه إظهار شيء وإخفاء شيء، لأنه يعبّر عما يتجلّى في نفسه، ويشعر به فى وقته، حسبما يُؤخذ من رسائله التي كان يخاطب بها أقطاب السياسة الفرنسية، وبعض الأعيان من التجَّار، وغيرهم، بالعاصمة الباريزية.

ومع ما كان يظهره من اللطف والبشاشة والمجاملة في مجالسه، تَتَجَلَّى فيه الصرامة والجدُّ والثبات على المبدإ في جداله المتعلق بمسألة الأسرى ولا يقبل فيه إلاّ ولا ذمَّة.

ويُستفاد أيضاً من درس مجموع أخلاقه وأحواله أنه كان يحب الفخفخة والرياسة، والظهور في مجالات أولي الأخذ والردِّ، والحلِّ والعقد، من رجال الدولة، وذوي العزِّ والصولة، ليُذكر اسمه معهم ويكون من جملتهم، فحصل على ذلك، من الناحية الأوربية بواسطة أعماله القرصانية.

وحيث كان بهذه المثابة من الحرص على الوقوف في صفِّ الرؤساء والسفراء والقواد، فقد نال من الجاه والوجاهة ونفوذ الكلمة في الدولة الإسماعيلية ما ضاهى به أقرانه، وربَّما تميّز عليهم حقبة من الدهر.

وقد دعته هذه الأوصاف والصِّفات التي كان متّصفاً بها إلى حبّه المال حبّاً جمّاً ليعيش كأمثاله وأقرانه عيشة راضية، قطوفها دانية، من ترف ورخاء، ولذلك كان يتنافس في شراء المرايا البِلَّوْرية، ويحب أن يرى في بيته سُرُراً مرفوعة، وأكواباً موضوعة، ونمارق مصفوفة، وزرابي مبثوثة...

كما كان يتغالى في اقتناء تحف الهند وطرائف أوربا من الثياب الرفيعة، والحلى والجواهر النفيسة، ويستكثر من الخدم والحشم والأتباع في سفره وحضره، مع الإخلاص التامّ لملكه، ومحبّة بلاده ووطنه، والسعي فيما يرفع شأنه وإظهاره بمظهر القوة والعظمة أمام الدول الأجنبية.

وقد دام على ذلك، فيما وصلنا من أخباره، إلى آخر أيامه.

ديانة عبد الله ابن عائشة

يستفاد من أخبار عبد الله ابن عائشة في أسفاره وتنقُّلاته في البلاد الأجنبية، أنه كان شديد الشكيمة في دينه، فخوراً به، متمسّكاً بحبله المتين، محافظاً عليه، مظهراً لمراسمه وشعائره في كل وقت وحين، لا تأخذه فيه لومة لائم، ولا يصدُّه عَنْهُ صادّ، حتى اشتهر بذلك، ووصفه به من ترجم له من الأوربيين، ومنهم كواندرو (Coindreau) حيث قال[143] : «هو الرئيس القرصان المسلم الحقيقي».

وقد تجلّت فيه هذه الصّفات الإسلامية في عدّة مواقف من حياته السياسية والحربية.

– منها أنه أثناء مخابراته مع ساسة فرنسا في تحرير مشروع الصلح، وفداء الأسرى، ناقش عدة فصول فيه وردّها، ولم يقبلها، لأنها مخالفة للدين والشريعة الإسلامية.

– و منها أنّه لمّا اتّفق مع التاجر جوردان الفرنسي على تأسيس شركته التجارية بالرباط كتب له و أمره أن يسقط من زمام ما سيتّجر فيه الأشياء المحرّمة على المسلمين بنص القرآن، كالرِّبى والخمر ونحوهما، أو المُضِرَّة باقتصادهم ومعيشتهم، كالحبوب والماشية، مثلاً، إلاّ بإذن خاص.

– ومنها أنّه لمّا كان في طريقه من بريسط (Brest) إلى باريز، مرّ على المحل المعروف بـ «بلاط الشهداء» قرب مدينة بواتيي (Poitiers)، فقصد زيارته، وعفّر وجهه بترابه وخشع،

143) «قراصنة سلا» لروجي كواندرو، ص 78 طبعة 1998 وص 70 لطبعة 1948.

ودعى وتدرع، وسجد وركع، وقال : «هذا تراب دَاسَتْهُ أرجل المسلمين وحوافر خيولهم، وامتزجت به دماؤهم».

وفيه دليل قاطع على حسن اعتقاده، وصحيح إيمانه، ومعرفته بالفتوح الإسلامية، وتَدَفّق جيوشها على القارة الأوربية، وانتشارها في أطرافها.

– ومنها أنَّه لمَّا كان بفرنسا، وأظلَّه شهر رمضان، صامه هو وأصحابه الذين كانوا معه، وأظهر صيامه مفتخراً به، وعُقدت له أثْنَاءَهُ الحفلات والمآدب بمنازل الملوك والأمراء والوزراء ومن في معناهم، فكان يحضرها، ويمتنع عن الأكل ويقول : «إني صائم».

وأحيى ليلة السابع والعشرين منه، وهي ليلة القدر، بالنزل الذي كان نازلاً به هو وأصحابه بالصلاة والتلاوة إلى طلوع الفجر.

ـ ومنها أنه كان إذا استُدعي لغذاء أو عشاء، بعد رمضان، بمنزل أحد الرؤساء والأعيان، تثبت غاية التثبت بالبحث عن الأطعمة التي ستقدم له، حتى لا يكون فيها منخنقة. ولا موؤدة. ولا لحم خنزير، مِمَّا هو محرم على المسلمين، بنص الكتاب المبين.

– ومنها أنه، حسبما حدَّث عنه رفقاؤه من الفرنسيين، كان لا يفتر لسانه عن الذِّكر في غدواته وروحاته، حتى في أثناء ركوبه وتجوّله في العربة المخصَّة به، ولا تفارقه سبحته في أي وقت من الأوقات أو حالة من الأحوال.

ولعلَّه كان منتسباً إلى طريقة من الطرق الصوفية التي كانت رائجة ومشهورة في زمنه ووقته، وملزماً نفسه للقيام بورده، حسبما تلقّاه من شيخه.

وبالجملة، فقد كان الرجل مسلماً، مخلصاً، صادقاً في اعتقاده، مؤمناً بالله وبمآله ومعاده، ولم يشغله ما كان فيه من الرياسة والثروة والظهور عن العمل للآخرة التي هي خير وأبقى، والحياة الدنيا إنما متاع الغرور، والله سبحانه وتعالى عَفُوٌّ شكور.

وفاة عبد الله ابن عائشة

لمَّا رجع عبد الله ابن عائشة من الأسر بهولاندا في ذي الحجة سنة 1124/يناير 1713 حسبما تقدم، لم تطل مدة حياته بعد ذلك إلا بضعة أشهر. ولعلَّه رجع من هذه المحنة يائساً أو مريضاً.

وكانت وفاته في شهر جمادى الآخرة عام 1125/يوليوز سنة 1713[144].

والغالب على الظن أنّ وفاته كانت ببلده برباط الفتح، إذ لم أقف إلى حد الآن على من صرّح بذلك.

وقد تردّد صدى موته بالعالم الأوربي. ومن ذلك[145] ما جاء في رسالة صادرة من اللورد دو لاڤول (Lord de Laval) الانجليزي بلشبونة إلى الكونت دو دارثموت[146] (Comte de Dartmouth) بلوندرا، بتاريخ 4 أكتوبر سنة 14/1713 رمضان عام 1125، يخبره فيها بحوادث وأخبار جديدة، ومن جملة ما جاء فيها :

«أن الموت أبعد منذ مدة قريبة شخصين مهمّين كان لكتاب ملكنا بهما اهتمام كبير، وهما :

- قائد القصبة (يعني قصبة الرباط)
- والأميرال بسلا عبد الله ابن عائشة

ولا يخفى أنه كان عدواً إلى الموت للسلاڤيين (Les Slaves) وخصوصاً للإنجليز، وهو المثل الأعلى في جحود النعمة ونكران الجميل، ونسي أن الملك شارل الثاني هو الذي منّ عليه بإطلاق سراحه، وإنقاذه من العبودية، بدون فداء ولا تعويض، وردّه إلى بلاده مكرماً، وزوّده بالهدايا والعطايا المهمّة...»

هذا ما توفّقنا إلى الوقوف عليه من أخبار الرئيس الأميرال السفير عبد الله ابن عائشة في المصادر الفرنسية التي وصلت إلينا، وسجّلناها هنا، لأنه شخصية ضائعة عند مؤرّخينا، وكأن لسان حاله يقول :

أَضاعوني وَأيّ فتىً أضاعوا لِيَوْمِ كَرِيهَةٍ وسداد ثَغْرِ

كما أنّ خلفه في وظيفته السياسية وفداء الأسرى، القائد علي بن عبد الله[147]، توفي عقبه بنحو شهرين فقط، ليلة 7 شعبان عام 29/1125 غشت سنة 1713، رحمهما الله تعالى، وقابلهما بالعفو والغفران آمين.

144) المجلد VI من «الينابيع»، السلسلة 2 من وثائق الدولة العلوية بفرنسا، ص 540، تعليق 1.
145) «مولاي إسماعيل وجاك الثاني» للكونط دوكاستري، ص 48-49-50، طبع باريس 1908.
146) جورج ليج دارتموث (George Legge Dartmouth)، (1647-1691)، أميرال إنجليزي ؛ خدم جاك II الذي قلّده رياسة الأسطول الإنجليزي ؛ وبعد هروب جاك الثاني، إثر حَمْلَة (Guillaume d'Orange)، انْدحر أمام هذا الأخير، ورغم اعترافه بالوضع الجديد، مات بسجن برج لندن (London Tower).
147) ص 500، تعليق 2 من المجلد VI من «الينابيع»، السلسلة II من وثائق الدولة العلوية بفرنسا.

*** الرئيسان محمد بن عبد الله ابن عائشة وعبد الرحمان ابن عائشة**

تقدمت أخبارهما وأعمالهما القرصانية مدمجة في أعمال عبد الله ابن عائشة، والد الأول، وأخي الثاني.

كانا يعملان معه في ميدان واحد تحت رياسته وإمرته. ولم نقف على تاريخ وفاة محمد، وأما عبد الرحمان فلعل وفاته كانت في حدود سنة 1118-1117/1707، لأنَّ آخر عملية قرصانية قام بها كانت سنة 1118-1117/1706، ولم يسجل له التاريخ عملاً آخر في البحر بعدها.

وجاء في كتاب ملخّص أخبار رحلات الرهبان طلاّب الفداء بالمغرب 1704-1708-1716[148].

(Relation des Voyages au Maroc des Rédempteurs de la Merci : 1704-1708-1716).

«أن عبد الله ابن عائشة كان بمكناس، وأذِنَ له السلطان المولى إسماعيل في المجيء إلى الرباط سنة 1118/1707 للنظر في تركة أخيه عبد الرحمان وقسمها بين ورثته.»

وعليه فيؤخذ منه أن وفاته كانت في هذه السنة أو التي بعدها، والله أعلم.

---

148) (Ordre de la Merci) : فرقة رهبانية أسَّسها ببرشلونة، سنة 620/1223 الأب ﭘيير دونولاسك (Le Père Pierre de Nolasque)، أحد النبلاء الفرنسيين.
وفي سنة 633/1235، اعترف بها البابا ﭽْرِيجْوَارْ التاسع (Grégoire IX).
وكانت هذه الفرقة تتبع طريقة القدِّيس أوچستان (Saint Augustin) ثم بعد ذلك تسمَّى أعضاؤها بـ «إخوان الرحمة».
وكان أفرادها ـ في بدايتها ـ علمانيون، ثُمَّ في سنة 708/1308 أضيف إليهم قساوسة خلفوهم بصفة نهائية.

المبحث الثالث

بعض مشاهير رؤساء الأسطول القرصاني السلاوي - الرباطي في عهد السلطان سيد محمد بن عبد الله

الرؤساء من آل فَنِّيش

الفنانشة من الأسر القديمة العريقة بمدينة سلا.

وتقدم لهم ذكر كبير في تاريخها وتاريخ أسطولها وقرصنتها. وكان منهم الولاة عليها، والرؤساء في سفنها، والسفراء إلى الدول الأجنبية، فيما يرجع لعقد المهادنة وفداء الأسرى.

وقيل إنهم أندلسيون ؛ وقيل إنهم من عرب سفيان النازلين بالغرب بعد دخول بني هلال إلى المغرب في عهد يعقوب المنصور الموحدي.

وحكى أبو عبد الله الضعيف في «تاريخه» قولاً آخر، يوخذ من حديث للسلطان المولى عبد الله أنهم من علوج السلطان المولى إسماعيل، رحمه الله[149].

وسبق لهم اتصال بالملوك، منذ عهد السلطان المولى إسماعيل ومن بعده، إلى السلطان سيدي محمد بن عبد الله.

ولهم معه حوادث وأخبار طويلة سياتي بسطها، بعد هذا، في محله، لاتصالها بأخبار سلا والأُسَر التي كانت فيها الرياسة البحرية والرياسة البرِّية.

149) «تاريخ الضعيف»، ج 1، ص 234، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

ومن مشاهيرهم :

- الرئيس الحاج محمد فنيش. وقد عرّفنا به عند الكلام على رؤساء البحر في العهد الانفصالي.

- والرئيسان الحاج عبد الله بن الحاج محمد فنيش، والرئيس عبد العزيز بن محمد فنيش، وقد سبق الكلام عنهما في المبحث الخاص برؤساء البحر في عهدي المولي الرشيد والمولى إسماعيل.

أما أشهر مشاهير رجالات الفنانشة بسلا في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله فهو :

*** الرئيس عبد الحق فنّيش**

أشهر مشاهير رجالات الفنانشة بسلا، عبد الحق بن عبد العزيز المتقدم. وكان يوصف بالاستبداد، وحب السيطرة على البلاد.

وأول ما ظهر من استبداده واستطالته على الملوك، أنه لمّا اضطرب حبل الأمن بالمغرب بسبب خلاف أولاد السلطان المولى إسماعيل، وتطاحنهم على الملك، بايع أهل سلا وقبيلة بني حسن السلطان المولي المستضيء بن إسماعيل، وتمسّك أهل الرباط ببيعة السلطان المولى عبد الله سنة 1744/1156.

وولّى المولى المستضيء عبد الحق فنيش على سلا، وفوّض أمرها إليه وألقى زمامها بين يديه، فاستحوذ عليها وعلى أعمالها، واقتطعها من كتلة المملكة، بما كان له من العشيرة والعصبية والنفوذ. فاشتعلت نار الحرب بين المدينتين المتقابلتين، واشتدّ الخصام بين الشيعتين العبدلاوية بالرباط، والمستضيئية بسلا. وحاصرت جيوش المستضيء وعَاملَهُ عبد الحق فنيش العدوة الرباطية مدة أربعة عشر شهراً، وانتهى هذا الحصار بانتصار شيعة المولى عبد الله بالرباط على شيعة المولى المشتضيء بسلا. وراجع السلاويون طاعة المولى عبد الله فأقرّ عبد الحق على ولايته، ومع ذلك بقي في قلبه مرض.

قال الضعيف :(150)

في شوال سنة 1754/1168 قدم السلطان سيدي محمد بن عبد الله من مراكش إلى الرباط، ولمّا وصل سدّ الرباطيون أبواب مدينتهم في وجهه، وحصّنوها بالمدافع، باتفاق مع

150) «تاريخ الضعيف»، ج 1، ص 262، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

الرئيس السلاوي، عبد الحق فَنِّيش، فتنكَّبهم، رحمه الله، وعبر الوادي من المجاز، ونزل بالدار الحمراء، بضاحية سلا، وندم عبد الحق على ما صدر منه، أو خاف، ففتح أبواب مدينته، وخرج مع أعيانها، ومعهم صبيان الكتاتيب حاملين ألواحهم القرآنية على رؤوسهم، متشفِّعين إليه، راغبين في عفوه، وأمامهم رئيسهم عبد الحق، السيف في فَمِه، وأولاده الصغار أمامه، ويَدَاهُ وراءه فعفى عنهم وصفح.

ولمَّا رأى الرباطيون ذلك، قدموا أيضاً، وفتحوا أبواب المدينة، وجاؤوا إليها مهطعين، وفي رضاه وعفوه راغبين، يتقدمهم الفقيه السيد أحمد بن عبد الله الغربي، والشريف مولاي إبراهيم الوازَّاني، فقبض عليهم، ووضع القيود في أرجلهم، وطالبهم بأموال المرسى، فقالوا: إنهم بنوا بها أسوار المدينة، ثم عفا عنهم، ورحَّل بعضهم إلى مراكش، وولَّى عليهم القائد العربي المستيري، وكان عيناً له، وجاسوساً على أهل بلده.

واستمر عبد الحق فنِّيش في إمارته على سلا، إلى سنة 1767/1180، وكان فظّاً غليظاً، فَقَتَلَ رجلاً من أعيان سلا - قيل كان هذا الرجل من قرابته، اسمه محمد بن الحاج المفضل فنيش، وقيل كان من أولاد زنيبر - فرفع أولياؤه أمرهم إلى السلطان بمكناسة، وحضر عبد الحق معهم، وثبت أنَّ قتله للرجل كان على وجه الظلم، فحرَّك ذلك من السلطان ما كان كامناً في صدره، من سوابق أعماله مع والده ومعه، فأمر بالقبض عليه، ودفعه إلى أولياء المقتول، ليتولوا قتله بأيديهم قصاصاً منه، فجبنوا عنه لِمَا كان له من الهيبة في قلوبهم، فأمر الوزعة بقتله لهم بمرءٍى منهم، فقتلوه، فيما قيل بالفؤس.

ثم بعث - رحمه الله - من احتاط على أموال عبد الحق والفنانشة أجمع، وأمر ببيع أصولهم، بعد إعمال الموجبات بأن الفنانشة مستغرقوا الذمَّة، وأن جميع ما بأيديهم اكتسبوه من الخصومات وغيرها من وجوه الظلم، وضرب الإتاوات على الضعفاء والمساكين، حتى عند نكاحهم، فبيعت أصول عبد الحق وعشيرته لبني حسن، وكانت تنيف على مائة أصل، ما بَيْنَ ربع وعقار. ثم غرَّبهم إلى العرائش، فسُجنوا بها مدَّة، وغرَّب بعضهم إلى السويرة[151].

وقد وقفت على الرسوم والظهائر والمكاتيب الشريفة المتعلِّقة بحجز أملاك هذه الأسرة الفنيشية، ومن مَتَّ إليها بنسب أو سبب.

هذا وقد خلفت ولاية عبد الحق فنيش آثاراً بسلا، لازالت قائمة إلى الآن.

- منها السور الغربي للمدينة الفاصل بينها وبين المقبرة العامَّة المعروفة بمقبرة «باب المعلَّقة»، جدَّده المولى المستضيء أيام إقامته بسلا، على يد قائده عبد الحق المذكور،

151) «الاستقصا»، ج 4، ص 103، طبع القاهرة 1894. وج 7، ص 40 طبع الرباط 2001.

واستعمل في بنائه أحجار شواهد القبور، ومازالت هذه الشواهد شاهدة مشاهدة بالعيان على هذا التجديد، وعليها أسماء جماعة من الأعلام، وتواريخ وفياتهم.

وبنى أيضاً برجاً صغيراً قرب ضريح الشيخ أبي العباس أحمد بن عاشر، يُعرف ببرج القائد، وفيه كتابة تشهد بأنه بُني في عهد المولى المستضيء، وولاية فنيش، أمام برج الدموع...

- ومنها الصقالة القديمة، وهي المجاورة لضريح الشيخ أبي العباس ابن عاشر،

قال في «الاستقصا»[152] :

«لمّا قدم السلطان سيدي محمد بن عبد الله إلى الرباط... أمر قائد سلا عبد الحق فنيش أن يبني صقالة على البحر مقابلة لصقالة الرباط».

- كما جدّد بناء باب سبتة، وجعل محكمته به، إلى غير ذلك من الدور والمنازل والأهرية والفنادق.

وبعد هذه النكبة، عفا السلطان سيدي محمد بن عبد الله، عن الفنانشة، ومحا ذنوبهم، وقرّبهم، وولاّهم رياسة الرماية بالمهراس والمدافع المعروفة برياسة الطبجية، وفرّقهم على الثغور، فكان بعضهم بالعرائش، وبعضهم بطنجة، وبعضهم برباط الفتح، وبعضهم بالسويرة، وأعطاهم الدور المعتبرة، والرباع المُغِلَّة، ورتّب لهم الجرايات العظيمة، حتى بلغوا من الثورة والعزّ والجاه ما لم يبلغه أحد في دولته، رحمه الله، ... كذا في «البستان الظريف» للزياني.

وحضر جماعة منهم فتح الجديدة، فأبلوا بلاء حسناً.

وكانوا يحضرون في حركات السلطان سيدي محمد بن عبد الله، وحصاره لبعض المدن والمراسي البحرية بصفتهم طبجية ورماة بالمهاريس والمدافع مع طبجية ورماة باقي الثغور المغربية.

* الرئيس الحسن فنيش

هو أخو عبد الحق فنيش السابق الذكر. كان أيضاً من رؤساء الأسطول القرصاني السلاوي - الرباطي، ومن ذوي الشهامة والشجاعة، من شيعة المولى المستضيء، الساعي في إقامة إمارته بسلا، وحضر معاركه مع الباشا أحمد الريفي ببني حسن والريف ونواحي

---

152) ج 7، ص 18، طبع وزارة الثقافة، 2001.

وازّان، وشهد المعركة الأخيرة التي انهزم فيها جيش المولى المستضيء شرّ هزيمة بدار العباس ببني حسن، وفرّ ناجياً بطمرة ولجام، فلقي أثناء فراره أحد قواد عبيد الرمل كان مصاحباً له، ومات له فرسه في المعركة، فطلب منه أن يردفه فأردفه لسابقة الصحبة، ثم غدر العبد به، وأكبَّه عل رأسه، وشدّ وِثاقه، وأقسم له يميناً إنْ لم يسر أمامه حتى يقتله، فصار به إلى أن أوصله إلى السلطان المولى عبد الله. ولمّا مثل بين يديه قال له :

«أنت يا فنِّيش من علوج أبي إسماعيل، ووالدك كذلك، فَلِمَ تَركتَ خدمتي، وأخذتك الغيرة على الحمار بن الحمار ؟» (يعني الباشا الريفي).

فقال له فنيش : «اعتقني وأنا أعطيك عشرين قنطاراً». فأخذ المولى عبد الله عشبة من الأرض وقال له : «هذه العشبة عندي أفضل من مالك، وأنشد متمثِّلاً بقول القائل :

إنَّ الأسودَ أسودَ الغابِ هِمتُّها يوم الكريهة في المسلوب لا السلَّبِ

وضربه بمزراقه فقتله، وذلك بوادي الرزاز بوازّان[153]

• الرئيس الحاج الطاهر فنِّيش

هذا الرئيس هو ولد عبد الحق المذكور سابقاً.

كان من الرؤساء المشهورين، والبحَّارة الماهرين، والسفراء الممتازين. وكانت له زلفى وحسن مآب بعد النكبة التي حلَّت بأسرته في دولة السلطان سيدي محمد بن عبد الله، ونال رياسة المراكب البحرية السلاوية بأسرها.

وحضر فتح الجديدة، واسترجاعها من يد البرتغال سنة 1768/1182 وكانت له اليد الطولى في إمطارها بالقنابل من مدافعه ومهاريسه[154].
وتولى رياسة رماة المدفعية بالمغرب.

وفي سنة 1779/1190، عيَّنه السلطان سيدي محمد بن عبد الله سفيراً عنده إلى ملك فرنسا لويز السادس عشر في شأن سفينة فرنسية جنحت بسواحل الصحراء المغربية، والتقط بحّارتها خُدَّام المخزن هناك، فردَّهم إلى ملكهم المذكور معه، وأصحبه كتاباً يتضمَّن

153) «تاريخ الضعيف»، ج 1، ص 234-235، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.
154) «الاستقصا»، ج 7، ص 50، طبع الرباط 2001.

شرح ما صدر من القنصل الفرنسي من التطاول وسوء الأدب على الحكومة في شأن هؤلاء الأسرى، وكلّفه بمباشرة مسائل أخرى... فقام بمأموريته على الوجه المطلوب منه(155).

وعيّنه في سنة 1786/1200 نائباً عنه في الإمضاء مع قنصل الولايات المتحدة بباريس، تُمَاس باركلي (Thomas Barclay)، على معاهدة سلمية تجارية بين المغرب والولايات المتحدة(156).

وفي هذه السنة بعثه سفيراً لتركيا وإيطاليا ووجّهه بعد ذلك لمالطة في شأن فداء الأسرى، مصحوباً بعشرين أسيراً مسيحياً فداءً لعشرين أسيراً مسلماً، فقام بالمهمّة أحسن قيام.

ولمّا ورد على الحضرة السلطانية، في هذه السنة أيضاً، سفير السلطان عبد الحميد الأول، صحبة السفير المغربي الذي كان بتركيا، عبد الكريم العوني التطواني، في شأن سلوك وُلاة الأمر بتونس والجزائر مسلك الأدب والاحترام مع سلطان المغرب، فيما يكتب لهم به، ونزل بطنجة، أَمَرَ السلطان الرئيس الحاج الطاهر فنيش بمرافقته في طريقه إلى الرباط، وهو الذي تولّى تقديمه إليه في احتفالات عظيمة، فصلّها الزياني في «التُّرْجُمَانَةُ الكُبرى» وقال : «إن السلطان صرّح له بأنه لا يُوجِّه القراصين الحربية للخارج إلاّ مع الطاهر فنيش، لِمَا كان يراه فيه من الحزم والعزم».

وحضر مع السلطان المولى الْيَزِيد بن محمد بن عبد الله في حصاره لمدينة سبتة سنة 1767/1180، واستنفاره الناس لجهادها، ونصب عليها سبعة أشْبَارَات، وكان جلُّها للفنانشة، وأظهر خلال ذلك الحصار شجاعة نادرة.

ولم يزل الرئيس الحاج الطاهر فنيش السلاوي يتقلّب في المناصب الحربية، البحرية والبرية، إلى أن أدركته منيته في الحركة السلطانية السليمانية، يوم الخميس خامس المحرم عام 1215 (29 مايو سنة 1800) رحمه الله.

*** الرئيس أحمد فنيش**

كان ملحوظاً عند السلطان سيدي محمد بن عبد الله. وكان مشهوراً بالرياسة البحرية والحربية. وأظهر شجاعة كبيرة في حصار سبتة سنة ثمانين ومائة وألف (1767/1180).

---

155) «إتحاف أعلام الناس» للنقيب ابن زيدان، ج 3، ص 274، و275.

156) «معاهدات سيدي محمد بن عبد الله الدولية» لجاك كايي، ص 41، و42.

* **الرئيس عبد العزيز بن محمد فنيش**

كان متولياً في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله على مدينة العرائش، ومكلفاً برياسة صناعة السفن القرصانية بها سنة ست وتسعين ومائة وألف (1782/1196).

وهناك رؤساء آخرون وبحّارة من الفنانشة ضاعت أخبارهم وأسماؤهم.

وبالجملة، فآل فنيش السلاويون كلهم كانوا رؤساء سفن وبحّارة وقراصنة وَرُماة مدافع، مدة قوة الأسطول السلاوي، وانتشار القرصنة السلاوية الرباطية، وتقلّبوا في عدة أطوار سياسية لهم أو عليهم، بحسب ضعف سلطة الدولة في بلدهم وقوتها.

ومازالت منهم بقية إلى الآن بسلا... والله يرث الأرض ومن عليها.

الرؤساء من آل عوّاد بسلا

الأسرة العوادية السلاوية، من الأسر القديمة الشهيرة العريقة في العلم والرياسة بسلا، وهي عربية الأصل، وكان دخولها إلى المغرب مع عرب معقل الداخلين إليه، زمن السلطان أبي يوسف يعقوب المنصور الموحدي، سنة أربع وثمانين وخمسمائة 584 هـ (1188 م).

وأصلها من بني هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن أبي بكر بن هوازن بْنِ مُضَر، فيلتقي نسبهم مع نسب رسول الله ﷺ في مُضَر، وينطبق عليه قول ابن حزم في «جَمْهرته» :

أَكْرِمْ بِهِ مِنْ نَسَبٍ لا يُحْتَقَرْ مَعَ النَّبِيِّ يَلْتَقُونَ فِي مُضَرْ

ولمّا استقرّوا بالمغرب نزلوا بقبيلة دكّالة، وما زالت طائفة منهم مقيمة بها ممتازة باسمها الأصلي من بني هلال، وهي فرقة من أولاد بوزرارة.

قال في «عقود الأجياد، في مفاخر الآباء والأجداد» : «ومن زوايا بني هلال بدكّالة العواودة، الذين منهم السادة النازلون بسلا، معروفون إلى الآن بقبيلتهم، معظّمون محترمون بها.

ووُجد في بعض التقاييد عند بعض الفقهاء بتلك القبيلة، أن دوار آل عوّاد، بيت ملاد، مقصود في القبيلة المذكورة».

كذا حرّره الفقيه العلاّمة السيد عبد القادر بن قاسم الدكالي المراكشي، في تقييد له خاص بالبحث في أصل هذه الفرقة العوادية، ومنه اقتبسنا ما ذكرناه هنا.

وقد كان الملوك يعترفون لهم بهذه النسبة، ويحترمون الزاوية المنسوبة إليهم، بظهائر شريفة خاصّة يصدرونها إليهم، وتُجدّد لهم كلَّما تجدّدت دولهم، وأولهم السلطان المولى إسماعيل، فقد أصدر لهم ظهيراً شريفاً يقول فيه :

«بسم الله الرحمان الرحيم

ظهير شريف إسماعيلي

(نص ما بطابعه)

اسماعيل بن الشريف الحسني

وبدائرته : اليمن والإقبال، وبلوغ الآمال

كتابنا هذا، أسماه الله وأعزّ أمره، وأشرق في سماء المعالي شمسه المنيرة وبدره آمين، يَسْتَقِرُّ بِيَد حَمَلَته الشرفاء، أولاد سيدي العَوّاد، القاطنين بدكّالة مع فرقة منهم، يقال لهم أولاد بوهلال. يتعرّف من يَقف عليه بحول الله وقوته، أنَّنا وقّرناهم واحترمناهم لوجه النسب الشريف الذي بأيديهم، وأسقطنا عنهم جميع الوظائف المخزنية والتكاليف السلطانية، قلّت أو جلّت، ومن قاربهم، أوْ حام حول حماهم، ينتقم الله منهم أشد الانتقام.

وقد حرّرناهم من جميع الوظائف تحريراً تامّاً مطلقاً عامّاً، ومن وقف عليه، يعمل به ولا يتعدّاه والسلام.

في شهر الله المعظّم شعبان، عام خمسة ومائة وألف 1105 (شعبان 1105/أبريل سنة 1694)».

وجدّده لهم السلطان سيدي محمد بن عبد الله بظهير شريف يقول فيه :

«بسم الله الرحمن الرحيم،

الحمد لله وحده

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

(ونص ما بداخل طابعه)

محمد بن عبد الله، الله وليّه ومولاه

وبدائرته : وَمَنْ تَكُنْ بِرَسُولِ اللَّهِ نُصْرَتُهُ إِنْ تَلْقَهُ الأُسْدُ فِي آجَامِهَا تَجِمِ

جدَّدنا بحول الله وقوته، وشامل يُمنه وبركته، للسّادات الشرفاء، أولاد الولي الصالح سيدي العوّاد القاطنين مع أولاد بوهلال في دكّالة، حُكم ما بأيديهم من الظهائر الشريفة الكريمة المتضمِّنة توقيرهم واحترامهم، وإخراجهم من زمرة العامّة، وزكاتهم وأعشارهم، يصرفونها في ضعفائهم ومن في قُربهم. ومن لم يحترمهم لا يلومنّ إلاّ نفسه، والواقف عليه يعمل به ولا يتعدّاه.

في تاسع جمادى الأولى عام واحد وسبعين ومائة وألف (9 جمادى الأولى 18/1171 أبراير سنة 1758)».

ثم جدَّده السلطان المولى سليمان بظهير شريف، آخر يقول فيه :

«بسم الله الرحمان الرحيم»

ظهير شريف سليماني

(نصُّه)

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما.

جدَّدنا بحول الله وقوته، وشامل يمنه وبركته للسادات الشرفاء، أولاد سيدي العوّاد، في بلاد دكالة مع أولاد بوهلال.

وأنّنا حملناهم على ما بأيديهم من الظهائر الشريفة المتضمِّنة توقيرهم واحترامهم، وإخراجهم من زمرة العامّة.

فالواقف عليه من عمّالنا وقوّادنا، أن يعمل بمقتضاه ولا يتعدّاه والسلام.

وفي العشرين من ربيع الثاني عام ثمانية وثلاثين ومائتين وألف (20 ربيع الثاني 4/1238 يناير سنة 1823)».

وتبعه السلطان المولى عبد الرحمن، فأصدر ظهيراً شريفاً يقول فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

(ونص ما بطابعه بعد الافتتاح)

عبد الرحمان غفر الله له،

وبزواياه الستّ : الله، محمّد، أبو بكر، عمر، عثمان، علي،

وبدائرته :

«وما توفيقي إلاَّ بالله، عليه توكلتُ وإليه أُنيب»

«جدَّدنا بحول الله وقوته، للسادات الشرفاء، أولاد الولي الصالح، سيدي العوّاد، القاطنين بدكّالة، مع أولاد بوهلال، على حكم ما بأيديهم من الظهائر الشريفة الكريمة المتضمِّنة توقيرهم واحترامهم، وإخراجهم من زمرة العَوامّ، وزكاتُهم وأعشارهم يصرفونها للضعفاء والمساكين من ذويهم. ومن لم يحترمهم لا يلومنّ إلاَّ نفسه، والواقف عليه يعمل به، ولا يتعدَّاه والسلام.

في سابع جمادى الأولى عام أربعة وأربعين ومائتين وألف (7 جمادى الأولى 15/1244 نونبر سنة 1829)».

واقتفى أثره ولده السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن فأصدر ظهيراً شريفاً يقول فيه، بعد الحمدلة والتصلية والطابع الشريف :

«خديمنا الأرضى القائد محمد بن رحّال البوزرْاري، وفّقك الله، وسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

وبعد فنأمرك أن تستوصي خيراً بحملته الشرفاء أولاد علي بن إبراهيم المستوطنين في بلاد العواودة في قبيلتكم، ولا تكلفهم بإعطاء الواجب والوظائف والتكاليف والسلام.

في رابع ذي الحجة عام واحد وثمانين ومائتين وألف (4 ذي الحجة 30/1281 أبريل سنة 1865)».

قلت : وتُعرف بهذا الإسم أُسَر لا زالت موجودة إلى اليوم بسوريا ولبنان وحتى بالمهجر العربي بأمريكا.

وجاء أفراد منهم إلى المغرب، أيام نزول الجيش الأمريكي به إبَّانَ الحرب العالمية الثانية، فاتَّصلوا بالعوّاديين السّلاويين، وتعرّفوا بهم، فكانوا يتردّدون عليهم، ويعشونهم في

منازلهم، ويقيمون لهم الحفلات والضيافات، ويذاكرونهم في أنسابهم وأصولهم وفروعهم، وَيستفيذ بعضهم من بعض، وكان من بين هؤلاء السوريين واللبنانيين من العواديين جماعة من الكتّاب والأدباء اللغويين والشعراء.

وأما انتقال عواودة دكالة إلى سلا، فقد كان على سبيل التقريب، في زمن الدولة السّعدية، في القرن العاشر للهجرة، الموافق لأواخر القرن السادس عشر للميلاد.

وكان لهم ظهور وامتياز، ورفعة وشفوف في عهد دولتنا الشريفة العلوية. أدام الله عزّها، لأنهم عُرفوا فيها بالعلم والرياسة والانخراط في الوظائف السامية، والرياسة البحرية منذ عهد السلطان المولى اسماعيل، رحمه الله، وازداد ذلك الظهور وتضاعف في زمن الملوك بعده، وخصوصاً في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله، فطار صيتهم، وتضاعف نفوذهم بمدينة سلا.

وكان منهم في زمنه القواد الكبار، وانتهت إليهم رياسة البحر والقرصنة السلاوية، فتداولوها بينهم خلفاً عن سلَف إلى زمن السلطان المولى الحسن الأول، رحمه الله تعالى.

وظهائر الملوك بذلك شاهدة لهم، موجودة عند بعض أفراد أسرهم، وخصوصاً الظهير الشريف الذي أصدره السلطان سيدي محمد بن عبد الله، رحمه الله، للأميرال الحاج الهاشمي عوّاد، ففيه التفويض التام له في الشئون البحرية، وسائر ما يرجع إليها من الأشغال وشئون الجيش البحري والأسطول المغربي في ذلك العهد، وسنثبت نصّه فيما سيأتي عند التعريف به، ويؤخذ منه أنه كان بمنزلة وزير البحر عنده، ويوخذ منه أيضاً ما كان لهذه الأسرة من النفوذ والظهور والامتياز المخزني، فزاحموا الفَنانِشة وناكبوهم في مواكبهم، ولذلك لمّا نُكب رئيسهم عبد الحق سنة ثمانين ومائة وألف (1180 / 1766)، تولّى عمالة سلا أحد أعيان هذه الأسرة البارزين في ذلك العصر، وهو القائد الحاج علي بن محمد عوّاد. وقد تناسلت هذه الأسرة بسلا وتكاثرت وامتدّت فروعها، وتنقسم إلى فرقتين بحسب سكنى أفرادها : فرقة حيّ باب حسين، وفرقة الطالعة بجوار المسجد الأعظم، ويجمعهم جَدٌّ واحد أعلى من جهة النّسب.

فأمّا فرقة حيّ باب حسين، فقد تخصّصت بالعلم والتخطّط في مناصبه، كالقضاء والعدالة والإمامة والخطابة بالمسجد الأعظم.

وأما فرقة حيّ الطالعة، وهي المقصودة عِنْدَنَا فقد اختصّ أعيانها بالرياسة البحرية والإدارية، كالعمالة والنظارة ونحوها. ومن مشاهيرها :

* الرئيس الحاج علي بن محمد عوّاد

هذا الرئيس هو الذي تقدَّم أنه تولّى عمالة سلا بعد عبد الحق فنّيش سنة ثمانين ومائة وألف (1766/1180) كما ذكره كوسطي (Cousté) في كتابه في «الأسر السلاوية»[157].

وذكر شينيي (Chénier) في دفتره القنصلي[158] أنه كان من جملة الرؤساء السلاويين الذين قدَّم لهم ورقة التعريف والجواز (Passeport) باسم القنصلية الفرنسية السلاوية، طبق الاتفاق الذي كان العمل جارياً به بين المغرب وفرنسا، وخرج في غارة بحرية، سنة تسع وستين وسبعمائة وألف (1182/1769) يقود سفينة فيها أربعة عشر مدْفعاً.

* الرئيس الحاج بن حسّون عوّاد

هذا الرئيس هو زعيم فرقة آل عواد التي بحيّ باب حسين من سلا، وإليه ينتسبون. وحفيده هو الفقيه العلاّمة القاضي الشهير أبو عبد الله محمد عوّاد المتوفى سنة سبع وستين ومائتين وألف (1848/1267).

وقد ذكره القنصل الدّانمارْكي الذي كان بآسفي[159] في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله، وكتب كتاباً في الأسطول المغربي الموجودة سفنه إذ ذاك بمرسى سلا ورباط الفتح بأبي رقراق، وذكر أسماءها ورؤساءها ومحمولها وما في كل واحدة منها من المدافع وغير ذلك. فقال : «والسفينة الثانية رئيسها الحاج بن حسّون عوّاد السلاوي، بحريتها مائة وخمسون، ومدافعها أربعة وعشرون».

وقد ورد ذكر لهذا الرئيس في كتاب سلطاني، أصدره السلطان سيدي محمد بن عبد الله للرَّئيسَيْن يوسف الطرابلسي، وقدّور، يأمرهما فيه بالتهيئ للسفر، وأن لا يسافرا حتى

---

157) ص 84، طبع الخزانة الصبيحية بسلا، سنة 1410/1989، بتحقيق وتعليق د. نجاة المريني.

158) «مراسلة القنصل لوي شينيي» لبيير كريون، ص 109، طع باريس 1970.

159) هو جورج هوست (George Höst)، صاحب كتاب (Nachrichten von Marokos und Fès) المطبوع بكوبنهاجن سنة 1781.

توجد نسخة منه بالمكتبة الصبيحية بسلا، كان أهداها سفير الدانمارك بالرباط، في عصرنا هذا، لابن عمٍّ مؤسس المكتبة المذكورة الأستاذ المرحوم عبد الهادي الصبيحي لمّا كان سفيراً للمغرب بالدانمارك في السبعينات. وهذا الكتاب عبارة عن رحلة قام بها هذا القنصل إلى المغرب من سنة 1174/1760 إلى سنة 1182/1768.

يقدم عليهما الرئيسان أحمد الكوَّار الرباطي والرئيس ابن حسّون عواد السلاوي، وكانا بالصويرة، وبمُجَرَّدِ دخولهما للمرسى يخرجان منها، وذلك في أوائل جمادى الأولى عام اثنين وثمانين ومائة وألف (1778/1182)، وسيأتي نص الكتاب الشريف في ترجمة الرئيس الطرابلسي.

وذكر لوي شِنْيِي (Louis Chénier) في دفتره القنصلي، أنه كان من جملة الرؤساء الذين قدم لهم ورقة الجواز (Passeport)، وأنه كان رئيس سفينة بها أربعة عشر مدفعاً، وقدّم له الهدية القنصلية المعتادة وهي :

أربعة أدرع من الملف.

وقالبان سكراً.

وليْفْرة من الشاي.

ولفّ ذلك كله في منديل حريري سنة سبع وستين وسبعمائة وألف (1181/1767).

وذكره أيضاً في جملة الرؤساء الذين حازوا منه الجواز والتعريف، وسافر في البحر سنة سبعين وسبعمائة وألف (1180/1770) في سفينة، فيها ثمانية وعشرون مدفعاً، ومائتا بحّار.

وأثبتَ پيير كْرِيّون (Pierre Grillon) في كتابه «رسائل القنصل الفرنسي لوي شينيي» (La Correspondance du Consul Louis Chénier)[160] في رسالة دفعها لحكومته بتاريخ ثلاثين يناير سنة إحدى وسبعين وسبعمائة وألف (30 يناير 13/1771 شوال 1184) ما حاصله :

«أرجوكم أن تعتبروا ما سأقصُّه عليكم...

وهو أنه منذ بضع سنوات خَلَت، كان الرئيس ابن حسون، ولد حاكم هذا البلد (سلا) [ولعله الذي تولّى في محل عبد الحق فَنِّيش] راجعاً من لونْدرة مع والده الذي كان فيها في مهمَّة، ففرّ لبعض الأسباب التي طرأت عليه، فكدّرته وأزعجته، وذهب إلى بعض البلاد متجوِّلاً فيها، حتى وصل إلى تونس، ومنها طلب رِضا مَلِكه بالمغرب، فأنعم عليه به، ورضي عنه، ووجَّه حاكم البلاد حفيده إليه ليُعلمه بذلك.

---

160) ج 1، ص 181.

قال : ولم أبخل عليه برسائل الوصية عنه بالاعتناء والأدب معه، سواء بمَرْسيليا أو طرابلس، أو الإسكندرية التي يمكن لهذا الشابِّ أن يمرّ بها، أو يذهب إليها.

وطلبت من رجال الغرفة التجارية عندنا بمرسيليا أن يظهروا له مزيد الحفاوة، والبرور والاعتناء، والاعتبار، ويقدِّموا له بعض المشروبات، ولو قليلة القيمة، لأن ابن حسّون قرصاني شديد القوى ذو مرَّة، يُخشى بأسُه، ويُتقى ناسه، ولابد أن يتأثّر من ذلك ويقع منه موقعاً جميلاً. وأرجو أن يحلَّ منكم ما سَلَكْتُهُ في حقه محلّ القبول.

وأثبتَ پيير گْريّون (Pierre Grillon) من أخباره، رسالة أخرى[161] خاطب بها بعض رؤساء حكومته بتاريخ ثاني عشر نونبر سنة ست وسبعين وسبعماءة وألف (12 نونبر 1776/ متم رمضان 1190) جاء فيها أن سفينة من نوع قبق[162] لملك المغرب كانت تحت رياسته، وخرج فيها للبحر من العرائش في شهر غشت (جمادى الثانية) من السنة، وجال فيه بشواطئ جزيرة مادير من جزر المحيط الأطلانطيقي، ورجع ماراً بمرسى السويرة، وأخبر أنه طارد بعض البوارج الحربية الهولاندية.

وأثبت أيضاً رسالة أجاب بها وزيره بفرنسا عن رسائل وصلت إليه منه بتاريخ ثالث عشر، وعشري يناير، وثالث ابراير سنة سبع وسبعين وسبعمائة وألف (13 و 20 يناير، و3 فبراير 3/1777 و10 و24 حجة 1190)[163]، ومعها أوراق تتضمَّن شكايات بعض تجار «نانَطْ» (Nantes) و«بورْدو» (Bordeaux) رفعوها إليه بقراصنة المغرب.

قال : «وبعد تصفّحها، وتطبيقها على الأزْمِنة والأمكنة التي وردت في تقرير القبطان هودِ (Heudé) تبيّن لي أنها غير مُتَّفقة مع الأحوال والظروف التي وقعت فيها تلك الحوادث.

وتحقَّق عندي أنَّ الرئيس ابن حسّون، هو القرصاني المغربي السلاوي الذي أوقف قبطان السفينة المسمَّاة سانْط أوكيسْانْ (Saint-Augustin) التي كان مشرفاً عليها، ويقودها القبطان بازيلْ (Bazile)، وقد أنهيتُ ذلك كلّه بغاية الدِّقة والإيضاح لملك المغرب، وطلبتُ إنصافه وعدله، وهو ما أمرني به جنابكم، حسبما ستقفون عليه في اللائحة المضافة إلى هذا الكتاب، وقد عبَّرتُ فيها عن كل ما يُتوصّل به إلى النتيجة المطلوبة، مع الاحتياط بما تدعو إليه الحالة الراهنة، التي تعطي ولا تأخذ، لا كما نهجه تجّار نانَطْ (Nantes).

161) «رسائل القنصل لوي شينيي»، ج 1، ص 467.

162) قبق : سفينة ذات شكل رشيق جداً، تبحر بواسطة القلوع أو المجاديف، ولها ثلاثة صوارٍ.

163) «رسائل القنصل لوي شينيي، ج 1، ص 535.

واحتفظت بالتصريح العربي الذي أدلى به الرئيس ابن حسُّون مع العنوان الذي يحمله للاحتياج إليه في إثباته عند الضرورة، لا سيما ومترجمو العربية إلى العَجَمية عندنا، لا يترجمون ترجمة حقيقية، ويطلقون لفظة الرومي على كل أجنبي عنهم.

وكثيراً ما يستعمل الرئيس ابن حسون هذا الإسم من غير تفرقة على من يطلقه عليه، وحُجَّته أنَّ المسلمين المشارقة يطلقون هذا الاسم على النصارى اليونانيين، والمغاربة يطلقونه من غير تمييز على جنس النصارى، ويشمل سكان دول أوربَّا كلها.

والمحقّق عندي هو أنَّ الرئيس ابن حسون لم يقصد أي تفرقة في إطلاق هذا الإسم، وهو بعيد عن ذلك.

وإنَّما كان يبحث عن جزيرة مادير (Madère)، وصرَّح بأنه كان معه روميٌّ من غير تعيين له، ووعده بأنه سيسهم له في العطاء من الغنيمة، إن هُوَ دَلَّهُ عليها، ولم يَفِ له بعهده ولا بوعده، وأحاله على مَلِكه، لأنَّه صديق لفرنسا.

وأمّا لائحة شكاية قبطان بورْدو (Bordeaux) فليس فيها ما يدلُّ صراحة على تهمة قراصنة المغرب تهمةً صحيحة، لأنَّه لم يكن في هذه الغارة البحرية المغربية إلا قَبَقُ الرئيس ابن حسّون، وكان فيه مائة بحّار، مع أن قبطان «بوردو» يزعم أنه كان فيه مائتان.

وحيث كانت في هذه الغارة البحرية سُفُنٌ أخرى جزائرية تركية فيها هذا العدد من البحّارة، فيُحتمل أنَّها هي التي أغارت على سفينة تجّار «بورْدو»، وعليه، فإنِّي أرجِّح هذا، وأعتبره هو الواقع لمطابقته للحقيقة، وأظنكم على فكري».

مضمّن اللائحة التي رفعها القنصل
للسلطان سيدي محمد بن عبد الله

«حضرة صاحب الجلالة،

أقدم لجلالتكم، قضية عدم احترام فرنسا بتعدّي الرئيس ابن حسّون على بعض سفنها في البحر.

وحيث أنَّه وقع في هذا التعدّي حيْفٌ على فرنسا، فقد كلَّفتني حكومتي أن أرْفع إلى جلالتكم شكايتها طالباً عدلكم وإنْصَافَكُمْ.

وحقيقة هذا التعدي هو أنه في شهر شتنبر سنة ست وسبعين وسبعمائة وألف (شتنبر1776/ شعبان 1190)، صادف الرئيس المذكور بالبحر، قرب جزيرة مادير، من جزر المحيط الأطلانطيقي، سفينة فرنسية من بورْدو، في طريقها لأمريكا، فاعترضها ورماها بمقدوفاته المدفعية من سفينته، وأحضر قُبْطانها ليستفسره، وثَقَّفَهُ عنده مدة اثنتي عشرة ساعة، وحاول زيارة سفينته والاطّلاع على ما فيها ليستولي عليه، وهو شيء لا قيمة له، ولا نحتاج إلى ذكره، لجلالتكم.

ولأجل هذا التعدّي وعدم الاحترام، نطلب عدلكم وإنصافكم، إذ لا ينبغي السُّكُوتُ عنه.

كما أنَّ هذا الرئيس، في العشرين من شهر شتنبر أيضاً، أوقف سفينة فرنسية أخرى كانت متوجّهة من نانَطْ (Nantes) إلى أميركا، وقنْبلها بمدافعه أيضاً، وأرغم رئيسها علي الإتيان إليه مع أحد بحّارته بأوراق الجواز ليتوجَّه معه إلى جزيرة مادير، مع أنه لا يمكنه أن يتوجَّه إليها لأنَّ أوراق جوازه لا تخوّله ذلك، زيادة على ما يلزمه من النَّفَقَةِ، وما عسى أن يحدث له من الحوادث.

ومنها ربما يوخذ ما كان معه من الأقوات والأشربة، ويضيع من يقتات بها ممَّن معه من الركّاب والبحّارة، فلم يقبل منه ذلك، وأرْغمه على الذهاب معه إلى الجزيرة المذكورة، وحصل له فيه خسارة كبيرة، تقدر بأربع وستين ومائة دوكاً (164)، ويضاف إليها تعطيل مدة السفّر شهرين كاملين.

هذه قضية هذين الرئيسين الفرنسيين، وشكايتهما بالرئيس ابن حسّون، قدمناها لجلالتكم، لترى فيها رأيها، وهي مخالفة لنظام البحر وقوانينه، وخصوصاً مع الدول التي بينها معاهدة صلح وهُدنة، ولا يخفى ما في قذْف سفنها بالمدافع، من الإهانة وتعريض السفينة للخطر.

وعليه فإني أرجو من جلالتكم أن تعملوا في هذه القضية اللازم، حتى يحترم الرؤساء والقراصنة سفننا في البحر، لأننا في حالة صلح وهدنة مع دولتكم ، وتُصدروا أوامركم لهذا الرئيس وغيره بذلك.»

فأجاب السلطانُ القنصل عن شكايته بواسطة أحد كتّابه، بأنه لمّا يكون هنا، يعني بالرباط، يستدعي الرئيس ابن حسّون ويكلّمه في هذه القضية بمحضره.

وأخبره الكَاتِبُ أيضاً بأنَّه سيتوجَّه قريباً إلى العرائش وطنجة، لينهي لسائر القراصنة أوامر السلطان بما يتعلّق بمعاملتهم للسُّفن الفرنسية، إذا صادفوها في البحر.

ثم قال القنصل :

«فاعتذرتُ للكاتب بأنَّ الرئيس ابن حسّون رُبَّما يكون صدر منه ذلك غلطاً أو لعدم اطّلاع، ورجوتُ من السلطان أن يتغاضى عنه، وحقَّقت له أن حكومتي ستقتنع بالأوامر التي ستُصدرها جلالته لقراصنته باحترام سفننا في البحر كُلَّما صادفوها، وقدَّمت له هدية حسب العادة الجاري بها العمل».

وأخبر أيضاً بأنَّه جاء في كتاب سلطاني خاطبه به بتاريخ ربيع الثاني عام واحد وتسعين ومائة وألف (ربيع الثاني 1191/ ماي 1777) :

بأنَّه بمقتضى مَا كتب به في شأن الرئيس ابن حسّون، أصدر أوامره للقراصنة باحترام السفن الفرنسية كلَّما لقوها في البحر، وإن خالفوا ذلك يعاقبون عقاباً شديداً، وهو ما أخبره به الكاتب كما تقدم، وبذلك انتهت هذه القضية وطُويت صُحفها.

وجاء في رسالة أخرى من هذا القنصل إلى حكومته بتاريخ واحد وعشرين شتنبر سنة ثَمَانٍ وسبعين وسبعمائة وألف (21 شتنبر 28/1778 شعبان 1192)[164] أنَّ الرئيس ابن حسون كان مسافراً في سفينة مخزنية من نوع قَبَق بآسفي، فضاعت له في شهر يوليوز (جمادى الثانية).

وحيث كان هو المشرف عليها، والمكلّف بها، وجّه من يتعقّبها وينجيها من الغَرَق، فلم يتمكنوا إلاَّ من جمع بقايا ألواحِها وأطرافِها.

فحمّل السلطان خسارتَها قبطانَها وبحّارتها، وأمرهم بأداء ثمنها، لأنّهم هم المسئولون عنها، وعن ضياعها، وما وقع لها، طبق ما كان جارياً به العمل في غيرها من السفن المخزنية الأخرى التي كانت تحت مسئولية ربابينِها.

ولهذا الرئيس كانت تُنسب سانية القبطان التي كانت ملاصقة لسور باب فاس المدعو الآن بباب الخميس بسلا، وبقيت بيَد أولاده وورثته يتداولونها بينهم إلى أن باعوها في العهد الأخير للحكومة، فبنت بها مدرسة مُهِمَّة تُعرف بمدرست باب الخميس الآن.

وهذا الرئيس هو جدُّ وَالِدَتي لأبيها.

وبعد إبطال القرصنة وإهمال الأسطول المغربي السلاوي الرباطي كما تقدم، بقيت بيَد عَقِبِه بعض الوظائف المخزنية الراجعة إلى آثار الأسطول، فكانوا يتداولونها بينهم، كوظيفة

164) «رسائل القنصل لوي شينيي»، ج 2، ص 685.

المحافظة على دار البارود، وهي عبارة عن خَزِينَيْن كبيرين لخزن البارود كانا بسلا، أحدهما بحيّ «السويقة» بزقاق يعرف بزقاق دار البارود إلى اليوم، إلى أن هُدم في عهد الاحتلال الفرنسي، وبُنيت به دار لسكنى ا لعامل وهي الموجودة الآن، وخزين آخر كان ملاصقاً للسُّور الممتدّ من «باب بوحاجة» أو «باب الخبّاز»، فهدم في عهد الاحتلال أيضاً ليتّسع به الشارع الكبير الممتدُّ منه إلى باب الجديد والأبراج التي بسور الشيخ أبي العباس أحمد بن عاشر، وكان البارود الذي يُخزن بهذين الخزينين في عهد الملوك المولى الحسن الأول، والمولى عبد العزيز، ومَن بعدهما، يُستعمل في إطلاق المدافع من الأبراج المذكورة، في الأفراح والأعياد وزيارة السلاطين لسلا، وتحية بعض الدوارع الأجنبية إذا أرستْ بمرساها. وقد وقفتُ على بعض الظهائر بذلك بيد بعض آل عوّاد من ذرية ا لرئيس ابن حسُّون المذكور.

* الرئيس محمد عوّاد المعروف بمانطة

ذكر أبو زيد ابن زيدان في «إتحاف أعلام الناس»[165]، نقلاً عن أبي عبد الله الضُّعَيِّف في «تاريخه» :[166] أنَّ السلطان سيدي محمد بن عبد الله، لمّا مرَّ في عهد خلافته بالرباط أيام والده، وسدَّ أهل الرباط أبواب مدينتهم في وجهه، وجد أهل سلا يصنعون سفينة لأنفسهم، رئيسها محمد عوّاد السلاوي المدعو مانطة، فأخذها سنة ثمان وستين ومائة وألف (1755/1168).

ولمّا مرَّ بالعدوتين أيضاً، بعد بيعته سنة اثنتين وسبعين ومائة وألف (1759/1172) وجد الرئيس محمد عوّاد مانطة المذكور، والرئيس قنديل السلاوي، والرئيس العربي المستيري الرباطي، غنموا سفينة من السُّويد فَسُرَّ بهم، وأعطى كل واحد منهم كسوة وسيفاً محلّى بالذهب وخنجراً كذلك ومكحلة، ووصل بحّارتهم بما فرحوا به وقرَّت به أعينهم.

وزاد ابن زيدان أنَّه أخذ سفينة قنديل، وسفينة أخرى كانت مشتركة بين أهل العدوتين، سلا ورباط الفتح، مصنوعة من خشب حسّان، المسماة عندهم بـ«الگراگجية». قال الضعيف : «وهي أول سفينة طلعت قبل هذه السفن كانوا يتسبَّبون فيها.

وكذلك أخذ سفينة كان صنعها عامله على الرباط العربي المستيري.»

والذي في تاريخ ابن الحاج أنه لم يأخذ غير السفينة المشتركة، وأبقى الغير لأربابه، وما في الضُّعَيِّف أصحُّ في نظري.

---

165) «الإتحاف»، ج 4، ص 461.

166) «تاريخ الضعيف»، ج 1، ص 263، وج 2، ص 13، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

* الرئيس الحاج الهاشمي بن أحمد عوّاد

هذا الرئيس، الأميرال، هو الجدُّ الأعلى للفرقة العوّادية الطلعوية السلاوية.

تولّى رياسة البحرية أولاً في عهد السلطان المولى عبد الله بن اسماعيل، سنة سبع وستين ومائة وألف (1753/1167) وترقّى لرتبة أميرال البحر في عهد ولَده السلطان سيدي محمد بن عبد الله، سنة تسع وسبعين ومائة وألف (1765/1179) وظهير ولايته لهذه الرتبة موجود مكتوب بماء الذهب وعليه طابعه وخطُّه.

ومن وقف عليه علم أنّ السلطان المذكور أسند له الرياسة البحرية، وسائر ما يرجع إليها من الشئون والأشغال ونظَامِ الجيش البحري كلِّه وسائر ما يرجع للأسطول المغربي السلاوي الرباطي في ذلك العهد، مع التفويض التامِّ حتى كأنَّه وزير البحرية المطلق، مع ما كان له من النفوذ والظهور والشهرة عند الأوربيين والمغاربة. ونص الظهير المذكور[167].

وحيث أنه كان بهذه المثابة من الاعتبار والامتياز عند السلطان سيدي محمد بن عبد الله، فقد أنعم عليه بخنجار غشاؤه من فضّة، وقبضته منبّتة بأحجار نفيسة، وسكّين قبضتها كذلك، وأشياء أخرى آلت بعد وفاته، حسبما وقفت عليه في رسم من الرسوم المتعلقة بتركته وقسم متخلّفه إلى ولده الرئيس الحاج الطاهر عوّاد، ثم إلى ورثته من بعده.

وقد ذكره لوي شينيي (Louis Chénier) في دفتر قنصليته بالمغرب، بأنه من جملة الرؤساء الذين سلَّم لهم الجواز (Passeport) سنة ثمان وسبعين وسبعمائة وألف (1192/1778)، طبق المعاهدة التي كانت بين السلطان سيدي محمد بن عبد الله وملك فرنسا سنة سبع وستين وسبعمائة وألف (1181/1767)، وخرج في غارة بحرية، ورجع منها سالماً غانماً.

وهذا الرئيس هو جدٌّ والدتي لأمِّها.

---

[167] راجعه في «الإتحاف» للنقيب ابن زيدان، ج 3، ص 264، و265، وكذلك في ج 5، ص 172 و173 لكتاب: «سلا ورباط الفتح وقرصنتهما الجهادية» الذي بين يدي القارئ، لمؤلفه جعفر الناصري.

المبحث الرابع

الرئيس علي لُباريس وما يتّصل بترجمته
من أخبار القنصل الفرنسي
لوي شينيي (Louis Chénier)
الذي كان في الرباط في ذلك العصر

الرئيس علي لُباريس، أندلسي المحتد، مغربي النشأة والمولد، وأصل أسرته من مهاجري الأندلس، من فرقة الموريسكوس[168]، وأخبرني من له معرفة واطّلاع بأُسَر رباط الفتح أنّ بعض هذه الأسرة يوجد بتطوان، ويُعرَفُون بآل أعبريد.

وقد كان هذا الرئيس من سُكّان الرباط، وما زالت هذه الأسرة موجودة فيه؛ مرموقة بعين الاحترام بين ذويه، وكان من أعيان وكبار رؤساء الأسطول المغربي في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله، وممّنْ صال وجال في البحار، وتنقّل في سفاراته وأسفاره بين المراسي والمدن في سائر الأقطار، وخاض بأسطوله المعارك، وتردّد اسمه على ألسنة رؤساء وأمراء الدول والممالك.

وكان يتردّد ما بين مرسى العدوتين على ضفّة أبي رقراق ومرسى العرائش، لأنها كانت من جملة المراسي التي كان يأوي إليها الأسطول المغربي، فيصدر منها، ويعود إليها، من حين لآخر، في بارجته الحربية الخاصّة به، سنة إحدى وسبعين وسبعمائة وألف (1185/1771)، وفيها عشرون مدفعاً ومائة بحار.

---

168) راجع الجزء 2. ص 207.

وفي سنة تسعين ومائة وألف (1776/1190)، كما عند أبي عبد الله الضُّعَيِّف في «تاريخه»[169]، غضب عليه السلطان سيدي محمد بن عبد الله، ونتف لحيته، وسجنه بسجن الجزيرة بالسويرة، لأنه خرج في سفينته إلى البحر، فحصل لها عطب أفسدها، ونَشَبَتْ في البرّ، وكان مسؤولاً عنها، ثم عفا عنه بعد ذلك، لأنَّه تحقَّق أنَّ البحر طَغَا عليه، وأجبرته الرياح على ذلك خوفاً على نفسه، وعلى من كان معه من الركاب والسلاح والمتاع، وقرَّبه واجتباه واختاره للسفارة إلى فرنسا.

سفارته إلى فرنسا، وتدخل القنصل لوي شينيي (Louis Chénier) فيها لإبطالها

قال القنصل الفرنسي لوي شينيي (Louis Chénier) الذي كان بالرباط في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله في رسالة له خاطب بها حكومته بفرنسا محرَّرة بسلا (يعني الرباط) بتاريخ ثلاثين يونيو سنة اثنين وسبعين وسبعمائة وألف (30 يونيو 1772/29 ربيع الأول 1186) :[170]

إنه بلغه من طريق الغزَّال، أنَّ السلطان سيوجِّه لملك فرنسا هدية تشتمل على فرسين من عتاق الخيل، وبعض الأُسُد والنمور.

وأنَّ الذي سيرافق هذه الهدية إلى فرنسا في سفينته، ويقدِّمها إلى المهداة إليه، هو الرئيس علي لُباريس، ومُنْذُ مدَّة وسفينته راسية بمرسى العرائش لاحتياجها إلى الإصلاح، وتجديد السلاح المناسب لها بغاية السرعة والإتقان.

والظَّنُّ أنها لا تكون جاهزة مهيئة للسفر قبل خامس عشر غشت (أواخر جمادى الأولى)، قال : ولَذلك بادرت بتوجيه هذا الكتاب إليكم بإعلامكم، ليكون لديكم الوقت الكافي لاتِّخاذ ما يناسب ويتعيَّن اتخاذه قبل وصوله إلى مرسى بْرِيسْطْ (Brest) للإتيان بسفينة خاصَّة تحمل هذين الفرسين والحيوانات الأخرى، مجهَّزة بجهاز يناسبها كالأقفاص الخشبية التي تقوم مقام الإصطبل، والمئون الكافية الصالحة لأقواتها.

والمقصود هو أن تُعوِّض هذه الهدية بهدايا وعطايا أخرى ممتازة في مقابلتها.

---

169) ج 2، ص 42، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

170) «مراسلة القنصل لوي شينيي» ج 1، ص 245، طبع باريس 1970.

وربما تكون سفينة الرئيس موجودة مُهيَّئة قبل العشرين من شهو شتنبر (أوائل رجب) لأنَّ ذلك واجب، ومَتعيّن، وإذا تمَّ تجهيزها فالأحسن أنْ تبقى بمرسى العرائش حتى تبارحها إلى المحل القاصدة إليه، لأنها أولى وأحسن من غيرها من المراسي الأخرى.

ثم أخبر في رسالة أخرى بتاريخ ثامن يوليوز سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة وألف (8 يوليوز 17/1772 ربيع الثاني 1186)[171] بأنَّ الرئيس لُباريس المذكور كان بمراكش بقصد المثول بين يدي السلطان، ورجع منذ بضعة أيام، ولكنَّه لم يجتمع به، ولم يُظهر حرصاً على الاتِّصال به، وتحقَّق عنده أنه لا زال لم يتسلَّم من السلطان الهدية التي كان عازماً على توجيهها معه لملك فرنسا، وبلغ علمه أنها لاتُسلَّم له إلاَّ إذا كانت السفينة موجودة جاهزة مسلَّحة، وقد توجَّه البارحة إلى العرائش ليباشر أمرها، ولعلَّها لا تكون موجودة قبل ثلاثين يوماً من تاريخ هذه الرسالة.

وأخبر حكومته أيضاً بأن الفرنسي شارل سالڤا[172] (Charles Salva) تسلَّم في الخامس من الشهر الماضي بمراكش، رسالة كتبها له الكاتب الغزَّال، تتعلَّق بهذه الهدية وبِسَفَر الرئيس لُباريس المذكور وأنه سيتوجَّه إلى مرسيليا.

وذكر في رسالة أخرى مؤرخة بخامس عشر يوليوز سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة وألف (15 يوليوز 14/1772 ربيع الثاني 1186)[173] أنَّ أحد التراجمة الفرنسيين المسمَّى سومبيل (Soumbel)[174] أخبره بأنه لم يتمكَّن قبل سفره من اتِّخاذ أسباب تعوق الرئيس علي لُباريس عن السفر إلى بريسط (Brest)، ولكنه بعد رجوعه من سفره، لا ينسى شيئاً ممَّا كان سيُوحيه إليه، وسيقوله له صراحة مكرراً كلَّما وجد فرصة للسعي فيما فيه مصلحة دولته.

وزاد أنَّه تحقَّق عنده أنّ سفر هذا الرئيس إلى بريسط (Brest) لم يبق فيه شك ولا ريب، وأنّ مهمته ستكون محصورة في تسليم رسالة من السلطان إلى حاكم المدينة ليبلغها إلى ملك فرنسا لا غير. وسيبقى هنالك في انتظار الجواب عنها ليرجع لحال سبيله.

ويوخذ من هذا أنه ليست له أيُّ صفة خاصَّة توجب تعاظمه وفخفخته، وإذا تَحَوَّلَ الامبراطور الفرنسي عن رأيه في هذه القضية عند الجواب عنها، فيُحبُّ (يعني شينيي) أن

171) «رسائل لوي شينيي لبيير جريون»، ج 2، ص 249، طبع باريس 1970.

172) المصدر السالف الذكر، ج 1، ص 243 و244.

173) المصدر السابق الذكر، ج 1، ص 251.

174) ماير سومبيل، كان يهودياً مغربياً، أخا سموأل سومبيل ترجمان السلطان. اشتغل بالقنصلية الفرنسية من سنة 1772 إلى سنة 1778 كترجمان. قال عنه القنصل شينيي إنه كان ذكياً كَيِّساً، لكنه لم يكن يثق به في كل شيء.

يُعلم بذلك في إبَّانه، لأنَّ لُباريس لا يبارح العرائش قبل منتصف شهر غشت، لا سيما والشائع بالرباط هو أنَّ السلطان لا يعتبره سفيراً مُفَوَّضاً لدى ملك فرنسا، وإنّما هو مُجرَّد رسول إليه لا غير.

وفي نيته أن يُوَجِّهَ سفيراً آخر خاصّاً مع الهدية المتقدمة الذكر المشتملة على الخيول والنمور والأسد، لمَّا تكون لديه السفينة الخاصَّة بحملها مستوفية الشروط المطلوبة فيها.

وزاد أنّ الترجمان حقَّق له أنَّه سيعمل كل ما بوسعه واستطاعته في كل ما يرجع للمصلحة الفرنسية، وكلها تابعة للإرادة العليا لرئيس الحكومة الفرنسية، والعمل على النية الثابتة، ولكلِ امرئٍ ما نوى.

وجاء في رسالة له أخرى، بتاريخ خامس غشت سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة وألف (5 غشت 6/1772 جمادى الأولى 1186)[175] أنَّ الرئيس علي لُباريس لا زال مقيماً بالعرائش، عاملاً ببطئ في إنجاز تهيئ سفينته التي ستسلَّح بعشرين مدفعاً، وسيكون فيها مائة من البحرية.

ومنذ ثلاثة أيام سلُمت له ورقة جوازه (باسبورط) لأنَّه ذكر أنَّه ربُّما لا يُعرِّج على الرباط عند سفره، وإلى الآن لم يُعيِّن بعزم ثابت تاريخه ووقْتَهُ بالضبط، ولا زال الملك لم يُوجِّه إليه تجريدته العسكرية التي سترافقه، بل، ولا زالت لم تقع المذاكرة فيها.

وأمَّا مئونته التي تُهيَّء له بالرباط، فأنه لا يتمُّ العمل فيها إلاَّ بعد ثمانية أيام، وإذا فرضنا أنَّ السلطان لا زال على عزمه ونيته، فإنَّ هذه السفينة لا تُبحر من العرائش قبل انتهاء هذا الشهر، إذا ساعدها البحر على ذلك، وكان ساكناً غير هائج.

ثم قال : وفي أثناءِ هذه المُدَّةِ سَأُعْلِمُكُمْ بما يتجدَّد في هذا الشأن، حسبما سيبلغني.

ومع هذا فالذي يظهر لي هو الأخذ بالاحتياط حتى لا نقع في حيرة وتردُّد.

وعليه فالذي أُشير به عليكم إنْ وافقكم وقبلتموه، هو أنْ تُصدروا أوامركم من الآن إلى بريسط (Brest) فيما يرجع للكرنتينة (يعني الحجْر الصحي) الذي ينبغي اتخاذه إذا اقتضى الحال ذلك لهذه السفينة، ومَنْ فيها من النواتي ورجال البحر، وإن كان لاَ أَثَر لمرض مُعْدٍ تُخشى عاقبته بهذه البلاد منذ مدة طويلة يستدعي حِجْراً صِحياً، ومع ذلك لا ينبغي التهاون

175) «مراسلة القنصل لوي شينيي»، ج 1، ص 255.

فيما يرجع لمراعاة القوانين الصحية، اتقاءً لما عسى أن يحدث ويُنْدَم عليه حيث لا ينفع الندم، لا سيما وقراصنة هذه البلاد الباربارية، إذا كانوا في البحر، يزورون السفن التي يصادفونها أو يصطادونها ويطلعون إليها، ويخالطون من فيها، بدون تهيّبٍ ولا تحفُّظ.

ولذلك لا ينبغي إهمال الحِجْر الصحّي على هذه السفينة بالكُلِّيَة، وإنّما يُخفَّف منه ما أمكن، ويُقْتَصَرُ على الأخذ بالاحتياط ممّا يُتوهَّم وقوعه لا غير.

وأمّا رجال البحر والنواتي، فينبغي أن يحتاط في شأنهم أيضاً ولا تُعطى لهم الحرية المطلقة، ويُستحسن أن لا يؤذن لهم في زيارة مدينة بريسط (Brest) إلاّ مناوبة وأفراداً، أو جماعات مُفَرَّقَة، ويرجعون لسفينتهم عند الغروب، ولا يتأخّرون عنه، إذ لا يخفاكم أنّ بريسط (Brest)، مدينة صناعية وبها معامل للسلاح، وربما ينشأ عن ذلك ما لا تحمد عُقْبَاه.

وأمّا القبطان، يعني الرئيس، فتُعطى له الحرية الكاملة في الزيارة في أي وقت شاء، ويمكنه أن يصحب معه ستة من أتباعه وملازميه، وأُنبِّه جنابكم إنّ استْحسنتم فكرتي، أن تُوجِّهوا للسفينة ومن فيها على سبيل الإكرام والإعتناء، يوم وصولها، عشرة من كباش الضأن وخمسين دجاجة، ومَا يتبعها من الخضر، وكذلك يوم سفرها، مع نحو اثنى عشر قنطاراً من البسكوط، كالخبز والكعك والحلواء ونحو ذلك، ويكون هذا عملاً مشكوراً.

وإذا أرادت سيادتكم أن تقدِّم ثياباً هدية للرئيس لُباريس، فيمكنها أن تقتصر على خمسة أذرع من الملف الأحمر وخمسة أدرع من الملف الأزرق، ونحو العشرين أو الثلاثين ذراعاً من الكتَّان المنسوج من القطن الذي لا يتجاوز ثمنه ثلاث ليفرات لكل ذراع، وفي ذلك كفاية.

وأظن أن هذا الرئيس ليست له أية حيثية، حسبما أخبرني به وحقَّقه الكاتب سومبيل (Soumbel)، تستوجب مراعاته أكثر مما ذُكر.

وأشعركم أيضاً بأنَّه لا داعي للتعجيل بالجواب عن كتاب الكاتب العزَّال الذي حمله إليكم الموسيو سالفا (Salva) حتى يقع التأمل فيه، ويظهر ما يتعيَّن الجواب به، المطابق لما تَضمنَّه بإيضاح وتفصيل.

ثم ذكر القنصل شينيي (Chénier) في رسالة أخرى له وجَّهها من سلا، أي الرباط، إلى رئيس حكومته أيضاً تباريخ سابع عشر غشت سنة اثنتين وسبعين وسبمائة وألف (17 غشت 18/1772 جمادى الأولى 1186)[176] أن الترجمان سومبيل (Soumbel)، رجع من سفره

176) «رسائل شينيي»، ج 1، ص 257.

بالسواحل المغربية في مُهمَّة كان مُكلَّفاً بها من قبَل السلطان، وتوجَّه قاصداً مراكش، ووعده أنه سيزيد في عمله فيما فيه مصلحة ونَفْع دولته، وخصوصاً ما يرجع لإبْعاد كل زيارة أو سفارة غير مناسبة.

وأمَّا مهمة الرئيس علي لُباريس فإنَّها لا يمكن إبطالها أو تأخيرها الآن، لأنَّها تقرَّرت نهائياً. وأخبره أيضاً أنَّه وصل للرباط مساء اليوم الثاني عشر من الشهر الجاري (12 غشت الموافق 13 جمادى الأولى من السنة) أحد ضُبَّاط الجيش الملكي ومعه بعض أتباعه، وحمل له معه رسالتين من الغَزَّال، إحْداهما كُتبت بِأَمْرٍ سلطاني، وأطلعه على الرسالة التي كتبها السلطان لملك فرنسا، وأعلمه بأنه مكلف بالسفر إلى العرائش، ليسلِّمها للرئيس علي لباريس.

ووجَّه القنصل للرئيس نسخة من الرسالتين اللتين كتب له الغزَّال والجواب الذي أجابه به، وأضاف لهما كتاباً آخر حرَّره إلى الموسيو سومبيل (Soumbel) ليطالع الجميع، ويكون على بال من الأعمال التي يقوم بها بالمغرب.

ومن جملة ما أخبره به الغزَّال في كتابه أنَّ الرئيس علي لُباريس سيتوجَّه إلى فرنسا بصفة رسول حامل للرسالة الملكية فقط، لا بصفة سفير، وهو ما ذكره أيضاً الضابط الموجَّه للعرائش من قبَل الملك، كما تقدم.

وزاد أنَّه من بريسط (Brest) ربَّما يتوجَّه إلى البلاط الملكي ليسلِّم الرسالة الملكية بنفسه للملك، وهو خلاف ما كان أخبر به سومبيل (Soumbel) قبل هذا. ثم قال : إنه ذكر للضابط السلطاني الذي أخبره بذلك أنَّ الرئيس علي لُباريس، ليست له أي صفة تُخَوِّلُه ذلك. ولا فائدة في توجُّهه بنفسه وسيره من بريسط (Brest) إلى البلاط الملكي، وهو بعيد عنه جداً.

فأجابه بأن هذا شيء قرَّره السلطان ولا تمكن مخالفته.

ثم قال في خطابه لِرَئيسه : «والذي نَعْلَمُهُ هو أنَّ الرئيس علي لبريس رجل ثقة، رزين، كيِّس، ويظهر أنَّه عاقل ممتاز عن غيره، ولكنه يُخْشَى أنَّه إذا وصل بالرسالة السلطانية إلى بريسط، يتظاهر بخلاف ما هو معهود منه، كما هو شأن غيره منْ أهل هذه البلاد، وهي حيلة جرى بها العمل عند غيره من المغاربة، طلباً للزيادة في الرِّفْعَة والظهور، وجنابكم يمكنه أن يتَّخذ الاحتياطات اللاَّزمة التي تحول دون ذلك.

وعلى كل حال إذا كان هذا القبطان أو الرئيس، كُلِّف بإبلاغ الرسالة الملكية بنفسه فينبغي أن لا نحدث صعوبة في سفره.

ولكن يمكنكم أن تشيروا عليه وتأمروه صراحة بأنْ لا يصحب معه إلى البلاط الملكي إلاَّ شخصين من أتباعه الملازمين له، لا غير.

والظنُّ أنه لا يطالب إلزاماً بتقديم الرسالة بنفسه للملك، وإنْ طلب ذلك، وشدَّدَ فيه، فيمكن للملك أن يقتبله بصفته قبطان سفينة، لا غير.

هذا، وإذا توجَّه هذا الرئيس بنفسه للبلاط الملكي، فلا حاجة في تقديم هدية خاصَّة له ببريسط (Brest)، زيادة على بعض المبرَّدات، وما كنت بيَّنْتُهُ لكم في رسالة أخرى سابقة، وَليفَكِّرْ جنابكم في الهدية التي ينبغي أن تُقَدَّمَ له أحسن ممَّا أشرت به سابقاً، لأنَّ كثرة الملاحظات والإفراط في الكرم ربَّما يكون في بعض الأحيان سبباً في الحِرْمَان، لا سيما وهذه الدولة لا تفعل شيئاً إلاَّ خوفاً ممَّا ينشأ عنه، وَنَظُنُّ أنَّ غيرها من الدول الأخرى كذلك ؟ ولكنَّنا نعرفها، لا سيما وعندنا مبادئ وقواعد أخرى نتمشى عليها.

والذي أشير به عليكم، هو أنَّ الهدية الخاصَّة التي ينبغي تقديمها للرئيس پيريس بهذه المناسبة لا تتجاوز قيمتها اثنى عشر أو خمسة عشر مائة إبرة، وهي :منجانة ذهبية وخمسة أذرع من الملف الأحمر، وخمسة عشر ذراعاً من الملف المصنوع بـ لوڤيي (Louvier) في ثلاث قطع، وثمانية أذرع من الثياب المنسوجة، ثمنها خمسون إبرة للذراع، وخمسة أذرع من ثوب آخر قرمزي اللون، وقطعتان من الثياب الهولاندية، وأربعة قطع من ثياب أخرى مُلَوَّنة، ومجموع هذه الثياب يتألَّف منه حمل يعظم في العين، ويكون أقل ثمناً من المجوهرات ونحوها من الحلي الذي نجهل ثمنه.

وأحبُّ من جنابكم أن تخبروني قبل رجوع هذاالرئيس إلى المغرب، وبما اقتُبل به ، وكيف كانت حالته وسيرته ومظاهره التي تظاهر بها هناك، لأكون منه على بال، وأعمل هنا بمقتضاه وما ينتج عنه، لأنَّ كثيراً من المغاربة إذا كانوا بأوربا، تظاهروا ما داموا فيها بالاعتراف بالجميل واللُّطف والأدب، وإذا رجعوا لبلادهم تجاهلوا ذلك وأنكروه، ولبسوا حلة أخرى، وربَّما قالوا إنَّهم عوملوا بالتقصير في حقِّهم، وما كان ينبغي أن يعاملوا بمثل ذلك العمل.»

ثم ذكر أنَّ الكاتب الغزَّال، كان ذكر في كتابه أنَّ السلطان يطلب سفينتين اثنتين لحمل الخيول والأسود والنُّمور المهداة إلي ملك فرنسا، ولكنه الآن جدَّد الطلب بأربعة سفن، وحيث أن الطلب الثاني لم يُعتبر، فإنَّه، يعني القنصل، متمسِّك بالطلب الأول، لِمَا في الثاني من كُلْفة لرئيس الحكومة الفرنسية.

فأخبره أنَّه أعطى للمبعوث السلطاني إثنى عشر بْياسطر[177] قوية جَيِّدَة، وخصَّص شيئاً قليلاً لخدمه، وكان يامل منه أكثر من ذلك، ولكنه أقنعه بأنَّ الجود والكرم الكثير من خَصَائص

177) سكَّة فضِّيَةٌ كانت رائجة عند بعض الدول الأوروبية، كإيطاليا وإسبانيا. وقيمة البياسطر تختلف باختلاف الدول.

السلطان. ثم قال مخاطباً رئيسه : «وبمجرَّد ما يصلني جوابكم بأوامركم، سأطبِّقها بكل ما في وسعي واستطاعتي مع منطوق ومفهوم الأوامر السلطانية هنا.

ولا شك أنَّ السلطان يحبُّ ما يُقدَّم له من الهدايا والعطايا، وما ينسب له من المكارم والمزايا.

ولا غرابة في ذلك لأنَّه أمر معلوم من أخلاق الملوك، وتَدُلُّ عليه جبلَّتهم وطبيعتهم، لأنَّ الهدايا علامة الاعتبار والإخلاص في المحبة والولاء، والسفارة التي لا تنبني على أُسُس راسخة لا فائدة فيها عند ا لحكومة الفرنسية».

ثم طلب الإذن له في الرُّخصة في فصل الربيع للراحة والاستجمام وهناء البال.

ثُمَّ قال : «وإن كانت غيبتي في هذا الإبَّان، ربما يُظن منها أنَّها مقصودة، ويتخذها ملك المغرب سبباً لتسهيل توجيه هديته المشتملة على الخيول والأسود والنمور لفرنسا كما تقدم، مع أنَّه لا قصد في هذا، والنظر المطلق فيه للحكومة، وإنَّما المقصود هو اغتنام الراحة لموافقة الزمن لها، لا سيما إذا تيسَّر ذلك من ذاته».

وزاد قائلاً : «إنَّه موافق على توجيه هدية الخيول والأسود والنمور المذكورة لأنَّ العمل جرى بها في دول أخرى.

وأما جواب كتاب الغزَّال فالوقت فيه مُتَّسع، حتى يَتَوَجَّهَ الرئيس علي لُباريس لفرنسا، وقد بلغه من العرائش أنَّه لا يسافر إلاَّ في أوائل شهر شتنبر، والظاهر أن سفينته ستُرغم على الإقامة بفرنسا مُدَّةَ فصل الشتاء كله.»

وقال في رسالة أخرى له بتاريخ ثلاثين شتنبر سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة وألف (30 شتنبر 3/1772 رجب 1186)[178] إنه لا زال مهتمّاً بوجهة الرئيس علي لُباريس إلى فرنسا، وينتظر ما يرد عليه من رئيس حكومته فيما يرجع لهذا الرئيس ويتعلَّق بوجهته ليمتثله ويطبِّقه على ما هو مشتغل به.

وأخبر بأن الكاتب الغزّال مرَّ بالرباط في طريقه إلى العرائش وطنجة في مهمَّة مخزنية، واجتمع به، وذاكره في وجهة الرئيس علي بيريس، واستفاد منه أنَّه كان يتمنّى أن لو كانت هذه الوجهة المسندة إليه عوضاً عنه، فأجابه باستحسان هذه الفكرة، وأفهمه أن شخصيته في هذه الوجهة كانت مناسبة لمصالح فرنسا والمغرب، ومع ذلك حبَّذ الغزّال اختيار سلطانه.

---

178) «الرسائل»، ج 1، ص 266.

وذكر أنَّه قدَّم له هدية شيئاً من السكر والشاي، وفهم منه أنَّه كان ينتظر منه قدراً من الدراهم ووعده بأنَّه سيكون على اتصال به مدة سفره.

وكان أخبر في كتاب آخر قبل هذا بتاريخ ثاني عشر شتنبر سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة وألف (12 شتنبر 14/1772 جمادى الثانية 1186)[179] بأنَّ الغزّال أجابه عن الكتاب الذي كان وجَّهه له.

ويوخذ من جوابه أنَّه تأثَّر جِدّاً من مسألة السفارة التي تقدم الكلام فيها بينهما، وأنَّ السلطان هو الذي أمر بها، وقرَّر ما سيجري فيها.

ويرجو أن يكون اطَّلع على ما كتبه في شأنها وتغيَّر رأيه فيما ستئول إليه، ولا سيما إذا لاحظ أنَّ البلاط الملكي الفرنسي لايبادر ولا يستعجل في طلب إحضار الهدايا وجلبها، فضلاً عن الإتيان للبحث عنها.

وذكر أنَّه لم يصله كتاب من التُّرجمان سومبيل (Soumbel) لأنَّه مريض بمراكش، ولا يتدخَّل في قضية من القضايا.

ثم أخبر بأنَّ الرئيس علي لُباريس بارح وادي العرائش أوائل الشهر الجاري، ووصل إلى الرباط في السادس منه، ولم ينزل من سفينته إلى البر.

وفي السابع منه، طلب منه ومن قناصل بعض الدول الأخرى شهادة صحِّية تقيه تطبيق قواعد الحجر الصحِّي عليه. فبادر بتسليمها إليه، ولكنه احتاط فيها غاية الاحتياط، ونصَّ فيها على أنَّها ليست من خصائصه، وإنَّما ساعده عليها إرضاء له، وإسعافاً لخاطره، وإنْ كانت لا عبرة لها بفرنسا.

ثم إن الرئيس حمل معه حالاً كل ما كان يُهيَّء له من المؤن وما يتبعها، وبعد ظهر اليوم العاشر من الشهر، نشر قلوعه، وأقلع قاصداً مرسى بريسط (Brest).

وذكره في الرسالة المؤرخة بسابع أكتوبر سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة وألف (7 أكتوبر 10/1772 رجب 1186)، فقال أيضاً مخاطباً رئيسه الراجع إليه أمره بالحكومة الفرنسية : «إني لازلت متتبِّعاً حرفاً حرفاً سائر ما كنتم أمرتموني به، لأنَّ فيه رضا جنابكم، وأول ما أنهي إليكم الآن هو أنَّ الرئيس علي لُباريس سافر إلى فرنسا بدون أدْنى ضوضاء ولاَ احتفال بوداعه، وها أنا أنتظر ما يأتي منكم في هذا الشأن، لأحتجَّ به، وأعمل بمقتضاه إذا اقتضى الحال ذلك.

---

179) نفس المصدر، ج 1، ص 263.

وأمّا رسالتكم التي أرسلتم للكاتب الغزال، فإنّها لا زالت محفوظة تحت يدي، لم أسلّمها له حتى يحين وقتها المناسب، لأنّه يسعى ويتمنّى أن يُوجّه سفيراً لفرنسا.»

وقد تأخّرت هذه الرسالة عند هذا القنصل، ولم تسلم إلى المرسلة إليه، إلاّ في شهر أبريل سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة وألف (أبريل 1773/ محرم 1187).

ثم قال ما معناه : إنّ وصول الرئيس علي لُباريس إلى فرنسا، وما سيحدثه الحديث عنه بعد رجوعه منها من الانفعال هنا، بما تكون له صورة توهم النجاح في مخابراته أو معاملته.

وهذا شيء رُبّما يكون فيه ما فيه من المخالفة للحقيقة والواقع.

ولا يخفى عليكم أنّ الناس على مذهب أميرهم في هذا وغيره، ويتجلّى ذلك في كل وقت بحسبه، ولذلك قيل : ملاطفة ومجاملة المقرّبين من السلطان واجبة، لِمَا فيها من المنفعة الخاصّة والعامّة، ولا يخفى عليكم ذلك في كل مناسبة.

ومنه تعلمون أيضاً أنّ الاحتياط الذي اتخذته هنا في هذا ونحوه، وهو أنّ الكرم والإكرام لا يكونان إلا في محلهما...

وليس هنا من يُطبّق عليه اسم وزير على الصفة التي عندنا، لأنّ السلطان هو الذي يساير سائر الأعمال بنفسه وإرادته، كما يريد بدون منازع، وحسبما يظهر له أنّ فيه المصلحة.

وعليه، فإني أستأذنكم في الذهاب إلى مراكش، بعد رجوع الرئيس علي لُباريس من وجهته الفرنسية، وأحاول المثول بين يدي السلطان، وأعرب له عن رضا الحكومة الفرنسية عمّا شاهدته منه من علامات الامتياز والاعتبار، وإن كانت، هذه الزيارة المراكشية تتطلّب نفقة كثيرة، فلا بأس بها لأنّها في محلها ومتعيّنة.

وسأعلمكم بعد هذا بكل ما يتجدّد من أخبار الرئيس علي لُباريس المذكور، وما يبلغنا عنه بفرنسا.

وعبّر في رسالته المؤرخة بثاني عشر يناير سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة وألف (12 يناير 1773/18 شوال 1186)[180] بأنه لا زال في انتظار أوامر رئيسه في كل شيء يتجدّد في مهمّة الرئيس علي بيريس، لأنّه يريد أن يوافق بينها وبين الإذن الذي طلبه بالرُّخصة له في

180) «مراسلة القنصل لوي شينيي»، ج 1، ص 281.

الاستراحة ببلده، كما تقدم، وسيقتصد في النفقة المترتبة على ذلك، وخُصوصاً إذا طلب رخصة أخرى، والعمل على ما سَيُؤْمَرُ به لينفذه بكل ضبط ودِقَّة وامتثال.

وإذا لم تصله الأوامر الجديدة، فسيعمل بما كان تقدَّم له قبل في هذا الشأن، حسبما تستوجبه المنفعة، وتقتضيه المصلحة المستعجلة.

وأمَّا السفينتان اللتان كان رئيس الحكومة واعد بِتَوْجِيهِهِمَا في فصل الربيع، فينبغي أن لا يفوته هنا التنبيه على أنه انقطع الحديث، وخرست الألسنة عن الكلام في كل ما يرجع للسفارة وما يتعلق بها من هدية الخيول والأسود والنمور، وإذا بقي الكلام مُنْقَطِعاً في ذلك، فلا حاجة في تجديد طلبه مرة أخرى، لِمَا فيه من النفقة، لا سيما وملك المغرب يمكن أن يكلِّفه بهذه الهدية، وحينئذ يستغني عن سفارة خاصَّة بها تُعيِّنها جلالته.

وفي هذه الحالة يطلب من قادس السُّفن اللازمة لحمل الهدية المذكورة، وتوجيهها على طريق مرسيليا وذلك أولى...

وختم هذه الرسالة بقائمة نفقة القنصلية الفرنسية بالمغرب في الأشهر الثلاثة الأخيرة، وحالة القرصنة المغربية فيها.

وذكر في رسالته المؤرخة في الثلاثين من يناير سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة وألف (30 يناير 1773/7 قعدة 1186)[181] أنه تلقّى عدَّة مكاتب على طريق قادس، تتعلّق بِبَحَّارَة الرئيس علي لُباريس، ويوخذ منها عموماً، أنهم راضون عن المعاملة التي يعاملون بها ببريسط (Brest)، ولكن ليس لديهم ما يكفيهم لِمَا يتشوّفون إليه من شراء بعض البضائع والأمتعة الموجودة هناك، وينتظرون ما سيأتي في المستقبل.

ومكاتبهم صَادِرَةٌ آخر شهر نونبر من السنة الفارطة. ويقال إنَّ الرئيس علي لُباريس توجَّه إلى البلاط الملكي، وإلى الآن لم تصل رسالة منه بذلك.

وقد سأله عنه السلطان، ولا زال في انتظار ما يصله من أخباره ليبلغها إليه...

وجاء في رسالته المؤرخة في ثالث وعشري ابراير سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة وألف (23 ابراير 1773/1 حجة 1186)[182]، أن هذاالرئيس لَمَّا وصل إلى باريس، استقبله الملك في الثالث والعشرين من دجنبر بقصد السلام عليه.

181) «الرسائل»، ج 1 ص 283.

182) نفس المصدر، ج 1، ص 285.

وفي آخر يناير، كان لا زال موجوداً بباريس، لأنه كان مريضاً بالحُمَّى، وكذلك بعض أعوانه، وعُولجوا جميعاً معالجة خاصَّة باعتناء خاصّ.

وقد كتب بذلك للترجمان صومبيل (Soumbel)، وأخبره به لينهيه لعلم السلطان.

وذكر أنه صرَّح لهذا الترجمان، على سبيل السِّرِّ، بِأَنْ زيارة هذا الرئيس، أو الضيف، لباريس يوشك أن ينتج عنها بُعْدٌ بين فرنسا والمغرب، كما كان قبل هذا.

ولكن لحسن المعاملة التي لقيها بفرنسا، يؤمل أن يسعى في التقارب بين الدولتين بعزم صادق، ولكنه يشك في ذلك، ولا سيما بعد رجوعه من وجهته.

وعليه فهو ينصح رئيس حكومته، بأن يزيد في الحذر والتحفُّظ منه بإظهار النُّصح له بالرجوع لبلاده عاجلاً لإتْمام معالجته، حتى لا يقول الناس هنا بأنه رجع مطروداً مثلاً.

وهذه فكرة عابرة خطرت بباله فسجَّلها.

ولا يخفى أنَّ التنازل ربَّما يكون منه فائدة، ولكن ينبغي أن لا يُؤدي إلى سوء التصرُّف.

وأمَّا الشهادة التي طلبها وسوعد عليها، فلا بأس بها، ولا مانع منها.

وينبغي التنبيه هنا على أنَّ ملك المغرب كان جنَّد وسلَّح هذا الرئيس القُرْصاني لمدة شهرين ونصف، وَوَجَّهَهُ لفرنسا بصفة رسول حامل للبريد، وإنْ تأخَّر عن موعده، فسيكون مسؤولاً عنه، لا سيما وقد أظهرت فرنسا مساهلة كبيرة معه، وقبولاً له، ليقوم برسالته كما ينبغي، بسرعة كبيرة، ويرجع من حيث أتى، وذلك ما ينبغي إظهاره لرعايا أمير يُرغب في التودُّد إليه.

ثم قال : «وقد كنت قدَّمت لكم، فيما مضى، علي لُباريس هذا بصفة رجل كَيِّس رزين، وفي ذلك كفاية»، وزاد قائلا : «وهل ينطبق هذا على المغاربة كلهم في سائر أحوالهم ؟».

وأطلق لسانه وقلمه بما لا ينبغي أن يصدر من قنصل أجنبي نازل في بلدهم، وبين أظهرهم، ممَّا هم منزَّهُون عنه، وخَارِجٌ عن دائرة موضوعنا.... ولا فائدة في جلبه وذكره هنا.

وقال في رسالته المؤرخة بعاشر مارس سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة وألف (10 مارس 16/1773 حجة 1186)[183] إنَّه لا زال منتظراً رسالة رئيس حكومته المؤرخة برابع عشر

183) «الرسائل»، ج 1، ص 292.

دجنبر سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة وألف (14 دجنبر 19/1772 رمضان 1185)، التي كان أعلمه بها، وبمقتضاها سيخبر الغزَّال بشيء من الأخبار المتعلقة بالرئيس علي لُباريس الذي هو موضوع الحديث، طبق ما سيامره به رئيسه في شأنه.

وعسى أن تكون هذه الرسالة في السفينة الفرنسية الآتية من مرسيليا إلى العرائش ؛ ومنذ نحو العشرين يوماً وهو في انتظارها.

وأمَّا وصول الرئيس بيريس فقد شغل باله، وعسي أن يصل في ظرف هذه المدَّة، لا سيما وسيترتَّب عن وصوله مَعْرِفَةُ نوايا السلطان الناتجة عن وجهته.

وفي ختام رسالته المؤرخة بثامن أبريل سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة وألف (8 أبريل 15/1773 محرم 1187)[184] أخبر بأنَّه بلغه في ذلك الوقت وصول الرئيس علي بيريس إلى العرائش، زوال اليوم، الخامس من شهر أبريل المؤرخ به (5 أبريل 12/1773 محرم 1187) وكان بارح بريسط (Brest) قبل ذلك باثني عشر يوما.

وفي الْحِينِ وجَّه حاكم العرائش فارسين إلى السلطان يعلمانه بوصوله.

وبلغه أنَّ هذا الرئيس كُسِّرَ له الصَّارِي المقدم من سفينته.

وفي الأيام الأولى من الشهر، كانت سبع سُفُنٍ من نوع فراكيط ببوغاز جبل طارق.

وذكر في الرسالة المؤرخة برابع وعشر أبريل سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة وألف (14 أبريل 1/1773 صفر 1187)[185] أنَّ الرئيس علي لُباريس، منذ بضعة أيام وهو بالرباط، ولكنه لم يزره ولم يجتمع به، لأنَّ هؤلاء الناس لا يستقبلون الزوار، وليس ذلك من عادتهم.

وإنَّما وجَّه له ترجمانه يُهنِّئه بالسلامة، وطلب منه أن يتفضَّل هو بزيارته قبل توجُّهه لملاقاة السلطان، فوعد بذلك، وهل سينجز وعده ؟ وهو يتحدث كثيراً عن سفره، شاكراً الأدب والاعتناء الذي عومل بهما بفرنسا، وشارحاً أنواع الإكرام الذي قابله به الفرنسيون، وحتى البحّارة الذين كانوا معه يشهدون بذلك، والذين كانوا مرضى منهم وعولجوا، يُصرِّحون في أحاديثهم بين ذويهم بالاعتراف بالجميل، ولكن على ما يظهر له أنَّهم كانوا ينتظرون كرماً وسخاء وعطاء أكثر من ذلك.

---

184) نفس المصدر، ج 1، ص 299.

185) المصدر السالف الذكر، ج 1، ص 302.

وأمّا السلطان الذي يعتبر هذا الرسول رئيساً ممتازاً، فقد أجابه عن كتابه الذي وجّهه إليه من العرائش بعبارات تتضمّن مزيد اعتبار، وهل ذلك حقيقة مطابقة للواقع ؟

وشكر بالخصوص سيرته التي كان عليها بفرنسا، وخلُوها من الأغراض الشخصية، وأنعم عليه برياسة فركاطته، وأمر حاكم العرائش بالنفقة عليه وعلى بحّارته الذين كانوا مرافقين له في سفره، حتّى يصلوا سالمين إلى الرباط، ويقيم به مدة خمسة عشر يوماً بقصد الراحة، وبعد ذلك يقدم عليه لملاقاته بمراكش صحبة عشرة من أصحابه ورفقائه.

وبمقتضى ذلك رجع الرئيس علي بيريس إلي العرائش تنفيذاً لِمَا أُمر به، وأخّرَ سَفَرَهُ لملاقاة السلطان الآن، ليسلِّم له جواب ملك فرنسا الذي أتى به معه، وحينئذ يطبّق الكلام على ما تقرر ببريسط (Brest) مع هذا الرئيس القرصان، ولا يكتفي بجواب بسيط فقط، وهذا ما يشغل البال الآن.

وسيتّصل بالغزّال ليطلعه على حقائق الأمور وكيف راجت.

ثم أخبر في رسالته المؤرخة بثاني عشر مايه سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة وألف (12 مايه 19/1773 صفر 1187)[186]، بأنه توصل برسالة رئيسه المكتوبة في خامس الشهر الماضي، وكان في انتظارها، وأخبره بوصول الرئيس علي بيريس، وكيفية الاتّصال به، وأنّه رجع من العرائش وسيتوجّه قريباً إلى مراكش لملاقاة السلطان.

وقد تحقّق عنده أنّه مُظْهِرُ رضاه عمّا قوبل به من ا لحفاوة والاعتناء بفرنسا، حسبما أخبر هو بذلك.

وفي رسالته المؤرخة في ثالث وعشري يونيه سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة وألف (23 يونيه 2/1773 ربيع الثاني 1187)[187]، أخبر بأنّ الرئيس علي بيريس لمّا وصل إلى مراكش، قابله السلطان أوّلاً مقابلة بسيطة لمّا مثل بين يديه في الاقتبال الرسمي، ولم يتذاكر معه في شيء إلاّ فيما يرجع لسفره في البحر، ثم استدعاه مرة أخرى، واجتمع به في جلسة خاصّة بِبُسْتَانِه الخاصّ، وذاكره حينئذ في كل ما يرجع أو يتعلّق بماموريته.

وقدّم له سائر ما أتى به معه من التُّحَف والهدايا من فرنسا، فاحتفظ السلطان منها بالمنجانة فقط لنفسه، وردّ له سائر الحَوَائِج الأخرى، وأمره أن يسْهم منها إلى البحّارة الذين كانوا في رفقته.

186) المصدر السالف الذكر، ج 1، ص 308.

187) المصدر السالف الذكر، ج 1، ص 313.

وذكر أنَّه بلغه أنَّ هذا الرئيس رجع من وجهته هذه مساء البارحة، ويظهر أنه غير مسْرُورٍ كل السّرور منها.

بعض أعمال علي بيريس
الحربية البحرية

قال شينيي (Chénier) في رسالته المؤرخة برابع غشت سنة ست وسبعين وسبعمائة وألف (4 غشت 28/1776 جمادى الآخرة 1190)[188] التي خاطب بها حكومته على عادته بإخبارها بكل شاذَّة وفاذَّة من أخبار المغرب وما يروج فيه، ما حاصله :

بارح العرائش منذ بضعة أيام فرگاطتان كانتا نجتا من مراقبة ومتابعة بعض قطع الأسطول الهولاندي. وإحدى هاتين الفرگاطتين، للرئيس علي بيريس، مُسلَّحة بأربعة وعشرين مدفعاً ومائتي بحّار.

والأخرى للرئيس الطيب وَالعَلْو السلاوي، مُسلَّحة بثلاثين مدفعاً ومائتي بحّار.

ويقال إنَّ هذين الرئيسين سيتوجَّهان للطوَّاف والجولان بسواحل البحر الرومي (يعني الأبيض المتوسط) لعلَّهما يصادفان أو يأخذان ، على غِرَّةٍ، بعض الوحدات من الأسطول الهولاندي. وتبعتهما بعض السفن الصغيرة والقوارب سالكة طريقهما، ومقصد الجميع واحد، ويقال إنهما ستتجوّلان أيضاً برأس بون[189].

ولمَّا علِمَ الأسطول الهولاندي الذي كان ببوغاز جبل طارق بذلك، انقسم إلى قسمين، واقْتَفى أثرهما وأثر القطع المغربية الصغيرة الأخرى التابعة لهما، ليمنعها من أخذ السفن الهولاندية التجارية السابحة بالبحر الأبيض المتوسط. وقد أدرجت هذه القضية في ترجمة الرئيس الطيب والعلو أيضا.

وأخبره أيضاً بأنَّ السلطان أحدث فِرَقاً بحرية جديدة بطنجة تعضيداً لقوة السفن الشراعية هناك. وخصَّص سبعين ألف ليرة لهؤلاء البحرية، وصِلَةً للبحَّارة الذين كان لهم عمل معهم في نجاة السفن التي كانت مُهدَّدة من قبل السفن الهولاندية.

---

188) «رسائل القنصل لوي شينيي»، ج 1، ص 441.

189) «رأس بون» (Cap Bon) يوجد عند الشمال الشرقي لتونس.

وأصدر أمره الشريف بجر تسعة مدافع كبيرة جدّاً من السويرة إلى مراكش، ولا يُدرى المراد منها، وكل يقول قوله، ويحكي روايته، لأنَّ حقيقة مراد السلطان لا زالت لم يطلع عليها أحد، وجميع ما قيل إنَّما هو مُجرَّد احتمالات وظنون لا غير.

وذكر في رسالته المحرَّرة في سادس وعشري غشت سنة ست وسبعين وسبعمائة وألف (26 غشت 11/1776 رجب 1190)[190] أنَّ الرئيسين علي بِّريس والطيب والعلو، المتقدم ذكرهما، كانا أبحرا معاً من العرائش في السابع والعشرين من شهر يوليوز (27 يوليوز/ 10 جمادى الآخرة) من السنة المذكورة، وبعد سفرهما بعشرة أيام، صادفا حول جُزُر أشور في الدرجة 37 من خط العرض، والدرجة 358 من خط الطول، سفينة هولاندية اسمها ماري كاترين (Marie Catherine) تحت رياسة القبطان جاكوب مِيِيرْ (Jacob Meyer) كانت بارحت مرسى أمستردام (Amsterdam) يوم عاشر يوليوز (23 جمادى الأولى) من السنة المذكورة قاصداً مرسى سورنام (Surinam)[191] الهولاندية.

ومحمولها ثلاثمائة طن، فلم تقاوم أصلاً، واستسلمت في الحين مع أنَّها كانت مُسلَّحة بستة عشر مدفعاً، وفيها ثلاث وعشرون نوتياً، ومعهم من الركاب اثنا عشر عسكرياً، وحاملة قَدْراً كبيراً من الجير وآجور البناء، وعدداً كبيراً من الألواح، وقدراً مُهمّاً من المؤون والثياب الصالحة للباس، وغير ذلك، ممَّا تحتاجه الفرقة العسكرية الحامية للمرسى القاصدة إليها، من الكسوة وغيرها.

وقيل أيضاً إنها كانت حاملة لقدر مُهمّ من المال بقصد النفقة على العسكر، ولكنّ هذا مجرَّدُ قول قيل، لا غير.

فسيقت إلى السويرة، ولم يصل خبرها إلى القنصل شينيي (Chénier) إلاَّ في الثالث عشر من الشهر الجاري.

ثم استرسل قائلاً : إنه يوجد أسطول هولاندي يتركب من خمسة عشر فرگاطة[192] ببوغاز جبل طارق، وحوض قادس، يترصَّد قراصين ملك المغرب لينتقم منها.

---

190) المصدر السالف الذكر، ج 1، ص 445.

191) هي كوييان (La Guyane) الهولاندية قديماً. استقلَّت منذ سنة 1975، وتقع شمال القارَّة الأمريكية الجنوبية.

192) «فرگاطة» : سفينة حربية ذات ثلاثة صواري قديماً. أمَّا اليوم، فيطلق هذا الإسم على سفن الخفر المضادَّة للغوَّصات، وتكون حمولتها أعلى من حمولة «الحرَّاقة».

وذكر أيضاً أنَّ جماعة من الفرسان وصلوا البارحة من مراكش، وأخْبَرُوا بأنَّ السلطان سيتوجَّه قريباً إلى السويرة، حيث ينتظره الرئيسان : علي بيريس والطيب والعلو المذكوران، وبعد وصوله يَقَعُ إحصاء ما كان في السفينة الهولاندية من الغنائم ويُقَرِرُ ما سيكون في شأنها.

وسجَّل في رسالته المؤرخة في سادس عشر دجنبر سنة ست وسبعين وسبعمائة وألف (16 دجنبر 5/1776 قعدة 1190)[193] أن الفركاطتين اللتين كانت إحداهما تحت رياسة الرئيس علي پيريس مُسلَّحة بأربعة وعشرن مدفعاً، والأخرى التي كانت تحت رياسة الرئيس الطيب والعلو مسلَّحة بأربعين مدفعاً، وأبحرتا من العرائش للجولان في البحر بشاطئ البرتغال، وغنمتا سفينتين هولانديتين حاملتين للملح والفواكه والخمر، فساقهما الرئيس والعلو إلى العرائش، وذلك في السادس من الشهر الجاري.

واتَّفق أن ثلاثة قطع حربية هولاندية كانت قريبة منهما، ولاحظت أسرهما وما حَلَّ بهما، فتتبَّعتهما، ونتج عن ذلك جنوح السفينتين المغنومتين إلى الشاطئ، وغرقت إحْداهما، واحترقت الأخرى، وغنم البحّارة المغاربة الوقت في إنجاء ما أمكنهم إنجاؤه من السِّلع التي كانت مشحونة فيهما.

وكانت إحدى البوارج الحربية السلطانية راسية تحت القصر السلطاني بالعرئش، فرمتها إحدى القطع الهولاندية بمدافعها.

والقطعتان الهولانديتان الأخريتان، تابعتا سيرهما في اقتفاء سفينة الرئيس علي بيريس، ولكنه نجا منهما، ورجعتا في الحين، والتحقتا بالقطعة الحربية الثالثة لحمايتها وإعانتها، وقنبلتا معاً بمدافعهما السفينة المغربية القرصانية التي كانت راسية أمام برج هناك فتهدم. ومع ذلك لم تصبها القنابل المنصبة عليها صبّاً بأذى فادح.

وأما البحّارة المغاربة الذين كانوا عزموا أوَّلاً على التخلّي عن سفينتهم لمَّا حلَّ بها وبهم ممَّا لا يُطاق من الضَّرب بالمدافع والتحطيم والتخريب. فلم يمت منهم إلاَّ أربعة، وأربعة آخرون منهم هلكوا ببطريات القصر السلطاني وشظايا القنابل المتفجرة، التي كانت تصيبهم من غير أن تقصدهم.

وبحَّارة السفينتين الهولانديتين المغنومتين وعددهم اثنان وعشرون، أنزلوا إلى البرِّ في الوقت المناسب.

---

193) «الرسائل» للوي شينيي، ج 1، ص 474.

وأمّا الرئيس علي بيريس الذي نجا من متابعة القطعتين الحربيتين الهولانديتين ، فقد وصل إلى مرسى العدوتين : سلا ورباط الفتح، مساء اليوم الثالث عشر من الشهر، ولاحظ صباح يوم الرابع عشر منه، أنّه لا يمكنه الدخول إلى أبي رقراق، ليكون في مأمن من مُلاَحَقَة العدوّ له، لصعوبة البحر وهيجان أمواجه، فحاول الالتجاء إلى مرسى المعمورة، فنشبت سفينته بالبرّ وتحطّمت، ولم يتمكّن هو وبحّارته من إنجاء بعض أطرافها وبقايا أجزائها إلاّ بصعوبة كبيرة، وتحمّلوا مَشَاقّ فادحة، في جَرِّ الأربعة والعشرين مدفعاً التي كانت بأسفلها منذ سُلِّحَتْ بها بالسويرة، وكذلك سفينة الرئيس والعلو.

ولكن خسارة السفينتين ستُعوَّض بالستين أسيراً الهولانديين الذين كانوا تحت أمر السلطان ومطلق إرادته.

وأرْدَفَ في ما ذكره في هذه الرسالة برسالة أخرى، بتاريخ ثالث وعشري دجنبر ست وسبعين وسبعمائة وألف (23 دجنبر 12/1776 قعدة 1190)[194] بأنه وردت عليه أخبار أخرى من العرائش مضمّنها : هو أنّ ثلاثة سفن هولاندية، نشبت في البرِّ بساحل الناحية العرائشية، وسفينتان منها محمول كل واحدة منهما ثلاثمائة طن، وواحدة فيها أحد عشر بحّاراً، والأخرى فيها اثنا عشر بحّاراً. وكانتا موسوقتين معاً منْ إحدى المراسي الإصبانية لأمستيردام (Amsterdam) الهولاندية بسبعمائة وسبعين طرداً منَ الصوف، وقدر مُهمّ من الملح، وسبعين برميلاً من الخمر وأربعمائة وأربعين صندوقاً مملوءاً بالفواكه اليابسة والليمون، وغير ذلك. وبقية الكلام على هذه الغنيمة مبسوط في ترجمة الرئيس الطيب والعلو.

وفي الحادي عشر من الشهر، ظهر الرئيس علي بيريس بشاطئ سلا فارّاً من متابعة سفينة هولاندية كانت متعقِّبة أثره، ولكن البحر كان هائجاً، فاضطرّ إلى الذهاب صباح اليوم الرابع عشر إلى المعمورة.

وحاولت الفركاطات الهولانديات التي كانت بالعرائش إغراقه، فقنبلته بمدافعها، ولم يحصل له ضرر منها، ولكنه حاول الدخول إلي الوادي فلم يتمكّن من ذلك، ونشبت سفينته في الرمال.

وكانت مسلحة بأربعين مدفعاً من المدافع التي سُلِّحت بها في السويرة، ستة وعشرون منها نحاسية، وأربعة عشر حديدية. وكلها ضاعت وغاصت في الرمال.

194) «الرسائل»، ج 1، ص 476.

ويقال إنَّ أَهل المعمورة، استطاعوا استخلاص ثلاثة عشر مدفعاً منها.

وسيق الثلاثة والعشرون أسيراً الهولانديون إلى العرائش.

ثم قال : وهذه خسارة كبيرة حصلت لملك المغرب في أسطوله البحري وسلاحه، ويصعب تعويضها في الحين.

وفي رسالته المؤرخة بثامن وعشري نونبر سنة سبع وسبعين وسبعمائة وألف (28 نونبر 27/1777 شوال 1191)[195] ذكر أن الفركاطة التي كانت تحت رياسة علي بيريس، وبارحت السويرة في شهر شتنبر الماضي، مع قطع بحرية أخرى، تأخَّر وصولها للرباط في الوقت المعيَّن لها.

وقيل إن بيريس توجَّه للقيام بجولة بحرية أخرى، حتى يتمَّ ما لديه من مؤونة الأشهر الثلاثة التي سلمت له، ولكن لمَّا كانت المدة المذكورة في آخر أيام نهايتها، وقع الاهتمام به، والتساؤل عنه، وشغل البال من أجل تأخره عن وقته المحدود.

ثم أخبر في رسالته المؤرخة بثامن عشر دجنبر سنة سبع وسبعين وسبعمائة وألف (18 دجنبر 18/1777 قعدة 1191)[196] بأنَّه وصل إلي الرباط في أول الشهر الجاري. وكان سبب تأخره، أنَّه قام بجولة بحرية قرصانية بضواحي رأس سانْ ڤَانْسَانْ (Saint Vincent) واصطاد سفينة إِصبانية قطالونية في طريقها من قادس إلى لاهاڤان[197] (La Havane) مشحونة بالدقيق، والخمر، والفواكه، وأشياء أخرى، فساقها غنيمة إلى الرباط، بدعوى أن رئيسها الإصباني، ليست معه ورقة الإذن والجواز من سلطان المغرب.

وحيث أن المسألة فيها شك وارتياب، هل كان السلطان دفع له ورقة الإذن والجواز المذكورة أم لا، فإنَّ هذه الغنيمة لمَّا وصلت إلى الرباط، ترتَّب عن وصولها بعض التريث والتأمُّل مع بعض المغاربة في حالها ومآلها.

ولما رُفِعَ أمرها لجلالة السلطان، أصدر أمره الشريف بردِّها، وأظهر كرمه لصاحب السفينة بتعويض بعض المؤون التي أُخذت منها، فنُفِّذ ذلك كُلُّهُ في الثامن من الشهر الجاري المؤرخة به الرسالة.

---

195) المصدر السالف الذكر، ج 1، ص 598.

196) المصدر السالف الذكر، ج 1، ص 598.

197) هي عاصمة جزيرة كوبا، وكانت مستعمرة إسبانية حتى سنة 1898.

وفي الرابع عشر منه أُطْلق سراحها، فنشرت قلوعها للريح، وتوجَّهت لحال سبيلها في طريقها متمِّمة سفرها.

قضية القبطان الإصباني

وكان بهذه السفينة من جملة رُكَّابها، قبطان إصباني، شيخ متقدم في السنّ، مكلَّف بالنظر في بعض الإدارات والمصالح بجزر الخالدات، مُتَّجهاً لاستلام وظيفته، فأظهر أولاً الرزانة والكياسة في أقواله وأفعاله، وكتب إلي السلطان كتاباً يشير عليه فيه، إشارة خفية لطيفة باستيناف المذاكرة مع حكومته بمدريد في المصالح المتعلِّقة بالدولتين، وقال إنَّ هذه المذاكرة لاشك أن تكون ناجحة عائدة بالنفع على الطرفين، وأنَّه مستعدّ للقيام بذلك بنفسه، ولا سيما إذا وجَّه معه السلطان الرئيس علي بيريس، لمعرفته بالعوائد الأوروبية، وكيفية المعاملة مع الدول الأجنبية.

وصرَّح له بأنَّه أخ الوزير الإصباني المختصّ بالمسائل الراجعة لإقليم الهند.

ولكن هذا الضابط أو القبطان بينما كان يظهر الأدب والتزلُّف للسلطان، انقلب في الحين، وغيَّر خطابه وأسلوبه، وزعم أن بعض المغاربة سبَّ ملكه ورايته، وأظهر عدم اعتباره لهما، وألحَّ في التوجُّه إلى مكناس ليقابل السلطان بنفسه، ويقدم شكايته إليه.

ثم توجَّه إلى مكناس، صحبة أحد القواد، والناس في شك من نجاحه في شكايته التي سافر من أجلها وقبولها، وربما يتظاهر بمظهر آخر، ويتحيَّن فرصة يغتنمها.

ثم قال شينيي (Chénier)، إنه كان طلب توجيه هذا الضابط إليه، ليقيم عنده بمنزله، ويقوم بشؤونه، فامتنع حاكم البلد من ذلك، ووجَّهه مع بحّارة السفينة إلى دار خاصّة بالمدينة، وطلب ذلك رأساً من الضابط نفسه، فلم يرد مفارقة البحّارة الذين كان معهم، فتركه وشأنه، وكان في ذلك خير له، وبُعْد عن التُّهم والمشاركة فيما لا يعنيه، ولا سيما بعد أن كشف النقاب عن وجهه. وممَّا صدر منه أنه استظهر بعدَّة أوراق، اطَّلَعَ عليها أمناء المرسى، مضمَّنها أنه من نسل أو قرابة بعض الباباوات، ولكن المغاربة كانت لهم معرفة تامَّة بالسكَّة التي يتعامل بها الإصبانيون.

والحالة الموجودة بين السلطان وملك الإصبان تؤذن بأنَّ هذا الضابط رُبَّما لا يقابل مقابلة حسنة بمكناس... وسيظهر أمره، ويَنْكَشِفُ سِرُّه بعد هذا.

توجُّه الرئيس علي بيريس مع الكاتب ابن عثمان إلى إصبانيا في مسائل تتعلق بالأسرى

ثم ورد ذِكْرُ للرئيس علي بيريس في رسالة شينيي (Chénier) المؤرخة في ثامن وعشري شتنبر سنة تسع وسبعين وسبعمائة وألف (28 شتنبر 17/1779 رمضان 1193)[198] بأنّ السلطان سيدي محمد بن عبد الله وجّهه صحبة كاتبه ابن عثمان إلى قادس، للبحث في قضية تتعلّق ببعض الأسرى المالطيين الذين أسرهم الرئيس علي الصابونجي في سفينة مدينة راكوز (Raguse) الصقلية، حسبما هو مذكور في ترجمته، وقام بما كُلِّف به.

وفي رسالة شينيي (Chénier) أيضاً، المؤرخة بخامس وعشري أكتوبر سنة تسع وسبعين وسبعمائة وألف (25 أكتوبر 14/1779 شوال 1193)[199] أن فركاطة الرئيس علي بيريس توجد راسية بمرسى الرباط، في انتظار الكاتب ابن عثمان لتذهب به إلى قرطاجنة، والشائع هنا أن الباعث على بعث هذا الكاتب إلى قرطاجنة، هو القيام بتوزيع الصدقة على الأسرى المسلمين الذين هناك، التي تفضّل السلطان بها عليهم، ويباشر مع حكومة مدريد التي سيجتمع بها في فدائهم، وإطلاق سراحهم، ويُبَيِّنَ لها ما في استعباد الأحرار من الإثْمِ والعار والضرر، وعدم احترام حرية البشر.

إلاّ أنّ ابن عثمان، لم يتوجّه لإصبانيا في هذه السفارة في فركاطة الرئيس علي بيريس، وإنّما توجّه إليها في سفينة خاصّةٍ خصّه بها، وجّهها له ملك إصبانيا إلى قادس، حسبما تقدم مبسوطاً في أخبار سفارته في القسم الخاصّ باهتمام السلطان سيدي محمد بن عبد الله بفِدَاءِ الأسرى وإطلاق سراحهم.

وأمّا فركاطة الرئيس علي بيريس، فقد سافر فيها في ثامن نونبر (8 نونبر /29 القعدة) من السنة المذكورة، أحد تُجّار فاس، من قبل السلطان إلى ليشبونة، ومعه نحو ستِّينَ ألف ليبرة ليشتري بها للسلطان سلعاً متنوِّعة خاصّة به وراجعة إليه، كما عند شينيي (Chénier) في رسالته المؤرخة في تاسع نونبر (9 نونبر /29 شوال) من السنة نفسها[200].

ثم ذكر في رسالة أخرى مُؤرّخة بتاسع عشر أبريل سنة ثمانين وسبعمائة وألف (19 أبريل 14/1780 ربيع الثاني 1193)[201] أنّ هذه الفركاطة رجعت من إصبانيا، بعد ما عرّج رئيسها علي بيريس على قادس، ومالقة وقرطاجنة، وأنّه خلف بعض المغاربة بقادس يشتغلون بالتجارة في المأكولات، لكثرتها هناك وتنوعها، والمساهمة في الاتِّجار فيها.

198) المصدر السالف الذكر، ج 1، ص 772.
199) المصدر السالف الذكر، ج 2، ص 880.
200) المصدر السالف الذكر، ج 2، ص 786.
201) المصدر السالف الذكر، ج 2، ص 812.

المشاكل التي كانت بين السلطان سيدي محمد بن عبد الله وحكومة مالطة وما ترتب عنها

هذا، وقد كانت بين السلطان سيدي محمد بن عبد الله وحكومة مالطة مشاكل وخلافات سياسية، ترجع في أصولها وأوليتها للقرصنة ونظام الأساطيل، وما ينبغي أن يكون عليه عملها مع الدول المصالحة والمهادنة للدولة المغربية، ومن ذلك مسألة الفركاطة المغربية التي كان وجّهها من السويرة إلي قادس بإصبانيا، ومعها نحو الستين ألف بْيَاسْطِرْ، خصّص عشرة آلاف منها، لشراء أمور خاصّة عيَّنها، والباقي يُحوَّل ذهباً.

وكان الرئيس علي بيريس في هذه الفركاطة، وبعد رجوعه، سلَّم للسلطان رسالة من المدير العام المسؤول عن بوليس قادس، يُعلمه فيها بوصول فركاطة مالطية لِمرسى قادس، مُسلَّحة بستة وثلاثين مدفعاً.

وقد كان وصول هذه الفركاطة باعثاً للرئيس علي بيريس على الانسحاب إلي تطوان في دارعة[202] إصبانية ومَعَهُ الذهب الخاصّ بالسلطان، وغيره من الأمور الأخرى، لأنَّه تحقَّق عند المدير أنَّ المالطيين، يريدون شرّاً بالفركاطة المغربية، والتعرُّض لها ليأخذوا الثار منها لأنفسهم، ويزعمون أنهم كانت حصلت لهم إهانة بالمغرب.

وبذلك نجا علي بيريس، وما معه من الذهب وغيره، ممَّا كان يُبَيِّتُهُ له المالطيون.

وقد كانت رسالة المدير العام لبوليس قادس التي وجَّهها للسلطان، مكافأة له على إحسان كان قدَّمه إليه قبل هذا التاريخ، لمَّا كان بالمغرب منذ نحو ثلاثة أعوام.

وترتَّب عن هذه القضية التي شغلت بال السلطان مُدَّةً أنْ وجَّه سفارة مغربية خاصَّة إلى قادس للبحث فيها، والمذاكرة مع قناصل وتُجَّار الدول هناك، كهولاندا، والسويد، والدانمارك، ووجَّه لهم قدراً مُهمّاً من المال، بقصد شراء ما استطاعوا شراءه من القمح، وتوجيهه للمغرب، لاحتياجه إليه في ذلك العهد لقلته وغلائه، بسبب قِلَّة المطر في ذلك العام، واحتياج الناس إليه.

وقد بسط الكلام شينيي (Chénier) عن هذه القضية في رسالته المؤرخة في الحادي والثلاثين من غشت سنة ثمانين وسبعمائة وألف (31 غشت 1/1780 رمضان 1194)[203].

انتهى باختصار واقتصار علي ما يتعين تحريره هنا وتسطيره.

202) الدارعة : سفينة حربية مدرَّعة بالفولاذ.

203) نفس المصدر والجزء، ص 846.

سفارة الرئيس علي بيريس الثانية
إلى فرنسا وما ترتب عنها

ومن أسفار الرئيس علي بيريس إلى أوربا ما ذكره القنصل شينيي (Chénier) أيضاً في رسالته التي خاطب بها رئيس حكومته بفرنسا، المؤرخة في تاسع وعشري نونبر سنة ثمانين وسبعمائة وألف (29 نونبر 12/1780 حجة 1195)(204) أنه صَدَر له الأمر السلطاني المحمدي، لأنَّهُ كان من خاصَّة رؤساء بحريته المجربين المدرَّبين، بالتوجُّه إلى العرائش، ويصحب معه مائة من البحرية المختارين، ويهيئ ويسلِّح بها فركاطته ليسافر فيها مع من معه من البحرية إلى بريسط (Brest) بفرنسا.

ومع أنَّ هذه السفارة كانت إلى فرنسا، وصدر له بها كتاب سلطاني، فإنَّ بعض الناس كانوا لازالوا شاكِّين فيها.

وقد توصَّل البحّارة والنوتية بنحو ستة آلاف ليبرة من أجرتهم، وسافروا صحبة الرئيس المذكور إلى العرائش.

ولكن رَغْماً عمَّا كان يُظهره هذا الرئيس من السرعة والاجتهاد في تهيئ الفركاطة عملاً بالأمر الصادر إليه، فالغالب على الظنِّ أنها لا تكون جاهزة قبل آخر شهر يناير فاتح السنة الآتية.

ثم قال : «وسوف أعمل جهدي واستطاعتي في استطلاع الأسباب الموجبة لهذه السفرة أو السفارة، وأعلمكم بحقيقتها، وإذا لم أُعلم بذلك رسمياً فأكون مُضطراً إلى كتمانه وعدم إظهاره وإشهاره، والحوادث والأيام تظهره، وإذا علمت به في إبّانه، فسأتَّخذ الأسباب الممكنة لإبطال هذه الوجهة الصعبة المتكلفة، أو تحويلها، لأني أحسُّ من نفسي نفوراً منها، وأعتبر أنَّها لا تكون مقبولة مستحسنة إلاَّ بعد ردِّ الفرنسيين الذين كانوا بالعرائش والرباط، وحُوِّلوا إلى فضالة رغماً عنهم، إلى مراكزهم، ويُعطى لهم حقُّ التصرُّف بحرِّية مطلقة في جميع شؤونهم وحركاتهم.

وعسى أن يوافق جنابكم على هذه الفكرة التي ظهرت لي والرأي الذي رأيته، ولا يمكنني في هذه الحالة أن أذكر شيئا آخر أكثر ممَّا ذكرته لكم.»

والسبب الداعي لهذا كلِّه هو أنَّ السلطان سيدي محمد بن عبد الله لمّا أظهر اعتناءه بعمران فضالة واتخاذ مرساها من جملة المراسي المهمَّة بالمغرب، أصدر أوامره لعمّال

204) «الرسائل»، ج 2، ص 878.

الرباط والعرائش بترغيب التُّجّار في عمارتها وترويج تجارتهم بها، كما حصل بالسويرة لمّا أخذها، وألزم الفرنسيين الذين كانوا بالعرائش والرباط بالانتقال إليها بأموالهم وأمتعتهم، ومنعهم من بيع أو شراء أي شيء منها بغيرها، وبنى لهم ولغيرهم من التُّجّار أهْرَاء ومخازنَ ومتاجر لعرض تجارتهم بها. فمنهم من استسلم لذلك والتزمه، ومنهم من عظم عليه الانتقال، ولكنَّه كان مجبوراً على تنفيذه، لأمر السلطان به، وهو ما تقدَّمت الإشارة إليه في الرسالة السابقة.

وصرّح في رسالته المؤرخة في خامس عشر دجنبر سنة ثمانين وسبعمائة وألف (15 دجنبر 18/1780 حجة 1195)[205] بأن الرئيس علي بيريس، لازال مشتغلاً باهتمام كبير في تهييء فركاطته، ولم يتحقَّق أحد إلى الآن الناحية التي سيتوجَّه إليها بالضبط.

وأخبر أيضاً بوصول القمح من ليشبونة (Lisbonne)، وقادس من إسبانيا، وأنَّ قُطّاع الطريق تعرّضوا له ونهبوه للمجاعة التي كانت شائعة بالمغرب في تلك الأيام، لقلة المطر في تلك السنة كما تقدم، حتى هلك جماعة من سكان البوادي جوعاً.

وأردف هذه الرسالة برسالة أخرى، مؤرخة بخامس عشر يناير سنة إحدى وثمانين سبعمائة وألف (15 يناير 19/1781 محرم 1195)[206]، مُضمَّنها أنَّ الفركاطة التي كان صدر الأمر السلطاني للرئيس علي بيريس بتهييئها وتسليحها، ولم يتحقَّق أحد أين ستكون وجهتها، وزعم بعضهم أنها ستتوجه إلى برسيط (Brest) بفرنسا، وقد تَمَّ تهييئها وتسليحها، وساعد على ذلك وجود السلطان بناحية العرائش قريباً منها، وكان لوجوده وقربه أثر في التعجيل بإنجاز عملها.

وقد سلم للرئيس المذكور الأوامر المتعلِّقة بوجهته سرِّياً، بحيث لم يطلِّع أحد عليها، ولاشك أنها مشتملة على تعيين الناحية التي سيتوجَّه إليها. وإنما يوخد من التصريح الذي كان صرَّح به في حقِّ بعض الصقِّليين، أنَّه سلِّطَ على سفنهم، وسيتتبَّعُها ويَقْتَفي أثرها حيثما كانت في البحر.

وزاد أنَّه بلغه من العرائش أنه سيذهب إلى مالقة، ومنها ستوجَّه إلى مرسيليا بفرنسا، من غير بيان لموجب تَوَجُّهه إليها، لعدم معرفة سرِّ ذلك وكنهه، ومع ذلك ظهر له أن يُعلم به رئيس حكومته ليكون على بال ممَّا عسى أن يحدث، أو يترتَّب عنه، وإن كان الأمر لازال في طور الظنِّ والتخمين، ويتخذ الاحتياطات اللازمة في مثل هذه الحالة.

205) «الرسائل»، ج 2، ص 882.

206) نفس المصدر والجزء، ص 892.

ويقال إنَّ السلطان سيوجِّه مع هذا الرئيس شخصية مهمَّة إلى فرنسا.

وحتى إن كان تمَّ شيء فإنَّه لم يُطْلع عليه أحداً.

وقد أزعجه هذا الكتمان، بصفته قنصلاً لفرنسا بهذه البلاد، وشغل باله، إذْ رُبَّما يكون ضدَّه، ولذلك طلب البيان من بعض رجال بلاط الملك وحاشته، واستجلب كرمهم واعتناءهم، لا سيما وهو يعلم من تصرفات السلطان وما صدر منه في حقِّ الفرنسيين الذي شرَّدهم من مراكزهم ومنازلهم بالعرائش والرباط إلى فضالة رغماً عنهم، ما يوخذ منه ظاهراً ما هو مقدار اعتباره لفرنسا والفرنسيين، وأنَّه إنَّما أراد أن تكون لهم تجارة رابحة، وأعمال ناجحة، وهل ذلك مطابق للواقع ؟ بل هو سرٌ غامض.

ولأجل هذا عرض على حكومته ما تعرَّض له الفرنسيون بالمغرب من الحيف والاستبداد، وعليه فتمثيله هنا للفرنسيين لا فائدة فيه.

ولأنهم طُردوا من منازلهم كما يُطْرَدُ اللصوص، وسُلبوا من أمتعتهم، ولم تبق لهم حرمة ولا حرية في الرجوع إليها، وعُوِّضوا عنها بناحية خاوية على عروشها، لا يجدون فيها حتى الضروريات الأولية اللازمة المتعيِّنة للعيش والاستقرار. وفي هذه الحالة يمكنهم طلب تعويضات من المخزن عمّا ضاع لهم من مال ومتاع، ولكن المذاكرة في ذلك لا تفيد شيئاً الآن.

وهذا مُجَرَّدُ عرض أفكار لا غير، ينبني عليها أنَّه ينبغي أن لا يُقبل سفير ولا رسول بفرنسا إلاَّ إذا استرجع الفرنسيون ما فقدوه، ورجعوا إلى دورهم ومنازلهم بالرباط والعرائش، واسترجعوا حريتهم، كما كانوا فيما سلف، طبق منطوق معاهدة سنة سبع وستين وسبعمائة وألف (1767/1180-1181)، وتكون لهم حرية التنقُّل في أطراف البلاد ومباشرة مصالحهم وشؤونهم الخاصَّة، كغيرهم من رعايا دول أخرى.

ومع هذا، فالمرجو منكم بعد عرض هذه الآراء أن تكتموها عن الرئيس علي بيريس إذا وصل إليكم، وتنفِّذوا له، بعد الحِجْر الصحّي، ما تيسَّر من المشروبات والمبردات، على العادة في ذلك، لفركاطته، وتزوِّدوه بما يتعيَّن من المؤون عند عودته.

وإنْ كان حاملاً رسالته من سلطانه، لا من غيره، فلا بأس أن تقدِّموا له هدية مشتملة على أربعة أذرع من الملف الأحمر، وأربعة أذرع أخرى من الملف الأزرق، وخمسين قالباً من السكر، أو أكثر من ذلك، وأن تعيِّنوا له محلاً يَنْزِلُ فيه بالبرِّ، مدة إقامته عِنْدَكُم، وهذه أمور بسيطة، يستمتع بها هناك، ولا قيمة لها هنا.

ثم قال : وإنما هذه مجرّد أفكار عرضتها، إذا كانت وجهة الرئيس ببريس مقبولة لازمة متعيِّنة.

ثم وعد الحكومة بأنه سيعلمها بكل ما يتجدَّد في هذه المسألة، وخصوصاً فيما يرجع لوجهة الرئيس بيريس، هل هي رسمية أم لا.

وبعد هذه الرسالة[207] تألم واشتكى، ورفع عقيرته وبكى، وأعلن أن جلالة السلطان عازم على حجز سلع الفرنسيين الذين يتّجرون بالرباط والعرائش، إنْ لم يمتثلوا الأوامر الصادرة إليهم بانتقالهم إلى فضالة.

وكتب إلى أحد الفرنسيين الذي كان موظفاً كاتباً وترجماناً بالديوان السلطاني كتاباً مضمنه :

ينبغي لَهُ أنْ لا يستهين بفِكْرَةِ الملوك العادلين في رعاياهم، وأنه لا يوجد ملك عادل يتعمّد بيد مطلقة الاستيلاء على متاعِ أحد كيفما كان، إلاَّ إذا آل إليه بالشراء، مثلاً، أو بوجه من الوجوه الموجبة لذلك، بدون غش ولا حيلة، وإذا اشترى شيئاً أدّى ثمنه والحقوق المفروضة عليه، وهذه هي الخصال والأوصاف التي يتميّز بها الملك الذي هو مستخدم معه، حسبما هو معلوم من أخلاقه وعدله وتَصَرُّفِهِ وهل يمكن أن يوصف بغيرها ؟

وزاد أنَّه لَهُ الثقة التامّة في هذا الترجمان، وكيفية عرض هذه المسألة، وما ذكر فيها أو احْتَفَّ بها على السلطان مهما وجد لها سبيلا أو فرصة مناسبة، مع بيان ملاحظاته وتفسيرها. وله الرجاء التامّ في إصلاح الحالة عاجلاً حتى لا تضيع أموال هؤلاء الفرنسيين العاملين بالمملكة المغربية.

ويوخذ من هذا، أنه كان يلعب على الحبلين، ويتظاهر في شكلين، ويتّقي بأس السلطان، ويتخذ الأسباب الموصلة لرضاه عنه، ظاهراً، لينال منه ما يريده في ترويج آرائه وأفكاره وسياسته.

والذي عند المؤرخين المغاربة، هو أنَّ جلالة السلطان سيدي محمد بن عبد الله، كان أظهر اعتناء كبيراً بفضالة ومرساها، لموقعها الجغرافي الممتاز بين الدار البيضاء والرباط وقبائل الشاوية، كما فعل بالسويرة لمَّا أحدثها، ونقل التُّجّار الأجانب إليها، وأسقط عنهم الضرائب والمغارم، فعمَّروها، وانسالوا إليها من كل صوب وحدب، ولازالت عامرة إلى الآن.

207) ص 890 من ج 2، لـ «رسائل القنصل لوي شينيي».

وكذلك فضالة، وهي اليوم من أهم مراسي المغرب ومراكزه الممتازة، التي يقصدها السياح من كل ناحية، وهو رحمه الله أدرى بمصلحة بلاده، وما ينبغي أن يُقرِّر فيها لتزدهر ويزداد عمرانها. وكان يريد أن يتخذ من السويرة وفضالة مركزاً حربياً بحرياً لأسطوله وقرصنته، كالعرائش وسلا والرباط، ولم يُظهر أحد من قناصل الدول الأخرى، ما أظهره هذا القنصل من التشكّي، وعدم الرضى بما قرّره السلطان في بلاده التي هو أدرى بها وبمصالحها، ومتحمِّل لنتائجها.

وهل أحد من الدول ينازع فرنسا مثلاً أو غيرها من الدول الأخرى في إحداث ما تراه واجباً من الإصلاحات ببلادها ؟ حسبما هو معلوم من كل منطوق ومفهوم، قبله من قبله أو لم يقبله، والله الموفق والهادي لأقْوِمَ طريق.

ثم ذكر هذا القنصل الرئيس علي بيريس في رسالة أخرى مؤرخة بخامس عشر يناير سنة إحدى وثمانين وسبعمائة وألف (15 يناير 19/1781 محرم 1195)[208].

وهي غير الرسالة المتقدمة بهذا التاريخ أيضاً، بأنّه تحقّق عنده أنّه يوجد بطنجة، وأُمر بالمجيء إلى الرباط، لياتي بالهدايا الواردة منذ شهر نونبر الفارط من إصبانيا والبرتقال، والناس يستعظمون هدية البرتقال ويمدحونها.

وإذا صحّ مجيء هذا الرئيس إلى الرباط كما قيل، فإنّه يُتعرّف منه حقيقة ما يقصده السلطان من وجهته، والناحية التي سيتوجه إليها، ويعلم بها حكومته.

وممّا ذكره من أخبار تهيئ سفر هذا الرئيس، ما جاء في رسالته المؤرخة في تاسع فبراير سنة إحدى وثمانين وسبعمائة وألف (9 فبراير 14/1781 صفر 1195)[209] «وهو أنه توجّه إلى طنجة لمّا توجّه السلطان إليها، وصدرت له أوامره بأن يحمل منها سائر ما هناك من المؤون التي كان وجّهها ملك إسبانيا للسلطان. والفركاطة راسية بشاطئها الآن منذ عدة أيام، وحمل فيها كل ما وجده مُهيّئا مُيسَّراً.

والروايات مختلفة في تعيين وجهته حتى الآن، ولا يصحّ إلاّ ما سيقرّره ويأمر به جلالة السلطان. ومن جملة ما قيل : إنه سيذهب أولاً إلى الجزائر في شأن مواصلة سرّية خاصّة، ومنها سيتوجه إلى طولون (Toulon) بفرنسا، ولا يعلم أحد الآن موجب هذه السفارة.

والذي يظهر هو أنّ موجبها يتعلّق بإظهار عظمة وفخامة البلاط الملكي المغربي.

208) «الرسائل»، ج 2، ص 895.

209) المصدر السالف الذكر، ج 2، ص 896.

ولا يخفاكم ما يترتَّب على ذلك في هذا الوقت، وفي هذه الأحوال التي يتعيَّن اغتنامها في إبَّانها، قبل فَواتِها.

ومن رأيه هو أنَّ هذا هو الوقت الذي ينبغي أن يُعْلَنَ فيه ما يلاقيه الفرنسيون بالمغرب من الإهانة وعدم الاعتبار.

وعليه، فينبغي لرئيس الحكومة أن يتأمَّل فيه، لعلَّه يدرك أنَّه مناسب، ولاَ تفوته هذه المناسبة.

توجُّه الرئيس علي بيريس إلى فرنسا

تقدَّم في الرسائل السابقة ما صدر من الأوامر السلطانية للرئيس علي بيريس، بالتهيء للسفر في وجهة تضاربت الأقوال، واختلفت الروايات في تعيينها، والمقصود منها، حسبما قَصَّه وأخبر بِهِ القنصل شينيي (Chénier) في رسائله المذكورة.

ثم أخبر في رسالته المؤرخة بثالث مارس سنة إحدى وثمانين وسبعمائة وألف (3 مارس 18/1781 ربيع الأول 1195)[210] :

بأنَّ سلطان المغرب أعلن أنَّه في حالة صلح مع سائر الدول، وأنَّه عازم على توجيه سفير من طرفه إلى مالطة، ليوزِّع على الأسرى المسلمين الذين هناك ما أنعم به عليهم من الصدقة والعطاء، وأن يتذاكر مع أولي الأمر بها في شأن السفينة المالطية التي حُجِزت في السنة الماضيةِ، وبعد حلفهم بمحضر السفير على أنَّها حقيقة مالطية، يردُّها السلطان لِمَنْ يُثْبت أنَّها له. ويعوِّضه ثمن ما ضاع من السلع والحوائج التي كانت فيها، حسبما أخبر بهذا كله الترجمان الفرنسي الذي كان موظفاً مُلحقاً بالبلاط الملكي المغربي، وأنَّ السلطان أثبت ذلك بظهير شريف، اطَّلَعَ عليه قناصل الدول وردّوه له.

ثم قال : وما وقع إعلانه من أنَّ المغرب في حالة صلح مع سائر الدُّوَل، وكذلك مسألة توجيه السفير إلى مالطة، إنَّما هو مجرَّد نصب فخ لهذه الدول، حسبا فهمه واستقرَّ في ذهنه، ليمكن للفركاطة المخزنية أن تسافر في أمن وأمان، وأنَّها ستتوجَّه أوَّلاً إلى طرابلس، ثم إلى نابولي، لاستغلال كرم وسخاء كبراء الأمراء، لعلَّه ينتزع منه بعض الأسرى المسلمين الذين تحت نظرهم، ورجال الدّين يؤدّون ما وجب عليهم، ويشكّ أيضاً في تجنُّب تدخُّل إصبانيا في

207) المصدر السالف الذكر، ج 2، ص 901.

أداء الواجبات. وهو لم يدفع شيئاً منها، وإنَّما وَعَدَ بأداء فدء الأسرى إذا سلِّموا له. وحينئذٍ يدفع الثمن ولا يزيد عليه.

وربَّما ينشأ عن هذه القضية دهش أو حيْرة بإدارة الحكم المالطية، وهذا العرض إنَّما هو تنبيه، وإنْ كان خارجاً عن دَائِرَةِ الموضوع.

وعرض أيضاً على حكومته أن تتدخَّل في هذه القضية لدى وزير ملك مالطة، وتنصحه بسلوك طريق المجاملة والأدب مع سفير المغرب، ولا تعتمد في المخابرة معه على نتيجة صحيحة يكون لها مفعولها.

ثم قال : «فالغالب على الظَّنِّ أنَّ هذا السفير سيمرُّ بمرسيليا، وقنصل السويد أو الدانمارك هناك مُكلَّف بإبلاغه إلى محلِّ سفارته.

وعليه فينبغي عدم تنبيه هذا القنصل على هذه السفارة، وتجاهل السفير بمرسيليا، لأنه ليس في المرتبة التي تستلزم الاهتمام به». ؟!

قلتُ : لقد نسي شينيي (Chénier) ما كان يدعو إليه من قبل من سلوك المجاملة والأدب مع سفير المغرب، ولكنَّه تَميمياً مرَّة وقَيْسياً أخرى.

ثم قال : «وسيمرُّ بمرسيليا أيضاً بعض التُّجّار المغاربة الذين وجَّههم السلطان لشراء بعض الأمور التي كلَّفهم بشرائها. وطلبوا منه رسالة توْصِية وتعريف بهم. ولكن حالة تُجّار فرنسا بالمغرب الآن تستدعي ملاحظتهم، وتوجب عدم اعتبار هؤلاء التُّجّار بمرسيليا، وأنْ لا يُقام لهم وزن، ولا يُحسب لهم حساب، ويُقتصر على عبَارات المجاملة التي تقتضيها السياسة، وعدم تمييزهم عن غيرهم من التُّجّار الأجانب».

أعْلَمَ حكومته بهذا، لتصدر أوامرها لرؤساء الغُرَفِ التجارية ليكونوا على بال منه، ويعملوا بمقتضاه(211).

وبعد هذا أشعر حكومته بأن الرئيس علي بيريس سيمرُّ بمرسيليا، حسب الاعتبارات المُفصَّلة التي تقدَّمت. والذي يظهر له هو تطبيق ما تقدَّم له ذكره في رسالته المؤرخة بخامس عشر يناير عدد 404 فيما يتعلَّق بوصول فركاطة هذا الرئيس.

والناس يُحقِّقون أنه سيحمل معه رسالة من ملكه إلى ملك فرنسا.

211) يراجع مجلة هيسپيريس تامودا (Hespéris Tamuda)، العدد 3 من سنة 1963، ص 301 وص 346.

وحيث أنَّ هذا الرئيس، أو الرسول، والرسالة لم يصدر بهما إعلام رسمي، فينبغي أن يسلِّم الرسالة السلطانية بمرسيليا لِمَنْ يتولّى أمرها. ولا يُهتمَّ بقدومه، ولا يُعتني بسفره إلى ڤرساي (Versailles) وإن أراده، فيكون على نفقته.

ثم قال : «إنه ما أشار بهذا، إلاّ لإخلاصه في الخدمة ونصحه فيها، ولتحصل المقابلة بين ما هو واقع الآن، وبين ما تقدَّم.»

قلت : أشار بذلك إلى رسالة كان كتبها السلطان إلى لويز الخامس عشر، ويزعم أنه كان إنشاؤها بعبارة لا تصلح لمخاطلة الملوك، وأطلق الحرية لقلمه في هذا الموضوع... بما يكنه ضميره للمغرب، وحكومته، وهي شنشنة معروفة من أخزم، وعادة وطبيعة مألوفة منه كُلَّما كتب بالقلم أو تكلَّم.

وكتب رسالة أخرى بتاريخ ثالث مارس أيضاً سنة إحدى وثمانين وسبعمائة وألف (3 مارس 18/1781 ربيع الأول 1196)(212) كالرسالة السابقة.

وجاء فيها أنه أقدم على تقديمها لرئيسه لأنَّ الوقت قد حان ليبيِّن له ما يعامله به ملك المغرب من عدم الاعتبار لسيرته وخدمته ووظيفته التي هو مُطوق بها، والأسباب التي يتخذها ليحمل البلاط الملكي الفرنسي على عدم الثقة به بواسطته أو بواسطة بعثات تؤيد ما يحاوله ويقصده من غير إظهار لشخصيته.

وذكر أنه ألحَّ غاية الإلحاح في طلب الإذن له في زيارته فلم يحصل عليها، وأخيراً أجيب بأنه إن أراد زيارته فليقصده بمراكش، وستكون هذه الزيارة طبعاً في الوقت الذي يختاره ويعينه رئيسه له ويأمره بها.

ثم ذكر أنه لمَّا كان السلطان مُقيماً بالرباط إجتمع بعدة شخصيات من حاشيته والأعيان المقربين منه الذين له الثقة الكاملة بهم، وأنهم كانوا ينتابونه من طرفه لإصلاح الحالة واطمئنان البال لا غير، وكان يظهر لهم غاية الاحترام لجلالته، وقصده بذلك أن يحصل على ثقته به، ولكنه يأسف جدّاً على أنه لم يحصل عليها في يوم من الأيام.

وكان يزن أعماله ويُطبِّقها على حسب ما يلاحظه الفرنسيون في معاملتهم وضياع حقوقهم، وعدم تطبيق نصوص المعاهدات الفرنسية المغربية عليهم، وعلى المكلف بشؤونهم والسهر عليها، مع أنَّ قوة رئيسهم توجب احترامهم.

212) المصدر السالف الذكر، ج 2، ص 903 وما بعدها.

وذكر أنه تخابر بكل صراحة في هذا الموضوع مع الكاتب السيد محمد بن عثمان، الذي كان سفيراً بمدريد أثناء مذاكرة له معه، بأمر من سلطانه، في مسألة مخزنية، ولذكائه ومعرفته لأوربّا، تصوَّر الواقع كما هو، وما يتعيَّن فيه من سلوك طريق العدل والإنصاف، وعدم حمله على غير حقيقته ومطابقته لرعاية حقوق الدول الأجنبية، وهؤلاء الموظفون، كما لا يخفى، معرَّضون، كغيرهم من الأجانب، لأخطار أمرائهم، ولذلك لا يكلمونهم إلاَّ بما يوافق أهْواءَهُمْ.

ثم ذكر أنَّهُ اجْتَمع في منتصف الشهر الفارط، بالأمير الشريف مولاي علي، الولد الأكبر للسلطان، وانجرَّت المذاكرة معه إلي ما حلَّ بالفرنسيين من سوء المعاملة، وقلَّة المجاملة، وأنَّهم طُردوا من دورهم بالعرائش وبالرباط، ومُنعوا من تجارتهم بهما، وأُرغموا على التخلِّي عن أمتعتهم، وهذا شيء أثَّر جداً في نفوسهم، وفي بلاط الملك الفرنسي، تأثيراً كبيراً، ولكنَّ هذا الأخير محتاط جداً في كلامه وأعماله، وإنَّما احترمه لما هو مجبول عليه في أخلاقه.

وقد راعى بعض المصالح في الظروف الحاضرة في مذاكرته معه، ووعده بإنْهائها لعلم جلالة والده، ولكنَّهُ يشكُّ في وفائه بوعده، وإنجازه لعهده، لما فيه من تعرُّضه للخطر.

وإنَّما أعلم رئيسه بذلك في هذه الرسالة بما خاطبه به ليكون منه على بال.

ولا يدري هل لنسيان الماضي، وعدم تحمُّل مسؤولية المخالفة للقانون الدولي، ولفرنسا الحق في المطالبة به، والتشكِّي من عدم تطبيقه، قصد ملك المغرب الكتابة لملك فرنسا، وخاطبه في رسالته بعبارة فيها لطف ومجاملة، تدُلُّ ظاهراً على اعتبار وموالات صادقة. والحال أن الفرنسيين مُنعوا هنا من سائر مصالحهم، ولم يتغيَّر شيء ممَّا كان أعلم به رئيسه من حالتهم السيِّئة، في رسالته السابقة.

لأجل هذا صدرت الأوامر السلطانية للرئيس علي بيريس بالتوجُّه في فركاطة مخزنية، حاملاً هذه الرسالة إلى مرسيليا، ومضمَّنها سرٌّ غامض من الأسرار، لم يطلع عليه هو، ولم يعلم حقيقته أحد، وغاية ما في عمله، هو أنّ ملك المغرب يريد المحافظة على الاتصال والمجاملة والألفة مع ملك فرنسا، ويلحُّ عليه في توجيه قنصل جديد لازال في عنفوان الشباب، يكون خاضعاً سامعاً مطيعاً طاعة عمياء لإرادته، يعني عبداً مملوكاً ينفِّذ ما يومر به بلا تردد ولا تعقُّب، ورغماً عمَّا اتخذه من الاحتياط لحفظ سر رسالته، فقد رشح بعضه وشاع وذاع، وتناقلته الأفواه، وتردَّد صداه في الأسماع.

ثم ذكر أنَّ السلطان لم يقتصر على هذه الرسالة التي خاطب بها ملك فرنسا، ووجَّهها له مع الرئيس علي بيريس كما ذكر، وأشفعها برسالة أخرى يستوصيه فيها خيراً بأحد التجَّار

الفرنسيين جوزيف إتيان ري (Joseph Etienne Rey) الذي أقام بالمغرب نحو خمسين سنة، وشرح كيفية توجيهها، وماتضمنته من التعريف بهذا التاجر.

وأخبر بعد ذلك، بأنَّ السلطان وجَّه صحبة فركاطة الرئيس علي بيريس تاجرين مغربيين إلى فرنسا، وكلَّفهما بشراء قدر مهمّ من الحرير الذي كان منع التجارة فيه، وقصرها على تُجَّار مغاربة مُعيَّنين، لأهميته عنده،وأنَّهما صَحِبَا معهما أربعين ألف ليڤرة (Livres)[213] من المال، وطلب منه أن يكتب لَهُمَا رسالة توصية بهما، وتسهيلاً لماموريتهما، وأنَّه كتب لَهُمَا إلى بعض أعيان البلد، والمندوبين في الغرف التجارية بمرسيليا.

ولكن هذين التاجرين لم يقتصرا على شراء الحرير، واشتريا أيضاً عند رجوعهما على طريق إصبانيا قدراً مهماً من الكبريت، ووسقوه في سفينة خاصَّة استأجراها لهذا الغرض...

ثم رجع إلى الحديث إلى سفر الرئيس علي بيريس في مهمته فقال :

«لقد وقع خلاف في كيفية تنفيذ هذا السفر، وخصوصاً فيما يرجع للفركاطة التي سيسافر فيها، وربَّما تكون أخرى، قبل نشرها لقلوعها وإبحارها.

وأخيراً تقرَّرَ أنَّ هذه البعثة ستتوجَّه من طنجة وسيتوجَّه المسافرون إليها.

وزيادة في الكتمان والتَّحَفُّظ، فإن الرسالة السلطانية لا تُسلَّمُ للرئيس علي بيريس إلاَّ هناك.

ولازالت هذه الفركاطة راسية بمرساها.

وفي ليلة سفرها سيُحمل إليها عربة جميلة، وثريا رفيعة، تذهب بهما إلى مرسيليا، بقصد توجيههما إلى مكة المكرَّمة، على طريق الإسكندرية، بواسطة أحد القنصليْن هناك الدانماركي أو السويدي، وسيُكلف هذا القنصل بتوجيه شخص آخر، هو السيد محمد بن عبد الهادي إلى مالطة.

وقيل إنَّ هذه الفركاطة، ستعرِّج في طريقها إلى مرسيليا على الجزائر، ومن مرسيليا ستتوجَّه إلى طرابلس بليبيا، ونابولي بإيطاليا، والراجح أنَّها ستتوجّه قاصدة مرسيليا، ومنها سترجع إلى المغرب، والذي يجيب عن هذا ويُبيِّنُ حقيقته، هو الرئيس علي بيريس.

---

213) اللِّيبْرة (La Livre) : عملة نقدية اختلفت قيمتها حسب الأزمنة والأمكنة... وهناك الليبرة الذهبية، والليبرة الفضية... وهي الوحدة النقدية لعدة دول، أشهرها الليبرة السطرلينية (La Livre Sterling) البريطانية.

وإنْ حدث شيء آخر ممَّا يعطل وجهته ورجوعه، حسبما تستدعيه الظروف والأحوال، فوجِّهوا لنا الإعلام به إلى قادس، مع الأمر بالتَّوَجُّه إليها لحيازته، أو توجيه من ينوب عنَّا في ذلك وها نحن في انتظاره.

وعلى كل حال، فبمقتضى سلوك ملك المغرب في هذه الأحوال، إنّ ما كان صرّح به في السنة الماضية، تحوَّل الآن إلى ما يخالفه، وعليه فإنّ التصرُّف لا يتأتَّى إلاَّ بتأنٍّ وتربُّص تبعاً للحوادث وتَقَلُّباتِها، وطلب الإذن له في التَّمسك بذلك ليتَّضح ما يكون عليه العمل، طبقاً لمَا سبق بيانه، ويرجو أن تصل هذه الرسالة إلى المرسلة إليه، قبل وصول علي بيريس إلى فرنسا ليعمل المتعيِّن فيما يتعلَّق بها».

ثم خاطب رئيس حكومته برسالة أخرى بتاريخ سابع عشر مارس سنة إحدى وثمانين وسبعمائة وألف (17 مارس 1781/21 ربيع الأول 1195)[214] حدّثه فيها عن سفر الرئيس علي بيريس بقوله :

«إنَّ الخلاف الذي كان شائعاً في تعيين وقت سفر الرئيس المذكور، هو الذي منعه من الإعلام به، ولم يتحقَّق عنده إلاَّ مساء ليلة سفره، وأنَّه توجَّه قاصداً مرسيليا، وقد وجّه رسالة الإعلام بإبحاره من طنجة بواسطة أحد أعْيَانِ مَدْرِيدْ، على طريق الجزيرة الخضراء، يوم السابع من الشهر المؤرخ به (13 ربيع الأول)، واكترى لحاملها زورقاً خاصّاً لمجاوزة المجاز، راجياً أنْ تصل إلى المرسلة إليه، قبل وصول الرئيس علي بيريس إلى مرسيليا، ليستعدَّ له ويتَّخذ الاحتياطات اللاّزمة».

ومُضَمَّنُ ما في الرسالة أنَّ الرئيس بارح الرباط في الخامس من الشهر الجاري (يعني 5 مارس، الموافق 9 ربيع الأول)، ووصل إلى طنجة، مساء اليوم التاسع (الموافق 13 ربيع الأول) واستقبل بها جماعة من المسافرين معه في وجهات مختلفة، وحاز العربة المتقدمة الذكر التي وجَّهها ملك المغرب إلى مكة المكرمة على طريق الإسكندرية.

ويُحتمل أن مباشرة هذه الأمور ربَّما يترتَّبُ عنها بعض التأخير الذي سيُسْتدرك في السرعة في السير في البحر أثناء السفر.

والغالب على الظَّنِّ أنَّ السلطان يعتمد على سفر هذه الفركاطة لمَا له من الثقة برئيسها، ولذلك أمر الذين سيسافرون معه فيها أن يتوجَّهوا إلى طنجة عاجلاً، ولو على طريق البر.

ومن جملتهم التاجر جوزيف إتيان ريي (Joseph Etienne Rey) المتقدم الذكر، الذي أقام بالمغرب نحو الخمسين سنة، وَرَدَّهُ السلطان إلى بلاده، واستوصى به خيراً، لأنَّه كان مُسْرِفاً

214) نفس المصدر الجزء 2، ص 909.

مبدِّراً وحالته الآن تستدعي التعجيل بردِّه لاحتياجه، وأنه منذ مدة طويلة، وهو يعيش تحت نفقة هذا القنصل، وهو الذي كان متحملاً بسائر الصوائر الواجبة عليه، وتحمَّل أيضاً ما وجب عليه في سفره حتى يصل إلى بلاده.

وقد كان السلطان يعرفه، ويعرف حالته وما كان عليه، منذ كان ولي عهد والده، وبعد أن صار ملكاً بعده، وكذلك رجال حكومته، وكرمه وعطفه عليه هو الذي حمله على الكتابة لملك فرنسا في شأنه، منبّهاً عليه، ومستوصياً به خيراً ليغدق عليه من عطائه، ما يقوم بالنفقة عليه مدة حياته.

ولذلك فإنَّ القنصل سيقيِّد ماصيَّره عليه في سفره في حساب قنصليته العام الذي سيقدِّمه للدَّوْلَة لتؤديه له، لأنه تحمَّله نيابة عنها، ويرجو مساعدته على ذلك، لا سيما وقد خلَّف وَرَاءَهُ عدَّة ديون، وجاءه أربابها طالبين أداءها منه بإلحاح وإقامة دعاوى عليه (يعني على القنصل) وبعضهم تبعه إلى مرسيليا، لعلَّه يحصل على طائل، وغاية ما فعله هو، أنَّه أشعر رئيس الغرفة التجارية بمرسيليا بذلك، وحذَّرها منهم لتكون على بالٍ، وتراعي القانون في متابعة أرباب الديون الذين لازالوا هنا.

وبعد هذه الرسالة صدرت منه رسالة أخرى لرئيس حكومته أيضاً بتاريخ عشرين أبريل سنة إحدى وثمانين وسبعمائة وألف (20 أبريل 25/1781 ربيع الثاني 1195)[215].

جاء فيها : أنه بلغه أن الرئيس علي بيريس بارح طنجة في السابع والعشرين من شهر مارس الفارط (فاتح ربيع الثاني) قاصداً مرسيليا.

وبلغه أيضاً أنَّ ما كان في نية السلطان من العزم على أنَّ هذه الفركاطة ستمرُّ على طرابلس، ونابولي، كان المقصود منه السَّعْيُ في إصلاح الحالة بين الدولتين المذكورتين والمغرب، لأنها كانت مضطربة جداً بينهم.

وزاد أنَّه بلغه ذلك عن طريق البلاط الملكي، لتغار منهما إصبانيا، وتحسدهما حكومة الجزائر، وفي ذلك مصلحة للمغرب.

ولمَّا كان الشَّكُّ في نجاح هذه المخابرة أو المغامرة، والسعي فيه غير مُحقَّق لحصول النتيجة المرغوب فيها، حوَّل وجهة نظره عنها بلا شك ولا ريب. وبعد سفر الرئيس علي بيريس ومبارحته لطنجة، وجَّه رسالة أخرى لرئيسه بباريس أيضاً بتاريخ ثلاثين يونيو سنة

---

215) نفس المصدر والجزء، ص 932.

إحدى وثمانين وسبعمائة وألف (30 يونيه 8/1781 رجب 1195)[216] وخصّصها للكلام على سفارة هذا الرئيس، وأبدى آراءه فيه وفيها بكل صراحة.

وحاصل ما ذَكَرَهُ ببعض التصرف والإعراض عمّا تعرض لَهُ، وكان لا ينبغي أن يُعرض، مع مراعاة المقول والمنقول ومطابقته للمعقول، تطبيقاً موافقاً للواقع الذي كان العمل عليه في ذلك العهد، تبعاً لما عند من كان يبحث في هذا الموضوع قبلنا، لاسيما وربُّ الدّار أدرى بما فيها، قال ما معناه :

إن الأوامر التي يمكن صدورها من الحكومة الفرنسية لاستقبال هذا الرئيس ينبغي أن تُقلل من أهمية سفارته، وعدم الإفراط فيما يدُلُّ على اعتبارها واعتبار ما جاء لأجله، لأنه في غير محلّه، وهذا أحسن شيء يُستحسن تطبيقه عليها في الحالة الراهنة المحتفّة بها وبموجباتها، لا سيما في حق سفير لا تتعلق سفارته إلاّ بشكايات، مترتّبة على بعض الانفعالات، وهي التي حملت الديوان الملكي على ذلك، ولا شكّ أنّه لَمْ يكن ثمّ موجب لها فيما سبق، وإنّما حُمل السلطان على غير مراده. لأجل ذلك يتعيّن مراعاته وملاحظته في معاملته وإظهار ولائه بواسطة رئيسه علي بيريس، بإصلاح فرگاطته التي جاء فيها، وتموينها بما تحتاج إليه عند أوبتها لا غير.

ثم صرّح بأنّه يظن أنّ بَعْثَة كهذه لم تُهيء ولم تُعلم بها الحكومة الفرنسية قبل تنفيذها، لا تكون لها أهمية كبرى، وغاية ما في الأمر هو أنّ السلطان تشوّف إلى ما ينتج عنها، بدون تدبُّر، وذلك هو الحامل عليها، ولم يخطر بباله أنّ ملك فرنسا سيرفضها لمَا احتفّ بها من السوابق التي له الحق في المطالبة بها، ولا سيما بعد البيان والإيضاح الذي تقدم فيما سبق، كما هو في عمله.

وأشار بذلك كما في التعليق على هذه القضية إلى المعاهدة التي كانت عُقدت بين الدولتين : المغربية والفرنسية، سنة ثمان وسبعين وسبعمائة وألف (1192/1778) على يد السفير الطاهر فنّيش في كيفية الخطاب بين الملكين، وأنّ السلطان عبّر في رسالته هذه التي حملها الرئيس علي بيريس في خطابه لملك فرنسا بقوله : «كبير الفرنسويين» ولم يصفه بالملك، وهذا يدلُّ دلالة واضحة على تمسُّكه بآرائه وما يقرّره في هذا وغيره، ولا يردُّه عنها رادٌّ.

إذا همَّ ألْقَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ هَمَّهُ   ونَكَّبَ عَنْ ذِكْرِ العَوَاقِبِ جَانِبَا

---

216) نفس المصدر والجزء، ص 940.

وعليه فإذا نشأ عن هذا شيء غير مناسب، أو مناقض لما تَقَدَّم، أوْ دلَّت عليه قرائن الأحوال، فإنَّ الملاحظات التي ستُقدَّم للسُّلطان بواسطة أحد الباشاوات، رُبَّمَا يكون لها مفعول حسن في هذه الظروف الصعبة. وقد استشعر ذلك منها، والرجاء الحصول على ما يؤدي إلى تعبير أحسن، وتلك النتيجة المقصودة بالذات، وهي أساس العدل والإنصاف. ولكن تَقلُّب الأحوال المَجْبُولة عليها آراء الملوك، ربَّما لا تساعد على هذه الأفكار، ولا تكون أساساً صحيحاً يُشيَّدُ عليه هيكل هذا التحليل.

وعلى كل حال، فإنَّ الجواب الصريح، أيها الرئيس، سيفصح عن حالة طبع المخاطب، وتمسُّكه بآرائه، وربَّمَا يكتمه ولا يطلع عليه أحد، ومع ذلك فالرجاء أن يؤدي إلى تفسير أشياء كانت غامضة، وكَيفَما كانت النتيجة فإنَّها تدُلُّ على تمسكه بآرائه، وينبغي أن تكون على بال من منطوقه ومفهومه وعزيمته الفعَّالة التي لا يردُّه عنها رادّ، ونحسب لها حسابها.

وزاد أنَّه أعرف الناس به، وقد خبره واختبره في عدَّة قضايا، فوجده لا يُظْهر لأحد ما يُكِنَّه في داخليته، وهو لا يسلك معه إلاَّ طريق الشكِّ فيمَا يطَّلع عليه من الأقوال والأفعال، وفي بعض الأحيان يكمل النقص ويسد الخلل، حتى لا يظهر اضطراب أو قلق في سيرته، فليعلم الرئيس ذلك وليُتْقِنه، وهمَّته مصروفة في مهمَّته، مقصورة على مراعاة الأحوال والمُدارات الواجبة في الحالة الراهنة، ليطيب خاطره، ويستوصي به خيراً في أوامره.

وباشا دكالة الذي ستصله الرسالة الموجَّهة إليه، هو أيضاً محتاط لنفسه غاية الاحتياط، ومحترس أتمّ الاحتراس، ولكن لا ينبغي الاعتماد على نتيجة تحصل على يده، وإن كان ضابطاً حازماً. وهذه ضمانة على أنَّه سيعلم سيده برسالتكم، التي ستتضمّن ما يجب من التفسير الواضح لكل ما يرجع لمهمَّة الرئيس علي بيريس، وخصوصاً ما يتعلق منها برجوع الحجَّاج من الإسكندرية، وهو في نظره أمر مهم.

وحيث أنَّه لا يعرف بالتفصيل والتَّعيين ما ينتقد عليه، ويُشتكي به منه، فإنَّه لا يحبُّ أنْ يتعب رئيسه في الحالة الراهنة بإنصافه وتزكيته، وإذا كان يشكُّ في سيرته، فله الحق في إيضاح ما يَشُكُّ فيه بالوسائل التي يراها مناسبة وموافقة للدين والمذهب، لأنَّ احترام الحقيقة واجب، وكذلك نظام حُسْن السيرة مهمّ جِداً، ثم قال :

وبلغني أنَّ ملك المغرب كتب في شأني مُعلماً بأني تقدَّمت في السنِّ، وصرت شيخاً هرماً في هذه البلاد، وربَّما يكون هذا مطابقاً للحقيقة، ولكن لا ينبغي للأمير أنْ يعتبر التقدُّم في السنّ عيباً أو نقصاً يحُطُّ من قدر الموظَّف.

قلت : المقرَّر الآن والجائز بـه العمل في النظام الإداري هو أن الموظف كيفما كان إذا تقدم في السِّن يوقف عن مباشرة وظيفته، ويحال على المعاش، يعني يُنَفَّذُ له كل شيء يتعيَّش به ممَّا كا ن يُقتطع له من راتبه الشهري في عهد مباشرته لوظيفته. وعليه فما كتب به السلطان سيدي محمد بن عبد الله في حق هذا القنصل مطابق لما عليه العمل الآن في سائر الدول…

ثم قال القنصل مخاطباً رئيسه : وأُحسُّ أيضاً يا سيدي بكراهة منه لشخصي أتحملُها في الغالب وإن كنت لاَ أُطِيقُهَا، رعيًا لإصلاح الخاطر، وإنْ كان فِيها هضم لجانبي خاصَّة، ولحقوقنا عامَّة.

وأعلم أيضاً أنَّه شخصياً، ربَّما أنْصَفَنِي في بعض الأحوال، إذا اقتضى الحال ذلك، ومع هذا فإني أظُنُّ أن السفارة التي وجَّهها لا موجب لها، وأنَّ الشكاية المزعومة إنَّما المقصود منها تغطية ما عومل به التجّار الفرنسيون هنا، عسى أن يترتَّب على ذلك استبدال هذا القنصل بقنصل آخر، يعتبر ما صدر به الأمر وتمَّ تنفيذه من جملة تفضله وكرمه عليهم.

هذا وأرجوكم يا سعادة الرئيس أن تُعْلِمُونِي بمَا تقرَّر عندكم فيما يرجع للرُّخصة التي كنت طلبتها، وإذا لم يساعد الملك عليها، فسأستأنف بحزم وضبط ما أنا مُطوَّق به من الأشغال، سواء كانت فيها فائدة لي أم لا.

ولا يخفى عليكم أني كنت طلبت منكم بتاريخ العشرين من أبريل الماضي تعيين شخص آخر في محلي، ومن ذلك الوقت وأنا انتظر الجواب، متشوِّق للرجوع لبلادي، وليس هنا نفع يرغِّبني في البقاء في هذه الوظيفة التي أنا مطوق بها، وجنابكم يعلم أني ملزم بالملازمة لها ما دمت مُتَحَمِّلاً أعباءها تنفيذاً لأوامركم المطاعة.

وتصل سيادتكم صحبته رسالة خاصَّة استعرضت فيها الحالة الراهنة الراجعة لمصالحنا، وأفكاري المتعلقة بها، وأظنُّ أنَّ خلفي سيوافق عليها، جسبما سيأمره به جنابكم.

كما أرجو أنْ تحصل المساعدة من طرفكم فيما يرجع لولد الترجمان صومبيل (Soumbel) ويكون ذلك موافقاً لمقاصدكم، لحرصنا على بقاء هذا التُّرجُمَانِ هنا، لأنَّه خدمنا خدمة صادقة بودّ وإخلاص أثَّر عَلى إحساسنا، بما بدا منه من العطف والحنو على مصالحنا، وهو ما يتعيَّن عرضه عليكم لتكونوا منه على بال.

وقد أوصى وصاية خاصَّة بتسليم الظرف الذي معه إلى مجلس النواب، وأنا في شكٍّ من مثال ذلك، وهل سيُرفض لأجل بعض الأمور التي لا خبرة له بها، أو لم يزاولها فيما مضى.

ولا يخفى عليكم أن السيد ري (Rey) الذي يُعَدُّ ذا خبرة وتجربة، ارتكب ما يوجب رفضه، ومع ذلك روعي لأجل وصاية ملك المغرب به في الرسالة التي وجّهها لكم لكونه أقام بالمغرب ما يزيد على الخمسين سنة، وربُّما نسي لطول مقامه به عوائد الأوربيين وأفكارهم.

وممّا أعلمكم به أنّ الاستقبال الذي قابل به المرسيليون التجّار المغاربة الذين توجّهوا إلى مرسيليا، مع الرئيس علي بيريس، تردّد صداه هنا بالاستحسان والذكر الجميل، ولكن فيه دلالة على سوء العاقبة ووضع الثقة والأمانة في غير محلّها.

وقد كان جنابكم اعتبر العواقب التي حَذَّرْتُهُ منها فيما يرجع لفركّاطة الرئيس علي بيريس وتوجُّهها إلى فرنسا، وإنَّنا جميعاً مُعَرَّضُون لِلْخَطَرِ فِيما ينشأ عنها، وإنْ كُنا أجانب عنها، بالنسبة إليها. وهذه القضية مثلها ومرتبطة بها.

ثم تعرّض لمسألة التّجار الفرنسيين الملزَمين بالانتقال من العرائش والرباط إلى فضالة، مرة أخرى، على الصِّفَة المتقدِّمة في رسالته المُؤَرَّخَة بتاريخ الرسالة قبلها، وهو الثلاثون من شهر يونيه، سنة إحدى وثمانين وسبعمائة وألف (30 يونيه 1781/8 رجب 1195)[217].

وبعد عرضها وإبداء آرائه فيها مرة ثانية، قال : «إن رجوع الرئيس علي بيريس من مرسيليا، ربَّما يترتَّب عنه إعلان إيضاحات جديدة فيما يتعلّق بهذه القضية. ومع أنَّه يشُكُّ في ذلك، فالظاهر أنَّ الأمر يرجع إلى منفعة خدمة المصلحة العامّة».

ثم أخبر في رسالته المؤرخة بحادي عشر يوليوز سنة إحدى وثمانين وسبعمائة وألف (11 يوليوز 1781/19 رجب 1195)[218] بأنَّ دارعة فينيسية[219] جاءت من مرسيليا إلى الرباط، وأرست بمرساه في العشرين من مايه الفارط (26 جمادى الأولى) وجاءتْ معها برسائل من الرئيس علي بيريس إلى سيده السلطان، ولم يطلع أحد على ما تضمَّنته.

والذي عُرف بعد ذلك، هو أنَّ ملك المغرب لمَّا تكلّم على الفرنسيين في مجموع كلامه العام، إحتاط في كلامه أكثر ممَّا سبق.

ثم قال : وفي أثناء تحريره لهذا الخطاب، بلغه أنَّ الرئيس علي بيريس، وصل إلى مرسى هذا الثغر (يعني الرباط) وسيتحدَّث في فرصة أخرى عمّا أثَّر فيه الاقتبال الذي اقْتُبل به في مرسيليا.

ولمَّا ينزل إلى البرّ، ويجتمع به، سيطلب منه نسخة من رسالة الرئيس التي تكون معه.

---

217) المصدر السالف الذكر، ج 2، ص 943.

218) المصدر السالف الذكر، ج 2، ص 945.

219) ڤينيسية، يعني من ڤينيسيا (Venise) أو البندقية.

ثم رجع للحديث عن هذا الرئيس ورجوعه من فرنسا ووصوله إلى الرباط في رسالته المؤخرة في الحادي والثلاثين من شهر يوليوز المؤرخة به الرسالة التي قبله، سنة إحدى وثمانين وسبعمائة وألف (31 يوليوز 1781/ شعبان 1195)[220] فقال : كنت أخبرتكم في الرسالة السابقة بوصول الرئيس علي بيريس إلى مدخل مرسى هذا الثغر في الحادي عشر من شهر يوليوز (11 يوليوز /19 رجب) ولكن تأخّر نزوله إلى البرّ إلى السادس عشر منه (16 يوليوز/24 رجب)، ولم يسلِّم لي الرسالة التي جاء بها معه إلاَّ بعد طلبها منه، واستعطافه في التعجيل بتسليمها.

ثم قال : «وعلى كل حال فإنَّ هذا الرئيس القرصاني، زارني وأظهر لي اعترافاً بما شاهده ولقيه من الاعتبار بمرسيليا، وضمَّن اعترافه كلمات تتعلَّق بالأسباب التي ترتَّب عنها نجاح مهمته.

وبعد وصوله بيومين، وجَّه رسالة مستعجلة إلى السلطان، وعلمتُ من طريق الشخص الذي حرَّرها وكتبها له أنَّه شرح له فيها بإسهاب جميع ما يرجع لمهمته ورحلته من يوم سفره إلى يوم رجوعه، ولم يتحقَّق عندي إلى الآن فحوى هذا الكتاب بالتفصيل، وإنَّما الذي بلغني، هو أنَّه لمَّا وصل إلى مرسيليا، لاحظ بعض التخفُّظ في الأدب الذي تظاهر له به بعض ذَوي الأمر عند استقباله، ولكن بمجرَّد ما بلغهم الجواب من البلاط الملكي الفرنسي، بادروا إلى إظهار مزيد الاعتبار والاهتمام والحفاوة به التي لم يظهروها أولّ مرّة، ومع ذلك لم يسمحوا له بالتوجُّه إلى ڤرساي، لأنه لم يأذن فيه القنصل الفرنسي بالرباط في كتابه الذي وجَّهه إليهم فيما يتعلَّق بهذه المهمَّة، وطلب منه الوزير الفرنسي الرسالة السلطانية التي أتى بها معه، فسلّمها له، ووجَّه له الجواب عنها بعد ذلك، وهو الذي أتى به معه، ولا زال في انتظار الأمر السلطاني فيما يرجع لهذا الجواب، ليمتثله ويعمل بمقتضاه، وبذلك ستنتهي مهمَّة هذا الرئيس، ويرجع القول والفصل فيها لسلطانه، مع ملاحظة إصلاح الدارعة التي سافر فيها، وتموين بحَّارتها بمزيد إكرام وتفضُّل، وإظهار غاية الاعتبار والتودُّد، حسبما شاهده شخصياً ورعاه حقَّ رعايته.

وقد وصلت الرسالة المحدَّث عنها إلى المحلَّة السلطانية في الوقت الذي كان يتعيَّن فيه السكون والهدوء التَّام، ولذلك لم يصدر الجواب عنها إلاّ بعد حين، وبمقتضاه فإنَّ الرئيس علي بيريس لم يصله الجواب إلاَّ البارحة، وأُمر بإدخال فرگاطته إمَّا إلى أبي رقراق، وإمَّا إلى مرسى العرائش، ويتوجَّه في الحين إلى الحضرة السلطانية، مصحوباً بالجواب الذي أتى به من البلاط الفرنسي، وربَّما يعاكس هيجان البحر هذا الرئيس، ويضطرُّ إلى التأخر عن الالتحاق بسلطانه نحو الخمسة عشر يوما.

220) المصدر السالف الذكر، ج 2، ص 947.

وحيث علِم الآن أنّ السلطان رجع إلى مراكش فيُحتمل أنه سيلتحق به هنالك.

وإنّ نتيجة مهمّته بفرنسا سيحصل فيها بعض التأخير».

ثم ختم هذا القنصل رسالته لرئيسه بقوله : «وسأخبر جنابكم بعد هذا بكل ما في المستقبل عن هذه القضية، وما سيكون لها من التأثير على السلطان، وما يترتّب عليها.»

وأتبع ما أخبره به أعلاه، بما ختم به رسالته المؤرخة في الحادي والثلاثين من شهر يوليوز سنة إحدى وثمانين وسبعمائة وألف (31 يوليوز 9/1781 شعبان 1191)[221] وهو أنّ الرئيس علي بيريس استصحب معه من مرسيليا سبعة عشر أسيراً مسلماً تونسيين أو طرابلسيين، وجّههم ملك سردينيا إلى المغرب فأمر بإِبْقَائهم وديعة عند قنصل سردينيا الذي جَاءوا باسمه إلى أن يأتي إلى الرباط، فبقوا عنده أمانة وتحت إشرافه ونفقته، وإلى الآن لا توجد أي معاهدة رسمية بين الدولتين المذكورتين.

ثم أصدر رسالة أخرى لرئيسه أيضاً بتاريخ سادس غشت سنة إحدى وثمانين وسبعمائة وألف (6 غشت 15/1781 شعبان 1195)[222] يعلمه فيها، بأنّ السلطان نازلٌ بمحلته، قرب عاصمته المراكشية.

ووجّه أحد قواده المسمّى المختار إلى مكناس وفاس، وأمره أن يُعَرِّجَ في طريقه على عامل الرباط ويُعلمه هو وغيره من الأعيان، بأمره الشريف لهم بالوُفود عليه بحضرة مراكش.

وأنّ هذا القائد لمّا وصل إلى الرباط جاء إليه، وأبلغه استدعاء السلطان له هو أيضاً وأمره أنْ يكون مُهيَّأً موجوداً ليرافقه في سفره إلى مراكش بعد رجوعه من وجهته المكناسية الفاسية، وأخبره بأنّ الرئيس علي بيريس سيتوجّه هو أيضاً إلى مراكش صحبة أربعة من أعوانه ورفقائه لِيسلّم الرسالة التي أتى بها من فرنسا إلى جلالة السلطان.

وأعلمه بأنّ السلطان بلغه أنّ هذه الرسالة الموَّجهة إليه بإمضاء أحد وزراء البلاط الملكي فقط، وليست بإمضاء الملك.

وذكر أنّه أجاب القائد الذي أبلغه الاستدعاء السلطاني بأنّه سيكون موجوداً في انتظاره ليتوجّه صحبته امتثالاً للأمر الملكي في الموعد المقرّر، وأنّه اعتبر هذا الاستدعاء علامة على الحُظْوة، ودلالة على الثقة والأمانة، ولم يتعرّض بكلمة واحدة إلى الرسالة الصادرة بأمر من

---

221) المصدر السالف الذكر، ج 2، ص 949.

222) المصدر السالف الذكر، ج 2، ص 950.

ملك فرنسا إليه، لا سيما والسلطان لا زال لم يطلع عليها، ولذلك لا زال لم يحن الوقت للمذاكرة فيها.

ثم قال قياساً على ما يعرفه من أحوال السلطان إنَّه يعتبر أن هذا السفر رُبَّما سيكون فاتحة خير باتصاله به ومعرفة مقاصده ومايريده، ولذلك لم يمكنه تاخيره وانتظار ما سيأمره به رئيسه في شأنه، زيادة على ما تقدَّم له في الرسالة الصادرة إليه بتاريخ الثاني والعشرين من مايه الفارط (22 مايه/28 جمادى الأولى) وفيه كفاية.

وزاد مُطمئِناً رئيسه أنَّه مخلص في خدمته ووظيفته متمسِّك بكل ما أُمر به من قبل ملكه في سائر أعماله، وإنَّما يغتنم الفُرَصَ في إبَّانها قبل فواتها.

ثم ذكر أن الرئيس علي بيريس أقلع في سفينته من الرباط إلى العرائش، وربَّما يتأخَّر وصوله إلى الحضرة السلطانية بعده. وأنَّ الاستقبال المعيَّن المحدود الذي استقبل به بفرنسا أحدث بالمغرب أثراً كان الفرنسيون في انتظاره، وأنَّ الناس الذين يزنون الأشياء وزْنَها سرِّياً يقولون إنَّ الفرنسيين لم يزيدوا على ما ينبغي سلوكُه من اللُّطف والأدب...

وختم هذه الرسالة بأنه لا يشكُّ أنَّ رئيسه يُسر بهذا الاستدعاء الذي تلقَّاه من جلالة الملك، وأنَّه سيُتوَّجُ بالحصول على النتائج المرغوب فيها، حسبما سيخبره به في الرسائل الآتية.

وأتبع هذه الرسالة برسالة أخرى بتاريخ إحدى وثلاثين غشت سنة إحدى وثمانين وسبعمائة وألف (31 غشت 11/1781 رمضان 1195)[223] بأنَّه بناءً على ما تقدَّم له في الرسالة السابقة المؤرخة بسادس هذا الشهر، من الإخبار بالاستدعاء الوارد عليه من قبل سلطان المغرب لِيَفِدَ عليه بحضرة مراكش، صحبة القائد المختار لمَّا يرجع من وجهته بفاس، فقد شرَّفه جلالته برسالة استدعاء خاصّة وجّهها له صحبة أحد كُتَّاب حَضْرَته الطالب العبدلاوي ابن سيدي عبد القادر من فاس، ليحضر تصفُّح وقراءة الرسالة الواردة عليه من البلاط الملكي بفرنسا.

وأنَّ الكاتب المذكور أعْلَنَ بصراحة بما له من الثقة والأمانة فيه، وأنَّه لا يتَّخذ إلاَّ ما يوافق رغبته في كل ما يتعلق بظروف وزمن هذا السفر، وأنّه لاحظ من هذا الكاتب احتراماً خاصّاً مع المبادرة بتنفيد السفر عملاً بما أمره به جلالة السلطان، فأخبره بأنَّه كان وجَّه رقَّاصاً خاصّاً حاملاً رسالة من جلالة السلطان، وهو ينتظر الجواب عنها قبل مغادرته

223) المصدر السالف الذكر، ج 2، ص 952.

لمركزه، وفي أثناء ذلك ينتظر أيضاً وصول بعض الأمتعة والحوائج التي طلبها من قادس، وليس في هذا التأخير ما يعوق رغبة السلطان في استيعاب الرسالة الواردة عليه من فرنسا، لا سيما وعلى ظهر غلافها الذي سلِّمَ للرئيس علي بيريس أمر بالتعجيل بها مكتوب بالعربية...

والغالب على الظن أنه إذا لم يحصل عائق سيسافر في العاشر من شتنبر المقبل (10 شتنبر/21 رمضان)، وهو يرجو أن يكون هذا السفر ناجحاً، وكثير من الناس ذوي الفطانة والمعرفة بالأمور يرون ذلك، ويلاحظون باشمئزار المخابرة التي كانت مَعَ النَائب بالمغرب عن الفرنسيين فيما يرجع لمصالحه، وأنَّ المقابلة التي قوبل بها الرئيس علي بيريس كان فيها احتياط كبير من جانب البلاط الملكي الفرنسي حتى أنَّه لم يتمكّن من التنقُّل أثناء سفره بفرنسا، ولم يأت فيها بشيء جديد. وعلى كل حال فإنَّه لا يعلم أحد حتى الآن ما تضَمَّنه الجواب الذي أتى به معه، ولازال تحت يده إلى الآن.

ثم ذكر أنَّه سيعمل جهده في السفر إلى مراكش بعد علي بيريس، حتى لاتقع عليه شبهة بمراكش بمجرد وصوله، فيما سيقرِّره جلالة السلطان في شأنه، وإذا رأى الأمور حسنة فسيحصل على رسالة منه لملك فرنسا، وسيتَّخذ الأسباب الموجبة لها مهما وجد لذلك سبيلا.

وبعد هذا تعرَّض للرئيس علي بيريس أيضاً ووجهته الفرنسية في مذكراته التي حرَّرها بطنجة بتاريخ عاشر أبريل سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة وألف (10 أبريل 26/1782 ربيع الثاني 1198)[(224)] لمَّا أُمر بالانتقال إليها والإقامة بها، فقال أثناء الفصل المخصَّص لمواصلة فرنسا مع الجنوب بعد أن تعرَّض لعدة مسائل ومشاكل كانت رائجة في ذلك الوقت، وخُصوصاً مسألة انتقال التجّار الفرنسيين من العرائش والرباط إلى فضالة، حسبما تقدم، وأطنب فيها ماشاء بما شاء.

تَنَكُّر السلطان للقنصل شيني وابتداء محنته

ثم قال ما حاصله : إنَّ مقاصد سلطان المغرب المُبْهَمَة ضدٌ فرنسا أواخر سنة ثمانين وسبعمائة وألف (1194/1780)، طبْقَ ما فصَّلناه قبل هذا بقيت مُستَترةً حتى اتَّضح أمرها بعد ذلك في هذه القضية (يعني قضية تنقل تُجَّار فرنسا إلى فضالة)، وقد حاول بقاء مقاصده نحو فرنسا مُبهمة مستترة برداء شفَّاف، وتظاهر بالحظّ من القنصل الفرنسي، واتَّخذ الأسباب لاستبداله بقنصل آخر، ووجّه إلى مرسيليا في شهر مارس سنة إحدى وثمانين

224) المصدر السالف الذكر، ج 2، ص 1006.

وسبعمائة وألف (مارس1781/ صفر ربيع الأول 1195) إحدى دوارعه الحربية برياسة الرئيس علي بيريس بصفة سفير، وحيث أنّ هذه السفارة لم تهيء ولم يعلم بها من قبل، لم يخصص لها مزيد اعتناء ولا اعتبار، ولم تهتم بها فَرَنْسَا اهتماماً كبيراً، لا سيما ولم يكن لها موجب قانوني تستند عليه، ويُخَوِّلُهَا حق القبول حسب رأيه. ومع ذلك فإنّ الرئيس علي بيريس اقْتُبِل بمرسيليا بكرم وسخاء، بصفته رئيساً وقائداً لسفينة حربية مغربية.

وأمّا الرسالة التي أتى بها من قِبَل جلالة السلطان فإنها لَمْ تُعتبر لمخالفتها للقواعد المتَّبعة في الخطاب بين الملوك، ولم يترتَّب عنها جواب، وأُمر سلطان فرنسا أحد وزرائه أن يُنهي ذلك في رسالة خاصَّة لسلطان المغرب، وسُلِّمت للرئيس علي بيريس بمرسيليا.

ووصلت هذه الرسالة إلى الرباط في الحادي عشر يوليوز (11 يوليوز/19 رجب) وبقيت مُكْتتمة إلى آخر شتنبر (أوائل شوال)، وامتنع السلطان من تَصفُّحها وقراءتها إلاَّ بمحضر قنصل فرنسا، واستدعاه لذلك إلى مراكش، فقبل الاستدعاء بعد أن تجهَّز له صُحْبَة عدد من الأوربيين إصبانيين وهولانديين وجنْويين. ولمَّا وصل إلى مراكش رُدَّ على عَقِبِه مُهَانًا مُحْتَقَراً ومعه رسالة الوزير الفرنسي التي أتى بها الرئيس علي بيريس كما تقدم، وترفَّع السلطان حتى عن فتحها وقراءتها.

ثم قال : ولا ينبغي أن نستعرض هنا الظروف المحيطة بهذه القضية المنافية للاحترام والوقار والأدب.

وبعد هذه الزوبعة، وما احتفَّ بها، أمَر السلطان القنصل بالتوجه إلى السويرة، ومنها يُبحر حالاً ويرجع لبلاده. ولكن هذا الأمر تغيَّر بعد ذلك، وأُمر بالتوجُّه إلى طنجة، ويقيم بها في انتظار ما سيأمر به ملك فرنسا في شأنه.

وعقب ذلك، استدعى سلطان المغرب إلى حضرته خليفة القنصل من الرباط ليتذاكر معه ويوضِّح له القضية وما وقع من المخالفة فيها، وأنَّ سبب ذلك كله راجع للقنصل، إلاَّ أنَّ ذلك لم يأت بالنتيجة التي كان يريد الحصول عليها.

ورغماً عمَّا تظاهر به السلطان فيما يرجع لسفر علي بيريس الغير النافع ولا المثْمر فإنَّ المكلف برعاية مصالح فرنسا، وهو القنصل، لم يشعر في طريقه بأي انقباض أو كراهة لما وقع، وكذلك في أثناء إقامته بطنجة، حيث وجد نفسَهُ كغيره من قناصل الدول الأخرى...

هكذا وردت هذه القضية في الرسالة التي حررَّها القنصل بطنجة لتاريخ عاشر أبريل سنة اثنين وثمانين وسبعمائة وألف (10 أبريل 26/1782 ربيع الثاني 1196) كما تقدم، واتَّبع فيها هواه، وقال ما شاء كيف شاء ليبرِّرَ أقواله وأفعالهُ.

وحيث أن اقتبال هذا القنصل كان بمراكش بمحضر جماعة من قناصل الدول الأخرى كإصبانيا وهولاندا وجنوة، وغيرهم من بعض رجال الدين الأجانب، فقد سجَّلوها في مذكراتهم حسبما شهدوها منذ ابتدائها والأطوار التي تقلَّبت فيها والأسباب التي أوجبتها فقالوا:

- من جملتها أنَّ ملك فرنسا رفض الرئيس علي بيريس ولم يقبل سفارته ولم يقتبله.

- ومنها أن أحد رؤساء السُّفُن الفرنسية كان بالإسكندرية في سفينته، وركب معه فيها جماعة من الحُجَّاج المغاربة راجعين إلى المغرب بعد حجِّهم، فأنزلهم رغماً عنهم في مدينة بعيدة عن بلادهم، وتركهم عرضة للضَّياع، وكلَّم السلطانُ القنصلَ شينيي (Chénier) في شأنهم، فلم يعتبر كلامه، واعتذر عن الربَّان الفرنسي بأنه لا يستطيع أن يميِّزهم عن غيرهم من الركاب الآخرين، وأنَّ السلطان كان يجب عليه أن يُعَيِّن قنصلاً خاصّاً من قِبَله بالإسكندرية، ويعطيهم أوراقاً شخصية تتضمَّن التعريف بكل واحد منهم ومن أي بلد هو.

- ومنها إلتزام التّجار الفرنسيين الذين كانوا بالعرائش وبالرباط بالإنتقال رغماً عنهم إلى السكنى بفضالة وترويج تجارتهم بها، وأنهم امتُحِنُوا في ذلك وحصلت لهم خسارة كبيرة، وضاعت بعض أمتعتهم، أونُهِبت، أثناء انتقالهم.

واطَّلع السلطان على ذلك، واستقرَّ في ذهنه أن القنصل شينيي هو الذي أغرى رُبَّان السفينة الفرنسية بإرغام الحجَّاج على النزول في مرسى بعيدة عن بلادهم، وتأثر من الجواب الغير المقنع الذي أجابه به لمَّا كلَّمه في شأنهم بالرباط بمحضر جماعة من قناصل الدول، وحفظه عليه، وأجابه عنه بأنَّه سيشهر الحرب على فرنسا بِمُجَرَّد انعقاد الصلح بينها وبين إنگلترا، فردَّ عليه شينيي (Chénier) بِأنَّ له أن يفعل ذلك في الوقت الذي يريده، فأمره في الحين بالانتقال إلى طنجة، ويحمل معه أمتعته وأمواله التي ستكون معرَّضة للضياع أثناء الانتقال، فاعتذر عن ذلك بأنَّ حالته الصحية لا تساعده على هذا الانتقال المفاجئ على هذه الكيفية.

وبمقتضى هذه الحوادث صار السلطان لا يعترف بقنصليته ولا بتمثيله لدولته ببلاده، ووجَّه الرئيس علي بيريس إلى فرنسا طالباً منها التعجيل بسحبه وعزله من وظيفته القنصلية بالمغرب، وتعيين قنصل آخر مكانه، أصغر منه سنًّا، وأعرف بالأدب مع الملوك والأمراء الذين يتعامل معهم.

ثم امتُحن وأُهين بمحضر الملأ من الناس وأُمر بالتوجُّه للسويرة...

هكذا قصُّوا هذه القصة وفصلُّوها تفصيلاً بمزيدإيضاح وبيان.

وجاء في تقرير مجلس الحكومة الفرنسية المحرّر في شهر دجنبر سنة إحدى وثمانين وسبعمائة وألف (دجنبر 1781/آخر 1195) كما هو محفوظ في جملة الوثائق الراجعة للمغرب[225]، ما مُضمَّنه : أنَّ ملك المغرب كان وجَّه في شهر أبريل الماضي (ربيع الثاني) الرئيس علي بِّريس سفيراً من قبله إلى ملك فرنسا، فرفض الاعتراف بسفارته بأنَّه لم يُعلَمْ بها رسمياً على طريق الوزارة، ولأنَّ الرسالة التي جاء بها من قبَل سلطانه لا تتضمَّن الأوصاف التي ينبغي أن يُوصَفَ بها ملك فرنسا، كما هي عَادَةُ ملوك المغرب معه ومع من قبله، فاقتُبِل الرئيس علي بِّريس بمرسيليا وعومل معاملة حسنة، من طرف كاتب الدولة الراجعة إليه شؤون البحرية الفرنسية وما يؤول إليها ويتعلَّق بها، وحرَّر له جواباً عن الرسالة السلطانية التي جاء بها، ضمَّنه بيان المسألتين المتقدِّمتين المترتِّب عليهما عدم اقتباله.

ولمَّا رجع هذا الرئيس إلى مرسله، واستدعى قنصل فرنسا وممثلها لديه، لُوِي شينيي، (Louis Chénier) إلى حضرته بمراكش، واستقبله يوم الحادي والعشرين من شهر شتنبر (21 شتنبر/2 شوال) بمحضر قنصل هولاندا، ومعتمد جنوة السياسي لديه، واثنين من رجال البعثة الإصبانية الدينية، وبعد إلقاء خطبة لم يراع فيها شخصه ولا وظيفته، ضمَّنها ما ينقمه عليه ويتَّهمه به، أمر خُدَّامه وأعوانه أوْ مخازنيته أن يُقرِّبُوه منه، فدفعوه بشدَّة وسحبوه على الأرض نحوه، وانتزعوا منه الهدية التي كان حاملاً بيده بقصد تقديمها إليه على العادة في ذلك، ولفّوها في خرقة كتان وسخة، وأمَّا كتاب كاتب الدولة في البحرية الذي كان لازال مختوماً لم يفتح، فقد علَّقوه له في عنقه، ووُجِّه على هذه الحالة المزرية إلى مأوى البعثة الإرسالية الإصبانية مصحوباً بالأمر بالتوجُّه إلى السويرة، ومنها يبحر إلى حال سبيله.

وفي صبيحة الغد غادر مراكش صحبة أحد القواد المخزنيين وعشرة من العسكر السلطاني بمراكش.

وفي السادس والعشرين من الشهر المذكور (26 شتنبر/7 شوال) وصل إلى السويرة.

وبمجرَّد وصوله، اتَّصل به أحد تراجمة السلطان، وكان مُتعقِّباً خطاه، وطلب منه كتاب كاتب الدولة في البحرية الذي كان مُعلَّقاً في عنقه، فمكَّنه منه، وفضَّ ختامه، وقرأه جهراً، ووجَّهه في الحين إلى سيده.

---

225) «مراسلة القنصل شينيي» لبيير چرييون، ج 2، ص 1056.
(La Correspodance du Consul Louis Chénier, par Pierre Grillon)

وقد ظنَّ القنصل أنَّ السلطان ربَّما يستأثر وينفعل لتعبير هذه الرسالة، لا سيما وقد خصَّص لها تُرجماناً من تراجمه، ولذلك استرجعها منه، ثم استدعى السلطان السيد مور (Mur) نائب القنصل المذكور إلى حضرته، وأمره أن يبلغ القنصل قبل سفره أنَّه أجَّلَهُ ثلاثة أيام يجمع فيها حوائجه وأمتعته التي عنده بالدار التي يسكنها بالرباط، ويتوجَّه فوراً إلى طنجة، ويتخذها دار إقامته.

فتربَّص القنصل في طريقه إلى الرباط، ريثما يأتيه الخبر عن مآل سفر نائبه إلى مراكش.

وفي الثامن والعشرين من أكتوبر (28 أكتوبر/10 قعدة) أعلمه نائبه المذكور بأنَّه منذ ثمانية أيام وهو ينتظر مقابلة السلطان، ولازال لم يأذن له فيها، فترجَّح عنده أنَّ تدخُّل نائبه لا فائدة فيه تتعلَّقُ بقضيته ومآله، وأذْعَنَ حينئذ لانتظار ما ستبرزه الأيام في قضيته، وامتثل الأوامر الصادرة إليه بالانتقال لطنجة.

هذا وقد كان هذا القنصل يرى أنَّ جلالة السلطان لا يتَّخذ هذه القضية سبباً لقطع المواصلة المغربية مع الحكومة الفرنسية نهائياً، وأنَّه يكفي لإرضائه أن تُقدَّم له، جبْراً لخاطره، هدية مهمَّة ذات قيمة لها بال.

وما كان أعلنه بتاريخ ثلاثين شتنبر (30 شتنبر/11 شوال) وثامن أكتوبر (8 أكتوبر/19 شوال) فيه تبرير لأعماله ومقاصده نحو هذا القنصل وثباته على مَبْدَئِه وتمسُّكه بما قرَّره في شأنه، وعزم عليه، ولا يرجع عنه. ولكنَّ القنصل التمس منه أن يأذن له في الإدلاء لديه بما آل إليه أمره، وبحالته التي هو عليها، وأنَّه لاحظ ما حلَّ بالتُّجار الفرنسيين من الخسارة المترتِّبة على إلزامهم الانتقال من العرائش والرباط إلى فضالة، وهم الآن مهدَّدون بالانتقال منها إلى محل آخر، وذلك فيه ما فيه فيما يرجع لحقوق فرنسا.

ولمَّا وصل إلى طنجة، أخبره حاكمها بواسطة نائبه بأنَّ السلطان يأذن له في الإقامة بها إنْ أعجبته ووافقته، وإنْ لم تعجبه ولم توافقه فلينتقل إلى أوربا، وهو مُخيَّر في هذا حسبما يوحيه إليه ضميره.

فأجابه بأنَّه لا اختيار له في ذلك، ولا يمكنه أن ينتقل إلاَّ بأمر من ملكه الذي هو نائب عنه، أو من السلطان الذي هو مقيم عنده ببلاده. ولو كانت له الحرية لأقام بمنزله الذي كان به بالرباط، وإنَّما فارقه بغير إرادته، مع أنَّه خاصٌّ به وبدولته، ولا يدري ما سيكون تأثير هذا الجواب. وعلى كل حال، فهو متمسِّك بأوامر ملكه التي ينتظر وصولها إليه، ومتأسِّف على عدم إمكانه الاتِّصال به لبُعده عنه في الحالة الراهنة، ولو كان قريباً منه لفسَّر له الأمور كما يراها، ويظن أنَّ المخابرة بإصلاح الحالة على كيفية قاطعة لكل خلاف في هذه المسألة، تتوقَّفُ على تعويض عن الخسائر اللاحقة به وبأبناء جنسه ترضي ملكه وحكومته.

ورجوعه إلى داره بالرباط مع بقاء حَقِّ الاختيار لسلطان المغرب في أداء النفقة الواجبة طبق القانون.

وإعطاء الحق للتُّجّار الفرنسيين المطرودين من العرائش والرباط بالرجوع إليهما، لجمع أموالهم المُفَرَّقة، وتحصيل ما هو ضَائعٌ من حقوقهم، ولا يشتغلون بتجارة أخرى اقتداء بالامتياز الذي أُعطي لتُجّار إصبانيا الذين كانوا بالمدينتين المذكورتين.

هذه هي النقط التي كان شيني يريد أن يطالب بها إذا فُتحت الأبواب في وجهه ووجد سبيلاً لولوجها.

وبلغه أنَّ السيد الطاهر فنيش آخر سفير مغربي كان بفرنسا، استدعاه السلطان لمقابلته أثناء جريان هذه الحوادث، فظنَّ أنَّه سيُعيَّن سفيراً مرة أخرى لدى ملك فرنسا، أو سيكلَّف بالمخابرة مع نائبه في الخلاف الواقع بسبب الحوادث المتقدمة الذكر.

وأمَّا إذا أصرَّ السلطان على رأيه الأول، وبقاء ما كان على ما كان، كما أمر به، فإنه يطلب من ملكه الفرنسي أن يأذن له في الانعزال والانسحاب من وظيفته بالمغرب، وهو إنَّما يُبَيِّنُ للسلطانِ، فيما اقترحه، بعض الوسائل الكفيلة بإبعاد طريق قطع المواصلة نهائياً.

ابتداء مأمورية لوي شيني القنصلية وانتهاؤها بالمغرب، وانسحابه منه وتعيين دار سكناه

أقام القنصل لويي شيني مدة خمس عشرة سنة، من سنة سبع وستين وسبعمائة وألف (1182/1767) إلى سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة وألف (1196/1782)، قنصلاً ممثلاً لحكومته الفرنسية لدى جلالة سلطان المغرب سيدي محمد بن عبد الله. وكان ساكناً بشارع القناصل بالرباط، بدار القنصلية الفرنسية المشرفة على مصب أبي رقراق من ناحية المرسى الآن. وكان الأوربيون في القرنين السابع عشر والثامن عشر يطلقون في ذلك العهد على العمران المتكوِّن على ضِفتيْ مصب نهر أبي رقراق شمالاً وجنوباً اسم سلا، وإذا أرادوا التفريق بين المدينتين قالوا «سلا القديمة»، ويقصدون بها مدينة سلا، و«سلا الجديدة» ويقصدون بها رباط الفتح .ولذلك جاءت رسائل القنصل شيني كلها مُصَدَّرَةً بأَنَّها حُررت بسلا، يعني بالرباط، لا سيما ونحن نعلم أنَّه لم يسكن أحد من قناصل الدُّوَل الأوروبية في عهد الدولة الشريفة العلوية بمدينة سلا القديمة، لأنَّ مدينة الرباط كانت محور تجارتهم ودار عمرانهم، لا سيما والمخزن كان ينزل بها، وشيَّد قصوره ومَبانِيهِ بساحاتها، وأنزل عساكره وجنوده، من العبيد وغيرهم، بقصبتها وأطرافها، ومازالت آثار دورهم وقشلاتهم شاهدة بذلك.

وما قيل ونُقل من أنَّه كان ساكناً بمدينة سلا لا أصل له، وقد خصَّص لهذه القولة پيير دوسينيڤال (Pierre de Cénival) بحثاً خاصّاً حرَّر فيه محلَّ سكنى القنصل المذكور بالمُدُن التي أقام بها منذ دخل المغرب إلى أن بارحه[226]، وسنقتطف منه ما يتعلَّق بموضوعنا هذا.

قال : إنَّه أثناء بحثه وتصفُّحه للأوراق والوثائق المحفوظة بوزارة الخارجية الفرنسية المتعلقة بالمغرب، وخصوصاً الرسائل القنصلية، عثَرَ على عدد مُهِمٍّ منها يتضمَّن تعيين محلِّ سكنى القنصل المذكور، فاستوعبه وسجَّله، لأنَّه كشف الغطاء عن مسألة كانت غامضة، لا سيما والقنصل المذكور من مشاهير القناصل الفرنسيين الذين كانوا بالمغرب، وممَّنْ كتب فيه وتطلَّع لمعرفة أحواله.

ثم قال : قد كان مجيء هذا القنصل إلى المغرب سنة سبع وستين وسبعمائة وألف (1181/1767)، صُحْبَة السفير الكونط دوبرينيون (Le Comte de Breugnon) الوافد على السلطان سيدي محمد بن عبد الله بمراكش من قبل ملك فرنسا لويز الخامس عشر لعقد معاهدة صلْحية بين الدولتين، لأنه كان حصل فتور في المواصلة الفرنسية المغربية منذ وفاة السلطان المولى اسماعيل، رحمه الله، وما نشأ عنها بين أولاده من الفتن بالمغرب.

ولمَّا أتَمَّ عمله، قدَّم له القنصل شينيي فَقَبِلَهُ، واستقرَّ أوَّلاً بمدينة آسفي، وبعد بضعة أشهر، استأذن السلطان في نقل قنصليته إلى سلا، يعني الرباط، وإن كانت المصالح والتجارة الفرنسية بها أقلّ أهمِّية من آسفي في ذلك العهد لقُرب اتصالها ومواصلتها مع طنجة والعرائش ومكناس وفاس، وكل هذه المدن كانت بها مراكز تجارية واقتصادية ذات أهمِّية كبرى كمراكش.

وأيضاً سلا، والمقصود الرباط، كانت مقرَّ قناصل آخرين قبله في عهد لويز الثالث عشر، والرابع عشر، وكانت لهم مواصلة واتِّصال مع المغاربة مُدَّة سنين عديدة، فاستقرَّ شينيي بسلا الجديدة، كما كانوا يقولون، في تاسع عشر يوليوز سنة ثمان وستين وسبعمائة وألف (19 يوليوز 3/1768 ربيع الأول 1182).

والقائلون إنه كان ساكناً بسلا القديمة، يزعمون أنَّ داره كانت بزقاق تشرف عليه صومعة مسجد سيدي الحاج عبد الله بحي باب حسين، وينسبون هذا الزعم إلى بعض الأُسَر السلاوية القديمة مع أنَّ الواقع يخالفه.

---

(226) مجلة «هيسپيريس (Hespéris)، العدد 1 من سنة 1922، من ص 23 إلى ص 35.

وقد نشر لها صورة في بعض مَا كتبه من أخبار شينيي، وزعم أنَّه طالما استبدل حلقة باب الدار لِئَلاَّ يطرقه عليه أحد.

ثم قال دوسينيڤال (De Cenival) : وهذا مُجرَّد كلام تداولته أَلْسِنَةُ العامَّة، ولا عبرة به ولا ينبغي أنْ يُصدَّق. ومن تتبَّع رسائل شينيي استنتج منها أنَّه كان ساكناً بالرباط. ومن ذلك ما جاءَ في رسالته المؤرخة بثامن وعشْرِي مايه سنة خمس وسبعين وسبعمائة وألف (28 مايه 27/1775 ربيع الأول عام 1189) أنه استُدْعي لحضور الاحتفال بعيد المولد بسلا القديمة، وهو احتفال الشُّمُوع، فحضره بعد ما عبر الوادي من سلا الجديدة إلى سلا القديمة.

وذكر في كتاب آخر بتاريخ عاشر نونبر سنة خمس وسبعين وسبعمائة وألف (10 نونبر 16/1775 رمضان 1189) أنَّ الأمير مولاي علي بن السلطان سيدي محمد بن عبد الله، وصل إلى مدينة سلا الواقعة على الضفة الشمالية للوادي، وهي سلا القديمة، وبهامش الكاتب : وأمَّا الضِّفَّة الجنوبية التي يسكنها الأوربيون، فهي مدينة الرباط.

وورد ذكر الدار التي يسكنها في رسالة له أخرى مؤرخة بتاسع وعشري مايه سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة وألف (29 مايه 16/1782 جمادى الآخرة 1196) فقال : «إنَّ دار القنصلية التي أسكنها موقعها برباط سلا».

وقبلها ذكر في رسالة أخرى له بتاريخ سادس عشر غشت سنة تسع وسبعين وسبعمائة وألف (16 غشت 3/1779 شعبان عام 1193) أنَّ الدار التي يسكنها ليست لها واجهة إلى الشارع، وإنما يدخل إليها من درب ضيق غير نافذ مشرف على مصب وادي أبي رقراق في ناحية عبوره من الجانب الشمالي. وأمَّا ما جاوره قريباً منه فهو زاوية من زواياه. والدار مُشيَّدة فوق صخرة من صخوره رطبة، ندية، لأنَّ الماء يغمرها كلما مَدَّ البحر وارتفعت أمواجه، وذلك يستدعي الإصلاح والتجْديد من حينٍ لآخر.

وهذا الوصف مطابق تمام المطابقة للوصف الذي ذكره كاتب قنصلية السويد أُولُفْ أكريل (Olof Agrell) في رحلته لداخلية المغرب، وما شاهده فيها من سنة تسع وثمانين وسبعمائة وألف (1203/1789) إلى سنة إحدى وتسعين وسبعمائة وألف (1206/1791) ونشره سنة ثمان وتسعين وسبعمائة وألف (1212/1798-1213).

ومن جملة ما ذكره أنَّه يوجد بالرباط بنات يهوديات جميلات، ودار فرنسا كبيرة جميلة أيضاً، وهي على ضفة نهر أبي رقراق مقابلة لمدينة سلا وما جاورها واتَّصل بها.

ثم قال : وبهذه الدار كان يسكن القنصل شينيي لَمَّا كان بالرباط سنة ثمان وستين وسبعمائة وألف (1182/1768).

وأعظم شاهد لهذا هو الصورة التي خلَّدها جورج هوست (Georg Hòst) الدانماركي، لمَّا زار مدينة فاس والمغرب سنة ثمان وستين وسبعمائة وألف (1182/1768) وهي مطابقة لمَا وصفها به شينيي وغيره من قَنَاصِل وكُتَّاب ذلك العصر، وأنَّها مبنية على شاطئ الوادي قبالة مدينة سلا في منتهى زقاق صغير ضَيِّق مُتَّصِلٍ بشارع القناصل، ومنه يدخل إليها.

وبعد إدخال تعديلات وإصلاحات متعدِّدة عليها في أزمنة مختلفة، بقيت مسكناً لقناصل فرنسا المتعاقبين على المغرب من ذلك العهد إلى أنْ فُرِضَتْ عليه الحماية في العصر الأخير.

وهذا الوَصْفُ والتَّعْيين للمحلّ الذي كانت به هذه الدار مطابق تمام المطابقة لمَا أشار له دو لامارتنيير (De La Martinière) في كتابه المسمّى : «ذكريات عن المغرب» (Souvenirs du Maroc)[227]. وعليه فهذا الشارع الرباطي من ذلك الوقت وهو يُسمَّى بهذا الاسم إلى الآن.

وبإزاء دار قنصلية فرنسا هذه، كانت دور قناصل آخرين كالدانمارك والسويد، وهولاندا، وبجوارها أو بالقُرْبِ منها كانت منازل حقيرة صغيرة يسكنها اليهود ممتدة من ناحية (يعني قبل بناء المَلاَّح الخاصِّ بهم)، لأنَّه بُني في العهد السليماني بعد ذلك، سنة (1223/1809-1808) وكان الأوربيون في القديم، النازلون بالمغرب، أو الواردون عليه، ينزلون ويسكنون بالأحياء اليهودية في جل المدن، ما عدا فاس، ومراكش، لأنَّ التُّجَّار الأجانب كانوا يسكنون بِهِمَا، بالديوانات، أو بفنادق تُخصَّص لهم بالأسواق، أو مُتَّصلة بها، كما نصَّ على ذلك دوكاستري (De Castries) في تاريخه «ينابيع تاريخ المغرب»[228] وغيره من المؤرخين الأوربيين.

هذا ولم تقتصر رسائل شينيي على وصف وتعيين دار القنصلية الفرنسية بالرباط، بل أفادتنا أيضاً بما كان يلقاه قناصل الدول الأجنبية منْ صعوبات (كما يقول) في إثبات أملاك قنصليتهم، وتنشأ عن ذلك المشاكل التي كانت تعترض القناصل المكترين الأملاك التي ليست في ملكهم، وكثيرا ما تكون هذه المشاكل أوَّلاً صغيرة ثم تعظم وتتنوَّع، وفي بعض الأحيان لا يكون صادقاً أو محقّاً إلاَّ من كانت بيده حجج يحيط بها، ويكتنفها الجو الذي يحيط بالسياسة الاقتصادية أو المواصلة بين دولة ذلك القنصل والمغرب كفرنسا مثلاً، ولا سيما من يَكُونُ مُمثلاً لحكومته أمام السلطان.

227) ص 25، طبع باريس 1919.
228) السلسلة الأولى فرنسا، ج 2، ص 400-399.

وعليه، فلا يُستغرب أنَّ هذا القنصل شينيي بعد ما مثَّل حكومته بالمغرب مُدَّةَ خمس عشرة سنة، اعتبر سحْبه من وظيفته لوطنه خلاصاً له من المشاكل...

ثم قال : لمَّا كانت المواصلة حسنة بينه وبين السلطان، إثْرَ مجيئه إلى المغرب، كلف وزيره بمراكش مولاي إدريس أنْ يعامله بكل ما يُدخل السرور عليه، وأنّ ينفِّذ له داراً مخزنية لسكناه بسلا (يعني بالرباط). ولا يخفى أنَّ أغلى شيء ثمناً هو ما يُعطى أو يُنفَّذ، لِمَا يتطلَّبه من الصوائر والعطايا والهدايا للذين يقومون بإنجازه.

ولمَّا رأى شينيي ذلك اختار كراء دار كانت محبَّسة علي مسجد منسوب للسيدة فاطمة طريدة، فقام بإصلاحها وأنفق عليها ألف ليبرة، وجعلها صالحة لسكنى أحد الأوربيين، ويمكنه أن يقيم بها مطمئنَّ البال عدة سنين، ولم يكن لفرنسا بالمغرب في ذلك الوقت إلاَّ بعض المصالح التجارية، وربما كانت مهملة، ولا ترجو، بل ولا تطلب اتِّساع نطاقها وانتشارها.

وكانت معاهدة سنة سبع وستين وسبعمائة وألف (1181-1180/1767) كأنَّها ضمان وحماية للأسطول الفرنسي ممَّا كان مُعرَّضاً له فيما سبق من الأخطار من قبل قراصنة سلا والرباط، وتطوان والعرائش.

ولمَّا رجع الأمن إلى نصابه بانعقاد الصلح بين الطرفين، ولَزِمَ القراصنة الحياد مع فرنسا، صار أولوا الأمر بفرساي (Versailles) يُقلِّلون من الكلام ما أمكن في كلٍّ ما يرجع للمغرب أو يئول إلى المغاربة.

وكان السلطان، بعكس ذلك، حريصاً على المواصلة مع فرنسا لِمَا فيها من المَصلْحة الخاصَّة والعامَّة، وخصوصاً ما يترتَّب عنها من الهدايا التي كان يعتبرها بمنزلة الخراج أو الجزية المفروضة على غير المسلمين، لا سيما وقد كان ملك فرنسا من أعظم وأحسن ملوك أوربا وأغناهم، ويُنتظر منه أن يُقَدِّمَ هدايا فاخرة أكثر ممَّا كان يقدِّمه غيره من الملوك الآخرين. وتلقَّى شينيي أمراً من وزيره بأنْ لا يقبل في المستقبل أي طلب سري، ولو بتعريض أو إشارة. ويقتصر على إدارة أشغال قنصليته بغاية الاقتصاد والتوفير. وصار إذا زار السلطان، أو وفد عليه مهنئاً في عيدٍ من الأعياد، ويضطرُّ أنْ لا يتقدَّم إليه فارغ اليد، خلافاً للعادة الجارية والمعمول بها في هذه المناسبات من طرف قناصل الدول كلها منذ القديم، يقتصر على تقديم بعض القِطَع من الثياب، وشيء من الشّاي وقوالب السكر، وبعض الكئوس من الخزف المستعملة في شرب الشاي والقهوة، فيحتقر السلطان ذلك منه ولا يعظم في عينه،

ونبّهه على ذلك سرّاً غير ما مرة بواسطة أحد خُدّامه من اليهود، فلم يعمل بمقتضى تنبيهه، وكان ذلك سبباً في خيبة أمله فيه، وأضمر معاكسة في مطالبه وأعماله، واتّهمه بأنه يستبدُّ بالهدايا التي يقدمها ملك فرنسا إلى السلطان كغيره من الملوك، ويتصرّف فيها حسب غرضه وشهوته لنفسه، لا سيما وغيره من قناصل الدول الممثلين لدولهم يتابارون في كل ما يشرِّف منزلتهم لديه. وخصوصاً فيما يرجع لتزيين المدن الساكنين بها بالمباني الفاخرة النفيسة الجَيِّدة، واقترح على شينيي أن يقتدى بهم، ويشيِّد منزلاً أنيقاً يكون خاصّاً بسكنى قناصل فرنسا بالمغرب، ولكنّ وزارة الخارجية الفرنسية لَمْ تَكُنْ مستعدّة لتنفيذ ما يتطلّبه تشييد هذا المنزل من الأموال.

وفي خامس يوليوز سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة وألف (5 يوليوز 14/1773 ربيع الثاني 1187)، توجّه شينيي في رخصة استراحة إلي فرنسا.

وفي أثناء غيبته، زاد ناظر الأحباس في ثمن كراء الدار التي كانت بيد شينيي، وطالب نائبه بذلك، وتدخّل باشا الرباط في القضية، واحتجّ بالأوامر المخزنية الصادرة في كراء أملاك الأحباس، ولم يُؤثِّرْ هذا التهويل والتخويف أوّلاً في القضية، ولكن بعد مرور شهرين جاء من مكناس الترجمان السلطاني، وأبلغ نائب القنصل بأنّه يتعيّن عليه إفراغ دار الأحباس عاجلاً، لأنّ السلطان حازها واكتراها لأحد يهود أكادير، وأجّل نائب القنصل أربعاً وعشرين ساعة لإفراغها، ورغماً عن الاحتجاج والمقاومة، اضطرّ أخيراً إلى الامتثال تنفيذاً لأمر السلطان، ونقل ما كان فيها من الفرش والمتاع إلى دويرة صغيرة حقيرة مفتوحة من سائر الجهات نفّذها له باشا المدينة، ولا شك أن بعض الأوربيين دسّ بعض الدسائس للجلالة السلطانية بذلك، ومن جملتهم قنصل إصبانيا. وكان يريد نقل دار تجارته من فضالة إلى الرباط، واختار لَهَا القنصلية الفرنسية، وحاول أو يكون تنفيذها له واختصاصه بها.

وكانت الدور الصالحة لسكنى الأوروبيين قليلة بالرباط، بحيث لا تتجاور أنامل اليد، ولذلك كان دائماً يقع التشاجر بينهم فيمن تُنفّذ له. ويتدخّل المخزن في شأنها، ويتبارون في الحُصول عليها، ويتحمّلون كل ما يقترحه المخزن عليهم في ثمن كِرائها تبعاً للأرباح التجارية. وكلّما تطوّرت قضية هذه الدار التي كانت بيد القنصل شينيي في طور من الأطوار، صَفَّقَ له القناصل الآخرون تقرُّباً وتَزَلُّفاً لجانب المخزن.

ولمّا رجع شينيي من سفره، استرضى السلطان بما يطيب به خاطره، فأمر حينئذ بردِّ داره إليه بدون أيِّ صعوبة، ومع ذلك فإنّ كثرة الأمطار في تلك السنة أحدثت فيها خسائر كثيرة ، واضطرّ إلى إفراغ قسم منها، وتعذّر على نظارة الأحباس تحمُّل القيام بإصلاحه

عاجلا فتحمَّل هو قسطاً منه علي حساب فرنسا والباقي تحمَّلته نظارة الأحباس. ولمَّا وجَّه قائمة ما قُوِّم به الإصلاح لوزارته بباريس استعظمته، وبقيتْ المسألة موقوفة نحو العامين، والقنصل مضطرٌّ إلى السكنى في شق من الدار المتهدِّمة، حتى أنَّه خطر بباله نقل قنصليته إلى مدينة العرائش، لأنَّ محلات السكنى فيها غير متضرِّرة.

وفي آخر سنة ثمان وسبعين وسبعمائة وألف (آخر 1778/ آخر 1192)، نفَّذت له حكومته قدراً من المال ينفقه في الإصلاح المطلوب بالدَّار المذكورة.

وقام بتقويم نفقة الإصلاح من جديد خبيران بالبناء، أحدهما إنجليزي، والآخر إصباني كانا فارقا دينهما ودخلا في دين الاسلام، والتزم ناظر الأحباس في ذلك العهد السيد المكي ابن عبد الله بركاش بأدَاء ثلث ما قُوم به مجموع الإصلاح فقط.

ولمَّا شرعوا في العمل، اقترح شينيي أنْ تكون واجهة الدار المشرفة على الوادي منمَّقة على صفَة خاصَّة تروق جلالة الملك إذا مرَّ بناحيتها أو أمامها، فزُيِّنت بنقوش هندسية رائقة تستلفت الأنظار، واقتضى هذا التحسين والتزيين زيادة في الثمن تقدَّر بنحو خمسين لويزاً ذهبياً، وَصَادَقَ السلطان على ذلك، وسُرَّ شينيي بمُصادقته. ولمَّا كان بالرباط في إحدى حركاته، ومرَّ في موكبه من ناحيتها، التفت إليها وأعجبه منظرها.

وجاء مُهَنْدِسان مخزنيان بعد ذلك، وعاينا الواجهة المزيَّنة، فاستعظما ما أُنفق عليها، وكان شينيي تجاوز في النفقة القدر الذي عُيِّن لها، حتى بلغ سبعة عشر ألفاً وخمسمائة لويز (17,500) سكَّة فرنسية، فدفع منها عشرة آلاف فقط، والباقي بقي ديناً له مُعلَّقاً مدة أربعة أعوام إلى سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة وألف (1197/1783).

ولكن السلطان بعد ما كان ارتاح لمَا آلت إليه دار قنصل فرنسا بالرباط واعتبره، انقلب عليه لأسباب أخرى، ووجَّه سفارة من قبله إلى فرساي (Versailles)، فلم يُلتفت إليها كما هو المعتاد مع السفراء، وحدثت حوادث مهمَّة ترتَّب عنها مخابرة طويلة بين فرنسا والمغرب، كحادثة أسرى بحَّارة السفينة الفرنسية التي غرقت قرب شواطئ وادي نون، وتوجَّه السفير الطاهر فَنِّيس إلى فرنسا لمباشرتها على وجه يرضى الطرفين.

وعقب ذلك، وجَّه السلطان سفيراً آخر إلى حكومة فرنسا، وهو علي بيريس، فلم تعتبر فرنسا سفارته، ولم يُقتبل بفرساي (Versailles)، ورجع من مرسيليا على عقبه مزوَّداً برسالة من رئيس البحرية جواباً عن الرسالة السلطانية، وازدادت الحالة تحرُّجاً، واغتاظ السلطان غيظاً شديداً من ذلك، وامتحن القنصل امتحاناً مزرياً به، كما تقدم ذلك كله مفصَّلاً، فتغاظت

فرنسا عن ذلك، وأسرَّت الندامة لمَّا رأت ما عومل به قنصلها، وحملته على أنَّ ذلك صدر من السلطان في حالة غيظ وتأثُّر، وبمقتضى ذلك كلِّه، فإن شينيي لم يقم بداره التي أصلحها بالرباط، وأُنفقت عليها أموال طائلة، إلاَّ أياماً قلائل، وانْسَحَبَ بعد محنته إلى طنجة، ومنها استدعته حكومته، وبارح المغرب نهائياً راجعاً إلى بلاده في الخامس عشر من شتنبر سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة وألف (15 شتنبر 17/1782 شوال 1197)، وانتهت قنصليته ومهمَّته بالمغرب.

اشتغال شينيي بالجاسوسية

هذا والذي يُؤخَذُ ممَّا تقدَّم من أخبار القنصل شينيي وإقامته بالرباط، ودار سكناه بها، واتصاله بالرئيس علي بيريس وسفارته لفرنسا، وما اتخذه من الأسباب، وانتحله من الأخبار المخالفة للواقع، الموجبة لإفسادها وعدم نجاحها، حتى توصَّل لذلك، كلُّها تدلُّ على أنه كان معْوَلاً من معاول تحطيم الدولة المحمدية، وكان يعمل كلَّ ما في وسعه لقطع خط المواصلة بينها وبين الدولة الفرنسية، بل وحتَّى مع بعض الدول الأخرى الأوروبية، وكان مشتغلاً بالجاسوسية، وتصوير حوادث الدولة في صور غير مرضية، مخالفة للحقائق الوضعية، وليس لها سند صحيح تعتمد عليه، أو مرجع ترجع إليه، ومن تتبَّع رسائله وما كان يكتبه مدة إقامته بالمغرب، علم ذلك، وإنَّما ذكرنا شيئاً يسيراً منها يتعلق ببعض رؤساء البحر لا غير.

وقد شهد بذلك وأشار إليه وأثبت بعضه الكاتب المؤرخ كايي (Caillé) في بعض ما كتبه عن المغرب وتاريخه السياسي، كما في تأليفه المسمى «القنصلية بطنجة»[229] (Le Consulat de Tanger)، وحاصله أنَّه كان يعلم البلاط الملكي بفرساي بكل ما يَرُوجُ ويتجدَّد بالمغرب، كحركة السلطان، وخصوصاً أسفاره إلى السويرة لأمور شخصية تتعلق به وبأسرته وداخليته، ولا علاقة لها بالسياسة الخارجية، وتجديد الأساطيل المغربية وتجهيزها وتسليحها وأنواعها وحركتها، وعزم السلطان على توجيه السفراء إلى الخارج، والمقصود من سفاراتهم وما سينتج عنها، والإتاوة التي كانت مرتَّبة على بعض الدول الأوروبية كالدانمارك والسويد، وجمهورية ڤينيزيا، والمخابرات التي كانت تروج بين الدولة المغربية وإنكلترا. وما يتعلَّق بجبل طارق بين إنكلترا وإصبانيا وغير ذلك...

---

229) ص 18 من كتاب (Le Consulat de Tanger).

بل وحتى بأمور تتعلّق بسياسة السلطان داخل مملكته، ومع رجال دولته وعمّاله، وأخبار رؤساء القبائل، وما يروج بينهم، ويزيد وينقص فيه حسبما يوحيه إليه ضميره، ويطابق مصلحته، ويُغْري الفرنسيين من أبناء جنسه الذين كانوا بالمغرب برفض ما يامرهم به السلطان ليحدث بينهم وبينه الشنآن.

ولكن سيدي محمد بن عبد الله لمّا اطّلع عليه وتحقّق بما كان مشتغلاً به، قلب له ظَهْرَ الْمِجَنِّ، وامتحنه كما تقدم، وألْزَمَهُ الإقامة بطنجة.

وأخيراً تحقّقت فرنسا بأمره، وعدم نجاح سياسته، وأنّه يسعى في التفريق بينها وبين الدولة المغربية، فعزلته من منصبه، وعيّنت قنصلاً آخر في محلّه، ورجع لبلاده وكانت وفاته بباريس في السادس والعشرين من مايه سنة خمس وتسعين وسبعمائة وألف (26 مايه 7/1795 قعدة 1209) وهو ابن ثلاث وسبعين سنة.

لال طريدة

بقي علينا هنا أن نُلمّ بكلمة بالتعريف بِلاَلّ طريدة التي ورد ذكرها فيما تقدم، وكان القنصل شينيي ساكناً بدار كانت محبّسة على ضريحها فنقول :

لاَلّ طريدة هذه، ذكرها أبو عبد الله محمد بن المصطفى بوجندار الرباطي في كلمة الختام التي ختم بها كتابه المسمى «الاغتباط، بتراجم أعيان الرباط»[230]، في جملة نسوة أخريات أندلسيات مهاجرات، أو نقلت جثتهن في جملة ما نُقل من جثث الأموات، وعدّ منْهُنّ لالّ فاطمة طريدة هذه، ولالّ حقية، ولالّ تبرنوست، ولالّ القضية، ولالّ البيضاء، ولالّ هَنُّو، وحكى بقيل إنهنّ كلهنّ أخوات لالّات، وكُنّ يحفظن المدوّنة، أو فيهن من يحفظها.

وذكرها أيضاً برينو (Brunot)، في كتابه المسمى «البحر» (La mer)[231]، وقال إنها أخت لالّ القضية التي يوجد ضريحها قرب باب البحر، بناحية بُرْجٍ صغير هناك، يعرف ببريج (تصغير برج)، لالّ القضية، وأنه محترم ويُزار، وتُقدّم له النذر من الحجاج إذا رجعوا سالمين من حجهم.

230) مخطوط الخزانة الناصرية السلاوية، ص 237 من الجزء 2 والتي بعدها.

231) العنوان الكامل للكتاب بالفرنسية :

(La Mer dans les Traditions et les Industries Indigènes à Rabat et Salé)، ص 57، طبع باريس 1921.

وجاء في مجلة هيسبيريس (Hespéris)[232] في المقال الذي خصّصه پيير دوسينيڤال (Pierre de Cénival) المتقدم الذكر، للكلام على تعيين موقع الدار التي يسكن بها القنصل لوي شينيي، وهل بالرباط أو سلا، بأن ضريح لال طريدة هذه يوجد بشارع القناصل بالرباط قرب السقاية التي هُنَاكَ بجوار مسجد السوق، وهو محترم ويزار إلى الآن، وعليه كانت مُحبّسة دار القنصل المذكور، كما تقدم.

232) ص 30 من العدد الأول لسنة 1928.

المبحث الخامس

بقية أخبار بعض مشاهير رؤساء الأسطول القرصاني السلاوي - الرباطي في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله

*** الرئيس الحاج الطيب والعلو السلاوي**

أسرة وَالَعْلُو من الأسر القديمة بسلا، وأصلهم من الريف من أولاد علوان، ونزحوا إلى سلا في عهد السعديين، ولعلهم هاجروا إلى الريف من الأندلس.

وكان أحدهم من أتباع وأشياع الشيخ الجليل أبي محمد سيدي عبد الله بن حسون السلاسي الْخَالِدِي، صاحب الضريح المشهور بسلا، وشهرته تغنى عن التعريف به رضي الله عنه.

ولمَّا تُوفي هذا الشيخ العلواني أو الْوَلَعْلُوِي دُفن داخل قبته، رحمه الله تعالى.

وقد كان في هذه الأسرة قضاة وعلماء ومفتون، ورؤساء أسطول ومجاهدون في البحار في سبيل الله تعالى.

وبالجملة، فقد خلَّفوا ذكراً جميلاً، وثناءً عَاطِراً وشهرة في هذه المدينة السلاوية، تناقلها الخلف عن السلف.

ومن علمائهم، الشيخ أبو العباس أحمد بن محمد والعلو.

وفيه يقول أبو عبد الله محمد بن علي الدكالي في كتابه، «إتحاف أشراف الملا، ببعض أخبار الرباط وسلا»[233].

---

233) ص 38، مخطوط الخزانة الناصرية السلاوية المصوَّر.

وَمِنْهُمُ الشَّيْخُ الْفَقِيهِ الأَمْجَدُ   عَلاَّمَةُ الثَّغْرِ الْمُجَازُ أَحْمَدُ
ابْنُ مُحَمَّدٍ وَالَعْلُو قَدْ عُرِفْ   بِذَا انْتِسَاباً مِنْ قَدِيمٍ قَدْ وُصِفْ
شَيْخٌ جَلِيلُ الْقَدْرِ مِمَّنْ رَحَلاَ   لأَرْضِ فَاسٍ وَبِهَا قَدْ حَصَّلاَ
مِنَ الْمَعَارِفِ جَلِيلاً وَحَمَلْ   عَنْ أَهْلِهَا جُلَّ الْعُلُومِ فَاكْتَمَلْ
وَعَادَ مَسْرُوراً بِكُلِّ فَيْدِ   مُعَزَّزاً مُؤَزَّراً بِمَجْدِ
أُجِيزَ مِنْ أَعْيَانِ فَاسٍ فَعَلاَ   قَدْراً وَصِيتاً وَأَتَى أَرْضَ سَلاَ
فَدَامَ فِيهَا مُقْرِئاً مُفِيدَا   دَرْساً وَإِفْتَاءً وَلاَ مَزِيدَا
أُجِيزَ بِالْبَيْتِ الذي لِلْكُوهَنِ   أَبِي مُحَمَّدٍ الْجَلِيلِ السَّنَنِ
مِنَ ابْنِهِ مُحَمَّدٍ ثَمَّتَ عَنْ   مُحَمَّدِ بْنِ الحَاجِ عَنْ أَخٍ عَلَنْ
ثُمَّ قَضَى قَبْلَ انْفِصَالِ الْمَائَةِ   بِعَامِ صَبٍّ حَامِداً لِلْبَيْئَةِ
وَكَانَ ذَا خِزَانَةٍ مُفِيدَةْ   بِهَا دَوَاوِينُ غَدَتْ فَرِيدَةْ
وَلَمْ يَزَلْ يُفِيدُ أَرْبَابَ الْعُلاَ   أَجْزَاءَهَا مِمَّنْ تَعَاطَى[234] بِسَلاَ
ثُمَّ قَضَى فَانْتَثَرَ الْمَنْظُومُ   وَوُزِّعَ الصَّحِيحُ وَالْخُرُومُ
وَحَلَّ فِي زَاوِيَةِ التُّهَامِي   مُسْتَمْطِرَ الْغَيْثِ الْعَمِيمِ الْهَامِي

ومن أعيانهم القائد السيد الحاج العربي بن الطيب، والناظر السيد عبد الكريم، وغيرهم.

وخلّف الرئيس المجاهد الحاج الطيب أربعة أولاد، وهم :

الحاج العربي، والمجاهد الرئيس الحاج محمد، والسيد محمد، المدعو الصغير، والسيد محمد المدعو الخضر.

وأنجب الأول ولداً سمّاه باسم جدّه المجاهد السيد الطيب، والسيد أحمد، والسيد عبد السلام. وأنجب الثاني، الطالب السيد إبراهيم، والطالب الحاج عبد الله، والسيد الحاج عبد القادر، والسيد الهاشمي.

وكانت لهم مصاهرة مَعَ بعض الأسر السلاوية الشهيرة، ومن جملتها : الخضراوية، والحجِّية، والزواوية، وغيرهم.

وما زالت هذه الأسرة الوالعلوية موجودة بسلا إلى الآن، وهي مشهورة معروفة.

234) استعملها والدنا الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، وأضرابه، رحم الله الجميع.

وقد كان أحدهم، السيد الحاج بوبكر والعلو متزوجاً بالسيدة عائشة بنت الفقيه الموقت بالمسجد الأعظم، السيد المكي الزواوي، وأمُّها السيدة خدّوج بنت القائد السيد الحاج عبد الوهاب محبوبة، وأم خدوج اسمها فاطمة، وأُمُّها من أسرة آل غليض المنتسبين إلى آل عشرة، المعمرين لمدينة سلا، رحم الله الجميع.

ونصّ وثيقة عدلية تتضمّن أسماء ورثة المرحوم الحاج محمد بن المرحوم السيد أحمد والعلو، أحد أفراد هذه الأسرة، كما وقفنا عليه.

الحمد لله

الواضع شكله اثره، سامحه الله وتولاّه، يشهد بمعرفته للطالب الأبرّ المُسنّ السيد الحاج محمد بن المرحوم السيد أحمد والعلو، معرفة عيْن واسم ونسب، وبها ومعها يشهد بأنه تُوفي قطعاً، رحمنا الله وإياه والمسلمين، وأحاط بإرثه في علمه زوجه خديجة بنت يوسف والعو وأولاده الفقيه العالم السيد أحمد، والطالب العربي، وفطّومة، ورحمة، وعائشة، وأم هانيء، لا وارث له سوى من ذُكر في علمه... معرفة اسم ونسب، كما في علمه كله....

وحُرِّر في خامس وعشري رمضان المعظم عام سبعة بموحده وثمانين ومائتين وألف.
(25 رمضان 19/1287 دجنبر 1870). (الامضاء بشكل العدلين)

وممًّا وقبنا عليه مقيَّداً في بعض الصحف، أيضاً : تُوفيت المرأة زهراء بنت السيد الحاج محمد الطالبي، فورثها والدها، وزوجها العربي بن الطالب، السيد محمد والعلو وأولادها منه : السيد محمد، والسيد بوبكر، لا وَارِث لها سوَاهُم.

بتاريخ خامس وعشري جمادى الآخرة عام أربعة وتسعين ومائتين وألف. (25 جمادى الآخرة 4/1294 يوليوز 1877).

وإنَّما أدرجنا هُنَا بعض من وقفنا عليه من أسماء نسل هذه الأسرة الوالعلوية، بعد استقرارها بسلا، وبعض الوثائق المتضمِّنة لورثة بعضها بعضاً لتعلُّقها بالرئيس الذي نبحث في ترجمته، وتسجيل ما وصلنا من أخباره، إتماماً للفائدة.

هذا، وقد ورد ذكر جماعة من آل هذا الرئيس وذويه في دفتر الأميرال السيد الحاج الطاهر عواد في قوائم البحّارة والمجاهدين الذين كانوا يُعَيَّنون للسفر معه أَوْ مع غيره من الرؤساء في وجهاتهم الجهادية البحرية، أو الذين تُنفَّذ لهم الصِّلات والعطايا المخزنية في جُلِّ المناسبات من بحرية سلا ورباط الفتح، وفي ذلك دليل على أنهم كانوا يتسابقون ويتعاقبون على الاتِّصاف بهذه الصِّفة، ويرغبون في الخدمة في الأسطول المغربي الواحد تلو الآخر. ومنهم :

*** الرئيس السيد الحاج محمد والعلو**

فقد كان من جملة من نَفَّذَ لهم السلطان سيدي محمد بن عبد الله الكِسْوة من الملف الجيد وغيره، في صفر عام ثمانية وتسعين ومائة وألف (1784/1198)[235].

وورد في هذه القائمة أيضاً إسم الرئيس محمد والعلو، بدون وصفه بصفة الحاج[236].

ثم ورد في قائمة الطائفة الجهادية البحرية السلاوية ذكر الرئيس الحاج محمد والعلو، ولا نتحقّق هل هو المتقدم ذكره أو غيره[237].

وفي قائمة المجاهدين البحرية الذين نُفِّذَت لهم الصِّلة السلطانية في شهر المحرم عام تسعة عشر ومائتين وألف (1804/1219)[238]، ذكر اسم المجاهد الحاج محمد والعلو أيضاً.

وفي قائمة المجاهدين البحرية المؤرخة بمنتصف رمضان عام واحد وعشرين ومائتين وألف (14 رمضان 1221/ أواخر نونبر 1806) ذكر اسم الحاج محمد والعلو أيضاً[239].

وفي تقييد أسماء المجاهدين من بحرية سلا المتزوجين المؤرخ بأواخر المحرم عام سبعة وعشرين ومئتين وألف (1812/1227)[240] ذكر اسم الرئيس الحاج محمد والعلو أيضاً والطيب والعلو، وأحمد بن الحاج محمد والعلو[241].

وفي قائمة بحرية الرئيس عبد الله حمدوش المؤرخة عام تسعة ومائتين وألف (1795/1209)[242] ورد إسم البحّار عبد الله والعلو.

ثم ورد ذكره مرة أخرى في قائمة مع البحّارة[243].

وفي قائمة تليها، اسم البحّار محمد بن الطيب والعلو[244].

---

235) دفتر الأميرال السيد الحاج الطاهر عواد، ص 34، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.
236) نفس المصدر، ص 34 أيضا.
237) نفس المصدر، ص 64.
238) نفس المصدر، ص 72.
239) نفس المصدر، ص 87.
240) نفس المصدر السالف الذكر، ص 102.
241) نفس المصدر السالف الذكر، ص 105.
242) نفس المصدر السالف الذكر، ص 116.
243) نفس المصدر السالف الذكر، ص 125.
244) نفس المصدر، ص 125 أيضاً.

وورد ذكره أيضاً في قائمة الدمانجية[245].

وقد ورد أيضاً لهذا الرئيس، الحاج الطيب والعلو، ذكر في دفتر القنصلية الفرنسية بالمغرب في عهد القنصل شينيي فقال :

الرئيس الحاج الطيب والعلو كان قائد سفينة حربية بمرسى العرائش مسلّحة بعشرين مدفعاً، وفيها سبعون بحّاراً.

وكان من جملة الرؤساء الذين سَلَّم لهم ورقة الجواز «باسبورط» (Passeport) سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة وألف (1187/1773) وذلك في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله.

بعض أعمال الرئيس الحاج الطيب والعلو

الحربية وأسفاره البحرية

قال القنصل شينيي المتقدم الذكر، في رسالته الصادرة منه من سلا إلى رئيسه بباريس، المؤرخة برابع عشر غشت سنة ست وسبعين وسبعمائة وألف[246] (14 غشت 28/1776 جمادى الآخرة 1190) ما حاصله :

بارح العرائش منذ بضعة أيام فركاطتان مغربيتان، إحْداهما برياسة علي بيريس الرباطي، مسلَّحة بأربعة وعشرين مدفعاً ومائتي بحّار.

والأخرى برياسة الرئيس الحاج الطيب والعلو السلاوي مسلَّحة بثلاثين مدفعاً. ومائتي بحّار أيضاً.

ويقال إنَّ هذين الرئيسين سيتوجَّهان بأمر سلطاني للجولان والطَّواف بساحل البحر الرومي (يعني الأبيض المتوسط)، لعلهما يصادفان أو يأخذان على غِرَّةٍ، بعض الوحدات من الأسطول الهولاندي.

وتبعتهم بعض السفن الصغيرة والقوارب سالكة مسلكهما، ومقتفية أثرهما ومقصدهما. ويقال إنّهما سَيَتَجَوَّلَانِ برأس بون (Cap Bon) أيضا.

ولمَّا علم الأسطول الهولاندي الذي كان ببوغاز جبل طارق بذلك، انقسم إلى قسمين، واقتفى أثرهما وأثر القطع الصغيرة الأخرى التابعة لهما ليمنعهما من أخذ السفن الهولاندية التجارية السابحة في البحر الأبيض المتوسط.

245) نفس المصدر، ص 136.

246) «مراسلة القنصل لوي شينيي»، ج 1، ص 441.

ونَصَّ القنصل أيضاً في رسالته المؤرخة بسادس وعشْرِي غشت سنة ست وسبعين وسبعمائة وألف[247] (26 غشت 10/1776 رجب 1190) على أنَّ الرئيسين المذكورين أبحرا من العرائش في السابع والعشرين من شهر يوليوز (27 يوليوز/10 جمادى الآخرة) من السنة المذكورة، وبعد إبحارهما بنحو عشرة أيام، صادفا حول جُزُر أشور (Les Açores) في الدرجة 37 من خط الطول سفينة هولاندية، اسمها ماري كاترين (Marie Catherine)، تحت رياسة القبطان جاكوب ميير (Yacob Meyer) كانت بارحت مرسى امستردام (Amsterdam) يوم عاشر يوليوز (10 جمادى الأولى) من السنة المذكورة، قاصدة مرسى سورينام (Surinam) الهولاندية، ومحمولها ثلاثمائة طن، فلم تقاوم أصلاً، واستسلمت في الحين، مع أنَّها كانت مُسلَّحة بستة عشر مدفعاً، وفيها ثلاث وعشرون نوتياً، ومعهم من الرُّكاب اثنا عشر عسكرياً، وحاملة قدراً مُهمّاً من الجير وآجر البناء، وعدداً كبيراً من الألواح، وقدراً مُهمّاً من المُؤن والثياب الصالحة للِّباس، وغير ذلك ممَّا تحتاجه الفرقة العسكرية الحامية للمرسى القاصدة إليها من الكسْوة وغيرها.

وقيل أيضاً إنها كانت حاملة لِقَدْرٍ مُهِمٍّ من المال بقصد النفقة على العسكر، ولكن هذا مجرَّد قول قيل لا غير.

فسيقت إلى السويرة، ولم يصل خبرها إلى القنصل شينيي إلاَّ في الثالث عشر من الشهر الجاري.

واسترسل قائلاً إنه يوجد أسطول هولاندي يتركَّب من خمسة عشر فركاطة ببوغاز جبل طارق وحوض قادس يترصَّد قراصين ملك المغرب لينتقم منها، ثم ذكر أنَّ جماعة من فرسان السلطان جاءوا من مراكش وأخبروا بأن السلطان سيتوجَّه قريباً إلى السويرة، حيث ينتظره فيها الرئيس الحاج الطيب والعلو السلاوي، ورفيقه علي بيريس الرباطي، وحينئذ يقع إحصاء ما كان في السفينة الهولاندية من الغنائم، ويُقرِّر ما سيكون في شأنها.

وسجَّل في رسالته المؤرخة بسادس عشر دجنبر سنة ست وسبعين وسبعمائة وألف (16 دجنبر 5/1776 قعدة 1190)[248] أن فركاطة الرئيس والعلو كانت مُسلَّحة بأربعين مدفعاً، وفركاطة رفيقه بيريس، كانت مسلحة بأربعة وعشرين مدفعاً لمَّا أبحرتا من العرائش للجولان بالبحر الأبيض والشواطئ البرتغالية، وغنمتا معاً سفينتين هولانديتين مشحونتين بالملح والفواكه والخمر، وأنَّ الرئيس والعلو ساقهما إلى العرائش، وذلك في السادس من الشهر الجاري.

---

247) المصدر السالف الذكر، ص 445 من ج 1.

248) المصدر السالف الذكر، ص 474 من ج 1.

واتَّفَقَ أنَّ ثلاثة قطع حربية هولاندية أيضاً كانت قريبة منهما، ولاحظت أسرهما، وما حلَّ بهما، فَتَتَبَّعَتْهُما، ونَتَجَ عن ذلك جنوح السفينتين المغنومتين إلى الشاطئ، وغَرِقَتْ إحداهما، واحترقت الأخرى، وغنم البحّارة المغاربة الوقت في إنجاء ما أمكنهم إنجاؤه مِن السِّلع التي كانت مشحونة فيهما.

وبَقِيةُ أخبار هاتين السفينتين ومثال أمرهما مبسوط في ترجمة الرئيس علي بيريس.

وأردف القنصل ما ذكره في هذه الرسالة برسالة أخرى بتاريخ ثالث وعشري دجنبر سنة ست وسبعين وسبعمائة وألف[249] (23 دجنبر 12/1776 قعدة 1130) بأنَّهُ وردت عليه أخبار أخرى من العرائش مُضمَّنها، أنَّ ثلاثة سفن هولاندية نشبت في البرِّ بساحل الناحية العرائشية، وسفينتان منها محمول كل واحدة منهما ثلاثمائة طن، وإحداهما فيها أحد عشر نوتياً، والأخرى فيها إثنا عشر نوتياً.

وكانتا مشحونتين مَعاً من إحدى المراسي الإصبانية، متوجِّهتيْن لأمستردام (Amsterdam)، الهولاندية بسبعمائة وسبعين طرداً من الصوف، وقَدْرٍ مهمٍّ من الملح، وسبعين صندوقاً من الخمر، وأربعمائة وأربعين صندوقاً مملوءاً بالفواكه اليابسة، والليمون وغير ذلك.

وكانت هذه السفن غُنمت يوم الثامن من الشهر، وسيقت إلى ساحل العرائش، وجُعلت تحت حراسة الرئيس الحاج الطيب والعلو السلاوي الذي أرسى سفينته تحت القصر السلطاني.

وجاءت سفينة هولاندية أخرى، وأرغمت السفينتين المغنومتين على الجنوح إلى البرِّ، ولم يَنْجِ مِمَّا كان فيهما من السِّلع سوى ثلاثمائة طرد من الصوف، وجلها أفسده البحر، بحيث صارت لاَ يُنتفع بها، وستة عشر صندوقاً من الخمر، فشرب منها بعض من كان حاضراً، فكان فيها هلاكه.

ثم أخبر في رسالته المؤرخة بثامن أكتوبر سنة سبع وسبعين وسبعمائة وألف[250] (8 أكتوبر 6/1777 رمضان 1191) بأن إحدى الفركاطتين اللتين كانتا راسيتين بِنَهْرِ أبي رقراق، أبحرت منه آخر الشهر الماضي، وإحداهما تحت رياسة الرئيس الحاج الطيب والعلو السلاوي.

ثم ورد عليه الأمر السلطاني بأن يبقى راسياً بخليج المرسى، لأنَّه عُيِّن للسفر إلى ليسبون البرتغالية في فركاطته بالسفير المغربي القائد عبد المريد الذي سيحمل رسالة تهنئة إلى ملك البرتقال بيير الثالث،[251] بمناسبة تتويجه وإسناد الملك إليه.

---

249) المصدر السالف الذكر، ص 476 من ج 1.

250) المصدر السالف الذكر، ج 1، ص 588.

251) بطرس الثالث تُوج ملكاً للبرتقال، في 24 بيراير سنة 1777، وكان قد تزوَّج بنت أخيه ماري دو براكانس (Marie de Bragance)، بنت جوزيف الأول، ووارثة عرشه. وكانت وفاته في 25 ماي سنة 1786.

ثم عقَّب على هذا، بأنَّ هذا السفير سيسافر في سفارته فارغ اليد، يعني من أي هدية للملك الجديد، وإنَّما كتاب التهنئة كان مُنمَّقاً، حسن العبارة والثناء لا غير.

وفي رسالته المؤرخة بثامن نونبر سنة سبع وسبعين وسبعمائة وألف (8 نونبر 7/1777 شوال 1121)[252] أخبر بأن الرئيس والعلو توجَّه في وجهته هذه صحبة السفير المذكور، وعاقة الريح عن الاستمرار في طريقه إلى العاصمة البرتقالية، فاضطرَّ إلى الإلتجاء إلى مرسى جبل طارق، ولم يبارحها إلاَّ في الثاني والعشرين من الشهر المذكور (21 شوال من السنة المذكورة) وفي أثناء عبوره للبوغاز، لقي مركبا إنكليزياً مشحوناً بالسمك المُملَّح المُصَبَّرِ، والتِّبْغِ متوجهاً بهما إلى أليگانط (Alicante) فاستولى عليه زاعماً أنَّ أصله أمريكي، وورقة جوازه قديمة لم تبق صالحة للعمل بها.

وكانت بالمركب عشرة بحّارة من الإنجليز، فأخذ منهم خمسة، وألزمهم الركوب معه في فرگاطته، وعوَّضهم بعشرة من بحّارته المغاربة، وأمرهم بسوق المركب المأخوذ إلى طنجة، فوصل إليها يوم الثلاثين من الشهر المذكور، (27 رمضان).

وفي فاتح نونبر بعده (30 رمضان)، جاءت إلى طنجة من جبل طارق سفينة ذات شراع واحد، وأرست ما بين الشاطئ والمركب المأخوذ، وفي الغد رجعت إلى جبل طارق لِتُخْبِرَ حاكمه بذلك، ثم قال :

«وسائر مثل هذه الحوادث إنَّمَا يَنْشَأُ عنها خلاَفَات تستدعي المذاكرة وإيضاح الحقيقة بين الطَّرَفَيْن الإنجليزي والمغربي، وخصوصاً ما تعرَّض له الإنجليزيون الذين كانوا في المركب، وأُرْغِمُوا على المجئ إلى طنجة.»

وفي رسالته المؤرخة بثامن عشر إبراير سنة ثمان وسبعين وسبعمائة وألف (18 إبراير 20/1778 محرم 1192)[253]، قال : إن الفرگاطة السلطانية التي تحت رياسة الرئيس الحاج الطيب والعلو، وكانت توجَّهت في شهر أكتوبر الماضي (رمضان) إلي العاصمة البرتغالية بالسفير المغربي كما تقدم، رجعت في الثاني عشر من الشهر الجاري (14 محرم) وأرست بمرسى العرائش.

وحيث أنها لم تُحكم الارساء كما ينبغي، فقد لقيت صعوبة، وبقيت زمناً ناشبة في الأرض، ولم تنج من الخطر إلاَّ بعد مَدِّ البحر، وارتفاع أمواجه، ولذلك تأخَّر نزول السفير منها بِمُجَرَّدِ وصولها.

---

252) المصدر السالف الذكر، ج 2، ص 595.

253) المصدر السالف الذكر، ج 2، ص 624.

وإلى الآن لم تُعرف نتيجة سفارته، ولا ما كان مآلها.

وغاية ما قيل عنها هو أنَّ البرتقال سيوجِّه فركاطة من أسطوله بسفير من طرفه، مصحوباً بهدايا لملك المغرب.

هذا، وقد كان هذا الرئيس والعلو، أخذ الرئيسيْن اللَّذَيْنِ كلَّفهما السلطان بالتوجُّه في سفينتهما إلى الجزائر حاملتين الأمتعة والغنائم التي كانت في السفن الجزائرية التي حطَّمتها بعض قطع الأسطول الإصبنيولي، حسبما ذُكر مبسوطاً في ترجمة الرئيس صالح، نقلاً عن رسالة القنصل شينيي، المؤرخة بسادس عشر غشت سنة تسع وسبعين وسبعمائة وألف (16 غشت 3/1779 شعبان 1193)[254].

وهذا ما توفَّقنا إلى الحصول عليه وجمعه وتسجيله هنا من أخبار هذا الرئيس وبعض ما يتعلَّق بأسرته وذويه بسلا.

ولم نَقِفْ حتى الآن على مآله وبقية أعماله البحرية وتاريخ وفاته، والله الموفق بمنِّه.

*الرئيس علي الصابونجي السلاوي

ذكر المؤرِّخون أن هذا الرئيس من جملة الرؤساء الذين هاجروا من بلادهم تركيا إلى السلطان سيدي محمد بن عبد الله، فاستعملهم في أساطيله، وكانوا من المقرَّبين إليه، والمعتَمَدين لديه، وقيل إنَّه من تونس.

واستوطن سلا، ولازالت أسرة آل الصابونجي موجودة بها، ومن أعيان أُسَرِهَا نسباً وحسباً وصِهْراً، وحُرْمَةً وذكراً.

وذكر كواندرو (Coindreau) في كتابه «قراصنة سلا»[255] وشينيي في دفتره الخاصِّ، أنَّه كان في ابتداء أمره، سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة وألف (1184/1773)، كغيره من الرؤساء المهاجرين، يقود سَفِينَةً سلاوية صغيرة شراعية مسلَّحة بخمسة مدافع وستة وثلاثين مجدافاً، وستين بحّاراً.

وقد ورد له ذكر في دفتر الرئيس الحاج الطاهر بن القبطان الأميرال الحاج الهاشمي عوّاد السلاوي، وأنه معروف من جملة المجاهدين السلاويين الذين أنعم عليهم السلطان

254) المصدر السالف الذكر، ج 2، ص 754.
255) ص 93، طبع سلا 1998، وص 84، طبع 1948.

سيدي محمد بن عبد الله بالكِسْوة المشتملة على الملف والكيرية وغيرها، وريالين صلَةَ سلطانية، وذلك في ثالث عشر صفر عام ثمانية وتسعين ومائة وألف (13 صفر 7/1198 يناير 1783)[256]، وبه افْتُتحت قائمة المجاهدين بسلا من أهل المشرق في الدفتر المذكور، واتبعه كاتبها بآخرين.

وكان له ولد مَعْدُودٌ في بحرية سلا اسمه أحمد مُقيَّد في الدفتر المذكور[257].

كما كان بسلا رئيس آخر من الأسرة الصابونجية أيضاً يُسمّى سيدي المنجي الصابونجي، ذكره أبو زيد ابن زيدان[258].

وحيث كان هذا الرئيس من الرؤساء المهاجرين الممتازين المقدَّمين عند السلطان سيدي محمد بن عبد الله، فقد كان يُصْدِرُ له ولرفيقه الرئيس أحمد التركي ظهائر شريفة خاصَّة تتعلَّق ببرامج سفرهما وحركتهما البحرية، ومن جملتها الظهير الشريف الذي خاطبهما فيه بقوله[259]، بعد الحمدلة والتصلية على الرسول، والطابع الشريف :

إلى الرئيسين علي الصابونجي، وأحمد التركي، سَلَامٌ عليكما ورحمة الله تعالى وبركاته.

وبعد فيصلكما من حضرتنا الْعَلِيَّة بالله، ستون مثقالاً، ثلاثون لكل واحد منكما.

وها أنا أمرت خديمي عبد الله بن محمد يدفع لكل منكما وَسْقَيْنِ من القمح.

وأنتما بنفس ما تحملون ما تحتاجون إليه من الكمانية وغيرها، سافروا بالسلامة والعافية والله يلقيكم الخير ذهاباً وإياباً، وسفركم يكون من البوغاز إلى جبل طارق، وحيث يكثر عليكم الشرقي، ارجعوا إلى العرائش، وحيث يكثر الغربي، ارجعوا لتطوان، وحين تكونون على جبل طارق، اعلموا أنه من نزل منكم لبلاد النصارى نعاقبه العقوبة التامَّة الشديدة.

وفي نصف أكتوبر ارجعوا لرباط الفتح، وبه يكون رباطكم إن شاء الله، والسلام.

في رابع رجب الفرد الحرام عام ثمانية وثمانين ومائة وألف (4 رجب 10/1188 شتنبر 1774).

256) دفتر الرئيس الحاج الطاهر عواد، ص 38، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

257) المصدر السالف الذكر، ص 143.

258) «إتحاف أعلام الناس»، ج 3، ص 261.

259) نفس الصدر والجزء، ص 263.

ومن تمامه أن البحرية التسعة، الواردين مع ولد عبد الله بن محمد، نأمر علي الصابونجي أن يسفرهم معه، زيادة على عمارته، وحين ترجع للرباط، إن شاء الله، انزلهم عندك بدارك، واستوص بهم خيراً، وها أنا أمرت عبد الله بن محمد أن يُرتِّب لهم مؤونتهم والسلام، في تاريخه.

ما ذكره القنصل شينيي Chénier في رسائله
من أخبار الرئيس علي الصابونجي

سجل القنصل لوي شينيي في بعض رسائله التي كان مشتغلاً بتوجيهها من المغرب إلى فرنسا، مخبراً بِكُلِّ شاذَّة وفاذَّة تقع فيه، بعض أخبار الرئيس علي الصابونجي فقال في رسالته المؤرخة في ثالث وعشري غشت سنة تسع وسبعين وسبعمائة وألف (23 غشت 10/1779 شعبان 1193)[260] ما مضمَّنه باختصار :

لمَّا جاء سفير دولة السويد إلى المغرب، ووصل إلى مكناس، استقبله السلطان سيدي محمد بن عبد الله استقبالاً جميلاً، ولكن لا يُدْرى ما حدث بعد ذلك، وإنَّما يُقال إنَّ السلطان لمَّا خَلاَ به، وتذاكر معه، لاحظ خللاً في مزاجه، لأنَّه رفض رفضاً باتّاً بَقَاءَ دولته السويدية مستمرة على أداء الضريبة التي كانت تؤديها للحكومة المغربية كل سنة، وقد تقدَّم الكلام على هذه القضية في ترجمة أحمد التركي وَمَآلها، ولذلك أُخرج من حضرته مُهاناً غاية الإهانة بعد الاستقبال العام الذي كان مخصَّصاً له، حسبما أخبر بذلك فرسان المخزن الذين جاءوا للرباط بأوامر جديدة تتعلَّق بِسَفَرِ الفركاطتين اللتين كانتا راسيتين بالمرسى، وهما مسلَّحتان بعشرين مدفعاً، ومائة من البحّارة، وفي الحين ركبوا فيهما، وزُوِّدوا بما يحتاجونه من المؤون، وما يتوقَّفون عليه من السلاح، وسلَّم أحد المخازنية للرئيسين علي الصابونجي وأحمد التُّرْكِي أمراً سلطانياً مختوماً، وأُمِرَا أنْ لا يفتحانه ولا يقرءانه إلاَّ إذا خرجا في الفركاطتين إلى البحر، ونشرا قلوعهما.

وقد بارحت الفركاطتان الشاطئ المغربي صباح يوم تاريخ الرسالة.

وتهيُّؤ هاتين الفركاطتين بهذه السرعة في هذا الوقت سرٌّ من الأسرار التي لم يطلع عليها أحد.

260) مراسلة القنصل لوي شينيي، ج 2، ص 756.

والشائع عند الناس هو أنّ السلطان، عقب مُلاَقَاته ومذاكرته مع سفير السويد الذي رَفَضَ بتَعَنُّت ما كانت دولته ملتزمة بأدائه للدولة المغرَبِيَة، أَصْدَرَ أوامره لهذين الرئيسين بتعقُّب سائر السفن السويدية التي يصادفانها في البحر ويستوليان عليها، مهما وجدا لها سبيلاً، لأنَّ دولة السويد تظاهرت بمحاربة المغرب.

هذا هو الشائع الآن.

سَتُبْدِي لَكَ الأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلاً وَيَأتِيكَ بِالأَخْبَارِ مَنْ لَمْ يُزَوِّدِ

ثم تعرَّض شيني لقضية سفر هاتين الفركاطتين على هذه الكيْفية من السرعة في رسالته التي حرَّرها لرئيسه في الثالث والعشرين من شتنبر سنة تسع وسبعين وسبعمائة وألف (23 شتنبر 17/1779 رمضان 1193)[261] بقوله :

وأمَّا الرئيس علي الصابونجي المتولِّي أمر إحدى الفركاطتين المغربيتين اللتين بارحتا المغرب بصفة استثنائية استعجالية في الثالث والعشرين من الشهر الماضي (23 شتنبر/ 10 شعبان) كما تقدَّم، وترتَّب على سفرهما إشاعات وروايات مختلفة، وكل كان يقول قوله، ويروي روايته، فقد رجع إلى العرائش في أول هذا الشهر، ومَعَهُ سفينة رَكُوزية[262] غنمها برأس كاطا (Cap de Gata)[263]، وكان بها ثلاثة عشر نوتياً، وستة ركّاب ركبوا فيها من جنوة، قاصدين جزر كاناريا، وحاملة سلعاً متنوِّعة مختلفة كالكمون والحرير، وبعض المشروبات وغير ذلك، وسيق ربَّان السفينة والرُّكاب الستة المالطيون الذين كانوا معه بأمر من السلطان إلى مكناس.

ولمَّا مثلوا بين يدي جلالته، خاطبهم بقوله : أنتم أحرار لأنِّي كنت وجّهت سفيراً من طرفي إلى مالطة، منذ بضع سنوات، فاستُقبل استقبالاً جميلاً يدلُّ على التودُّد والاعتبار، ولكن أمتعة هؤلاء الراكزيين التي لا علاقة لها بهذا التودد والاعتبار، لا يشملها هذا التسامح، وستُحْمَلُ إلى هنا لتباع.

وأما النوتية الصِّقليون، فهم أسرى أَرِقَّاء مستعبدون، لأن أَحَدَ الصقليين البحريين كان حمل بعض رعايانا من الإسكندرية، ليوصلهم إلى بلادهم، فقادهم إلى تونس، فاعتذر الرُّبان، بأن الذي فعل ذلك كان فينيسياً، ولم يكن صقلياً. فأجابه السلطان بقوله : «سأوجِّهك صحبة أحد كُتَّابنا إلى قادس، لإجراء بحث في هذه القَضية، وما وقع فيها، وإذا أسفر البحث على أنَّ الذي فعل ذلك من فينيسيا، فإن حكومتها هي التي ستؤدِّي ما وجب في ثَمَنِ محمول هذه السفينة.»

---

261) «مراسلة القنصل شيني»، ج 2، ص 772.

262) رَاكُوزِيَّة نسبة لِرَاكُوزْ، وهي إحدى مُدُن صقلِّيَة.

263) رأس على الساحل الإصباني في مقاطعة المرية (Alméria)، يسد عند الشرق خليج المدينة المذكورة الواقعة على البحر الأبيض المتوسط.

ثم وُجِّهت بعثة أخرى إلى تونس، بقصد إجراء بحث آخر هنالك، ليتحقَّق من هو الفاعل لذلك، ليتابع... اهـ.

وعاد شينيي لذكر هذه القضية وما تجدَّد فيها في رسالته التي حرَّرها لرَئيسه أيضاً بتاريخ ثامن وعشري مارس سنة ثمانين وسبعمائة وألف (28 مارس 22/1780 ربيع الأول 1194)[264].

وأما السفينة التي غنمها الرئيس علي الصابونجي، في شهر شتنبر من السنة الفارطة، فَقَدْ سيقت إلى السويرة، وعيَّن السلطان السيد صومبيل (Soumbel) الفرنسي الذي كان بالرباط، للتوجُّه للسويرة، بقصد بيع ما كان فيها من السلَع الموسوقة والأمتعة على ما قيل، أو تقويم ما تساويه أثمانها. وعلى كل حال فإنَّ هذا لاَ يكشف عن حقيقة مراد السلطان منها، وإنَّمَا يوخذ منه أنَّ ما طلبه نواب صقلية في قيمتها مشكوك فيه.

وجاء في رسالة أخرى لشينيي أيضاً مكتوبة في متم شهر غشت سنة ثمانين وسبعمائة وألف (31 غشت 1/1780 رمضان 1194)[265] أنَّ السلطان بلغه وصول فركاطة حربية مالطية مسلَّحة بستة وثلاثين مدفعاً إلى قادس، وأنَّها يمكن أن تكون قاصدة إحدى المراسي المغربية، وربَّما هي تطوان، فتشوَّش منها، وظنَّ أنَّها جاءت للإنتقام وأخذ الثأر، فاقتضى نظره أن يُوَجِّهَ سفيراً من طرفه إلى قادس، وهو القائد الطاهر فنيش، لتحقيق أمر هذه الفركاطة، والمقصود من مجيئها، والاتصال ببعض قناصل الدول هناك، كهولاندا، والسويد والدنمارك، والمذاكرة معهم سرياً، وأظهر أنَّه كلَّفه بأمور أخرى ترجع للتموين وشراء القمح من الشمال، لأنَّ المغرب كان مُحْتَاجاً إليه للمجاعة التي لحقت به لقلّة المطر في تلك السنة، ووجَّه معه الرئيس علي الصابونجي في فركاطته، فسافرا معاً امتثالاً لأمر السلطان.

وأخبر في رسالته المؤرخة في عاشر شتنبر سنة ثمانين وسبعمائة وألف (10 شتنبر 11/1780 رمضان 1194)[266] بأنَّ فركاطة هذا الرئيس علي صابونجي، رجعت من وجهتها القادسية صُحْبَةَ القائد الطاهر فنيش، وكان وصولها إلى الرباط مساء اليوم الذي قبل تاريخ الرسالة، ولم يَطَّلِعْ أحد على نتيجة وجهتها.

وزاد أنَّه يوجد أربعة فراكيط مغربية مخزنية راسية بهذه المرسى، يعني مرسى أبي رقراق.

264) «مراسلة القنصل شينيي»، ج 2، ص 810.

265) المصدر السالف الذكر، ج 2، ص 846.

266) نفس المصدر والجزء، ص 852.

وبذلك انتهى ما سجّله القنصل شينيي وأخبر به في رسائله الموجهة لرئيسه بفرنسا من أخبار الرئيس علي الصابونجي السلاوي.

وذكر المؤرخ الشريف، أبو زيد عبد الرحمن بن زيدان، في تاريخه «إتحاف أعلام الناس»[267] أنّ السلطان سيدي محمد بن عبد الله أرسل سنة ثلاث ومائتين وألف (1789/1203) خديمه القائد محمد الزوين ولد القائد عبد الله الرحماني، وأخا زوجه السيدة البتول الرحمانية سفيراً للسلطان عبد الحميد مصحوباً ببعض الأسارى الذين أُنْقذوا ممّا كانوا فيه من الأسر، وهدية من جملتها ثلاثون وصيفاً من الأرقاء، وفرسان من عتاق الصّافنَات الجياد، وسرجان مزركشان بالذهب مُرَصّعان بأنفس الجواهر، في سُفُنٍ أربع، عدّة رجالها نحو أربعمائة رجل بين رؤساء وبحرية وطبجية، وكان رؤساء تلك السفن الذين ذهبوا بها :

- الرئيس علي الصابونجي السلاوي
- والرئيس قدور شايب عَيْنُو الرباطي
- والرئيس عبد الله العسري السلاوي
- والرئيس محمد العنقي الرباطي التركي الأصل.

حسبما وُجدت أسماؤهم بخط كاتب الديوان الجهادي بسلا في ذلك العهد سيدي عبد القادر الجعيدي.

وأصحب هذه السفارة كتاباً خاطب به السلطان عبد الحميد، لاباس بإثباته هنا لِمَا اشتمل عليه من تفصيل ما أُجمل وأُبهم من الهدية الموجّهة مع السفير ومن في رفقته قال :

المقام المتوّج بتاج العزّ والعناية والسيادة، والمحلّى بحلية الفضل والمجادة، البالغ في أفعال الخير حدّ النهاية، والكوكب الطالع في بُرْجِ اليُمْنِ والسعادة، مَعْدن السادات الأخيار، الأجلاّء المجاهدين لأعداء الله الكُفّار، من جعلهم الله حُماة للإسلام، وأنام سبحانه في ظلهم جميع الأنام، سلطان البرّين، وخَاقَانُ البحرين، وَخديم الحرمين الشريفين، السلطان بن السلطان عبد الحميد خان، بن أحمد خان، جعل الله أيامهم السعيدة، كلّها محمودة، ومآثرهم الكريمة شهيرةً مشهودة، سلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته، وتحياته ورضوانه.

أمّا بعد، فيصل حضرة أخينا المنصور بالله، صحبة خديمنا القائد محمد بن عبد الله، خمسمائة أسير وستة وثلاثون أسيراً (536)، منّ الله تبارك وتعالى عليهم، وأنقذهم من الأسر،

---

267) ج 3، ص 306.

والحمد لله الذي منّ علينا بإنقاذ إخواننا المسلمين من يد الكفرة، كما يصل حضرة أخينا العلية بالله، أربعة مراكب من مراكبنا الجهادية، هدية منا إليك.

ونطلب الله النصر والتمكين، والفتح المبين، لنا ولكم ولسائر المسلمين، وأن تكون عساكر المسلمين أعزّة منصورة، وأعداء الله الكفرة، أذلة مقهورة، والسلام.

في أوائل شعبان عام ثلاثة ومائتين وألف 1203 (أواخر أبريل سنة 1789).

وقد ذكر هذه السفارة أبو عبد الله الضُّعَيِّف الرباطي في تاريخه[268]، وكان أولئك الأسرى من مالطة، حسبما يوخذ من كلامه أيضا[269].

وكان رجوع السَّفير القائد الزوين إلى الرباط يوم السابع والعشرين من شوال عام أربعة ومائتين وألف (27 شوال 10/1204 يونيو 1790)، وتأخّر عنه الرؤساء الآخرون بتركيا إلى أن رجعوا بعده كما عند الضُّعَيِّف[270].

وبذلك انتهى ما جمعناه من أخبار الرئيس علي الصابونجي.

*** الرئيس صالح**

لَمْ نقف على أصل هذا الرئيس ونسبه، وهل هو مغربي الأصل، أو من الرؤساء الأجانب الذين هاجروا إلى المغرب، والتحقوا بالسلطان سيدي محمد بن عبد الله، رحمه الله، فاستعملهم في أسطوله ؟ وكان من الرؤساء المقدَّمين عنده، لمَا كان موصوفاً به من الشجاعة والإقدام، معدوداً من رؤساء الأسطول السلاويين، ويتردَّد كثيراً على السويرة والعرائش، إلى أن أدركته منيته بها، كما سيأتي...

وذكره الرئيس الأميرال الحاج الطاهر عوّاد السلاوي في دفتره[271] في قائمة ما صيَّره الرئيس الأمين عبد الهادي العَسْري السلاوي من المال المتحصِّل لديه من القِشْينَةَ[272] فقال:

ودفع في كراء ستين من البحرية من مكناسة إلى سلا، بأمر سيدنا نصره الله... منهم عشرون أصحاب الرئيس صالح... من حساب اثنى عشر أوقية للواحد، فكان الجميع اثنين وسبعين مثقالاً.

268) مخطوط الخزانة الناصرية بسلا، ج 3، ص 93.
269) نفس المصدر والجزء، ص 97.
270) نفس المصدر والجزء، ص 132.
271) مخطوط الخزانة الناصرية بسلا، ص 10.
272) اسمها العلمي باللاتينية (Cochenilla Colporte). وكان يُطلق على صنف من الحشرات مُضِرَّة بالنباتات المزروعة. وقد استعمل نوع منها، أصله من المكسيك، لانتاج صِبْغٍ قرمزي.

ثم ذكر أنَّه كان له عبدٌ معتوق اسمه مبارك، معدود من جملة البحرية المجاهدين من أهل الشرق[273] ويوخذ منه أنه لم يكن مغربياً.

وجاء في الدفتر اليومي للقنصل الفرنسي شينيي[274] أنه سلَّم سنة تسع وستين وسبْعمائة وألف (1183/1769) ورقة الباسبورط، يعني ورقة الجواز القانونية لجماعة من الرؤساء المغاربة، ومن جملتهم الرئيس صالح هذا، ووصفه بالرئيس الأميرال.

وذكر أنه في سنة سبع وستين وسبعمائة وألف (1767/1180-1181) كان يقود سفينة حربية من نوع قَبِّق، مُسلَّحة بأربعة وعشرين مدفعاً، وثلاثين بحّاراً، وهاجم وقهر سفينة فرنسية برياسة القبطان موطارد (Motard) الشهير، بعد ما أظهر مقاومة شديدة، فقابله بمثلها، إلى أن استسلم له لمّا أشرف على الهلاك، وضاع كل ما كان معه من البحّارة قتلاً وغرقاً في البحر وعجزاً عن المقاومة، وكان عددهم يزيد على الأربعين، فقاده حينئذ أسيراً.

وفي سنة تسع وستين وسبعمائة وألف (1183/1769) ترقى إلى رتبة أميرال، وأُسندت إليه رياسة سفينة جديدة تمَّ صنعها بمصنع السفن بسلا، وكانت مسلَّحة بثلاثين مدفعاً، ومائتي بحّار، وبذلك ارتفع شأنه، وذاعت شهرته[275].

وَهو الذي كلَّفه السلطان، كما عند شينيي في رسائله، بمرافقة أحد رئيسَيْ السفينتين المحجوزتين بالمعمورة، مُنْذُ أنْ ساقهما إليها الرئيس عمر، ومرَّ في طريقه إليها بالعرائش، ومنها قصد المعمورة مصحوباً بأحد قُوَّاد السلطان، القائد علي، وأقام بها إلى أن سلَّمهما بما فيهما لرئيسها[276].

وأخبر شينيي أيضاً في رسالته المؤرخة في رابع وعشري مايه سنة سبعين وسبعمائة وألف (20 مايه 28/1770 محرم 1183)[277] أنه لم يحدث جديد في هذه السنة إلى تاريخه، سوى أنَّ الرئيس صالح، تولَّى قيادة البارجة الحربية الجديدة المسلَّحة بأربعة وعشرين مدفعاً، ولا زالت راسية بأبي رقراق، ويمكن أن تبارحه في الشهر الآتي، وإلى الآن لم تعرف وجهة هذا الرئيس ولا مُهمَّته.

---

273) نفس المصدر، ص 38.

274) «مراسلة القنصل شينيي»، ص 146.

275) «قراصنة سلا»، مصنف سبق ذكره، ص 91، طبع 1998.

276) «مراسلة القنصل شينيي»، ج 1، ص 66.

277) نفس المصدر والجزء، ص 156.

وفي رسالته المؤرخة بسادس نونبر سنة إحدى وسبعين وسبعمائة وألف (6 نونبر 28/1771 رجب 1185)(278) أخبر بأنَّه منذ عدة أيام، بلغه أنَّ الرئيس صالح، ساقته بارجة برتغالية إلى ليسبون، بعد معركة ليلية معها، ويقال إنه فقد فيها جماعة ممَّن كان معه.

وبمقتضى ذلك كتب الملك رسالة إلى سائر رؤساء أسطوله بسلا والعرائش وتطوان، وكَلَّفَ أحد كُتَّابه بإيصالها إليهم، وأن يسلم نسخة منها إلى سائر قناصل أوربا بهذه الثغور، ويشعرهم بأوامره الصادرة فيها إلى أولئك الرؤساء، ببيان ما يكون عليه عملهم استقبالاً.

وحاصل ذلك أنهم إذا صادفوا سفينة أجنبية في البحر، فلا يجرُّهم الطمع إلى مهاجمتها للاستيلاء عليها، وعلى جميع ما فيها من الأمتعة والسلع، وإنْ كان قليلاً بالنسبة لِمَا ينتج عن مهاجمتها وأخذها من الخسائر والتعويضات، وردّها للدولة الراجعة إليها، لِمَا في ذلك من الحيْف على المملكة المغربية.

وعليه، فالذي قرَّره وألزم رؤساء أسطوله باتِّباعه وَعدم الخروج عنه، هو أنَّهم إذا لقوا سفينة في البحر، فيتعيَّن عليهم أولاً أن يتَّصلوا بها ويتخابروا مع رئيسها أو مرشدها، وَيطلبون منه ورقة التعريف (الباسبورط)، فإنْ أدلى لهم بها، وعلموا من أيٍّ دولة هي من الدول الموالية للمغرب، أوْ التي لها معه اتصال ومواصلة، تخلَّوا عنها وتركوها تمضي في سبيلها، وإنْ لم تكن معه ورقة التعريف فيوقفونه عندهم وحده، ويأخذون اسْمَهُ وجنسه واسم سفينته، ومن أين أَتَتْهُ وإلى أين هي ذاهبة، ويأخذون منه أيضاً صندوقه الخاصّ ويأتون به، ليُعرض على قنصل دولته، وتقع المخابرة معه حينئذ في مخالفته للقواعد والضوابط المعمول بها، طبقاً للمعاهدة المعقودة معها.

وربَّما يكون الرئيس صالح إنَّما سيق إلى لشبونة، لأنَّه لم يستظهر بورقة التعريف المستوفية للشروط المطلوبة فيها ! وبمقتضى هذا، فكل من حاد عنه، أو خالفه، فإنه يعاقبه ويُحمِّله عواقبه، فليكن العمل عليه. وعلى كلّ حَال فقضية الرئيس صالح اغتاظ لها السلطان، لأنه لم يعلم السبب الذي أوجب إرغامه على التوجُّه إلى لشبونة.

لا سيما وفي المستقبل ستكون أساطيل المغرب تسبح في البحار، إلى شواطئ أمريكا وغيرها من القارات ليكون القناصل على بال من ذلك.

ثم أخبر في رسالته المؤرخة في خامس عشر نونبر سنة إحدى وسبعين وسبعمائة (15 نونبر 7/1771 شعبان 1185)(279) بأنّ الرئيس صالح رجع من لشبونة قبل تاريخ رسالته

278) المصدر السالف الذكر، ج 1، ص 215.

279) المصدر السالف الذكر، ج 1، ص 218.

المتقدِّمة بيومين، ومعه في سَفِينَته المؤن والذخائر التي كان حملها من السويرة ليأتي بها إلى الرباط، فتنكَّبه وولَّى وجهه شطر لشبونة، وذلك مِمَّا زاد في غيظ السلطان من هذه القضية، وما تطوَّر فيه هذا الرئيس من الأطوار.

ولمَّا أطلق لسانه وقَلَمَهُ بتسجيل مذكِّراته عن المملكة المغربية، وتعرَّض لأسطولها بما شاء، وأوحاه له فكره ونظريته، وكيف كان ينظر إليه ويعتبره قال :[280] إنّ البحّارة كان يلتقطهم السلطان حسب إرادته سواء من المدن أو البادية، وفي الغالب يكونون لا فائدة فيهم، لأنهم غير مدرَّبين على ركوب البحر والخدمة في السفن التي تسبح فيه، والسفن التجارية إذا عزمت على الدفاع عن نفسها فإنها تكون قادرة على صَدِّهم، لقلَّة حماستهم وانعدام إرادتهم على الصمود والقتال.

وعَلَّقَ على هذا بأنَّ القبطان موطار (Motard)، من مدينة نانط (Nantes) الفرنسية، لم يكن في سفينته إلاَّ أربعة مدافع صغيرة وعشرون بحّاراً فقط، وبعض الركّاب، ولمَّا لقيه الرئيس صالح في البحر سنة خمس وستين وسبعمائة وألف (1179/1765)، وكان معه خمسون بحّاراً، حاربه، ودافع عن سفينته، حتى فقد الرئيس صالح ما يزيد على ثلاثين من بحّارته، ولم يستسلم له القبطان موطار (Motard) حتى نَفِذَ ما كان معه من البارود.

قلت : وهذا إنما هو حَطٌّ من قدر الأسطول المغربي في ذلك العهد وقوته التي اتَّفق المؤرخون من الفرنسيين وغيرهم عليها، وصموده أمام عدوه، وأعماله التي قام بها. ويكفي في أهمِّيته أنَّه حيَّر الأروبيين وشغل بالهم ما يزيد على قرنين من الزمن، وكانت مدن المغرب ومراسيه، وعواصم ملكه، تعج بالأسرى عجّاً، مُستعمَلين في الخدمات العمومية، كبناء القصور السلطانية، والمدن والقصبات الحربية، التي لا زالت قائمة شاهدة بذلك إلى الآن.

كما كانت مدن أوربّا ومراسيها الكبرى، تموج بالأسرى المسلمين، مغاربة وغيرهم، موجاً، مُستعمَلين في الخدمات العامّة، والتَّجْديف بالأساطيل الحربية والسُّفن التجارية، حسبما تقدَّم بيانه وتفصيله فيما سبق، وكل ذلك نتيجة حروبه، ومواقفه أمام الأساطيل الأجنبية التي يصادفها في البحار.

ثم أخبر شيني في رسالته المؤرخة بسادس عشر غشت سنة تسع وسبعين وسبعمائة وألف (16 غشت 3/1779 شعبان 1193)[281] بأن السفن الأربعة القرصانية الجزائرية التي أبادتها وأغرقتها بعض القطع من الأسطول الإصباني من نوع قَبَق بالسواحل الجزائرية، تمكَّن بحّارتها من إنقاذ أمتعتها، وما كان فيها من الغنائم الإصبانية التي كانوا فازوا بها.

280) المصدر السالف الذكر، ج 1، ص 504.
281) المصدر السالف الذكر، ج 2، ص 754.

وعقب ذلك كانوا على وشك الاشتباك في عراك مع بعض أهل الأطلس الصغير الذين جاءوا طامعين في الاستيلاء على تلك الغنائم. ولكنهم انسحبوا خائفين أمام ثبات الجزائريين.

وحيث أنه لم يكن بينهم وبين حدود الجزائر سوى مسافة يوم ونصف يوم، فقد بعثوا أحد قراصنتهم إلى الدّاي ليعلمه بالواقع وما حَلّ بهم، فوجّه لهم في الحين البهائم اللازمة لحملهم وحمل ما معهم من الأمتعة والغنائم إلى تلمسان، وكذلك ملك المغرب وجّه في الوقت نفسه من طَرَفِه من يحمل الأمتعة ومن معها من النوتية الذين يختارون وجهته، وبعد مواصلة السير وقطع المسافة التي بينهم وبينه، وصلوا إلى مكناس، والباقون منهم هم الذين توجّهوا إلى تلمسان.

ولكن هذا العمل حمله الجزائريون على غير المقصود منه، وترتّب عليه تقديم إيضاح وبيان وجّهه ملك المغرب لِدَاي الجزائر، ليعرفه بالحقيقة ويعتمد عليها، لا على ما وقع في نفسه، وأمر بتوجيه تلك الأمتعة والغنيمة والنوتية الذين كانوا معها يحرسونها في سفينتين خاصّتين من سُفن أسطوله، ولم يَبِعْ أو يُضيّع شيئاً منها، رغماً عمّا أظهره أولئك الجزائريون من الرغبة في أخذها والتمتّع بها، وكان عددهم مائة وتسعين نوتياً (190) أو بحّاراً.

فحُمل الجميع في السفينتيْن المغربيتيْن اللتيْن عيّنهما السلطان، وأسند رياسة أحداهما إلى الرئيس صالح، والأخرى إلى الرئيس الطيب وَالَعْلُو السلاوي.

وسافر الجميع إلى الجزائر يوم العاشر من الشهر الجاري، وهو شهر غشت، سنة تسع وسبعين وسبعمائة وألف (10 غشت 27/1779 رجب 1193)، وأنعم السلطان على بحّارة السفينتيْن المذكورتيْن بعطاء جزيل، ليَلاّ يتظاهروا أمام الجزائريين بالبُخْل أو الشُّحّ أثناء السفر.

وأمّا بقايا السفن المحطّمة المغرقة، فكانت مع الرئيسيْن الحاج محمد السالمي، وقدور الجزائريين، وتألّماهُما أيضاً ممّا عوملا به لأنهما لم يُنفَّذْ لهما عطاء أو مِنْحَة خاصّة بهما كالرئيسين الآخريْن المغربييْن.

وهذان الرئيسان الجزائريان، يقول القنصل، هما اللذان كانت وقعت لهما حادثة غرق سفينة أخرى، سنة سبع وسبعين وسبعمائة وألف (1190/1777).

وكانا أظهرا للسلطان في ذلك الوقت ألمهما ممّا عوملا به أيضاً... ممّا هو خارج عن دائرة موضوعنا.

هذا، وإرضاءً لداي الجزائر، احتفظ السلطان بالإصبانيين الذين كانوا في السُّفن الجزائرية المُغْرَقَة، وإلى الآن لم يسمح بتوجيههم إلى إصبانيا. ويقال إنه إنَّما احتفظ بهم حتى يتحقَّق بوصول سَفِينَتَيْهِ اللتيْن وجهها إلى الجزائر سالمتيْن من غارة الأسطول الإصباني عليهما.

وقد كان من بين هؤلاء الأسرى بعض الفرنسيين، فسمح السلطان بإطلاق سراحهم، ووجَّههم لملك فرنسا، ولم يُجِبْ عن الشكاية التي كان قدَّمها له أحد أولئك الفرنسيين الذي قرَّر إقامته بتطوان، وأسكن زوجته بها، ولكنها انتقلت منها إلى سبتة.

ويوجد الآن بمرسى الرباط فركاطتان من الأسطول السلطاني، ولا يعرف أحد وجهتهما، وإنَّما يقال إنهما سيتوجَّهان إلى مرسيليا، ومنها إلى ليڤورن (Livourne)، وبذلك سَيُنَفِّذان الأمر السلطاني الذي سيصدر لهما قريباً.

ثم قال : إنه بلغه سرِّياً أنَّ أربعة فراكيط مغربية صدر لها الأمر السلطاني بالوصول إلى راكوز وهي مدينة من مدن صقيلية التابعة لإيطاليا، لأنه في السنة الماضية، تعمَّدت إحدى السُّفن الراكوزانية مخالفة إرادة ملك المغرب، وذهبت ببعض المغاربة من الإسكندرية إلى تونس، وتنكَّبت الوجهة المغربية.

ثم قال : وهل ذلك صحيح أو هو من أقوال وتخرصات بعض الأوروبيين الذين يتدخلون فيما لا يعنيهم، وليس من شأنهم ؟ وإذا لم يكن صحيحاً فإنهم يقصدون به تَأْييدَ الراكوزانيين، والمحافظة على بقاء الصلح وحسن المعاملة بينهم وبين السلطان الذي يطالبهم بأداء ضريبة سنوية تقدر بنحو ألف من النقود الذهبية النمساوية. والغالب على الظنِّ أنَّ الإرادة السلطانية لا تتردَّد في ذلك، وستعمل حتى يحصل ما أرادته.

وأخبر أيضاً بأنَّ السفن السلطانية الصغيرة تتردَّد بين شواطئ سلا، والجديدة، والسويرة، وتُستعمل في نقل السلَع من مرسى إلى أخرى، لعدم الأمن في الطرق البرية.

وقد كانت سفينتان منهما ستعدَّان للتوجُّه إلي جبل طارق، فاستُعملتا أيضاً في هذه الوجهة، لأنَّ القوافل تعطل سيرها الآن حتى يستقر الأمن ويعود الحال لما كان عليه سابقاً.

ثم استأنف الحديث عن حركة الرئيس صالح البحرية، في رسالته المؤرخة في تاسع وعشْرِي يناير سنة ثمانين وسبعمائة وألف (29 يناير 3/1780 صفر 1195)[282] فقال : إن القائد الطاهر فنيش السلاوي، صدر له الأمر السلطاني في الشهر الماضي بالتوجُّه إلى مراكش والمثول بين يدي جلالة السلطان...

282) المصدر السالف الذكر، ج 2، ص 774.

ثم ذكر أنّه أخبره بأن السلطان أمره بأن يكون على أُهْبَة للقيام بالسفارة التي سيكلفه بها بأوربا، ووعده بأنّه سَيُعْلِمُهُ بوجهته، والدولة التي سيقصدها، بمجرّد ما يُعيِّنها له جلالة السلطان.

وزاد أنّ أحد كُتّاب السلطان زاره بمحلٍّ قنصليته بالرباط، وأسرّ إليه بأنّ سفارة القائد فنيش ستكون إلي نابولي بأيطاليا في فركاطة خاصّة من الأسطول السلطاني، وسيلتحق بها بالسويرة، وأنّ الذي سيتولّى رياستها هو الرئيس صالح، وأنّه توجّه إلى العرائش بقصد تجهيزها وتسليحها، وبعد ذلك يقصد بها السويرة، حيث سيحل القائد فنيش المُعَيَّنُ للسفارة في انتظاره بها.

ولا يعلم أحد الآن ما هوموجب هذه السفارة، ولعلّها تتعلّق بالمطالبة باسترجاع سفينة من نوع قَبَق من السُّفن السلاوية التي كانت موسوقة بالقمح، وحجزتها حكومة نابولي، أو تعويضها بما يُعَادِلُهَا، وكُلُّ هذا لازال لم يتحقّق.

ولكن، اعتماداً على ما كانت صرّحت به حكومة مادريد لرسول سلطان المغرب، هو أنّ المسؤولية في ذلك يتحمّلها بحّارة السُّفن المغربية، لأنّهم لا يتصوّرون ولا يعتبرون الأخطار التي يتعرّضون لها بمخالفتهم لِمَا هم مطوّقون به ومسؤولون عنه.

وفي رسالته المؤرخة بثامن عشر ابرابر سنة ثمانين وسبعمائة وألف(18 ابراير 23/1780 صفر 1195)[283] أخبر بأنّ العمل لا زال جارياً بجدٍّ واستعجالٍ بالعرائش في إصلاح الفركاطة التي سيسافر فيها الرئيس صالح إلى السويرة، ومنها إلى نابولي، صُحْبَة السفير القائد الطاهر فنيش السلاوي الموجود الآن بمراكش، وهو المُعيَّن لهذه السفارة، كما تقدم الإعلام به، ولم تُسمع كلمة واحدة إلى الآن تنفي أو تثبت ما كان قيل قبل هذا، وهل سيصل إلى ليڤورن (Livourne) و ڤيينّا (Vienne) أم لا ؟

وذكر بَعْدَ هذا في رسالته المؤرخة بتاسع مارس سنة ثمانين وسبعمائة وألف (9 مارس 13/1780 ربيع الأول 1195)[284] أنّ الناس لا زالوا يتناقلون خبر تعيين القائد الطاهر فنيش للسفارة إلى نابولي، وأنّ الفركاطة السلطانية التي سيتوجّه فيها، مهيّئة للإبحار من العرائش إلى السويرة قريباً، وربّما تتأخّر عن موعدها المعيّن لها، لأن الرئيس صالح الذي أُسندت إليه رياستها مريض الآن، وتبيّن أنه مصاب بداء الاستسقاء[285].

283) المصدر السالف الذكر، ج 2، ص 804.
284) المصدر السالف الذكر، ج 2، ص 808.
285) هو المعبّر عنه بالفرنسية بكلمة (Hydropisie).

وبعد هذا صرَّح في رسالته المؤرخة في تاسع وعشري مارس سنة ثمانين وسبعمائة وألف (29 مارس 3/1780 ربيع الثاني 1195)[286] بأنَّ آخر إعلام ورد من طرف جلالة السلطان من مراكش، هو أنَّه عدل عن توجيه القائد الطاهر فنيش السلاوي سفيراً إلى نابولي، وأنّه رجع من السويرة.

وأخبر في هذه الرسالة أيضاً، بأنَّ الرئيس صالح الذي كان مُعيَّناً لرياسة الفركاطة التي سيسافر فيها السفير المذكور، تُوفِّي بالعرائش من المرض الذي كان مصاباً به، رحمه الله،[287] في ذلك التاريخ، يعني مارس سنة ثمانين وسبعمائة وألف (مارس 1780/ ربيع الأول 1195).

ولعلَّ هذا الحادث هو الذي غيَّر رأي السلطان في توجيه هذه السفارة.

وكان هذا آخر ما سجَّله القنصل شيني من أخبار الرئيس صالح وتنقلاته السياسية والبحرية، وهو ما وَقَفْنَا عليه حتى الآن من أخباره وترجمته، عامله الله بعفوه وغفرانه، آمين.

*** الرئيس عَمورا**

لعلَّ هذا الرئيس من جملة الرؤساء الأجانب الذين استُعملوا في أسطول السلطان سيدي محمد بن عبد الله، وليس لدينا من أخباره الآن، إلاَّ ما ذكره القنصل لوي شيني في رسالته المؤرخة في عاشر نونبر سنة تسع وسبعين وسبعمائة وألف (10 نونبر 1/1779 قعدة 1193)[288].

قال ما مُضمَّنه باختصار، مخاطباً رئيسه بفرنسا :

أتشرف بإِعْلَامِ سعادتكم بما أَوْلَيْته من الاهتمام بمسألة مكاتب الرئيس القرصاني عَمُورًا الواصلة إلي، وقد سلَّمتها إلى سلطان المغرب، وأشعرته باستعداد ملك صقلية للصلح؛ وما يشترطه فيه، وأوضحت له ما ترتَّب على انفعاله وتأثُّره لأخذ سفينته من نوع قبق، وأني جاهل بالأسباب التي أوجبت تَغَيُّر استعداد البلاط الملكي بنابولي، فيما يرجع لإصلاح الحالة وَرَدِّها لما كانت عليه، وأخذه لهذه السفينة، لا سيما وهو لم يسرح إلاَّ خمسة وعشرين من بحَّارتها فقط، واستولى عليها وعلى شُحْنتها.

286) المصدر السلاف الذكر، ج 2، ص 809.

287) المصدر السالف الذكر، ج 2، ص 810.

288) «مراسلة القنصل لوي شيني»، ج 2، ص 781 و782.

وفي الثالث والعشرين من الشهر الفارط (23 أكتوبر/12 شوال) وردت سفينة إصبانية، من نوع قبق أيضاً من مرسى قرطاج الإصبانية إلى مرسى طنجة، ونزل منها إلى المدينة المذكورة الرئيس عَمُورا المذكور، وبحّارته الذين كانوا مَعَهُ.

وبمجرَّد وصوله سَلَّمَ لشينيي رسالة خاصَّة به جاءته من المركي دو لا سامبوكا (De La Sambuca) الإصباني، بتاريخ سابع عشر غشت (17 غشت/4 شعبان)، يكلِّفه فيها، بأمر من ملكه، أنْ ينهي لسلطان المغرب، أنَّ خمسة وعشرين من رعاياه، كانوا راكبين في سفينة ذات راية مغربية، واستولت عليها فرگاطة صقلية، فأُطلق سراحهم، وعوملوا معاملة حسنة، وأُكرموا إكراماً خاصّاً في بلاد ملك صقلية، حسبما أُخْبَرُوا بذلك وشهدوا به.

وأنَّه بادر بإنْهَاء ذلك لملك المغرب، فاستغرب جدّاً إطلاق سراح البحّارة وأخذ السفينة وشحنتها من القمح الذي كان وجَّهه لطرابلس، بقصد توزيعه على الفقراء، لأنَّ السنة كانت سنة مسغبة، وأخبر أيضاً بأنَّ كاتب السلطان أبا القاسم قدَّم له عدَّة تقارير باسم سلطانه، مُعبِّراً فيها عن غيظه من هذه المعاملة المؤدِّية إلى الاحتفاظ بسفينته، وما يعلِّقه من الآمال على فرنسا في إصلاح الحالة بينه وبين ملك نابُولي.

ثم أخبر أيضاً أنَّه راجت مذاكرة بينه وبين الكاتب ابن عثمان في هذه القضية، وأفهمه ما ثبت عنده من أنَّ السفينة السلطانية التي هي من نوع قبق كانت سيئة جدّاً، ولا تستحقُّ الاهتمام بها، وأنَّ ما عامل به ملك صقلية رُكَّاب السفينة من الإكرام وإطْلاَقِ سراحهم يعادل نحو ثلاث مرات ثمن السفينة المحجورة لقدمها وسوء حالتها.

فاعتبر هذه الملاحظة، وطلب منه أن يُكلِّف سفير فرنسا بمدريد بمباشرة الأمر وعلاج القضية.

وبمقتضى ذلك كتب للسفير الفرنسي بمدريد وطلب منه مباشرتها على الوجه المرضي...

ثم قرَّر السلطان توجيه كاتبه ابن عثمان سفيراً إلى مدريد بقصد إتمام المباشرة، رغبة منه في رد المياه لمجاريها، حسبما تقدَّم الكلام عليه في سفارة ابن عثمان إلى إصبانيا ومالطة ونابولي. ببيان وتفصيل.

ثم قال : ولا شك في نجاحه لأنَّه من ذوي الخبرة في الأمور، ولا يصلح لإصلاح هذه القضية إلاَّ هو.

وحمَّله قدراً من المال، نحو ثمانية آلاف إبرة ذهبية، ليفرِّقها على الأسرى المسلمين الذين بقرطاج الإصبانية، والباقي يوجِّهه لأسرى مالطة.

وقد نجح في مأموريته هذه، وعقد معاهدة صُلْحية مع الصِّقليّين ذات خمسة فصول نشرها بالفرنسية جاك كايي (Jacque Caillé) في كتابه المسُمّى «المعاهدات الدولية لسيدي محمد بن عبد الله»، من عام سبعة وخمسين وسبعمائة وألف (1171/1757) إلى عام تسعين وسبعمائة وألف (1205/1790) بتاريخ حادي عشر قعدة، سنة ست وتسعين ومائة وألف (11 قعدة 18/1196 أكتوبر 1782)[289].

وقد لخَّص هذه القضية أبو زيد ابن زيدان في ترجمة السلطان سيدي محمد بن عبد الله، ومواصلته السياسة مع مالطة، في تاريخه المسمى «إتحاف أعلام الناس، بجمال أخبار حَاضِرَة مكناس»[290] نقلاً عن تأليف السفير ابن عثمان، المسمى «البدر السافر، لهداية المسافر، إلى فكاك الأسرى من يد العدو الكافر» وهو غير مطبوع، وإنَّما توجد منه نسخة مخطوطة بالخزانة الملكية الرباطية، وأخرى كانت بالخزانة الزيدانية المكناسية.

هذا ما وقفنا عليه من أخبار الرئيس عمورا حتى الآن.

*** الرئيس عمر العلج**

أصل هذا الرئيس من البرتقال، والتجأ إلى المغرب طمعاً في الشهرة والجاه، فأسلم ورفع راية الإسلام في البحر، وكان جريئاً مقداماً بحّاراً ماهراً في تسيير السُّفن وقيادتها، يتكلَّم بعدة لغات، زيادة على البرتقالية، ويعرف حتى اللاتينية وقَبْلَ لُجوئِه إلى المغرب وإسلامه، سافر وجال في العالم، وزاز البرازيل وغيرها.

وسبق له أنَّه كان اتُّهِمَ في قضية ترجع إلى الأسرة المالكة البرتقالية، ولعلَّ هذه التُّهمة كانت من البواعث التي حفزته على الهجرة من بلاده إلى المغرب وإسلامه، والتجائه إلى السلطان سيدي محمد بن عبد الله، وكان يتمتَّع بثقته لمعرفته بمهنته البحرية وذكائه الممتاز، وعَدَّهُ كل من كتب في الأسطول المغربي في عهد السلطان المذكور من جملة الرؤساء الأجانب الذين استسلموا له، وأُسندت إليهم رياسة سفن أسطوله سواء من طرابلس أو تركيا أو أوربَّا.

وذكر الشريف النقيب أبو زيد ابن زيدان في «إتحافه»[291]، وعَدَّهُ من جملة الرؤساء العلوج الذين أسلموا في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله المذكور فقال :

289) «المعاهدات الدولية لسيدي محمد بن عبد الله»، ص 242.

290) «الإتحاف»، ج 3، ص 320 وما بعدها.

291) ج 3، ص 260.

السفينة الخامسة (يعني من أسطول السلطان المذكور) رئيسها عمر العلج، نصراني أسلم، واسمها سنبوك، وبحّارتها أربعة وعشرون ومائة (124)، ومدافعها ستة عشر مدفعاً.

وقال كواندرو (Coindreau)، في كتابه «قراصنة سلا»[292] :

كان للرئيس عمر سنة ست وستين وسبعمائة وألف (1180/1766) سفينة من نوع قبق مسلَّحة بستة عشر مدفعاً، وفيها أربعة وعشرون ومائة بحّار. وخلَّف بسلا نسباً وذرية تناسلوا بعده، يُعرفون بأولاد العلج، ولكنهم لم يبق منهم أحد الآن بها.

ومن أوصافه التي امتاز بها عن غيره من الرؤساء في عصره، أنَّه كان غير هيَّاب، ولا وجل، ولا وكل، يقدم على عظائم الأمور والمغامرات البحرية، للحصول على الغنائم بأيٍّ طريقة أو وسيلة تُمكِّنه منها، كذا وصفه جاك كايي (Jacque Caillé) في بحثه الذي خصَّصه لغنائمه وغاراته البحرية سنة سبع وستين وسبعمائة وألف (1181/1767)، وما نتج عنها وتطوَّرت فيه من الأطوار، ونشره في عدة صفحات من مجلة «هيسبيريس تامودا» (Hespéris Tamuda)[293].

وكذلك القنصل لوي شينيي (Louis Chénier) في رسالته المؤرخة في ثالث أكتوبر سنة سبع وستين وسبعمائة وألف (3 أكتوبر 11/1767 جمادى الأولى 1181)[294].

إحدى غاراته البحرية
وأخذه ثلاثة سفن فرنسية

كان هذا الرئيس في إحدى جولاته البحريج أوقف ثلاثة سفه فرنسية، واستولى عليها، في وقت كانت المخابرة جارية فيها بين المغرب وفرنسا في تجديد الهُدْنَة وعقد صلح مستمر بيهما، بعدما كانت المعاملة منقطعة معها منذ سنة (1130/1718).

وفي ذلك يقول القنصل لُوي شينْيي المتقدم الذكر، في دفتر قنصليته الخاصّ بالمغرب من سنة سبع وستين وسبعمائة وألف إلى سنة خمس وثمانين وسبعمائة وألف (1795-1794/1785-1181/1767) المطبوع بباريس سنة 1970[295]، إن إمبراطور أصدر أوامره الصريحة الواضحة بتاريخ سابع وعشري مايه سنة سبع وستين وسبعمائة وألف (27 مايه

292) ص 92، طبع مطابع سلا، 1998، وص 83-84، طبع 1948.

293) الجزء 2 من المجلد 1 الصادر سنة 1960، ص 283 وما بعدها.

294) ج 1، ص 81.

295) «مراسلة القنصل لوي شينيي»، ج 1، ص 67.

29/1767 حجة 1179) باسترجاع السُّفن الثلاثة الفرنسية التي أوقفها الرئيس عمر المذكور بدون موجب، واستولى عليها ببوغاز جبل طارق، وقاد واحدة منها إلى مرسى تطوان، واثنتين إلى مرسى المعمورة القريبة من سلا، ووجَّه ضابطيْن من جيشه، للوقوف على تنفيذ هذه الأوامر الصادرة منه بغاية السرعة.

وأخبر بأن رئيس السفينة التي قادها الرئيس عمر إلى تطوان لحق بها واسترجعها من مرساها، ثم قال :

وبعد ذلك تمَّ استرجاع السفينتين اللتين كانتا بالمعمورة بناحية سلا، وانتهت قضيتهما بعد أن توسَّط فيهما أحد ضابطي الجيش الفرنسي اللذين وجَّههما ملك فرنسا لمباشرة قضيتهما، وذلك أوائل شهر يوليوز من السنة المذكورة (ربيع الأول عام 1181).

ثمَّ ذكر ما أنفق على استرجاع هذه السُّفن الثلاثة من ميزانية القنصلية الفرنسية التي كانت إذْ ذاك بآسفي من الهدايا والعطايا وغير ذلك[296].

وأخبر بأنَّ الرئيس صالح رافق أحد رئيسي السفينتين المحجوزتين بالمعمورة منذ ساقهما إليها الرئيس عمر المذكور، ومرَّ في طريقه إليها بالعرائش، ومنها قصد المعمورة، وأقام بها إلى أن سلَّمهما بما فيهما إلى رئيسهما.

ونصَّ أيضاً علي أنَّ هذا الرئيس، كان من جملة الرؤساء الذين سلَّم لهم الباسبورط الفرنسي، لَمَّا تقرَّر خروجهم إلى البحر سنة سبع وستين وسبعمائة وألف (1767/1179-1180).

وعَلَّقَ عليه أنَّه عقب ذلك أوقفه السلطان عن الخروج إلى البحر مرة أخرى، لأنه استولى على السُّفن الفرنسية الثلاثة المذكورة في إبان المخابرة مع فرنسا في عقد الصلح.

وقد أورد لوي شينيي قصَّة هذه السفن المأخوذة في البحر غنيمة في رسالته الصادرة منه، وهو بآسفي إلى رئيسه بباريس، بتاريخ عاشر مايه سنة سبع وستين وسبعمائة وألف (10 مايه 11/1767 حجة 1180)، بأنَّ ربابنها وصلوا إلى المعمورة في الثالث والعشرين من مايه (23 مايه /24 حجة) من السنة المذكورة، ومعهم ضابطان فرنسيان، ثم توجَّهوا كلهم لمقابلة السلطان بمراكش.

ولمَّا مثلوا بين يديه، ألقي عليهم أسئلة تتعلَّق بكيفية سجنهم والقبض عليهم، فأجابوا عنها، وفي الحين أمر بتوجيههم إلى سفير ملك فرنسا، ووعده وعداً جازماً، بأنهم سيعاملون

296) «مراسلة القنصل شينيي»، ج 1، ص 83.

بالإنصاف، وتُطبّق عليهم العدالة التي يطالبون بها، وأصدر أوامره الشريفة بذلك بتاريخ السابع والعشرين من الشهر المذكور من السنة المذكور (27 مايه 27/1767 حجة 1180)[297].

ثمّ أخبر في رسالته المؤرخة في السابع والعشرين من مايه سنة سبع وستين وسبعمائة وألف (27 مايه 28/1767 حجة 1180)[298]، بأنّه أمر بردّ السُفُنِ المذكورة لفرنسا.

وفي رسالته المؤرخة في ثلاثين مايه المذكور (30 مايه /28 حجة)[299] من السنة المذكورة[300] التي خصّصها لوصف سفر السفير الفرنسي دو بريغنيون (De Breugnon) من آسفي إلى مراكش، لمقابلة السلطان بها أنّه لمّا وصل، استقبل استقبالاً حسناً، وأظهر له السلطان ووزيره مولاي إدريس غاية المجاملة، والأسف على ما صدر من الرئيس عمر من إيقاف السُفن الثلاثة الفرنسية، ووعده بأنّها سَتُرَدُّ لفرنسا قريباً، لأنّه يرغب في إبرام صلح تامٍّ ومواصلة معها.

وأنعم عليه بإطلاق سراح الأسرى الفرنسيين الذين كانوا بمراكش، وعددهم خمسة وسبعون أسيراً، وكذلك الأسرى الفرنسيين أيضاً الذين كانوا بالسويرة، وعددهم خمسة عشر ومائة أسير (115)، فصار الجميع مائة وتسعين (190).

وصدر ا لأمر الشريف بإطلاق سراحهم حيناً وتوجيههم لآسفي، وتسليمهم للسفير المذكور.

وفي رواية أخرى أنّه وجّه الرئيس صالح، وأحد قُوّاده الملحوظين عنده، القائد علي إلى تطوان والمعمورة للوقوف على ذلك كلّه، وتنفيذه في الحين.

وكتب رسالة بتاريخ فاتح محرم عام واحد وثمانين ومائة وألف (1 محرم 30/1181 مايه 1767)[301]، خاطب بها ملك فرنسا لويز الخامس عشر[302].

وأعلمه بذلك كله، ورجع السفير من آسفي فرحاً مسروراً.

---

297) المصدر السالف الذكر، ج 1، ص 66.
298) المصدر السالف الذكر، ج 1، ص 66.
299) نفس المصدر والجزء، ص 68.
300) نفس المصدر والجزء، ص 68 أيضاً.
301) المصدر السالف الذكر، ج 1، ص 73.
302) نفس المصدر والجزء والصفحة

وجاء في رسالته المؤرخة في تاسع يوليوز سنة سبع وستين وسبعمائة وألف (9 يوليوز 11/1767 صفر 1181)[303] أنَّ هذا الرئيس عمر كان طلب منه ورقة الجواز «باسبورط» (Passeport) والهدية المعتادة وعيَّنها له، فسلَّم له ورقة الجواز، واعتذر عن الهدية بأدب إلى أن يرجع مِنْ جولته البحرية، وحينئذ يمكِّنه منها كما يجب، وصرّح لرئيسه بأنَّ نفسه لم تساعده على إعطاء هدية لرئيس قرصاني، لَزِمَ فرنسا من قِبَلِه أداء ما يزيد على ثلاثة آلاف جنيه، لا سيما وقد بلغه أنَّه سيَتوجَّه للجولان في بحر المانش ما بين فرنسا وإنكلترا...

وأخبر في رِسَالَتِه المؤرخة بخامس أكتوبر سنة سبع وستين وسبعمائة وألف (5 أكتوبر 11/1767 جمادى الأولى 1181)[304] بأن هذا الرئيس رجع من جولته البحرية التي قام بها حول جزر أشور، وطاردته بها سفينة برتقالية بِشِدَّة حتى أَتْعَبَتْهُ، ولكنَّها لم تتمكن منه، وإنَّما نجا منها بِجُرَيْعَةِ الذَّقْنِ بواسطة مجاديفه. ولا يخفى أنَّه هو الذي كان أوقف السُّفن الفرنسية الثلاثة في الوقت التي كانت المذاكرة جارية بين فرنسا والمغرب في إبرام الصلح والمهادنة بينهما كما تقدم.

ثم قال : هذا، ومع ما أُحِسُّ به وأجده من الانفعال والألم النفسي، بادرت إلى قبول ما طلبه مني من التَّعَرُّف بي، والاتصال المستمرِّ معي، وتناسيْتُ ما فات لأنَّه يكدِّر الأوقات، ورجوت منه أنْ لا يهتمَّ في المستقبل إلاَّ بما يدلُّ دلالة واضحة على الإخلاص في المودَّة التي ستعقد بيني وبينه، وأقمت له مأدبة، وأظهرت كُلَّ ما استطعت إظهاره من اعتباره والاعتناء به، وإدخال السرور عليه، ومع ذلك أخَّرت تقديم الهدية المعتادة إليه إلى فصل الربيع المقبل.

ولا يخفى أنَّه كان محلَّ ثقة وأمانة عند أميره، ويستحقُّ ذلك لمعرفته بمهنته وذكائه ووفائه، ولم يتردَّد في التصريح لي بأنَّه لم يصدر منه ما صدر من التعرُّض للسُّفن الفرنسية المتقدمة الذكر، إلاَّ تطبيقاً لماموريته التي كان مسئولاً عنها، وصَرَّحَ لرؤسائها بمجرَّد ما أوقفهم بخبر الصلح الجارية المذاكرة فيه، مع إظهار الأدب والاحترام التامِّ لهم.

وفي رسالته المؤرخة في خامس عشر دجنبر سنة تسع وستين وسبعمائة وألف (15 دجنبر 16/1769 شعبان 1183)[305] :

أخبر بأن رؤساء الأسطول السلطاني الذين كانوا في جولة بحرية، وعددهم عشرة، رجعوا كلهم بسفنهم، والتحقوا بمراسي المملكة، ما عدا سفينة الرئيس عمر، الذي كان بها بصفة مرشد لهم، ويحقِّقون أنها حصل لها عطب في شطوط إصبانيا، ونجا منها.

303) نفس المصدر والجزء، ص 75.

304) نفس المصدر والجزء، ص 81.

305) نفس المصدر والجزء، ص 143.

وذكر في رسالته المؤرخة في عاشر مايه سنة سبعين وسبعمائة وألف (10 مايه 14/1770 محرم 1184)[306]، أنَّ هذا العطب وقع لها في فصل الشتاء بشواطئ قرطاجنة، وأنَّ إغاثة النوتية وإنقاذهم ومئونتهم كلّفت إصبانيا نفقة ما يزيد على نحو أربعين ألف جُنَيْه، حسبما أخبره بذلك الرئيس عمر نفسه. وهو تبرُّعٌ منها على سلطان المغرب، لا سيما وهو يعتبر أنَّ له الحق في ذلك.

وبعد ذلك ببضع سنين، رجع للحديث عن الرئيس عمر المذكور في رسالته المؤرخة بثامن عشر أكتوبر سنة تسع وسبعين وسبعمائة وألف (18 أكتوبر 7/1779 شوال 1193)[307]، فذكر أنَّه وصلته عدَّة رسائل من رئيسه بفرنسا في عدَّة مسائل، وسيجيب على كل واحدة منها بما يقتضيه الجواب عمَّا تضمنته في إبّانه.

والظروف المحيطة به الآن تَقْضِي عليه بتقديم الجواب عمّا كتب له به في شأن الرئيس عمر أحد قراصنة ملك المغرب الذي أوقفته فرگاطة لملك صقلية.

وقال إنَّ مكاتب رئيسه وصلته مساء يوم خامس عشر أكتوبر (15 أكتوبر /4 شوال) من السنة، وفي الحين وجَّه ترجمانه إلى السلطان لينهي له الأمر، ويسلِّم له الكتابين اللذين كتبهما له الرئيس عمر بواسطته، ووجههما إليه، وكان الإعلام بهما يتضمَّن خبراً مهمّاً، وبعد وقوف السلطان عليهما، لاحظ بدهشة وانفعال كبير إقدام أمير مالطي على إيقاف أحد رؤساء أسطوله، مع أنَّه في حالة صلح معه، فقيل له إنَّه ربَّما كان إيقافه غلطاً أو خطئاً، ثمَّ رُدَّ لعمله على الحالة التي كان عليها، فَأَفْصَحَ له الترجمان بالواقع، وبيَّن له الحقيقة.

ولَمَّا تأمَّل السلطان في القضية، وجَّه للقنصل في الْغَدِ أحد كُتَّابه، الطالب ابن قاسم ومعه المكاتيب ليشكره على ما قام به من بيان الحقيقة.

وبعد المذاكرة والمفاهمة معه، تبيَّن له أنَّ المبادرة بإعلامه كانت متعيِّنة. وطلب منه هذا الكاتب، بأمر من السلطان، أن يُحضر أحدَ رجال الدين الإصبانيين الذين كانوا هناك، ليكتب بمحضره رسالة إلى حاكم سبتة، ويُعْلِمَهُ بما نتج عمَّا صدر من هذا المالطي في قضية هذه السفينة المغربية ورئيسها عمر، لا سيما وَمَلِكُ نَابُولِي على بال من معاهدة الصلح والمهادنة التي بين المغرب وإصبانيا، وهو محافظ عليها ومطبِّق لجميع فصولها، ومتمسِّك بما تضمَّنته، ولا يحيد عنها، وعلى بال ممَّا بين الدولتين الإصبانية والمالطية من الاتصال والمواصلة.

وعليه فإنَّه يطلب من حاكم سبتة، أن ينبِّه ملك إصبانيا، وملك مالطة على ذلك ليعملا هما أيضاً بمقتضاه، حتّى لا تتجدَّد مثل هذه القضية مرة أخرى.

306) نفس المصدر، الجزء 1، ص 153.

307) نفس المصدر، ج 2، ص 776.

فأخبر القنصل الكاتب السلطاني بأنَّ ملك نابولي على بال من ذلك كلّه، وموافق عليه، وكذلك ملك إصبانيا، ومع ذلك لابدَّ أن يجدَّد له الإعلام به والتنبيه عليه.

وزيادة على هذا فإنَّ سلطان المغرب عازم على توجيه أحد كُتَّابه سفيراً من طرفه في سفينة حربية خاصَّة إلي قرطاجنة ليوزِّع على أسرى الجزائر الذين بها ما تفضَّل به عليهم مِنَ العطاء، ومنها سَيُعرِّج على مدريد، ولا تُدْرَى المهمَّة التي هو مكلَّف بالمذاكرة فيها مع الحكومة الإصبانية. ولكنه سينتظر بضعة أيام حتى يتبيَّن له موقف ملك نابولي من هذه القضية، وما ستسلكه إصبانيا فيها معه، والتعويض الذي ستدفعه له جلباً لرضاه.

وقد كانت هذه الرسالة آخر ما سجَّله القنصل شينيي في رسائله من أخبار الرئيس عمر، وجولانه في البحار، وما وقع له من الحوادث مع بعض الدول والتُّجَّار، حسبما أثبتنا مضمَّنه وملخَّصه فيما مضى من الرسائل الأخرى مع بعض التصرُّف، وإدراج بعض الإيضاحات المتعلِّقة ببعض الحوادث، حسبما وقفنا عليه في بعض الصُّحف المطوية، والأخبار المهملة المنسية عند بعض من كان يهتمُّ بالبحث في ا لأُسَر والأنساب السلاوية، ولم يلْقِ لها بالاً، وبعد ذلك طُويت صحيفته. ولم نقف على مآله، وانتهاء أمره كغيره من الرؤساء الآخرين، الذين عَمِيَتْ أنباؤهم، وجهل الناس أخبارهم، وضلَّ عنهم ما كانوا يعملون.

*** الرئيس ميلود**

هذا الرئيس من جملة رؤساء الأسطول المغربي في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله، رحمه الله. ولم يصلنا من أخباره إلاَّ ما سجَّله القنصل الفرنسي لوي شينيي في رسائله التي كَانَ يرسلها لرئيسه بالحكومة الفرنسية بباريس. ويوخذ منها، على سبيل الإجمال، أنَّه كان ذا جرأة وإقدام. ورَفع به شكاية إلى جلالة السلطان سيدي محمد بن عبد الله ووزيره مولاي إدريس بن المنتصر، وألحَّ في طلب عقابه[308].

ويُفهم من إحدى رسائله أنَّه أوقف سفينة فرنسية في البحر بدون موجب، وخالف بذلك المعاهدة التي بين فرنسا والمغرب.

وذكره أيضاً في دفتر قتنصليته العام وأنه من جملة الرؤساء الثمانية الذين خرجوا في جولة بحرية سنة سبع وستين وسبعمائة وألف (1181/1767)، وسلَّم لهم جواز أميرال البحر الفرنسي (Passeport)، طبق المعاهدة المتَّفق عليها بين فرنسا والمغرب[309].

---

308) ج 1، ص 97.
309) ج 1، ص 145.

وجاء في رسالته إلى رئيسه بباريس، المؤخرة بتاسع أبريل، سنة ثَمَانٍ وستين وسبعمائة وألف (9 أبريل 21/1768 قعدة 1181)[310].

أنَّه توصَّل بجواب الوزير مولاي إدريس بن المنتصر عن الرسائل التي كان كتب له في شأن قطبان بحر فرنسي.

وتضمَّن جوابه أنَّه بمقتضى موجبات إجبارية لم يمكنه عقاب الرئيس ميلود المذكور الذي كان طلب منه عقابه، ولكنَّه أجاب الوزير المذكور، وألحَّ عليه بأَدَبٍ، مظهراً رغبته فيما طلبه من عقابه، ولم يفصح عمَّا صدر منه، وإنَّما يوخذ من كلامه أنَّه أَوْقَفَ أحد الرؤساء الفرنسيين في البحر بدون موجب، وهو ما ذكره في رسالته التي كان رفعها للوزير المذكور، بتاريخ عشرين غشت سنة ثمان وستين وسبعمائه وألف (20 غشت 6/1768 ربيع الثاني 1181)[311].

وذكر في رسالة أخرى قبلها بتاريخ تاسع عشر أبريل سنة ثمان وستين وسبعمائة وألف (19 أبريل 1/1768 حجة 1181)[312]، أنَّه عازم على التوجُّه لمراكش، والمثول بين يدي جلالة السلطان، ليبيِّن له عَدَمَ استقامة الرئيس ميلود، ويطلب منه إصدار أوامره لسائر الرؤساء المغاربة، أن يلتزموا في مُعَامَلَتِهِم في المستقبل، مع غيرهم من الدول الأجنبية الموالية لهم، ما يتعيَّن عليهم من الاحترام والتوقير، طبقاً لما يراد منهم.

وسيطلب أيضاً من السلطان، أنْ لا يُخْضِعَ رؤساء السُّفن الفرنسية، لأداء ضرائب على تموينهم من المراسي المغربية، وإنَّما يعينون مقدارها، حتَّى لا يقع تجاوز في القدْرِ المُحدَّدِ أو سوء تصرُّف فيه، عملاً بمقتضى المادَّة الرابعة من معاهدة سنة سبع وستين وسبعمائة وألف (1181-1180/1767).

وسيطلب أيضاً الإذن له في الاستيطان بسلا، يعني برباط الفتح.

ثم ذكر في رسالته أيضاً، الصادرة منه لرئيسه من مراكش بتاريخ ثاني عشر مايه سنة ثمان وستين وسبعمائة وألف (12 مايه 1768/ محرم 1181) أنَّه لا زال يرجو ويأمل أن يصدر الأمر السلطاني بتنفيذ ما طلبه مِنْ عقاب الرئيس ميلود.

ثم قال : إنَّه يخاف أنَّ هذا العقاب إذا قُرِّرَ فربَّمَا يتأخَّر تنفيذه أو ينقص منه، أو يؤَجَّل، أويُحْذَف بالكلِّية، بدون اعتبار لكلام الخصم.

---

310) ج 1، ص 97.

311) ج 1، ص 102.

312) ج 1، ص 101.

وَكَرَّرَ هذا القول في رسالته الصادرة منه من آسفي لرئيسه أيضاً بفرنسا بتاريخ ثلاثين يونيه من السنة المذكور (30 يونيه 14/1768 صفر 1182)[313]، وزاد أنَّه تذاكر في شأن هذه القضية مع وزير السلطان مولاي إدريس بن المنتصر فَوَعَدَهُ بمباشرتها، ولم ينجزْ وعده.

وبذلك تمَّت هذه القضية، ولم نعلم مآل الرئيس ميلود بعد ذلك، ولعلَّه بقي مستمراً في عمله لأننا لم نقف على أمر صادر بعقابه.

*** الرئيس فراج**

أصل هذا الرئيس من تطوان. وكان يتردَّد بينها وبين طنجة والعرائش، وسلا ورباط الفتح.

وذكر القنصل لوي شينيي في دفتر قنصليته الخاص[314] أنَّه كان من جملة الرؤساء الثمانية الذين سلَّم لهم ورقة الجواز (Passeport) الأميرالية، وكذلك الورقة المطلوبة بمقتضى الفصل الثالث من معاهدة ثامن وعشري مايه سنة سبع وستين وسبعمائة وألف (28 مايه 29/1767 حجة 1181)، وخرجوا للبحر في السنة المذكورة والتي بعدها، يعني سنة ثمان وستين وسبعمائة وألف (1182/1768). ولم يقدم الهدية التي كان العمل جارياً بها في ذلك العهد، إلاَّ لواحد منهم.

ثم ذكر[315] أنَّه سلَّم ورقة الجواز الرسمية أيضاً لأحد عشر رئيساً، وهو من جملتهم، ولم يقدِّم الهدية الجاري بها العمل إلاَّ لأربعة منهم.

وكان رئيساً على سفينة شراعية تطوانية، وخرجوا للبحر سنة سبعين وسبعمائة وألف (1184/1770). وكانت سفينته مسلَّحة بثلاثين مقذافاً ومدفعين، وبها مائة من النوتية.

وذكر أيضا[316]، أنَّه سلَّم ورقة الجواز الرسمية المذكورة لستة عشرة رئيساً خرجوا للبحر سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة وألف (1186-1185/1772) عشرة منهم من تطوان، وواحد من العرائش، وخمسة من سلا، ومن جملتهم هذا الرئيس فراج صاحب الترجمة. وكان يقود سفينة تطوانية مسلحة بثلاثة مدافع، وبها ثلاثون نوتياً وستون بحَّاراً.

---

313) ج 1، ص 106.
314) ج 1، ص 97.
315) ج 1، ص 146.
316) ج 1، ص 282.

ثم ذكر أيضاً، أنه سلَّم له وَللرؤساء الذين خرجوا للبحر، سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة وألف (1182/1773) وعددهم واحد وعشرون رئيساً، من سلا والعرائش وتطوان، وخمسة من طنجة، ومن جملتهم الرئيس فراج هذا، وكان يقود سفينة تطوانية مُسَلَّحَة بثمانية مدافع واثنين وثلاثين نوتياً وثمانين بحَّاراً.

وأفاد النقيب أبو زيد عبد الرحمن بن زيدان في كتابه «إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس»[317] نقلاً عن القنصل الدانماركي هوست (Host) الذي كان بآسفي سنة ست وستين وسبعمائة وألف (1180/1766) لمَّا عدَّدَ السفُن التي كانت موجودة بمرسى سلا، وذكر أسماءها ورؤساءها، وعدد بحريتها، ومحمولها مِنَ المدافع وغيرها أنَّ الرئيس فراج هذا كان رئيساً على السفينة الثامنة، وتُسمَّى كليوطه (وهي نوع من السفن الشراعية)، بحريتها مائة، ومدافعها ثلاثون.

وأمَّا ماورد من أخبار هذا الرئيس في رسائل القنصل لوي شينيي لمَّا كان مقيماً بآسفي إلى رَئِيسِهِ بباريس :

- فمنها ما ذكره في رسالته الصادرة منه لمَّا كان مقيماً بآسفي، المؤرخة بتاسع أبريل سنة ثمان وستين وسبعمائة وألف (9 أبريل 20/1768 قعدة 1181)[318] أنَّ ملك المغرب إسعافاً لرغبة ملك إصبانيا، وجَّه كاتبه الغزَّال الذي كان سفيراً بمدريد إلى الجزائر، ويظنُّ أنَّ المقصود من توجيهه هو مباشرة الصلْحِ بينها وبين إصبانيا، ويؤكِّد الناس أنَّه سيعالج أيضاً مسألة فداء الأسرى بين الطرفين الإصباني والجزائري.

وسيبارح مدينة فاس في وجهته هذه قريباً جداً.

والرئيس فراج سيغادر تطوان أيضاً قريباً مُدجَّجاً في سلاحه، قاصداً إصبانيا، ليتَّفقَ مع الحكومة الإصبانية بمدريد فيما يتعلَّق بسفارة الغزَّال المذكورة، وقد أعلم بذلك كلِّه الموظَّف الفرنسي المكلَّف بالشؤون البحرية والتجارية الفرنسية بإصبانيا، ليكون على بال منه، ويسعى في نَجَاحِ ما يُبْرِمُهُ الغزَّال بالجزائر ما أمكن، ويُعْلِم بِكُلِّ مَايروج في هذا الشأن رعياً للمصلحة العامَّة، والمحافظة على الاتفاق والمودَّة بين الدولتين.

---

317) ج 3، ص 259 وص 260.

318) «مراسلة القنصل لوي شينيي»، ج 1، ص 97.

جولان الرئيس فراج بالبحر الأبيض المتوسط
وماسلكه القنصل لوي شينيي في ذلك

جاء في رسالة القنصل لوي شينيي لمّا استقرّ بسلا (يعني رباط الفتح) المؤرخة برابع عشر يونيه سنة ست وسبعين وسبعمائة وألف (14 يونيو 26/1776 ربيع الثاني 1190)[319] أنَّه منذ بضعة أيام، وصلته رسالة خاصّة من ملك المغرب مُضَمّنها أنَّه بنَاءً عَلى معاملته لفرنسا بكل ثقة وأمانة، وجّه الرئيس فراج في سفينة خاصَّة، بها مائة بحَّار للجولان بالبحر الأبيض المتوسط. وأظهر جلالته الرغبة أن أدفع له رسالة توصية بالاعتناء به بمراسينا الفرنسية الجنوبية، فامتثلت أمره فوراً مع مراعاة القانون المتعلّق بالحِجْر الصِّحِي.

وعليه، فلا يمكن قبوله إلاّ بمرسى مرسيليا، ومرسى طولون، لقرب إحداهما من الأخرى. ولذلك جعلت كتاب التوصية في اسم رئيس الغرفة التجارية بمرسيليا، لأنه لا يمكنني أن أرفض الطلب نهائياً بدون عارض.

وبيَّنتُ له أهمية هذا الرئيس، ومقدار اعتباره لدى سيده، ونبَّهته على أنْ يُمكِّنه عند الاحتياج والضرورة ممَّا عسى أن يَتَوَقَّفَ عليه من الأمور اللازمة الراجعة لسفينته.

وبهذا التحفُّظ والاحتياط، لم أخالف الأوامر الصادرة منكم في هذا الشأن، لأنّ معاملة ملك المغرب لنا، كما ثبت عندي، متقلِّبة بحسب تقلب مصالحه، وتحتاج في غالب الأحيان إلى مزيد إيضاح وبيان، وربَّما نشأ عنها عرقلة وارتباك في سير الأمور المرغوب فيها، لا سيما وهو لا يتهيَّب ذلك، ولايحتاط له قبل وقوعه.

وبناء عليه، فإنّ هذا الرئيس الموجَّه إلى فرنسا من قبله، إنَّما يُخْفِي تحت رِدَاءِ تواضع مكذوب السُّمَّ الناقع المُهْلِك.

ثم صرَّح أنَّه يجهل تماماً حقيقة مامورية هذا الرئيس. وإنما يتحدَّث عنها بما قاله ظنّاً وتخميناً، لا غير.

والشائع عند عامَّة الناس، ولَعلَّه مطابق للحقيقة، أنَّه يحمل رسالة ملكية إلى ملك فرنسا طالباً منه فيها حُسْنَ وساطته وأمانته، ليحصل بدون عوض على إطلاق سراح نحو الستين أسيراً مغربياً كانوا مأسورين منذ سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة وألف (1187/1773) بمدينة ليڤورن (Livourne).

---

319) المصدر السالف الذكر، ج 1، ص 422-423.

وعقّب على ذلك بأنّه يشُكُّ في هذه الرسالة، وإنْ كَانَ الناس كثيراً ما يتكلمُّون عنها. ثم لاحظ أنّه في مِثْلِ هذه الحالة، ينبغي أن يحتاط في المستقبل في توجيه الرسائل الغامضة مثل هذه الرسالة.

لا سيما إذا كانت تتعلّق بأمور تمكن مباشرتها بدون ضوضاء ولا كثرة كلام، وربّما تكون هذه هي إرادة ملك فرنسا.

ويمكنه أنْ يجيب ملك المغرب، بأنّه عنده نواب عنه رسميون ببلاده، ومن جملة ما هم مكلّفون به توجيه الرسائل بواسطتهم، وفي ذلك دَلاَلَة على صدقهم وأمانتهم، والثقة بهم لدى الطرفين.

ثم قال : وعنده فكرة أخرى فيما يرجع لموضوع هذه المأمورية، وهي أنّها مجرد اطّلاع على ماهو واقع لا غير.

والشائع حسبما يقال، هو أنّ السلطان صرّح بأنّ ملك فرنسا، اشترى عدداً من الأسرى المغاربة من مالطة، وإصبانيا، بقصد استعمالهم في معامل أسلحته فأراد أن يَتَحَقَّقَ من ذلك، ليمكنه الحصول على مزيد ربح وفائدة مهمّة فيما يرجع لفدائهم بالفرنسيين الذين ساقتهم حوادث الأقدار، والجولان في البحار، إلى أسرهم وسقوطهم بين يديه في بلاده.

وبمقتضى خبرته، فقد كان سبق له أنْ نبّه على مثل هذه القضية، وما وقع الآن لا ينقص ما تقدَّمَ، ولا يغير شيئاً منه. وزاد أنّ هذا هو شغله دائماً ليُعْلِمَ بالحقائق كما هي.

وعلى كل حال، فإنّ الرئيس فراج إذا قدم إلى طولون (Toulon) أوْ مرسيليا، فالذي يظهر أنه من الموافق لحسن سيرتكم وسياستكم مقابلته بشيء من الاعتناء الدّال على محبتكم ومودتكم، ولكن بدون إقامة احتفال تشريفي، لأنه شخصية لا توجب ذلك، ويُمْكنُكُم، بدون مانع، أن تخفّفوا عنه من مدة الحجر الصّحي. ولا بأس أيضاً أنْ يُقدّم له في إكرامه من يوم حضوره إلى يوم سفره، ما قيمته، من ألف إلى اثنى عشر مائة ليبرة لا غير، يعني نحو قنطارين من الحلواء، وبعض الكباش والأشربة المبردة، وثلاثة أو أربعة قطع من الملف، طول كل واحدة منها أربعة أدرع، وإذا زيد على هذا، فإن الزيارات تتكرر، وتستلزم هدايا قيمتها أغلى وأكثر، لا سيما والكتاب الوارد في شأنه لا ينصُّ إلاّ على تقديم ما يحتاج إليه من الأمور الضرورية التي تنطبق على نوع سفينته، فيما يرجع لإصلاحها مثلاً، ولا يتعدّاها.

وهو الآن بطنجة، مشتغل في تهييء السفينة بما تحتاج إليه، ولا تكون جاهزة إلاّ بعد نحو العشرين يوماً.

وقد عملت مجهودي في تحويل نظره عن سفره هذا، بغاية الاحتياط والتحفظ لأن زيارة كهذه تلزمنا أن نتحملها بكُلّ ما يمكن.

وخاطبته مراراً محذِّراً ومخوِّفاً من السلاح البحري الهولاندي والإصباني والمالطي، والليڤورني المسلَّحة به سفنهم السابحة في البحر الأبيض المتوسط، ولكنني لَمْ أحْصُلْ على المقصود من تأثير نصيحتي له بإفشاء هذا السرِّ الذي كاشفْتُهُ به، مُتَجَنِّباً الوهم أو الباطل المحكوم به على هذه الدولة المستفيدة منه، خوفاً ممّا يؤدّي إلى فقدان حريتها، كحمار لَافُونْطِينْ (La Fontaine) الذي ينزل سارقه منزلة مَالكه، لأن ذلك لا يخفف من ثقل حمله.

وبعد هذه الرسالة، أدرج الكتاب السلطاني الذي ورد عليه في شأن هذا الرئيس، وملخَّصه أننا وجَّهنا لكم خديمنا الرئيس فراج الذي أمرناه بالسفر في البحر الأبيض المتوسط. وعليه فنوصيكم به خيراً، ومكِّنوه من كتاب وصية بالاعتناء به بسائر المراسي الفرنسية التي يمرُّ بها، ليعامَل بها معاملة حسنة، ويعينوه بما عسى أن يتوقَّف عليه من الأمور اللازمة له.

وكتاب الوصية الذي ستدفعونه له يبقى تحت يده، ليدلي به كلَّما احتاج إليه. والسلام.

في 3 ربيع الثاني عام 1190 (الموافق 21 مايه سنة 1776).

وفي رسالته المؤرخة برابع وعشري يونيه سنة ست وسبعين وسبعمائة وألف (24 يونيو 7/1776 جمادى الأولى 1190)[320] استأنف الحديث عن الرئيس فراج المترجم، أثناء الكلام على بعض الأسرى الفرنسيين الذين كانوا مأسورين بالمغرب عند السلطان سيدي محمد بن عبد الله، واهتمامه رَحِمَهُ الله بفداء الأسرى المسلمين حيث ما كانوا بأروبا.

وأعاد الكلام على قضية شراء فرنسا الأسرى المسلمين الذين كانوا بإصبانيا، وأنَّ فرنسا تشتريهم وتستعملهم في معامل أسلحتها فقال :

«ربَّما يتوجّه الرئيس فراج إلى مرسيليا أو طولون (Toulon) لأجل هذه القضية، ونَحن وإنْ لم يكن عندنا الآن أسرى مغاربة ولا مسلمون، فإنّ شهادته تكون مطابقة لما يراه أو يعتقده سلطانه، لأنَّ كل مغربي، لا يرى إلاَّ ما يراه سلطانه، وليس له رأي خاصّ به.»

وزاد أنَّ الرئيس فراج مكلَّف بإيصال رسالة خاصَّة من السلطان إلى ملك فرنسا، ليعمل على خلاص نحو الستين أسيراً مغربيّاً كانوا مسترَقِّينَ بليڤورن (Livourne) منذ سنة (1187/1773) وأنَّ مآل عشرين أسيراً فرنسياً بالمغرب، متعلِّقٌ بجواب ملك فرنسا بقبول ما عُرض عليه، وعلَّقَ على ذلك برأيه الخاصّ به على عادته بما يُكِنُّهُ في نفسه، من الغيرة على أبناء جنسه.

---

320) «مراسلة القنصل شينيي»، ج 1، ص 426.

وفي رسالته المؤرخة بسادس وعشري يوليوز سنة ست وسبعين وسبعمائة وألف (26 يوليوز 9/1776 جمادى الآخرة 1190)[321]، تعرّض لهذه القضية أيضاً فقال :

أمّا مسألة مآل المغاربة المستعبدين بليڤورن (Livourne) فإنّها لم تتحقّق عنده حتى الآن، وإنّما : «قيل لي إنّ الرئيس فراج سافر في مأموريته هذه منذ أوائل الشهر الجاري ليُغيِّرَ الرأي العام، ويُشير بنجاح هذه المسألة التي تهمّ السلطان كثيراً».

ثم قال : «ولم تبلغني حتى الآن حقيقتها».

وفي رسالته المؤخرة بتاريخ الرسالة السابقة[322] ذكر أنّ الرئيس المذكور بارح تطوان متوجّهاً إلى طولون ومرسيليا ولا يكون إلاّ وصل إليها الآن، إذا لم يتوقّفَ في طريقه.

وذكر في رسالته المؤرخة ب (16 أكتوبر 3/1776 رمضان 1190)[323] التي أجاب بها رئيسه عن رسالته التي وجّه له بتاريخ 29 يوليوز من السنة المذكورة.

وأخبره فيها بأنّ الرئيس فراج سيقابل عند وصوله بفرنسا مقابلة فيها مجاملة واعتبار.

ثم ذكر أنه تربّصَ بالجواب عن هذه الرسالة لعلّه يصله خبر عن الرئيس المذكور، سواء عن طريق جبل طارق أو غيره، فلم يَصِلْهُ شيء.

وغاية ما في الأمر أنّه، منذ غاب هذه مدة ثلاثة أشهر، لمّا بارح سلا، لم يصل عنه خبر أصلاً ولعلّهُ توجّه صحبة الرئيس المستغانمي متجوِّلَيْن حول رأس بون (Cap Bon).

وإنّما ستَرا وِجْهتهما هذه، لأنّهما سيتوجّهان إلى مرسيليا. وهذه أول مرة ورد فيها ذكر إبحار الرعيس فراج من مرسى سلا، وإنّما قيل أولاً إنّهُ أبحر من طنجة، ثم قيل إنّه أبحرَ من تطوان.

ورسالته المؤخرة بفاتح نونبر سنة ست وسبعين وسبعمائة وألف (1 نونبر 19/1776 رمضان 1190)[324] : قال فيها، اعتماداً على الشائع بالعدوتين سلا ورباط الفتح، إنّ الرئيس فراج كان بتونس واضطرّ، علي ما يظهر، إلى الجولان بسواحلها.

321) «مراسلات القنصل لوي شينيي»، ج 1، ص 436.

322) ج 1، ص 437.

323) ج 1، ص 453.

324) المصدر السالف الذكر، ج 1، ص 460.

ويوخذ منه أنَّ السفر إلى مرسيليا وطولون، حيث جال بسواحلهما أيضاً، لم يكن للقيام بمأمورية رسمية، وإنَّما كان المقصود منه اتخاذه سبباً ليستحقَّ التموين منهما، بعد انتهاء جولانه بالبحر.

وبمقتضى ذلك يتعيَّن علينا (حسب رأيه) أنَّه إذا ظهر بإحدى مراسينا، أن نقتصر في مقابلته وإعانته على ما لابدَّ منه، ولا نعطيه شيئاً بصفته هدية، إلاَّ ما كان لازماً لمعيشته ومَعِيشَةِ من معه من النوتية أو الركاب، وما يحتاج إليه ضرورياً، لا غير.

ويتعيَّنُ علينا أيضاً أن نطالبه بدفع توصيل بما أعَنَّاهُ به، لا لأجل أداء ثمنه، ولكن لأجل الاحْتِجَاجِ به عند الحاجة، إذا اقتضتها مصلحة فرنسا والفرنسيين، إذا ضاعت أو غرقت لهم سفينة فرنسية بالسواحل المغربية.

ثم عاد للحديث عن الرئيس فراج المذكور في رسالته المؤرخة في سادس وعشري نونبر سنة ست وسبعين وسبعمائة وألف (26 نونبر 14/1776 شوال 1190)[325] :

فأخبر أنَّه بلغه من تطوان، أنَّ الرئيس المستغانمي وصل إلى تطوان، وأتى معه ببعض البحَّارة الذين كانوا مع الرئيس فراج في سفينته، وأنَّه وجدهم في خليج ليون (Le golfe de Lion) حيث فقد دفَّة سفينته لمَّا طغى عليه البحر، وأُرغم على مغادرتها، وبادرت السفينة المرافقة له بإسعافه، ونجاة بحارته والسلاح والمؤن التي كانت معه، ونشرت شراعها قاصدة مرسى الجزائر، وتركت بها ما حملته من البضائع وبعض البحَّارة، تخفيفاً من محمولها، على أنَّهُم سيتوجَّهون إلى المغرب على طريق البرّ، والباقي هو الذي أتى به معه في سفينته.

ثم قال : «هذا ما أمكنني معرفته من أخبار كارثة الرئيس فراج حتى الآن.

وإذا بلغني مزيد تفصيل أو بيان فسأعلم به بعد هذا».

ثم قال : «وهكذا تخلَّصنا من زيارة الرئيس فراج لبلادنا هذه السنة».

وقد أصدر السلطان أوامره لثلاثه من الرؤساء بالتوجُّه إلى مرسى العرائش، والرُّكوب في سفينة من السفن الراسية بمرساها، والتوجُّه إلى الجزائر، والإتيان بباقي البحَّارة الذين بقوا بها، وما معهم من المئون والمتاع والسلاح، وقد توجهوا حالاً للقيام بماموريتهم.

325) «مراسلة القنصل لُوي شينيي»، ج 1، ص 471.

وفي رسالته المؤخرة بسادس عشر دجنبر سنة ست وسبعين وسبعمائة وألف (16 دجنبر 5/1776 قعدة 1190)[326] استأنف الكلام على قضية سفينة هذا الرئيس المتقدمة الذكر، وأدلى ببعض التفاصيل فقال :

«إن الحادثة التي حلَّت بسفينة الرئيس فراج بخليج ليون، حسبما بلغني، على سبيل الإجمال :

هو أنَّه، كما هو معروف، كان رئيساً على سفينة صغيرة لمَّا بارح تطوان في شهر يوليوز من السنة المذكورة متوجِّهاً إلى الجزائر.

ولحقه بها الرئيس المستغانمي، وكان يقود سفينة صغيرة أيضاً، فلم يقابلهما أهل الجزائر بإكرام ولا حفاوة، ورفضوا إقامتهما عندهم، وردُّوهُما على عقبهما بعد أيام قلائل.

فتوجَّها معاً إلى تونس، وكانت مقابلة التونسيين لهما أحسن من مقابلة الجزائريين.

ثم بارحا تونس مُوَلِّيان شطر وجههما نحو مرسيليا فدفعهما التيار نحو خليج ليون حيث هاج عليهما البحر، وفقد الرئيس فراج دفَّة سفينته، وسار لا يستطيع قيادتها، وجاءهما الموج من كل مكان، وظنَّا أنه أحيط بهما، وتعب الرئيس فراج، وخارت قواه، فاستغاث برفيقه المستغانمي فانقذه وبحّارته من الهلاك. وما كان معه من السلاح والمئون، وتخلى عن السفينة.

وقصد الرئيس المستغانمي بمن معه مرسى الجزائر، وترك بها بعض البحَّارة تخفيفاً عن سفينته، وتوجَّه إلى تطوان، كما هو معلوم».

وفي رسالته المؤرخة في ثامن وعشري شتنبر سنة سبع وسبعين وسبعمائة وألف (28 شتنبر 25/1777 شعبان 1191)[327] أخبر بأنَّه بلغه أنَّ الرئيس فراج مرَّ في سفينته في الشهر الماضي قريباً جدّاً من بعض أبراج مدينة سبتة، فقنبله أحد ضبَّاط الإصبان منها، ولحقه من ذلك أضرار وخسائر جسمية، وما نجا بحَّارته من الموت، إلاَّ بالفرار سباحة في البحر، وتحمَّلوا مشاقَّ فادحة في رَدِّ السفينة إلى البحر، بعدما تعبوا جداً في إصلاحها، ورجع إلى تطوان.

وكتب حاكم سبتة إلى حاكم تطوان رسالة اعتذار يخبره فيها بأنَّه أوقف الضابط الحربي الذي قنبل السفينة بدون إذنه، وأنَّ ملك إصبانيا وافق على هذا الإيقاف التأديبي.

326) المصدر السالف الذكر، ج 1، ص 474.
327) المصدر السالف الذكر، ج 1، ص 584.

وأنَّ السلطان كتب رسالة لحاكم سبتة يطلب منه فيها العفو عن الضابط الحربي الموقوف. وكتب رسالة أخرى إلى وزير إصبانيا، وصرَّح له فيها بأنَّه لازال محافظاً على احترام معاهدة الصلح مع دولته بجميع مقتضياتها، وإنْ احتاج ملك إصبانيا إلى شيء من مملكته فما عليه إلاَّ أنْ يعلمه به.

ووجَّه سفيراً خاصّاً إلى حاكم مليلية طالباً منه كفَّ ما يحدث من حين لآخر بين مراسي الحدود من التعدِّي المؤدِّي إلى سوء التفاهم والخصام بين الجانبين. لأنَّ ذلك فيه محافظة على الصلح المعقود بين الحكومتين، ولا داعي إلى إحداث ما ينقضه، وإذا كانت الحالة لا حربية ولا صلحية بين المملكتين، فهي موهومة لأنَّها في الغالب تكون مبنية على مصالح شخصية خاصَّة، وتتغيَّر بحسب تغير الأحوال في كل وقت وحين.

وبعد هذه الرسالة، ذكر في رسالة أخرى مورخة في (18 دجنبر 18/1777 قعدة 1191)[328]، أنه كان أعلم في رسالة سابقة قبل هذه، بأن فلكاً إصبانيا جاء من سبتة إلى طنجة حاملاً رسالة من القصر الملكي الإصباني إلى سلطان المغرب، جواباً عمَّا تقرَّرَ من تجديد روابط المودَّة بين الطرفين بمناسبة استرجاع سفينة الرئيس فراج، بعد إصلاحها عقب إصابتها ببعض قنابل أحد أبراج سبتة.

وقد طلب السلطان بهذه المناسبة من حكومة مدريد أن تسهل وتعمل على حمل المدافع والمهاريس التي بقيت بسواحل مليلية، وتردُّها لمحلَّها، حتى لا يستعملها سكان تلك النواحي ضد إصبانيا في أي حال من الأحوال.

ثم قال : ولاشك أنَّ الحكومة الإصبانية راغبة في هذا ومساعدة عليه، لأنه في مصلحتها، وقد وعدت بتوجيه قطعة من أسطولها بمجرد ما يتيسر له ذلك قريباً للقيام بهذا الأمر، رعاية لمصلحة الجانبين، وحسماً لهذا الخلاف بين الدولتين.

وقد أجاب ملك المغرب عن هذا بالقبول، وبادر بردِّ ثمانية من الجنود الإصبان، الذين كانوا فارِّين من الجندية وملتجئين إلى المغرب، وطلب العفو عنهم عمَّا صدر منهم.

وزاد أنَّه لا يشكُّ أنَّ عقب هذه الحوادث سيتجدَّد عقد صلح جديد بمواصلة متَّصلة بين الدواتين المتجاورتين والعاملتين في مصلحة واحدة.

---

328) المصدر السالف الذكر، ج 1، ص 598.

وسجّل في رسالته الطويلة المتضمّنة لأخبار عدة قضايا ومسائل متنوعة فيما يتعلّق بالمغرب وما يروج فيه سياسياً واقتصادياً، المورخة في (21 شتنبر 1778/28 شعبان 1192)[329] أنّ سلطان المغرب ردّ لملك الإصبان ثمانية عشر جندياً كانوا فارين من رئيسهم وملتجئين إلى المغرب ليحرّك بذلك همّته التي يظهر أنّها تناست ما قدّم لها أمراء المغرب من الإحسان.

وقد كان من بين هذا العدد ثمانية من الفرنسيين مُنعت منهم لأسباب ملفّقة مختلفة، حسبما كنت أعلمت به قبل هذا.

ولَأجل تعزيز إرادته، وتثبيت مقصده، وجّه أحد قواده برسالة خاصّة إلى ملك إصبانيا، وجهّز خمسة سفن صغيرة تحت رياسة الرئيس فراج لحمل أولئك الجنود الفارّين إلى مرسى الجزيرة.

ولكن حاكم هذه المرسى كان مسيحياً مخلصاً لمسيحيته متمسّكاً بها، فقبل الكتاب السلطاني، والجنود الذين كانوا فارّين، ولم يقبل أيَّ معاملة مع البحّارة المسلمين الذين جاءوا في السفن المغربية، فاختاروا الرجوع إلى طنجة، على تحمُّل مشاقِّ الحِجْر الصحي مدة عشرين يوماً.

لا سيما وهم قريبون من بلدهم وملجئهم وأهلهم وذويهم، فرجعوا في حينهم.

ثم استأنف الكلام على أخبار هذا الرئيس في رسالته المؤرخة في (16 غشت 1779/3 شعبان 1193)[330] فقال أثناء الكلام على صعوبة المواصلة بين طنجة، وتطوان، وجبل طارق، إنّها ازدادت منذ أعلنت إصبانيا محاصرته.

والغالب على الظنّ أنه لا يُمْكن لأيِّ سفينة، كيفما كانت، أن تنجو من المراقبة المفروضة على جميع السفن المتّجهة نحو جبل طارق، ومع ذلك فقد غُضَّ الطرف على بعض السُّفُن الحاملة للمؤن والأقوات إلى المركز الحربي المذكور، لأنها قامت بواجب كان مفروضاً عليها.

وَأمّا غيرها، فقد كانت المراقبة مشددة عليها في كل وقت وحين.

والرئيس فراج الذي كان يقود سفينة لملك المغرب، طُبِّقَ عليه هذا الحذر والحراسة الشديدة المذكورين عند رجوعه من المركز الحربي المذكور، وأُشعر بأنه لا يسوغ له أن يعود مرة أخرى، وإن عاد أغرقت سفينته.

329) المصدر السالف الذكر، ج 2، ص 686.
330) المصدر السالف الذكر، ج 2، ص 753.

والذي يوخذ من هذا التحذير هو أنَّه ينطبق على هذه الحالة، وربَّما يكون سبباً في تغيير رأي السلطان الذي أصدر إذ ذاك أوامره بتجهيز بعض السفن بسلا، بقصد استعمالها في التردُّد بين طنجة وجبل طارق، وعيّن لها وجهة أخرى خاصَّة بها.

وبهذه المناسبة، أوحَى الإنجليز إلى السلطان أنَّ هذه فرصة يتعيَّن اغتنامها للهجوم على الإصبان، واسترجاع ما بقي من البلاد المغربية تحت نفوذهم باستلائهم عليها، وقالوا له : لعلَّ ذلك يكون ناجحاً وهذا إبَّانه.

ولكن السلطان لم يعمل بإشارتهم، لأنه كان يشُكُّ في نجاحها، لأنَّه لا يعمل إلاَّ بما يتحقق نجاحه ومصلحته، ويفضِّلَ سلوك طريق المخابرة والمذاكرة المبينة على المحافظة على المواصلة السلمية والودية. وعليه، فإنَّ ما وضَّحه السلطان، أوقف عمل الإنجليز، واستمرُّوا مقيمين آمنين بجبل طارق، وبقي الجواز بالبوغاز محذوراً جداً أكثر ممَّا كان سابقاً، ما عدا نقل بعض الحيوانات والماشي بين طنجة وطرفاية، لأنّها لم يشملها ذلك المنع.

وصار السلطان متمتِّعاً بحماية خاصَّة به يستغلها في استعماله لساحلي البوغاز الأوربي والمغربي معاً فيما يرجع لمصالحه الخاصَّة به وبحكومته لا غير.

وصرَّح في رسالته المؤرخة بـ (31 غشت 17/1779 رجب 1193)[331] بأنَّه لم يؤذن في المرور من البوغاز المحاصر إلاَّ في القليل من المشروبات والمبردات بصعوبات كثيرة.

ثم قال : وقد حقَّق لي شخص ذو صِدق وخِبرة بأنَّ ملك المغرب سيرفض الإذن في كل نجدة ومساعدة للإنجليز الذين بجبل طارق، وسيصدر أوامره للرئيس المستغانمي بالرجوع في سفينته على أي حال كانت، وربَّما يتخلَّى عنها إذا كانت لا تستطيع السير في البحر والرئيس فراج هو الذي سينهي له هذا الأمر، حسبما أُثبت ذلك في أخباره...

هذا ما وقفنا عليه حتى الآن من أخبار هذا الرئيس فراج، والله أعلم بعدها بحاله، وتقلباته في حياته ورياسته ومئاله.

*** الرئيس أبو عبد الله**
محمد العربي المستيري

هذا الرئيس من أعيان رؤساء السلطان سيدي محمد بن عبد الله، رحمه الله، وأصله من بني مستارة، وكان مقرَّباً إليه، ملحوظاً بعين الاعتبار لديه.

331) المصدر السالف الذكر، ج 2، ص 759.

ولايته على الرباط

وبثقته به، أسند إليه ولاية مدينة رباط الفتح في حدود سنة اثنين وسبعين ومائة وألف (1759/1172) لمّا تولّى الخلافة، بعد وفاة والده ومرّ بالرباط، متفقّداً الأحوال، وباحثاً في نظام الأسطول، تنويهاً به، ورفعاً من شأن رؤساء أسطوله.

وذكر جاك كايي (Jacques Caillé) في كتابه : «تاريخ مدينة الرباط»[332] أنّ سبب هذه الولاية هو أنه كان له أخ ذا ثروة عظيمة وجاه ونفوذ بالرباط، واتّحد مع عبد الحق فنيش والي سلا إذا ذاك على مناجزة الأمير سيدي محمد بن عبد الله لمّا مرّ بالعدوتين، وهو إذا ذَاكَ خليفة، وإعانة مولاي المستضيء بن إسماعيل، وشَدّ عضده كما هو معلوم في التاريخ، فانحرف عَنْهُ أخوه أبو عبد الله محمد المستيري هذا، وأظهر الانضمام إلى سيدي محمد بن عبد الله ونصره وإعانته، واستسلمت له مدينة الرباط، واعترفت به، فولاّه عليها جزاء له، وقبض على أخيه وسائر الموظفين الذين بيدهم زمام الأمر، وعاقبهم وسلبهم أموالهم، وأخذ من السكّان أموالاً طائلة غرامة على ما صدر منهم، وحتى من الأجانب الذين كانوا بالرباط، واسترقّ رجال الدين منهم، وفرض على كل واحد من التجّار الأجانب عشرة آلاف پياسطر (Piastres)، وألزمهم دفعها عيناً أو سلعاً، بشرط أن تكون قيمتها مساوية للقدر المطلوب من كل واحد منهم، وإن كانت أقلّ منه ضوعفت عليه حتي تساويه.

وكان أحد تُجّار الإنجليز باع بارودا لمولاي المستضيء، فامتحنه وأهانه إهانة كبرى، فَشَنَقَ نفسه ألماً وحسرة على ما حلّ به.

وجاء في «مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح» لأبي عبد الله محمد بوجندار الرباطي[333] أنّ هذا الرئيس، كان يبعث بأخبار أهل الرباط للسلطان المذكور ويكاتبه، ويقول في آخر كتابه : «وكاتب الحروف خديمك كديا» (يعني أنه كان عيناً له) وهو لا يعرفه، فلمّا دخل الرباط قال : «أيْنَ فيكم كديا ؟»، فخرج إليه فعرفه، وقيّده عليهم».

واستمرّ في ولايته إلى سنة ست وثمانين ومائة وألف (1772/1186) كما عند أبي عبد الله الضُّعَيِّف في «تاريخه»[334] فعجز عن تسييرها، فأعفاه السلطان منها.

332) ج 1، ص 302، طبع باريس 1949.
333) «مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح»، ص 255.
334) ج 2، ص 35، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

بعض أخبار رياسته
وأعماله في الأسطول

قال ابن زيدان[335] : «إن سيدي محمد بن عبد الله لمَّا مرَّ بالعدوتين في أواخر عهد خلافته، سنة ثمان وستين ومائة وألف (1755/1168) وجد العربي المستيري هذا صنع سفينة فأخذها».

والذي في تاريخ ابن الحاج أنَّه لم يأخذ إلاَّ سفينة كانت مشتركة بين أهل العدوتين، وما في الضُّعيف أصحّ في نظرنا.

وَقال في «الاستقصا»[336] : «في سنة سبع وسبعين ومائة وألف (1764/1178) وجَّهه السلطان باشادوراً إلى بلاد الإنجليز، ليصلح قرصانه، ويجعل له إقامة جديدة فقدمَهَا، وجدّد قرصانة، واستصحب معه إقامة مركبيْن، ومدافع نحاسية وغير ذلك، وعاد لتمام السنة».

وجاء في كتاب «الوثائق المغربية»[337] (Archives Marocaines) أنَّه في سنة ست وستين وسبعمائة وألف (1180/1766) تولَّى رياسة سفينة من نوع فرگاطة، بها ستة عشر مدفعاً ومائة وثلاثون بحَّاراً.

وفي سنة سبعين وسبعمائة وألف (1184/1770)، صنع سفينة جديدة أخرى وهيئها، بها ثمانية عشر مدفعاً، ومائة بحار.

وفي سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة وألف (1186/1772)، كان يُعَدُّ أَقْدَمَ رئيس وقبطان في الأسطول المحمدي، يتولَّى أحسن سفينة مُسلَّحة أحسن وأَتْقَنَ تسليحاً من نوع فرگاطة، بها عشرون مدفعاً، ومائة بحار.

ثم تولّى بعد ذلك رياسة سفينة بها مائة وثلاثون بحّاراً وعشرون مدفعاً، كما عند ابن زيدان في «الإتحاف»[338].

335) «الإتحاف»، ج 4، ص 461.
336) «الاستقصا»، ج 7، ص 26، طبعة 2001، وج 4، ص 98، طبع القاهرة 1894.
337) «الوثائق المغربية»، ج 9، ص 393.
338) «الإتحاف»، ج 3، ص 260.

بعض ما سجّله لويس شينيي
في رسائله التاريخية عن هذا الرئيس

فمن ذلك[339] أنَّه خرج في سفينته سنة سبعين وسبعمائة وألف (1184/1770)، وتوجَّه إلى فرنسا وهولاندا وإنگلترا، وإصبانيا، ونسي أن يصحب معه ورقة الباسبورط (Passeport) لأنَّه شيخ كبير طاعن في السِّن، ويتكلم باللغة الإصبانية كلاماً غير متقن ولا مفيد، لأنه لا يحسنها ولا يجيدها.

ثم ذكر في رسالة صادرة منه سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة وألف (1186/1773)[340] أنَّ هذا الرئيس الذي يزعم أنَّه أميرال للسلطان مع أنه ليس كذلك، بعدما وضع علامته بقرطاجنة على صكٍّ يتضمَّن البغض والنفور والابتعاد عن فرنسا، تغاضى عن ذلك وتناساه، بسبب إلحاح أو استعطاف من السيد ريدجيو (Reggio) مصحوباً بأربعة وخمسين پياسطر.

ولمَّا وصل إلى الرباط، أنكر أن يكون توصَّل بأيِّ كتاب من أيِّ أحد لأنَّ الاعتراف به اعتراف بقبضة للدراهيم.

ولكنه شيخ كبير يناهز الثمانين، وهو الوالي بالرباط، وهو خبير في الحيل وقد ضَجِرَ كِرام الأوربيين المقيمين بالرباط منه.

وكان قنصل الدانمارك، يعطيه ضريبة سنوية قدرها ثلاثمائة پياسطر، وهو ملتزم به متعهِّد بأدائها، زيادة على إظهار الاحترام المتكلَّف الذي لا يطاق.

وقنصل فرنسا هو الوحيد الذي كان يردُّه إلى الصواب، ولكن ماذا سيفعل مع فرنسا بعد هذا كله.

ومن ذلك أنَّه في سادس أبريل سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة وألف (6 أبريل 13/1773 محرم 1187)[341] ورد الأمر من السلطان سيدي محمد بن عبد الله على قائد سلا القسطالي وقائد الرباط محمد العربي المستيري هذا، بأن يعجِّلا بتجهيز ثلاث سفن، من نوع فراگيط، وثلاث سفن من نوع قَبق عاجلاً، تحت رياسة الرئيس المستيري المذكور، ويتوجَّه فيها هذا الأخير إلى هولاندا بصفة أميرال وسفير مطالب بأداء واجب الضريبة أو الجزية المفروضة

339) «مراسلة القنصل لوي شينيي»، ج 1، ص 169.
340) «مراسلة القنصل لوي شينيي»، ج 1، ص 287.
341) «مراسلة القنصل لوي شينيي»، ج 1، ص 298.

عليها والمتأخر أداؤها، منذ أربعة أعوام، لمّا جاء سفيرها ولاك (Wlak)، وطلب منه السلطان أداء خمسة وعشرين ألف بياسطر كل سنة في مقابلة الصلح واستمرار الهدنة.

فرجع السفير العربي المستيري المذكور، بجواب غير مقنع للسلطان، وأخذ من هولاندا هدية ليتوسّط له لديه، ويسكن غضبه...

وعلّقَ شينيي على المستيري : «بأنّه رجل شيخ هرم، ولم يَبْقَ فيه فائدة لإقرار صلح ولا لإعلان حرب...»

سفارته إلى تونس

ثم ذكر[342] في إحدى رسائله أنّ السلطان وجّهه في أوائل شهر شتنبر سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة وألف (أوائل شتنبر 1773/جمادى الثانية 1187) في مهمّة سياسية إلى تونس، وجعل تحت نظره عدّة قطع من الأسطول الذي كان رابضاً بمرسى طنجة.

وفي أثناء رجوعه في ثالث عشر أكتوبر السنة (13 أكتوبر 26/1773 رجب 1187)، وصلت خمس قطع من الأسطول الذي كان معه بدون عائق ولا مانع، إلى بوغاز جبل طارق، وحاولت المرور على رأس سبارتيل، فدهمتها فجأة فركاطة، من ليڤورن (Livourne) الإيطالية برياسة الفارس أكطون (Acton).

وبعد مبادلة بعض الطلقات النارية بينها وبين قطع الأسطول السلاوي الرباطي، التي كانت علي غير استعداد، اضطرّت إلى الفرار، وجنحت اثنتان منها إلى البر بناحية أصيلا. وحاولت واحدة الوصول إلى مرسى العرائش، وحاولت أخرى برياسة الرئيس الهاشمي الكوار الرباطي مهاجمة الفركاطة المهاجمة، فلم تتمكّن من ذلك، وجنحت هي أيضاً إلى البرّ.

. واستولى الرئيس الفارس أَكْطُونْ (Acton) على السفينة التي بها الرئيس المستيري فأسرها، وكان بها نحو السبعين من البحّارة، فوضع السلاسل في أعناقهم، وأخذهم أسارى، والباقي منهم نجا إلى البرّ بواسطة السّباحة، ومن جملتهم الرئيس المستيري.

وتبعت الفركاطة السفينة الأخرى إلى العرائش، وتردّدت على مرساها مخوّفة مرهبة.

342) «مراسلة القنصل لوي شينيي»، ج 1، ص 41، وص 316-317، في إحدى رسائله.

وبعث حاكم العرائش من قِبله النجدة للقطع الأخرى الجانحة في البَرِّ، فنجا بعض من كان فيها، ومن جملتهم الرئيس الهاشمي الكوار، فأخذهم حاكم العرائش وثقَّفهم حتى يَرِد عليه الجواب من السلطان بما يراه فيهم، ولعله عفا عنهم.

ثم قال شينيي : وهذا الرئيس، وإن كان طاعناً في السن تجاوز الثمانين، فقد نجا من الهلاك بجريعة الدَّقْن.

والذي يوخذ من مجموع ما كتبه شينيي في حق هذا الرئيس هُوَ أَنَّهُ كان يحطُّ من قدره، ويعاديه، ويُعْلِنُ عداوته في كل مناسبة فيما سجَّله وكتبه عنه في رسائله التي كان يرفعها به من المغرب في عهد قنصليته لأولياء أمره ببلاده.

مع أنَّ الذي وقفنا عليه من أخباره عند من تعرَّضَ له أو ذَكره من معاصريه، كأبي عبد الله الضُّعيف وغيره من المؤرخين لا يرون ذلك، ولا سيما أَنَّهُ كان مُقَرَّباً محظوظاً ملحوظاً بعين الرضى من السلطان، ويقدِّمهُ ويسند إليه المهمَّات، ويعتمد عليه في فصلها وإنجازها لثقته به، ولا عبرة بما كتبه شينيي في حقه.

وكانت وفاته ليلة السبت السادس من ربيع الأول عام اثنين وتسعين ومائة وألف (6 ربيع الأول 14/1192 أبريل 1777) كما عند أبي عبد الله الضُّعيف[343] رحمه الله تعالى.

*** الرئيس الهاشمي المستيري**

هذا الرئيس من أشهر رؤساء الأسطول المغربي السلاوي الرباطي في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله، وأصله من قبيلة بني مستارة كالمتقدم.

وكان سنة (1184/1770) رئيساً لسفينة من نوع سينو (Senau)[344] فيها 24 مدفعاً و110 بحّار.

وفي سنة (1185/1771) كان رئيساً لفركاطة اسمها «الأسد»، فيها 24 مدفعاً و 110 بحّار أيضاً.

343) ج 2، ص 44، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

344) سفينة شراعية ذات صاريين.

ذكره أيضاً لوي شينيي في دفتره الخاص بقنصليته العامَّة بالمغرب من سنة 1767 إلى سنة 1785 (1181-1199)[345] أن السلطان كان يكلِّفه بمسائل الأسري واسترجاعهم، كما يوخذ ذلك ممَّا ذكر كايي في كتابه : «القنصلية الطنجوية»[346] وهو أنَّه أمر القنصل شينيي بالكتابة إلى رئيس مرسيليا يوصية بأنْ يحسن إلى الأسرى الذين ياتي بهم الهاشمي المستيري، بعد إطلاق سراحهم، ويعطيهم كُلَّما يتوفَّقون عليه، حتى يتوجَّه كل واحد منهم لبلده، ويقيِّد ما صيَّره عليهم ليؤديه له، فَوَجَّهَ شينيي الإعلام بذلك إلى حكومته، بعد ما اعتذر أولاً بأنه ليس راجعاً إليه.

وتَقدَّم لنا أنه كان أُسر مُدَّة خمسة أعوام بليڤورن (Livourne) وأُطلق سراحه بعد ذلك.

وذكر أبو عبد الله الضُّعيف في مجموعته التاريخية[347] أنَّ السلطان سيدي محمد بن عبد الله وَجَّهَ معه في سفينته عام (1203/1780) مالاً لبعض الأجانب بالجديدة.

ثم ذكر[348] أنَّ السلطان المولى اليزيد، لمَّا كان محاصراً لسبتة، أمره بالخروج من العرائش في سفينته ليتطوَّف بالبحر، فخرج، ونشبت السفينة في البرِّ، فأشخصه إليه ووبَّخه ونتف لحيته.

ثم ذكر الضعيف أيضاً[349] أنَّ السلطان المولى سليمان ولاَّه نظارة الجامع الكبير بالرباط في جمادى الثانية، سنة ستِّ عشرة ومائتين وألف (جمادى الثانية 1216/أكتوبر 1801) وهذا يدلُّ على أنَّهُ تأخَّرَت وفاتَه إلى عهد ما بعد هذا التاريخ رحمه الله.

*** الرئيس إسماعيل**

لم نقف على أصل هذا الرئيس من تطوان. والظاهر، حسبما وقفنا عليه من أخباره القليلة، أنَّه من رؤساء الأسطول المحمدي الذين كانوا بشمال المغرب، بتطوان، وطنجة، والعرائش.

وكان يتردَّد بين هذه المراسي ومرسى العدوتين، سلا ورباط الفتح، لأنها كانت مركز الأسطول الرسمي، وملجأه، منذ عهد الدولة الموحدية والمرينية والسعدية والدولة الشريفة العلوية، وخصوصاً في دولة السلطان سيدي محمد بن عبد الله، رحمه الله تعالى.

345) ج 2، ص 1021.

346) (Le Consulat de Tanger)، ص 18.

347) ج 2، ص 101، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

348) نفس المصدر، ج 2، ص 163.

349) نفس المصدر، ج 3، ص 116.

وغاية ما وقفنا عليه من أعماله وحركاته البحرية هو ما ذكره القنصل لوي شينيي في رسائله التي كان يحرّرها بالعدوتين، ويخاطب بها رئيسه بباريس.

ويؤخذ منها أنّه كان من الرؤساء المعتمَدين عند السلطان سيدي محمد بن عبد الله.

وممّا ذكره القنصل المذكور من أخباره في دفتر قنصليته الخاصّ، أنه كان سنة 1770 (1183-1184) رئيساً على سفينة مغربية مسلّحة باثني عشر مدفعاً كبيراً، وثلاثة مدافع صغيرة، وبها مائة بحّار، وسلّم له ورقة الجواز الرسمية (باسبورط)، وكان من جملة الرؤساء الأربعة الذين قدَّمَ لهم الهدية المعتادة الجاري بها العمل في ذلك العهد.

ثم ذكر[350] أنّه كان رئيساً على سفينة شراعية مسلّحة باثني عشر مدفعاً وبها ثمانون بحّاراً.

وسلَّمَ له ورقة الجواز (باسبورط) مع رؤساء آخرين سنة (1186/1772).

وذكر أيضا أنّه سلّم له ورقة الجواز (باسبورط) مع رؤساء آخرين من سلا والعرائش وتطوان سنة (1186/1773-1187)، وكان رئيساً على سفينة مسلّحة باثني عشر مدفعاً وبها ستون بحّاراً.

ومن أخباره ما ذكره القنصل المذكور في رسالته الصادرة منه لرئيسه بباريس في ثالث دجنبر سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة وألف (3 دجنبر 13/1772 رمضان 1186)[351] : وهو أنه توصّل في الشهر الماضي بعدة رسائل من قنصل دولته بقرطاجنة يخبره فيها بالحادثة التي حلّت بالقبطان الفرنسي المسمّى لوي بْرَا (Louis Bras)، الذي كان يقود مركباً فرنسياً، والتقى في البحر مع الرئيس إسماعيل هذا الذي كان يقود سفينة من سفن أسطول ملك المغرب، ولجهله أو تجاهله بما يتعيّن عليه معرفته من القواعد والقوانين البحرية، اصطدم مع المركب الفرنسي، ووقع لكل واحد منهما بعض الخسائر.

وذكر أنّ القنصل الفرنسي بقرطاجنة، وجّه له مع تلك الرسائل المتعلّقة بهذا الحادث ملخّصاً يحتوي على سائر الحُجج المتعلّقة به، ليحتجّ بها عند الحاجة، فأخبر بها، في الحين، الترجمان الفرنسي الذي كان ملحقاً بالبلاط الملكي المغربي، وكلّفه بإنهاء القضية لعلم جلالة السلطان ليستفيد منها، ويعتمد عليها في إصدار حُكْمه في القضية، ويكون مطابقاً للواقع، ولا يتأثّر بما سينهيه لعلمه القرصاني إسماعيل رئيس سَفينته، الذي لازال إلى الآن لم يصل إلى مرسى من مراسي مملكته الشريفة.

350) «رسائل القنصل لوي شينيي»، ج 1، ص 126.

351) نفس المصدر والجزء، ص 276.

وحيث أنَّه مسؤول عمَّا وقع فإنَّه يأبى أن يعترف بالحقيقة وما صدر منه.

وزيادة على ذلك فإنَّه غير مستعدّ لقبول أداء تعويض عمَّا كان سبباً فيه من الخسائر، ونفقات الدعوة الموجَّهة إليه حسب القانون، وغير ذلك من أمور أخرى وقعت بقرطاجنة، وهي حقّ من حقوق القبطان الفرنسي، ومنها ما أدَّاه القنصل الفرنسي بقرطاجنَّة من الصوائر على هذه القضية.

وقد بلغه أنَّ الرئيس المغربي توجَّه لقرطاجنة بعد إنتهاء جولته البحرية، وربَّما يكون القنصل الفرنسي بها دفع له نفقة أخرى تتعلَّق بهذه القضية، وطلبُ استرجاعها صعب جدّاً، وتنازل القنصل عنها صعب كذلك.

ولكن لا بدَّ من أدائها ليكون الرؤساء المغاربة يراعون القواعد الواجبة عليهم مراعاتها، ولا سيما ما يتعلق منها بالقرصنة البحرية، والمحافظة علي كلِّ ما يئول إلى احترام راية الدولة المسالمة للدولة المغربية.

ثم استأنف الحديث عن هذا الرئيس وقضيته المتابع بها في رسالته المؤرخة في ثاني عشر يناير سنة ثلاثة وسبعين وسبعمائة وألف، (12 يناير 18/1773 شوال 1186) فقال :[352]

إنَّ الرئيس اسماعيل الذي كنت كتبت لكم في شأنه رسالة سابقة، لازال لم يصل إلى الشاطئ المغربي حتى الآن.

وتحقَّق عندي أنَّه لازال بقرطاجنه، ويُقَالُ إنَّه في حالة سيئة.

وقد وجَّهت تعليمات أخرى، وأوامر جديدة إلى الترجمان الفرنسي الملحق بالبلاط الملكي، ليُحَوِّلَ نظر السلطان عمَّا يكون تأثر به أو انْفَعَلَ له في هذه القضية، ولازلت أنتظر مزيد بيان وتحقيق فيها، ليكون العمل غير متقلب ولا متغير أو مخالف للمصلحة.

هذا، وقد ظهر لي من بعض مقاصد القراصنة أنَّهم يعملون دائماً كل الوسائل التي توصل إلى الاستيلاء والسلّب والنَّهب، وأنَّهم يغتنمون مثل هذه الحالة ليتوصَّلوا إلى أغراضهم ونيل مطالبهم، وهذا شأنهم، بل ويعملون على كل مافيه نكاية أو تشويش.

وأرجوا أنْ لاينتج عن هذه القضية شيء يكدِّر أو يؤدِّي إلى ما يسوأ. لا سيما إذا اتخذت الاحتياطات اللازمة التي تمنع من الوصول إلى ذلك، ومن جملتها معرفة حالة هذا الرئيس.

---

352) «مراسلة القنصل لوي شينيي»، ج 1، ص 280.

وليكن في عِلْمِكُمْ أنَّ القراصنة الذين توجَّهوا إلى مراكش، بلغني أنَّ حالتهم سيِّئة، وخصوصاً مقابلتهم مع السلطان...» اهـ. ما سجَّله من الأغراض والتعريض والتحريض على عادته.

وجاء في رسالته المؤرخة بـ (23 ابراير 1/1773 حجة 1186)[353] قوله، مخاطباً رئيسه أيضاً، أنَّه، عملاً بالأوامر المأمور بإنجازها، أنَّ البيان الذي كان قدَّمه له فيما يرجع لقضية الرئيس إسماعيل الذي اصطدم مع السفينة الفرنسية كما تقدَّمَ، كان مؤقتاً ومستعجلاً.

وقد بلغه الآن أنَّه وصل إلى طنجة، وعليه، فسيجدِّد الشكاية والايضاحات المتعلِّقة بها إلى السلطان، حسبما سيتجدَّد لديه من المعلومات الجديدة المتعلِّقة بها، بمجرَّد ما يتحقَّق عنده رجوع السلطان من حركاته، واستقراره بالمحلِّ الذي سيقيم به.

وهذا آخر ما سجَّله القنصل لوي شينيي من أخبار هذا الرئيس وحركاته البحرية ولا ندري ما آل إليه أمره، وآلت إليه هذه القضية.

* الرئيس الهاشمي التركي
الكوار الرباطي

هذا الرئيس أصله تركي النِّجار، رباطي الدار، والملجإ والقرار.

وهو من جملة الرؤساء الأتراك الذين هاجروا إلى المغرب، والتحقوا بالسلطان سيدي محمد بن عبد الله، رحمه الله، بإذن من الخليفة العثماني الذي كان معاصراً له، وكانت له معه صلة ومواصلة مستمرَّة، فاستعملهم في أسطوله.

وكان معتمَداً عنده في المُهمَّاتِ والمُلمَّاتِ، جوَّالاً في البحر، ما آب من غارة إلاَّ وأزمع الخروج إلى أخرى.

ومازالت أسرة آل الكوَّار موجودة برباط الفتح إلى وقتنا هذا.

وكان في أول أمره متولياً رياسة فركاطة بمرسى العرائش، مسلَّحة بأربعة عشر مدفعاً ومائة بحَّار.

---

353) «مراسلة لوي شينيي»، ج 1، ص 287.

وذكر أبو عبد الله الضعيف في مجموعته التاريخية[354] أنّ السلطان سيدي محمد بن عبد الله أمر، سنة إحدى وسبعين ومائة وألف (1758/1171) بإنشاء سفينة خاصّة بهذا الرئيس.

وفي سنة سبع وستين وسبعمائة وألف (1181-1180/1767) وسنة ثمان وستين وسبعمائة وألف (1182-1181/1768) بعدها، ترقّى لرِيَاسَةِ سفينة بها اثنان وعشرون مدفعاً[355].

وذكر القنصل شيني في دفتر قنصليته الخاص[356] أنه في ثامن وعشري مايه (28 مايه 1767/29 حجة 1180) سنة سبع وستين وسبعمائة وألف (1180/1767)، سلّم ورقة الجواز الأميرالية، والشهادة المطلوبة والمعمول بها، بمقتضى معاهدة السنة المذكورة أعلاه، لثمانية من رؤساء البحر المغاربة، ومن جملتهم هذا الرئيس، الهاشمي الكوار التركي الأصل.

ثم ذكر[357] أنه سلم الجواز المذكور والشهادة المذكورة أعلاه سنة تسع وستين وسبعمائة وألف (1183-1182/1769) لعشرة من رؤساء الأسطول المغربي أيضاً، من بينهم الرئيس الهاشمي الكوّار هذا، وكان إذ ذاك رئيساً على سفينة مسلّحة باثنين وعشرين مدفعاً.

وأخبر أيضاً[358] أنّه سلّمَ له ولرؤساء آخرين من رؤساء الأسطول المغربي سنة إحدى وسبعين وسبعمائة وألف (1187/1771) الأوراق الرسمية المذكورة.

وكان إذْ ذاك رئيساً على سفينة سلاوية بها خمسة مدافع فقط، وستون بحّاراً، وثلاث وستون جدّافاً.

وذكر القنصل شيني في رسائله التي كان يوجّهها إلى رئيس حكومته بباريس[359] أنّ السلطان سيدي محمد بن عبد الله كان وجّهه في جملة الرؤساء الذين رافقوا الرئيس محمد العربي المستيري في سفارته إلى تونس أوائل شهر شتنبر سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة وألف (أوائل شتنبر 1773/جمادى الثانية 1187) وفي أثناء رجوعه صحبة السفير المذكور ومن معه من الرؤساء وقِطَعِ الأسطول المغربي في ثالث عشر أكتوبر من السنة (13 أكتوبر/26 رجب) من العام المذكور، تعرّضت لهم برأس سبارتيل فرگاطة من ليڤورن الإيطالية، برياسة الفارس أكطون (Acton)، ولم يكونوا على استعداد لمقاوتها، فاضطروا إلى الفرار، ومن جملتهم فرگاطة هذا الرئيس الهاشمي الكوار، فجنحوا إلى البر.

354) ج 2، ص 13، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.
355) «قراصنة سلا» لكواندرو، ص 92، طبعة سلا، 1998.
356) «مراسلة القنصل لوي شيني»، ج 1، ص 145.
357) «مراسلة القنصل لوي شيني»، ج 1، ص 146.
358) المصدر السالف الذكر، ج 1، ص 225.
359) المصدر السالف الذكر، ج 1، ص 42 وص 317.

وبعث حاكم العرائش النجدة إلى القطع الجانحة، فنجا بعض من كان فيها، ومن جملتهم هذا الرئيس فأخذهم حاكم العرائش، وثقَّفهم حتى يرد عليه الجواب من السلطان بما يراه في شأنهم. وكان الناس يظنُّون أنَّه سيعاقبهم عقاباً شديداً بتهمة تفريطهم. ولعله عفا عنهم لأنَّهم اضطرُّوا إلى الانسحاب وطلب النجاة. وقد ذكرنا هذه القضية بأبسط من هذا في ترجمة الرئيس المستيري، و ما حلَّ ببحارته.

* الرئيس الحاج سُليمان التركي الجزائري

توجد بسلا الآن أسرتان، يُطلق على كل واحدة منهما أولاد ابن سليمان.

ويقال إنَّ الأولى من شمال المغرب، وانتقلت إلى سلا، واستقرت بها، وربَّما يكون أصلها أندلسياً.

والثانية يتَّصل نسبها بالرئيس المعلم الحاج بابا سليمان الجزائري، التركي الأصل، لأنَّه كان من جملة رؤساء الأسطول بسلا، واتخذها داراً وقراراً، وخلَّف بها عَقِباً وذرية.

وكِلاَ الأسرتين تناسلت، وامتدَّت فروعها بها، وفيهم من يتعاطى العلم، ومن يتعاطى التجارة وبعض الحرف.

وقد كانت من أفراد هذه الأسرة الثانية امرأة لها دار خاصَّة تُعلِّم فيها الفتيات السلاويات صناعة الخياطة والطرز،و تُدَرِّبُهُمْ على تربية الأولاد، والقيام بالشؤون العائلة، وكيفية معاشرة أزواجهن.

وكانت تعرف بالمعلِّمة سليمانية.

وتوجد أسرة أخرى بفاس تدعى بآل سليمان، وكان لها ذكر وشأن في المخزن في العهد العزيزي.

وأصل هذا الرئيس من ترك الجزائر، وهاجر إلى المغرب، وكان من العاملين بالأسطول المغربي في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله. وكانت له مهارة في صنع القنابل ورميها بالمدافع، ويُعرف ببابا سليمان الجزائري.

قال أبو عبد الله الضُعيِّف في مجموعته التاريخية[360] : وجَّه السلطان سيدي محمد بن عبد الله للجديدة، لمَّا حاصرها، البحرية والطبجية، والبونباجية والرؤساء من رباط الفتح،

360) ج 2، ص 29، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

وبعث معهم بابا سليمان الجزائري، وكان عارفاً برماية المهراس والأنفاض، وهو الذي علّم أولاد الرباط وسلا وغيرهم.

وكان رجلاً خيّراً لا يفتر لسانه عن الذكر وقراءة دليل الخيرات، مصمّماً على الجهاد، وله نية حسنة. وكان ذات يوم ساجداً في الصلاة، فضربه النصارى بكورة مرّت على تكّة سراويله، ونجّاه الله منها، فقال له السلطان : «إحذر !» فأجابه قائلاً : «إنّ مِتُّ متُّ مجاهداً»، رحمه الله.

وكان معه بابا إسماعيل الجزائري أيضاً.

وقال في «الاستقصا»[361] : «كان ممّن شَهِدَ الفتح المعلم الحاج سليمان المجيد في صناعة الرمي بالمهراس فأبْدأ وأعاد...»

وأخْبَرَ القنصل لوي شينيي في رسالته المؤرخة بِمُتِمِّ شهر مايه سنة تسع وسبعين وسبعمائة وألف[362] (31 مايه 15/1779 جمادى الأولى 1193) بأنّ القراصنة الجزائريين الأربعة الذين كانوا بطنجة، لمّا غَنِموا سفينتين إصبانيتين، أذن لهم في التوجُّه إلى بلادهم في هذه الأيام.

وكانت السفينتان المغنومتان مُتّجهتين إلى قادس ؛ إحداهما مشحونة بالحديد والقمح، والأخرى، وهي أغنى وأقنى من الأولى، مشحونة بالملبوسات وأنواع المنسوجات.

ويقال إنّها جاءت من مرسى سان مالو (Saint Malo)، وما نجا بحّارتها إلاّ بواسطة الزوارق، وكان من بينهم ثلاثة عشر إصبانياً، ومسافر واحد فرنسي اسمه دو لاموط (De Lamothe)، ومعه امرأته التي كان حديث عهد بالتزوج بها بمدينة سان سيبستيان (Saint sébastien)، وإنّما تساهل القراصنة الجزائريون في قبول إركابهما في سفينتهم التي كانت معرّضة للخطر، لأنّهم كانوا يعلمون أنّهما لا يصحّ استعمالهما، وتردّد الرئيس في القبول أو الرفض أوّلاً من عنْدِيَته، ثم أذْعَنَ، وطلب سلطان المغرب حيازة الإصبان الثلاثة عشر، وعيّن قيمة كل واحد منهم، مائة بياسطر، وهي سكة إصبانية كانت رائجة في ذلك العهد بإصبانيا، وببعض الدول الأخرى، ولكن الرئيس لم يقبل هذه القيمة أولاً، لأنه كان نائباً عن أميره فقط.

ثم رجع عن رفضه وقَبِلَه في مقابلة هدية قُدِّمت له.

361) «الاستقصا»، ج 7، ص 50، طبع 2001. وج 4، ص 107، طبع القاهرة.
362) «مراسلة القنصل لوي شينيي»، ج 2، ص 740.

وترتَّب عنها صدور كتابة مبهمة من الأمير المغربي، تتضمَّن عدم الاعتراف بحماية الجزائريين للإصبان الذين كانوا بالسفينتيّن المغنومتيّن، بحيث يمنع اعترافه بهم بيعهم وبيع السفينتين وما كان فيهما بأسواق طنجة.

وبمقتضى ذلك بيعت السفينتان المذكورتان وما كان فيهما بما تزيد قيمته على مائة وخمسين ألف ليبرة، وكذلك الثياب والأقمشة على يد الرئيس سليمان الجزائري صاحب الترجمة.

وكان معه سفينة خاصَّة به من نوع قبق وثلاثة زوارق، وكلّها مسلَّحة أتمَّ تسليح، وفيها نحو أحد عشر مائة بحّار.

وبارحت جميعها المرسى ليلة الثامن من الشهر الجاري، فصادفت عاصفة من الريح، ولم تنج من مراقبة بعض السفن الإصبانية التي كانت تراقبها، وَتَتَبَّعُ حركتها أثناء حراستها لشواطئ بلادها، ويقال إنَّها ألحقت بها أضراراً وعطباً.

وقد كان السلطان يحاول أخذ أولئك الإصبان، ليقدِّمهم لملك إصبانيا، ويأخذ في مقابلتهم بعض الأسرى المغاربة الذين بها.

وحيث لم يتمكَّن من ذلك، وجَّه له أربعة من أسرى الإصبان الذين أُسروا بسبتة، وستة من الأجانب الذين كانوا أسرى أيضاً بالمغرب، بدلاً من المغاربة المأسورين بإصبانيا، ويُعتمد في ذلك كلِّه علي تفضُّل ملك الإصبان.

وبعث أحد قواده لمباشرة القضية مع حاكم سبتة.

وقد ورد ذكر لجماعة من آل ابن سليمان السلاويين في دفتر الأميرال الحاج الطاهر عوّاد في جملة المجاهدين الذين كانوا يعملون في الأسطول المغربي السلاوي الرباطي، أو الذين تنفَّذُ لهم الصِّلات والعطايا السلطانية من حين لآخر عند كل مناسبة.

وهذا ما توفَّقنا إلى الوقوف عليه وجمعه من أخبار هذا الرئيس الآن، والله الموفِّق بمنه.

* الرئيس أحمد التركي الكوار

هذا الرئيس أصله من تركيا، وهو من جملة الرؤساء الأتراك الذين هاجروا من بلادهم إلى المغرب، والتحقوا بالسلطان سيدي محمد بن عبد الله، وانضمُّوا إليه، وعملوا في أسطوله، وهم جماعة، منهم من تقدم ذكره، ومنهم من سياتي.

وقد كان هذا الرئيس مَعْدُوداً من جملة الرؤساء الذين كانوا برباط الفتح.

وذكر كواندرو (Coindreau) أنَّه كان سنة (1187/1773) رئيساً على مركب صغير به خمسة مدافع وستون بحّارا.

وورد له ذكر في رسالة قدَّمها لوي شيني لحكومته بباريس، بتاريخ ثالث وعشري غشت سنة تسع وسبعين وسبعمائة وألف (23 غشت 10/1779 شعبان 1193)[363]، يعلمه فيها بوصول سفير السويد إلى مكناس، وأنّ مقابلته الأولى مع السلطان كانت جميلة.

ولكن يجهل الناس كل الجهل ما وقع في المقابلة الثانية، والشائع عنهم، هو أنَّ المذاكرة التي راجت بينه وبين السلطان، كانت غير مرضية، ولاحظ السلطان فيها حطّاً وخلطاً يدلُّ على فساد مزاجه، وخصوصاً فيما يرجع لامتناع السويد وتعصُّبها لعدم أداء الضريبة السنوية التي كانت مفروضة عليها، بوقاحة وتعنُّت، وذلك أثناء الاقتبال العامّ الذي قابله فيه، حسبما أخبر به جماعة من الفرسان المخزنيين الذين كانوا حاضرين، فتعجَّبوا، ودهشوا ممّا شاهدوه أو سمعوه من هذا السفير.

وفي مساء الحادي والعشرين من هذا الشهر المؤرّخ به، وردت الأوامر المخزنية لفرگاطتين كانتا راسيتين بالمرسى (يعني مرسى العدوتين)، كل واحدة منهما مسلَّحة بعشرين مدفعاً، وبها مائة بحّار بالخروج للغزو بالبحر.

وبمقتضى هذه الأوامر، ركب فيهما في الحين النوتية، وتزوَّدوا بما يحتاجون إليه من العدّة والسلاح والمئون الكافية، وسلَّم ضابط عسكر مخزني ساعة الركوب للرئيس أحمد التركي الكوار ورفيقه الرئيس الصابونجي، أمراً مخزنياً مختوماً مُبْهماً، وأُمِرَا أنْ لا يقرءانه إلاّ بعد إبحار السفينتين، ونشر قلوعهما، وكان سفرهما ليلة ركوبهما.

ولا يخفى أنَّ تجهيز هذه البعثة الحربية البحرية على هذه الصِّفَة من السُّرْعَةِ والغُموض فيه دلالة على وقوع أو توقُّع أمر مهمٍّ جدّاً للغاية.

ويقال إنَّ الملك أوْضَحَ وبيَّن لسفير السويد أنَّه سيتابع الراية السويدية في هذه الأحوال، وما احتفَّ بها من ظروف الانحراف والانعزال الدالَّيْن على عدم الثقة، والانحياز إلى الدول المتحاربة، وربَّما يحصل من ذلك على غنائم أغنى وأقْنَى من تلك الضريبة. وهذه أقوال وظنون قد تحقِّقها الأيام الآتية، وهي مبنية على ما تقدّم بيانه.

---

363) «مراسلة القنصل لوي شينيي»، ج 2، ص 756-757.

والظاهر أنّها ناتجة عمّا كان يلاحظه ملك المغرب على السويد في معاملتها وتعاليها منذ أرادت حسم مادّة تقديم الهدايا والعطايا السنوية التي كانت مفروضة عليها لملك المغرب، مع أنّها كانت قبل ذلك ملتزمة بها وخاضعة لها.

ثم قال شينيي : وليتذكر جنابكم ما استشعرته واستحضرته في هذه الحالة، ما كنت ذكرته لكم في رسالتي الصادرة إليكم في شهر يوليوز سنة سبع وسبعين وسبعمائة وألف (يوليوز 1777/ جمادى الآخرة 1191).

وهو أنّه لمّا ورد سفير السويد إلى المغرب أيضاً في ذلك العهد، وحرّرت في مجيئه رسالة لكم في ثلاث صفحات، وقد ترجّح عندي أنْ أخبركم بكلٍّ ما يروج في هذا الشأن.

وهو عدم تحقُّقي في الحالة الراهنة بالموجبات والأسباب الداعية، لهذه البعثة السرية لهاتين الفركاطتين، ولكن ذلك لا يمنع من الإعلام بما يتجدّد من الأحوال، ويَتَعَيَّنُ الانتباه إليه والتيقّظ له من الأعمال.

لا سيما ورسالتكما اللتين تشرّفت بهما بتاريخ سابع مايه، وثامن وعشري يونيه/ربيع الأول وربيع الثاني من السنة، تلزماني بالتأمّل والتأثّر بأعمال ملك المغرب، وأخذ العبرة منها.

ولاشكّ أنّ منطوقهما يتضمّن مزيد تعليمي وتلقيني بما ينبغي أن يكون عليه العمل في مثل هذه الأحوال.

ولذلك فأنّي أتشرّف بأن أحسب لهذا الملك حسابه، وأطرق كلّما دعت الحاجة إليه بابه، حتى لا أتعرّض للخطر، وأكون قد قمت بواجبي نحوكم. انتهى ما ورد في هذه الرسالة.

هذا وقد استمرّ العمل جارياً بأداء بعض الدول الأوروبية، ومنها السويد الضريبة المذكورة، إلى أنْ كانت وقعة إيسلِي التي مَحّص الله فيها الجيش المغربي، وكان من نتائجها اشتراط إسقاطها.

قال في «الاستقصا»(364) : «ودعت المصلحة الوقتية السلطان (يعني المولى عبد الرحمن)، رحمه الله، إلى أن أسقط عن جنس الدانمارك، وجنس السويد، ما كانا يؤدّيانه إلي الدولة العلية كل سنة، فالأول خمسة وعشرون ألف ريال، والثاني عشرون ألف ريال، وكذلك أسقط عن غيرهم وظائف أخرى، والأمور كلها بيد الله لا يُسْأَلُ عمّا يفعل، وهم يسألون».

وذلك سنة ستين ومائتين وألف (1260/1844)».

ثم تخلّص لذكر رؤساء آخرين، حسبما سيأتي في محلّه.

364) «الاستقصا»، ج 4، ص 197، طبع القاهرة، وج 8، ص 66، طبع 2001.

وبالمجملة، فهذا الرئيس كان من جملة الرؤساء الممتازين عند السلطان سيدي محمد ابن عبد الله، رحمه الله.

وقد خاطبه في رسالة خاصّة به، وبالرئيس علي الصابونجي يأمرهما فيها بما سيكون عليه عملهما في سفرهما في البحر، وما نفذه لهما سياتي عند الكلام على الرئيس علي الصابونجي، وما أضيف إليها.

كما ورد ذكره أيضاً في رسالة أخرى للسلطان المذكور، خاطب بها الرئيسين يوسف الطرابلسي، وقدّور، بأن يكونا مهيَّئين للسفر. ولا يسافرا حتّى يصلهما الرئيس أحمد الكوار هذا، والرئيس ابن حسّون عوّاد، وكانا بالسويرة، حسبما أثبتناه في ترجمة الرئيس يوسف الطرابلسي المذكور[365].

وذكر أبو زيد عبد الرحمان بن زيدان في «الإتحاف» أنّ السلطان المولى محمد بن عبد الله أصدر ظهيراً شريفاً لهذا الرئيس ورفيقه الرئيس قدّور سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف (1768/1182) يأمرهما بالتهيء للخروج للبحر ويقول فيه :[366].

خديمانا الرئيس يوسف الطرابلسي، والرئيس قدّور، سلام عليكما ورحمة الله وبركاته.

وبعد فنأمركما أنْ تكونا مشحميْن موجوديْن للسفر، ولا تُسافرا حتى يصلكما الرئيس أحمد الكوار الرباطي[367]، والرئيس ابن حسّون عوّاد، فإنهما بثغر السويرة، وفي أثر الكتاب يصلانكم إن شاء الله، فحين يدخلان للمرسى، أخرجا أنتما بسلامة، لِتَبْقَى المرسي عامرة، والبحر عامر، والسلام.

في أول جمادى الأولى من عام اثنين وثمانين ومائة وألف (1 جمادى الأولى 13/1182 شتنبر 1768).

وورد له ذكر في دفتر الأميرال الحاج الطاهر عوّاد بأنّه من جملة المجاهدين من أهل الشرف الذين كانوا بالمغرب[368].

وهذا ما أدركناه حتى الآن من أخبار هذا الرئيس.

365) «إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس» لابن زيدان، ج 3، ص 262.
366) «إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس» لابن زيدان، ج 3، ص 262.
367) ولا زال أولاد الكوار موجودين بالرباط إلى الآن.
368) ص 38، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

* الرئيس يوسف الطرابلسي

قال أبو زيد عبد الرحمن بن زيدان في «إتحافه»[369].

«هذا الرئيس من جملة الرؤساء الآفاقيين الذين وفدوا على السلطان سيدي محمد بن عبد الله، وانضموا إليه، وكانوا من جملة رؤساء أسطوله».

وعلّق عليه : «أنه ورد من طرابلس الغرب، واستوطن سلا، وتزوّج بها، وله بها حفدة وذرية». قلت : ومازالت موجودة إلى الآن، ومن تُجّارها المشهورين. وزاد قائلاً : «وكان في أول عهده رئيساً على سفينة بحرية بها مائة وعشرون بحّاراً واثنا عشر مدفعاً».

وأثبت كواندرو (Coindreau)[370] أنه كان سنة ست وستين وسبعمائة وألف (1180-1179/1766) رئيساً على سفينة من نوع قبق عدد مدافعها اثنا عشر مدفعاً.

وفي سنة تسع وستين وسبعمائة وألف (1183/1769) ترأّس سفينة بها أربعة وعشرون مدفعاً.

وفي سنة سبعين وسبعمائة وألف (1184/1770)، كما عند القنصل لوي شينيي، في دفتر قنصليته[371]، أنه كان رئيساً على سفينة ذات صاريين، ومسلّحة بثمانية عشر مدفعاً وفيها مائة وعشرة نوتياً، وكان من جملة الرؤساء الذين دفع لهم ورقة الجواز (الباسبورط).

وفي سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة، (1186/1772) تعاقب مع الرئيس عمر الطرابلسي أيضاً على رياسة مركب شراعي.

وحدّث لوي شينيي في رسالة له إلى رئيس حكومته بتاريخ ست وعشرين يوليوز سنة ست وسبعين وسبعمائة وألف (26 يوليوز 9/1776 جمادى الآخرة 1190)، وأثبتها پيير گرييون (Pierre Grillon) في مجموعته[372] أنّه خرج في سفينة له من نوع قبق، بها أربعة عشر مدفعاً من العرائش متوجهاً إلى طنجة، فتعرّضت له دارعة هولاندية، ما بين أصيلا وراس سبارتيل، ولمّا تحقّق أنها تريد به شرّاً، التجأ إلى أصيلا، واختفت الدارعة الهولاندية وراء راس سبارتيل لتوهمه أنها انسحبت نهائياً، وتمشّت عليه الحيلة، وظنّ أنّها لم يبق لها أثر، ولكنه بمجرّد ما برز من ملجئه، رجعت إليه وطاردته، وأطلقت عليه عدّة طلقات من مدافعها، واضطرّ إلى الجنوح إلى البرّ، وأصابت بعض مقذوفاتها المدفعية هيكل السفينة، ولكن لم ينشأ عنها

369) ص 260-261-262 من ج 3.

370) «قراصنة سلا»، ص 93، طبع سلا 1998 وص 84، طبع 1948.

371) ص 146، ج 1.

372) ج 1، ص 437.

خسائر كبيرة، وإنما جُرح بَعْضُ البحّارة المغاربة، ومات اثنان منهم وكذلك أحد أعراب البادية أصابته قنبلة وهو مشتغل في حصاد زرعه قرب الساحل.

ثم قال شينيي : «ويظهر أنّ هذه الحادثة وحادثة أخرى قبلها من نوعها حملت الإمبراطور المغربي على عدم قبول عقد معاهدة صلحية مع هولاندا، حتى يخضعها لأداءِ عطاء معلوم للمغرب كلّ سنة.

وأخبره قنصل هولاندا بأنه تلاقى مع السلطان وتخابر معه في ذلك، وأجابه بوعود عمومية بأنه سينهي الأمر لحكومته عاجلا.

وذكر شينيي في رسالة أخرى لحكومته بتاريخ ست وعشرين مارس سنة ثمانين وسبعمائة وألف (26 مارس 20/1780 ربيع الأول 1194)[373] : أن هذا الرئيس جاء من مالقة وسبتة، وكان بمرسيليا مع جماعة من المغاربة، ونزلوا بالغرفة التجارية المرسيلية وآواهم أعضاؤها وأحسنوا إليهم، وقصّ عليه ما شاهده من احتفائهم واحتفالهم بهم، واعترافه بجميلهم، وحمل إليه رسالة منهم.

وقال لاشك أنّه سيحدّث بذلك كلّه جلالة سلطانه. ولا يخفى ما سينتج عنه من صلاح الحالة السياسية بين الدولتين.

وقد أشار لهذه الزيارة في رسالة أخرى بتاريخ عاشر أكتوبر سنة ثمانين وسبعمائة وألف (10 أكتوبر 11/1780 شوال 1194-1195)[374]، وذكر أنّ عدد المغاربة الذين كانوا مع الرئيس أربعة عشر.

ونصّ أبو عبد الله الضُّعيِّف في مجموعة مقيّداته التاريخية[375] على أنّه كان من جملة الرؤساء الأربعة الذين صاحبوا القائد الزوين في سفارته للسلطان العثماني بإصطنبول. وهم: الرئيس محمد السبيع الرباطي، والرئيس محمد العُنقي الرباطي، والرئيس يوسف الطرابلسي هذا، والرئيس التركي (قلت ولعلّه الرئيس علي الصابونجي السلاوي).

وكل واحد سافر في سفينته الخاصّة به، وأنّهم بارحوا العرائش وجاءوا إلى سلا منتصف يوم الثلاثاء رابع عشر رمضان، وأتى معهم المكي بركاش، فوجدوا بالمرسى سفينتين أخريتين، إحداهما للرئيس لُبَريسْ الرباطي، والثانية للرئيس عاشور، وجّههما السلطان لبلاد الروم.

---

373) ج 2، ص 858 من «رسائل القنصل شيني».

374) المصدر السالف الذكر، ص 859.

375) ج 2، ص 93، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

*** الرئيس سالم الطرابلسي**

هذا الرئيس من جملة الرؤساء الطرابلسيين الذين هاجروا إلى المغرب واتَّخذوا سلا ورباط الفتح داراً وقراراً.

وكان يتردَّد بينهما وبين العرائش والسويرة من حين لآخر في أثناء جولانه في البحار وغاراته المتعدِّدة على الأساطيل الأجنبية، سواء بالبحر الأبيض المتوسط أو المحيط الأطلانطيقي، وخَلَّفَ عَقِباً وذرية بسلا، مازالت موجودة إلى الآن.

وكانت له مواقف مشهورة، وأعمال جهادية بحرية مذكورة.

وقد تقدَّم ذكر بَعْضِهَا أثناء الكلام على اعتناء السلطان سيدي محمد بن عبد الله بالأسطول المغربي، لا سيما لمَّا هجم الفرنسيون على سلا والعرائش أواخر سنة ثمان وسبعين ومائة وألف (1765/1178) ودافع عنهما.

وبالجملة فقد كان من جملة الرؤساء الذين يُخشى بأسُهُم، وتُتَّقَى صولتهم.

ولمَّا مرَّ السلطان سيدي محمد بن عبد الله في إحدى جولاته التفقُّديَّة بالعدوتين، وجد أهل العدوتين صَنَعُوا سفينة مشتركة بينهم، وكانت تسمى «المعونة»، وسفينة «الكراكجيا» أخذها منهم وأضافها لأسطول الدولة، وأسند رياستها للرئيس سالم هذا.

وقد ذكر هذه السفينة الضُّعيِّف في «تاريخه»(367)، وأشار إليها في «الاستقصا»، أحمد ابن خالد الناصري(377).

وفي سنة ثمانين ومائة وألف (1767-1766/1180) كان رئيساً على سفينة بها خمسة وأربعون مدفعاً وثلاثمائة وثلاثون بحّاراً(378).

كما كان رئيساً على السفينة ذات الطبقتين التي أنشأها السلطان سيدي محمد بن عبد الله وأنفق عليها نحو أربعين قنطاراً أو أكثر، وكان صنعها بسلا، ولمَّا تمَّ صنعها اهتمَّ أهل سلا بها وتجمهروا حتى أنزلوها للبحر، بعد ما بذلوا في ذلك جهوداً كبيرة.

قال النقيب أبو زيد ابن زيدان في «اتحاف أعلام الناس» :(379).

وفي سنة أربع وسبعين ومائة وألف (1760/1174)، أمر السلطان سيدي محمد بن عبد الله بإنشاء سفينة كبيرة ذات طبقتين، وأنفق عليها أموالاً كثيرة، نحو أربعين قنطاراً من الذهب.

---

376) ج 1، ص 263-264، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

377) ج 7، ص 18، طبعة الرباط 2001، وج 4، ص 95، طبع القاهرة، 1894.

378) «قراصنة سلا»، ص 93، طبع سلا، 1998، وص 84، طبع 1948.

379) ج 3، ص 258.

وكان إنشاؤها بسلا، والرئيس عليها الرئيس سالم الطرابلسي.

وعدد بحّارتها ثلاثمائة وثلاثون، ومدافعها النحاسية، خمس وأربعون مدفعاً.

وذكر ذلك أيضاً أبو عبد الله الضعيف في «مجموعته التاريخية»[380].

قال ابن زيدان في «إتحافه»[381] : وفي عام ثمان وسبعين ومائة وألف (1765/1178) كان أسطول سيدي محمد بن عبد اللّه يتردَّد بين أكناف البحار، ويجوس خلال الثغور الأجنبية، فيقتنص مراكب بعض الأجناس الأجانب الذين كانت الهدنة غير مقرَّرة تماماً بينه وبينهم. وكان من جملة ما غنم أسطوله أسطولاً فرنسيا.

ثم ورد مركب فرنسي على مرسى سلا والرباط وأطلق عليهما قنابل، وذلك يوم الجمعة حادي عشر ذي الحجة من السنة المذكورة، فخرج أهل الثغرين لظاهر البلد والأجنة بأولادهم، وضربوا الأخبية، وحصّن الرئيس سالم المراكب السلطانية التي كانت تريد السفر للخارج أمام منار حسّان، واستمرّ الأمر على ذلك ثلاثة أيام.

ولمّا لم يحصل الأسطول الفرنسي على طائل، أقلع ورجع من حيث أتى.

وذكر هذه القضية أيضاً أبو عبد الله الضُّعيِّف في «مقيداته التاريخية»[382].

وبسطها أيضاً والدي الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري في «الاستقصا»[383]، واستوعبها بما جلبه من النقول عن بعض المؤرخين المعاصرين حسبما سياتي بسطه وتفصيله عند الكلام على هجوم الفرنسيس على سلا في أخبار العدوتين في عهد الدولة العلوية الشريفة.

* الرئيس قاسم

هذا الرئيس من جملة الرؤساء الذين ورد ذكرهم في دفتر الرئيس الحاج الطاهر بن الرئيس الأميرال الحاج الهاشمي عوّاد السلاوي.

وهم جماعة من الرؤساء والبحّارة في عدة قوائم، إمّا للأذن لهم في السفر والجولان في البحر، وإمّا لأخذ العطايا التي كان السلطان يُنَفِّذُها لهم في كل مناسبة، وكلُّهم كان يُسمّى

380) ج 2، ص 21.
381) ج 3، ص 164.
382) ج 3، ص 26.
383) ج 4، ص 99، طبع القاهرة 1894، و ج 7، ص 30، طبع الرباط 2001.

بالرئيس أو البحّار. والرئيس قاسم هذا، ينتسب إلى أسرة من أسر العدوتين أو غيرهما، كتطوان وطنجة والعرائش.

وكان يأذن لهم في تتبُّع واصطياد سفن الدول التي تكون غير مسالمة للدولة المغربية، أو يوجِّههم في مهمَّة خاصَّة لبعض الدول المسالمة.

وبعض تلك الأُسَر لا زال موجوداً بالعدوتين، أو غيرهما من المراسي الأخرى، وبعضها قد انقرض، ولا ندري إلى أي أسرة كان ينتسب هذا الرئيس.

وإنَّما القنصل شينيي سجَّل طرفاً من أخبار حركاته البحرية، واقتصر على ذكر اسمه فقط، ولم ينسبه، وهل كان مغربياً أصلاً، أو أجنبياً استوطن المغرب، واستعمله السلطان في خدمته بأسطوله، وكان له شان.

وذكر في رسالته المؤرَّخة بالعشرين من شهر يناير سنة سبعين وسبعمائة وألف (20 يناير 23/1770 رمضان 1183)[384] التي خصَّصها لأسماء الرؤساء الذين سلَّم لهم ورقة الجواز (الباسبورط) منذ انعقاد المعاهدة السلمية بين فرنسا والمغرب إلى سنة /1182-1183) (1769 وهم جماعة، ومن جملتهم الرئيس قاسم هذا.

وأنه كان رئيساً على سفينة من نوع قبق مسلَّحة بأربعة عشر مدفعاً وعشرين بحّاراً، وهو ماذكره في دفتر قنصليته الخاصّ في خمسة مواضع : (ص 146-150-152-168-458، من ج 1).

وقد كان هذا الرئيس أحد الرئيسين اللذين اتهمهما بأنَّهما سبَّا العلم الفرنسي، وهما : الرئيس قدّور المتقدِّم، والرئيس قاسم هذا، حسبما ورد في رسالته الموجَّهة إلى رئيسه بباريس، المؤرخة بثاني مايه سنة سبعين وسبعمائة وألف (2 مايه 6/1770 محرم 1184)[385].

وحاصل ما راج في هذه القضية، حسبما تقدَّم بعضه في ترجمة الرئيس قدور، هو أنَّ الرسول الذي كان وجَّهه لمراكش حاملاً الشكاية لجلالة السلطان سيدي محمد بن عبد الله بتاريخ 8 أبريل /12 حجة من السنة الفارطة لم يرجع من وجهته إلاَّ أمس، تاريخ رسالته هذه.

وأخبر أنَّ السلطان تأثَّر جداً من الشكاية التي قدَّمها له في شأن هذين الرئيسين، وأحدهما هو الرئيس قدّور الذي وجده الحال مسجوناً بمراكش بأمر من جلالة السلطان.

---

384) «مراسلة لوي شينيي»، ج 1، ص 146.

385) «مراسلة لوي شينيي»، ج 1، ص 150.

ولمّا اطّلع السلطان على الشكاية التي رفعها إليه رسول القنصل المذكور، أمر بجلده، فَجُلِد، وصفَّده بالحديد، وصرّح بأنه لا نهي له ولا أمر.

وزاد أنَّ الترجمان سومبيل أخبره من طرف جلالة السلطان، بأنَّه أَمَرَ بإحضار الرئيس قاسم هذا، وهو المتّهم الثاني بسبب العلم الفرنسي، إلى الرباط ليعاقب بمحضره وأمامه، ويؤدّي له سائر ما يطالبه به.

ولكنَّه عزم على أنّه إن أُحضر أمامه فإنّه سيفوض أمر عقابه لجلالة السلطان.

ثم قال : إنَّ الترجمان المذكور، أخبر أيضاً بأنَّ عقاب هذين الرئيسين سيكون زجراً لهما وعبرة لغيرهما، حتى لا يتكرَّر ما صدر منهما من رؤساء آخرين بعد هذا، ويكون رؤساء البحر يُلزمون في سفرهم المعاملة بالحسنى، مع الدول المجاملة والمصالحة لدولتهم، لتكون أساطيلهم تجول في البحر في أمن وأمان واطمئنان.

وختم ما ذكره في هذه القضية، بأنّه يأمل أن ترضي رئيسه المخاطب وحكومته، ويُسرَّ بالنتيجة التي حصَّل عليها في مخابرته فيها، لأنَّها راجعة لوظيفته مع جلالة سلطان المغرب.

ثم ذكر في رسالته المؤرخّة بعاشر مايه سنةِ سبعين وسبعمائة وألف (10 مايه 14/1770 محرم 1184)[386]، أنَّه بناءً على ما كان أخبر به في رسالته السابقة فيما يرجع لمَا صدر من هذين الرئيسين القرصانين اللذين سبّا العلم الفرنسي، أنَّ ملك المغرب، إظْهاراً لعدم رضاه عن ذلك، وجّه له أحد ضُبَّاطه الملازمين له، وهو السيد العباس مورينو، ومعه رسالة ملكية تتضمَّن جميع ما كان أخبره به الترجمان سومبيل بأمر من جلالة السلطان.

وتضمَّنت الرسالة أيضاً، أنَّ الضابط السيد العباس مورينو المذكور الذي أتى بها، أُمر بمعاقبة الرئيس قاسم، وأن يؤدّي له سائر ما كان يطالبه به. ويبلِّغ هذه الأوامر بمحضره إلى سائر الرؤساء لِيَعْلَمُوهَا ويعملوا بمقتضاها.

وجاء في هذه الرسالة أيضاً أنَّ السيد عباس مورينو المذكور، زاره يوم سابع الشهر الجاري، مصحوباً بستة من ربابنة السفن التي كانت راسية بأبي رقراق.

واستدعى للحضور معهم قنصل السويد، وقنصل الدانمارك، بأمر من السلطان، وبمحضرهما أعلن لهم الأمر السلطاني الصادر إليه بإبلاغه لهم، بأنَّهم إذا رُفعت بهم شكاية أخرى بِتَعَدِّيهِمْ على سفن دولة من الدول المسالمة للمغرب، فإنَّ السلطان يعاقبهم بقطع رؤوسهم، بَرّاً بيمينه التي أقسم بها.

386) المصدر السالف الذكر، ج 1، ص 152.

وأعلن لهم في هذا الجمع أيضاً، أنّ كورسيكا صارت فرنسية، وعليهم مراعاتها واعتبارها كلّما صادفوا سفنها في البحر خافقة عليها الراية الفرنسية، لا سيما إذا أكّد ذلك الاطلاع على ورقة التعريف الأميرالية الفرنسية.

وأخبر أنّه صدر الأمر الشريف للرئيس قاسم باستقدامه من العرائش. وينتظر وصوله إلى الرباط في هذه الأيام.

وبناءً على ذلك، فقد طلب منه السيد العباس مورينو بيان القدر الذي أخذه منه، وأخبره بأنّه يقدّر بنحو ألف وخمسين ليبرة من فرنك السكة الفرنسية، بعد إسقاط النصف منها في أداء أجرة الضابط المخزني الذي كُلِّفَ بهذه المهمّة لينال جزاء عليها.

وفي رسالته المؤرخة بالسادس والعشرن من شهر شتنبر سنة سبعين وسبعمائة وألف (26 شتنبر 29/1770 جمادى الأولى 1184)[387] أعلن لرئيسه أيضاً أنّه مسرور جداً برضاه عنه فيما سلكه في قضية الرئيسين المذكورين، يعني : قدّور وقاسم، وأنّه سيستمرٌ في المستقبل جارياً على هذا المنوال.

وزاد قائلاً إنه سيعمل بمقتضى جميع ما يقصده رئيسه فيما يرجع لاستعمال القدر الذي حصل عليه من المال من الرئيس قاسم.

ثم أخبر بأنه، يعني الرئيس قاسم، كان بارح العرائش في شهر غشت متوجهاً، على ما يقال، لنواحي الجزائر، وربما يصل إلى مرسيليا.

وليس لديه معلومات كافية تدلٌ على إدماج هذه الوجهة في تلك، أو فيما تختصٌ به كل واحدة منهما.

ومع ذلك فإنّه يقترح على الغرفة التجارية الفرنسية أنْ تعامله كما تعامل غيره من قراصنة المغرب وغَيْرَهُ من الممالك الباربارية.

وفي رسالته المؤرخة بسادس وعشري أكتوبر سنة ست وسبعين وسبعمائة وألف (26 أكتوبر 13/1776 رمضان 1190)[388] أخبره أنّه بارح مرسى طنجة يوم التاسع من الشهر الجاري، ستة سفن شراعية صغيرة من نوع گليوط من الأسطول المغربي المعدّة للنقل، بقصد تجريدها من السلاح بالعرائش. فوصلت منها للعرائش خمسة، والسفينة السادسة التي كانت تحت رياسة الرئيس قاسم، وبارحت مرسى طنجة في اليوم المذكور، هبّت عليها

387) نفس المصدر السالف، ج 1، ص 168.

388) نفس المصدر السالف، ج 1، ص 458.

ريح عَاصف، وجاءها الموج من كل مكان وأحيط بها، فتحطَّمت على رأس رصيف المرسى، ولم يتمكَّنْ أحد من إنقاذ شيء من شظاياها، وإنَّما نجا البحَّارة من الغرق حاملين على ظهورهم ما كان محمولاً فيها.

وأما الرئيس قاسم، فإنَّه لمَّا حلَّ به ما حلَّ وتوقَّع شراًّ، وخاف غضب السلطان عليه، التجأ إلى زاوية وَلِيٍّ من أولياء الله معظّماً محترماً عند الخاصِّ والعامِّ بطنجة ولازمها.

وهَذه الزاوية مشهورة بطنجة بأنَّها حِمىً يحتمي به كل من حلَّت به نكبة، وتوقَّع من المخزن شَرّاً.

وهو الآن بها ينتظر عفو السلطان عليه، وما زالت بمرسى طنجة عشرة من السفن الصغيرة راسية بها.

وهذا ما سجَّله القنصل لوي شيني من أخبار هذا الرئيس في رسائله، ولم نقف حتى الآن على ما آل إليه أمره، والله أعلم به.

*** الرئيس قدّور شايب عينو**

يقال إنَّ هذا الرئيس كان من سكان مدينة تطوان، وكان يتردَّد بينها وبين طنجة، والعرائش، وسلا، ورباط الفتح.

وحيث أنَّه كان من سُكّان تطوان، فلا يَبْعُدُ أنْ يكون أسلافه من المهاجرين الأندلسيين العاملين في البحر، أخذاً بالثأر، وانتقاماً من الإصبان الذين أخرجوهم من دِيَارِهِم بغير حق، إلاَّ أن يقولوا ربنا اللَّه.

ومنذ ذلك العهد، ابتدأت القرصنة بالمغرب، وجرى العمل بها كما تقدّم، وكانت تطوان إحدي مراكزها المشهورة، واستمرَّ العمل جارياً بها إلى أنْ وصلت إلى الحالة التي كانت عليها في عهد هذا الرئيس.

وكان السلطان سيدي محمد بن عبد الله، يلتفت إليه، ويُكَلِّفُهُ ببعض المُهمَّات الراجعة لخُطَّته، لما كان يلاحظه فيه من الشهامة والإقدام.

وورد اسمه مذكوراً في دفتر الرئيس الحاج الطاهر بن الأميرال الحاج الهاشمي عوّاد السلاوي، في عدَّة قوائم مع البحَّارة من أهل الشرق، باسم قدّور بن معروف، ومع المجاهدين من البحرية الذين قبضوا الصِّلَةَ السلطانية عام تسعة عشر ومائتين ألف (1219/1804) في عهد المولي سليمان.

ويوخذ من ذلك أنَّه طال عمره، وتأخَّرت وفاته إلى ما بعد هذا التاريخ.

وذكر الشريف النقيب، أبو زيد عبد الرحمن بن زيدان في كتابه «إتحاف أعلام الناس، بجمال أخبار حاضرة مكناس»[389] عدد سفن الأسطول المغربي التي كانت بوادي أبي رقراق، في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله، نقلاً عن القنصل الدانماركي هوست (Höst) الذي كان بآسفي سنة ست وستين وسبعمائة وألف (1180-1179/1766) وقال :

من جملتها سفينة قدّور شايب عينو بالرباط، وبحريتها ثمانون، ومدافعها اثنان وثلاثون، اثنان منها كبيران، وأربعة وعشرون مهراساً.

وذكره أيضاً القنصل لوي شينيي في «دفتر قنصليته بالمغرب»[390] :

أنه كان من جملة رؤساء البحر الذين سلَّم لهم ورقة الجواز (باسبورط) أميرال البحر الفرنسي، عملاً بمعاهدة ثمان وعشري مايه سنة سبع وستين وسبعمائة وألف (28 مايه 1767/ 29 حجة 1180)، وقدَّم لهم الهدية التي كان العمل جارياً بها في ذلك العهد بين القناصل ورؤساء البحر، وهي عبارة عن أربعة أدرع من الملف، ونحو الكيلو من الشاي وقالبين من السكر، والجميع ملفوف في منديل من الحرير.

وأخبر النقيب الشريف، أبو زيد ابن زيدان في «تاريخه» المتقدِّم الذكر[391] أن السلطان سيدي محمد بن عبد الله خاطبه برسالة مؤرخة بأول جمادى الأولى عام اثنين وثمانين ومائة وألف (1 جمادى الأولى 13/1182 شتنبر 1768)، هو والرئيس يوسف الطرابلسي، وأمرهما بأن يكونا مهيَّئين للسفر في البحر، بمجرَّد ما يصلهما الرئيس أحمد الكوار.

وقد ذكرت هذه الرسالة بنصِّها في ترجمة الرئيس يوسف الطرابلسي المذكور.

وذكره القنصل لوي شينيي في «دفتر قنصليته» أيضاً[392] في جملة الرؤساء العشرة المغاربة الذين خرجوا للجولان في البحر سنة تسع وستين وسبعمائة وألف (1183/1769)، وسلَّم لهم أوراق الجواز الرسمية، طبق الاتفاق الجاري به العمل إذ ذاك بين المغرب وفرنسا. وكان إذ ذاك رئيساً على سفينة من نوع قبق، بها أربعة عشرة مدفعاً. وهذا النوع من سفن البحر الأبيض المتوسط في ذلك العهد، كانت له ثلاث صواري ويَمْخُرُ البحر بالشِّراع والمجاديف.

389) ج 3، ص 260.

390) ج 1، ص 145، وج 2، ص 750.

391) ج 3، ص 262.

392) ج 1، ص 146.

ويوخذ من رسالة لوي شينيي أيضاً، والتي سنثبت ملخّصها عقب هذا، أنّه ربّما كان صدر منه ما أوجب عقابه فَسَجَنَهُ السلطان بمراكش، زجراً له على ما صدر منه. ولعلّه اتُّهم بأنّه سبَّ الراية الفرنسية، مع أن فرنسا كانت في حالة سلم مع المغرب. ولكنّه عفا عنه بعد ذلك، ولاحظه وقدّمه، حسبما سيأتي من تتبُّعٍ بعض أخباره الراجعة لرياسته، حسبما وصلنا مع قلّتها.

قال لوي شينيي في رسالته الموجّهة إلى رئيسه بباريس، المؤرخة بثاني مايه سنة سبعين وسبعمائة وألف (2 مايه 6/1770 محرم 1184)[393] ما حاصله :

إنَّ الرسول الذي كان وجّهه لمراكش يحمل شكاية لجلالة السلطان سيدي محمد به عبد الله بتاريخ ثامن أبريل (8 أبريل /12 حجة) السنة الفارطة، لم يرجع من وجهته إلاَّ أمس تاريخ رسالته هذه.

وأخبر أنَّ السلطان تأثَّر جداً من الشكاية التي قدّمها له ضد القرصانيين المغربيين اللذين سبَّا العلم الفرنسي.

وأحدهما هو الرئيس قدُّور الذي وجده الحال مسجوناً بمراكش، بأمر سلطاني.

ولمّا اطَّلَعَ السلطان على الشكاية التي رفعها إليه القنصل المذكور، أمر بجلده فجُلد، وصفَّده بالحديد، وصرّح بأنّه لا نهي له ولا أمر.

وزاد أنَّ الترجمان سومبيل أخبره أيضا، من طرف جلالة السلطان، بأنه أمر بإحضار الرئيس قاسم، وهو الثاني المتَّهم بسبٍّ العلم الفرنسي، إلى الرباط أمامه ليُعاقَبَ بمحضره، ويؤدِّي له سائر ما يطالبه به، ولكنه عزم على أنّه إذا حضر أمامه، فإنه سيفوض أمر عقابه لجلالة السلطان.

ثم قال : إنَّ الترجمان المذكور أخبره أيضاً بأنَّ عقاب هذين الرئيسيْن، سيكون زجراً لهما، وعبرة لغيرهما، حتى لا يتكرَّر ما صدر منهما من رؤساء آخرين بعد هذا. وأن يكون رؤساء البحر يُلزمون في سفرهم المعاملة بالحسنى مع الدول المجاملة والمصالحة لدولتهم، لتكون أساطيلهم تجول في البحر في أمن واطمئنان.

وختم ما ذكره فيما يتعلّق بهذه القضية، بأنّه يأمل أن تُرضي رئيسه المخاطب وحكومته، ويُسرَّ بالنتيجة التي حصل عليها في مخابرته فيها والراجعة لوظيفته مع جلالة سلطان المغرب.

393) ج 1، ص 149-150.

وذكر أيضـاً في «دفتر قنصليته»[394] : أنه في سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة وألف (1185/1772-1186)، خرج للبحر من الأسطول المغربي ستة عشر سفينة برؤسائها، عشرة منها من تطوان، وواحدة من العرائش، وخمسة من العدوتين السلاوية الرباطية، وسلَّم للجميع الأوراق الرسمية المُتَّفق عليها مع فرنسا كما تقدَّم. ومن جملة الرؤساء الرئيس قدور شايب عينو في سفينته التي كانت من نوع قبق، مُسَلَّحَة بأربعة عشر مدفعاً، ومائة بحّار من سفن مرسى تطوان.

ثم ذكر أيضاً أنه في سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة وألف (1187/1773) خرج للجولان في البحر من الأسطول المغربي، واحد وعشرون سفينة برؤسائها، بعضها من سلا ورباط الفتح، وبعضها من العرائش، وبعضها من تطوان.

ومن جملتها سفينة الرئيس قدور التطوانية، وهي مسلَّحة بأربعة عشر مدفعاً، ومائة بحار.

ثم ذكر القنصل المذكور في رسالة أخرى[395] صادرة منه لرئيسه أيضاً بفرنسا في خامس عشر يوليوز سنة تسع وسبعين وسبعمائة وألف (15 يوليوز 1779/1 رجب 1193)، أنَّه بلغه من طنجة، آخر الشهر الماضي، أنَّ عشرة سفن مخزنية، خمسة منها من تطوان، وخمسة من طنجة ستأخذ مواقفها بالبوغاز، وأنَّ الرئيس قدّور شايب عينو، أحد رؤساء هذه السفن، سيتوجَّه إلى جبل طارق، حاملاً درْجاً بداخله رسالة سلطانية لحاكم هذا المركز البحري الحربي يُشْعِرُهُ فيها، بأنَّه سيأذن في تزويده بما يحتاج إليه من الطعام والشراب، بواسطة أربعة مراكب، اثنان منها يتردَّدان بينه وبين طنجة، والاثنان الآخران بينه وبين تطوان.

ثم قال : والظاهر أنَّ الذي قصده ملك المغرب من هذا، هو اغتنام الاستفادة من إنكلترا بمهارة وحسن كياسة، واستعمالها فيما يحتاج إليه من مصالحه الخاصَّة.

ولكن بقي هنا شيء آخر، وهو إذا ظهر أسطول إصبانيا بالبوغاز تنفيذاً لأوَامِرِ حكومته، وموقفها من إنكلترا معلوم، ماذا سيكون عليه عمل سلطان المغرب ؟ فهل يستمرُّ فيما قرَّره وأمر به، أو يكفُّ عنه ؟ ولا سيما إذا اضطرَّ حاكم جبل طارق إلى قبول ما عرض عليه.

وَكيفما كان الأمر، فالظاهر أنَّ الذي يتعيَّن في نظام سير أعمال ملك فرنسا في هذه القضية هو أنْ يتدخَّل بصفة رسمية، لدى الحكومة الإصبانية، حتى لا يحصل انفصام بينها وبين الحكومة المغربية لأنَّ ذلك يَجُرُّ ذيله عليها، وحينئذ يمكن للمراكب المغربية الحاملة لتموين جبل طارق أن تتردَّد إليه في أمن وأمان، وسلامة واطمئنان، وإشعار السلطان بأنه

394) ج 1، ص 282.

395) ج 2، ص 750.

إذا رفض ذلك، فإنَّ مراكبه تكون معرَّضة للخطر، وتُعدُّ عاملة ضد إصبانيا، وقائمة بتموين جبل طارق، وفي ذلك خرق للمهادنة التي بينهما،وربَّما تُحْجَزُ، ويُستولى على ما يكون فيها من الذخائر والمؤن، ويُؤْخَذُ بحّارتها أسرى، وتُعامل معاملة الأساطيل المعادية للدولة...

ويُوخذ من هذا كلِّه، أنَّ تدخلَّه في تموين جبل طارق على الصِّفة الجاري بها العمل الآن، لا تُرجى منه فائدة كبيرة، وإنَّما تزيد في كبرياء إنكلترا وعجرفتها، ويصيب الفرنسيين من جرَّائهِ ما لا تُحمد عقُباه.

ولا سيما إذا لم يَتَدَخَّل الأسطول الفرنسي في منع قراصنة المغرب، والوقوف أمامهم، حتى لا يُمْكِنَهُمْ التَّمَتُّعُ بما كانوا يؤمِّلونه.

ولا يخفى أنَّ الباعث على هذا كلِّه هو المنفعة والمصلحة الخاصَّة التي يضيع معها التظاهر بالاتِّحادِ والمحبَّة.

وينبغي أن يراعى في ذلك كلِّه طبيعة وخلق كل واحد من الطرفين.

وعسى أن يصادف هذا الاقتراح قبولاً من سلطان المغرب، رعياً للحالة السائدة الآن في مملكته من الفتن وعدم استقرار الأمن في القبائل الداخلية، ولذلك يتعيَّن التعجيل به.

وفي إمكان بعض الدول المحايدة، كهولاندا مثلاً، أن تمدَّ جبل طارق بالدقيق الذي تجلبه من الشمال، وتنفِّس عنه كربة المجاعة والاحتياج، ويدعي جبل طارق أنه جلَبَها من ايطاليا مثلا لقربها من البوغاز، لا سيما إذا كانت أساطيل حراسة البوغاز مُوعَزاً إليها بِغَضٍّ الطرف عن ذلك كله.

وختم رسالته بأنه إنَّما أوحى إلى رئيسه ما أوحى، حسبما ظهر له بقصد إعلامه بالحالة الحالية الآن بالمغرب، والإشارة عليه بما يزال مصلحة متعيِّنة للجميع، وله واسع النظر في قبول العمل به أو نبذه.

وذكر النقيب ابن زيدان في «تاريخه» المتقدم الذكر أيضاً[396] أنَّ السلطان سيدي محمد بن عبد الله، وجَّه هذا الرئيس صحبة السيفر القائد محمد الزوين إلى السلطان عبد الحميد الأول التركي، سنة ثلاث ومائتين وألف (1189/1203)، مع هدية وجَّهها إليه مكافأة له على هديته.

ومن جملتها : بعض الأسرى الذين أنقذهم ممَّا كانوا فيه من العذاب بأوربَّا، وثلاثون وصيفاً من الأرقاء، وفرسان من عتاق الصافنات الجياد، وسرجان مزركشان بالذهب،

396) ج 3، ص 306.

مرصّعان بأنفس الجواهر، وأربع سفن، عدة رجالها نحو أربعمائة رجل، بين رؤساء وبحرية وطبجية، وكان من جملة الرؤساء الذين ذهبوا بهذه الهدية، الرئيس علي الصابونجي السلاوي، والرئيس محمد العُنْقي التركي الأصل، والرئيس قدّور شايب عينو، صاحب الترجمة، وقد أُشير إلى بعضهم عند التعريف بهم.

وتأخّر رجوعهم من سفارتهم هذه إلى ما بعد وفاة السلطان المذكور الذي وجّههم، رحم الله الجميع.

*** الرئيس الهاشمي المستغانمي**

هذا الرئيس أصله من الجزائر، من مدينة مستغانم وهي مرسى على البحر الأبيض المتوسط، وإليها يُنسب.

قال البكري[397]: هي مدينة مُسوَّرة ذات عيون وبساتين وماء وطواحن ماء وينذر بها القطر، فيجود بقرب مصب نهو شلف في البحر. وتُعدُّ من مراسي الجزائر المشهورة. ولها تاريخ طويل.

ولمَّا هاجر منها هذا الرئيس، التحق بالأسطول المغربي مع رؤساء آخرين، كالرئيس العربي الجزيري وغيره في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله.

وكان في أول عهده يقود سفينة شراعية صغيرة من سفن تطوان، مسلَّحة بستة مدافع، وستة وعشرين مجدافاً، ومائة بحّار، كما عند لوي شيني في «دفتر قنصليته» بالمغرب[398] وكوندرو (Coindreau) في تأليفه المسمّى «قراصنة سلا» (Les Corsaires de Salé)[399].

وقد ألمَّ لوي شيني المذكور ببعض أخبار هذا الرئيس المتعلِّقة بأسفاره، إلى بعض الدول الأجنبية وتنقُّلاته البحرية، في مهمَّاته المخزنية في التأليف المسمى «الرسائل القنصلية»، للقنصل لوي شيني المكلف بمهمات رسمية بالمغرب، من سنة 1767 إلى سنة 1782»، لصاحبه پيير جريون (Pierre Grillon).

397) ص 69.
398) ص 437-474 من ج 1، وص 738 من ج 2.
399) «قراصنة سلا»، ص 93، طبع سلا 1998.

ومنها ما ذكره في رسالته الموجّهة إلى رئيسه بباريس، المؤرخّة في رابع عشر يونيه سنة ست وسبعين وسبعمائة وألف (14 يونيه 27/1776 جمادى الأولى 1190)(400).

وهو أنه كان يحاول الخروج من أبي رقراق إلى البحر فتعذّر عليه لهيجانه، ولا زال ينتظر سكونه ومساعدة المصبّ ليتجاوزه في سهولة وأمْنٍ وسلامة واطمئنان.

ثم ذكره في رسالته المؤرخة برابع وعشري يونيه سنة ست وسبعين وسبعمائة وألف (24 يونيه 26/1776 ربيع الثاني 1190)(401) بأنّ هيجان البحر سكن وساعده المصبّ على الخروج منه، وبارح أبا رقراق منذ بضعة أيام متوجِّهاً إلى طنجة ليَنْضَمَّ إلى وحدات الأسطول المغربي الراسية بمرساها، ومنها سيتوجّه في وجهة لا زال لم يعرفها، لأنّ السلطان كتب له الأمر بها، وتعيينها، وجعله في علبة مغلقة، وأمره أن لا يفتحها، ولا يَطّلع عليه إلاّ بعد خروجه من مرسى طنجة إلى البوغاز، ولا يدري هل سيومر بالتوجه إلى مرسيليا، أو الجزائر، أوتونس، لأنّه لمّا كان عنده بمراكش منذ ثلاثة أشهر، ذاكره مذاكرة عامّة في مسائل ترجع لهذه الدول الثلاثة.

ثم قال القنصل شينيي : ولأجل هذا، امتنعت من إعطائه رسالة الوصية التي طلبها منّي بإلحاح لأولي الأمر بمرسيليا، تتضمّن التعريف به والوصاية عليه، وقلت له : إنّ رايته المغربية تضمن سلامته والتعريف به بمرسيليا، وهي تقوم مقام الوصية والتعريف المطلوبين منه.

وذكره أيضاً في رسالته المؤرخة في سادس وعشري يوليوز سنة ست وسبعين وسبعمائة وألف (26 يوليوز 9/1776 جمادى الأولى 1190)(402) بأنه لمّا توجّه من أبي رقراق إلى مرسى طنجة، كان رئيساً على سفينة صغيرة مجهّزة بمائتي بحّار، فطاردتها، لمّا كانت بين أصيلا ورأس سبارتيل، فركاطة هولاندية، حتى اضطرّت إلى الجنوح والنشوب برمال الشاطئ.

ولكن من حسن حظّها أنّه لَمَّا حسر ماء البحر، تمكن البحّارة من إفراغها، وحمل جميع ما كان فيها إلى مدينة طنجة.

وبعد مدّة في منتصف الليل وعُلُوِّ مائه، دفعوها إلى وسطه، وقادوها بالمجاديف إلى مرسى طنجة، ولم يضع منها إلاّ يَد دفّتها، فقط.

---

400)ج 1، ص 423.

401) ج 1، ص 423.

402) ج «مراسلة القنصل لوي شينيي»، ج 1، ص 437.

وأخبر في رسالته المؤرخة في سادس عشر أكتوبر سنة ست وسبعين وسبعمائة وألف، (16 أكتوبر 3/1776 رمضان 1190)[403] بأنه انقطعت أخباره، وأخبار رئيس آخر كان معه منذ نحو ثلاثة أشهر[404] ويُظنُّ أنَّهما يتجوَّلان برأس بون (Cap Bon)، واتخذا هذا الجولان لعبة يوهمان الناس بها صحَّة زَعْمهما بأنهما توجَّها لمرسيليا، يعني وليس الأمر كذلك.

وفي رسالته المؤرخة في سادس وعشري نونبر سنة ست وسبعين وسبعمائة وألف (26 نونبر 14/1776 شوال 1190)[405] :

أخبر بأنَّه وصل إلى تطوان، ومعه بعض بحَّارة سفينة الرئيس فراج الذي كان متجَوِّلاً بخليج ليون (Golfe de Lion) وحصل له عطب في سفينته بسبب هيجان البحر واضطرابه، واضطرَّ إلى مفارقتها.

ويوخذ ممَّا سجَّله هذا القنصل شينيي أيضاً في رسالته المؤرخة بسادس عشر دجنبر سنة ست وسبعين وسبعمائة وألف (16 دجنبر 5/1776 قعدة 1190)[406] :

أنَّهما توجَّها معاً إلى الجزائر، وتونس، ومنها رجع الرئيس المستغانمي وحده إلى تطوان.

وتعرَّض في رسالته المؤرخة بسابع وعشري مارس سنة سبع وسبعين وسبعمائة وألف (27 مارس 17/1777 صفر 1191)[407] لمسألة أمر السلطان سيدي محمد بن عبد الله بقطع تموين جبل طارق بما يحتاج إليه من الأقوات من المغرب، وقال : إنَّه ربَّما أوجبت الظروف الحالية بعض التخفيف أو التراجع عن تطبيق هذا الأمر تطبيقاً تامّاً.

وكلف الرئيس الهاشمي المستغانمي المذكور، بالتوجُّه إلى جبل طارق، والسَّعي بكلّ ما يمكنه من الملاطفة والاحتيال في استرجاع الفرگاطة المغربية التي كانت محجوزة هناك، منذ طاردها وقادها إليه أميرال هولاندي، بدون تعويض مالي عنها، إلاَّ إذا وقع الرفض التامُّ ممَّن كان بيدهم الأمر هناك، في مقابلة قطع التموين عنهم، وذكروا أنَّهم سيقتسمون ذلك التعويض المطالب به مع الهولانديين.

---

403) المصدر السالف الذكر، ج 1، ص 453.

404) هو الرئيس فراج.

405) المصدر السالف الذكر، ج 1، ص 470.

406) المصدر السالف الذكر، ج 1، ص 474.

407) المصدر السالف الذكر، ج 1، ص 530.

وأمَّا الرئيس المستغانمي فقد كان يعتبر، حسبما أخبر به هو نفسه، أنَّ وساطته تتوقّف على الاعتراف بالنفقة على الفركاطة المطلوب استرجاعها، لأنَّه صيَّر على إصلاحها ما يزيد على خمسة عشر ألف إبرة إنجليزية، وبيعت للإنجليز، الذي تَوَلَّى إصلاحها، وأنفق عليها نحو ألف وخمسمائة إبرة دفعها من عنده...

وكلَّف السلطان الرئيس المذكور باستدعاء الأميرال الهولاندي لِلْقُدُومِ إلى المغرب، والمثول بين يديه بالسويرة، للمذاكرة معه في مسائل تهمُّه، فيما يرجع للصُّلح مع دولته الهولاندية. ولا يُدْرى إلى الآن هل سيقبل هذا الاستدعاء والوقت الذي سيعين له أم لا.

وعلى كلٍّ حال، فملك المغرب لم يُعيِّن له موعداً آخر حتى الآن.

ثم قال في رسالته المؤرخة في خامس يونيه سنة سبع وسبعين وسبعمائة وألف (5 يونيه 10/1777 جمادى 1191)[408] مخاطباً أيضاً رئيسه بالحكومة الفرنسية، إنَّه بناءً على مفاتحة الأميرال الهولاندي بالمذاكرة، التي رُبَّما تكون فيها مبالغة، أو ما تُخشى عاقبته، فقد وجَّه له السلطان في الشهر الماضي تصريحاً بالأمن التَّام، ليمكنه أنْ يأتي في سفينته إلى الرباط، ويرجع فيها في أمن واطمئنان.

وحيث أنَّه كان يعلم أنَّه ربَّما لا يمكنه أن يكون في الرباط في الوقت الموعود، والأجل المحدود، فقد أمر السلطان الرئيس الهاشمي المستغانمي المذكور بمصاحبته، والإبحار معه في سفينة خاصَّة، زيادة في أمنه على نفسه واطمئنانه، ويرافقه إلى السويرة ليتسلَّم بها الأسري الهولانديين، ويرجع بهم إلى الرباط، حيث يكون السلطان موجوداً به، وحينئذ تقع المذاكرة معه فيما يهمُّه، وأسند القيام بإجراء هذه المذاكرة إلى الطاهر فنيش السلاوي، الذي كان سفيراً بإنكلترا، وهو الذي سيتولّى جمع هؤلاء الأسرى، وإحضارهم له بالسويرة، وعددهم ثمانية وخمسون أسيراً، ولا يتعرَّض لتعيين قيمة فدائهم.

ويقال إنه سيتوجَّه، بعد إنْهَاءِ هذه المهمَّة، وتسليم الأسرى للأميرال الهولاندي، إلى هولاندا، للمخابرة مع حكومتها والاتفاق معها في شأنهم. ولا يخفى أنَّه في سلوك هذا المسلك، وتوجيه هذا السفير، سياسة واستجلاب لكرم حكومة تلك الدولة. انتهى باختصار واقتصار على الواجب فيه المتعلِّق بالموضوع.

---

408) المصدر السالف الذكر، ج 1، ص 551.

ولم يتعرَّض هذا القنصل، بعد ما تقدَّم، إلى مسألة تموين جبل طارق وما آلت إليه، ولا إلى الرئيس المستغانمي إلاَّ بعد مدة مديدة في رسالته المؤرخة في سادس عشر مايه سنة تسع وسبعين وسبعمائة وألف (16 مايه 29/1779 ربيع الثاني 1193)[409].

فقال : إنَّ العزم الذي كان تقرَّر في شأن استيناف تَمْوِينِ جبل طارق بالقمح وغيره من الأقوات من مرسى فضالة لم يتحقق إنجازه إلى الآن، لأنَّه ربَّما يكون فيه ضرر على الناحية المجلوب منها، لا سيما والإنجليز يعتقدون أنَّهم سيؤدُّون أثماناً باهضة في هذه الحبوب والأقوات، وستكون مضاعفة عمَّا تساويه، ويُزاد عليها الضريبة التي سيعين مقدارها السلطان عند إخراجها من المرسى التي ستُوسق، أي ستُحمل منها، اعتماداً على ما سيتبرَّع به الإنجليز، لاِحْتِيَاجِهِمْ إليها.

وقد كان تموين جبل طارق فيما سبق من طنجة وتطوان، وكانت تَحُفُّ به بعض الأخطار ويعرِّض للضياع، لأنَّ ثلاثة أو أربعة من القراصنة، كانوا دائماً يترصَّدونه بالبوغاز ويضطرُّ الإنجليز إلى حراسته بقطع من أسطوله الحربي.

وأمَّا الرئيس المستغانمي الذي كان عُيِّنَ للتوجُّه إلى جبل طارق فإنَّه لازال بالرباط منذ أيام منتظراً سكون هيجان البحر ليتمكن من مجاوزة مصب أبي رقراق.

وبمجرَّد سكونه سيبارح الرباط، ويتوجَّه لمحلِّ مأموريته.

وهو الآن يتولَّى رياسة سفينة صغيرة كانت قَبَقاً، فَجُدِّدَتْ، وسيتمُّ تسليحها بجبل طارق بما تحتاج إليه من العدة والأدوات الحربية، ويعتمد السلطان في اختيارها على ما يختاره الإنكليزيون، وتُصبغ بصبغة جيِّدة يتجدَّد بها شكلها ومنظرها، على نفقة الحكومة الانكليزية أيضاً، وعلى هذا فسيكون ثمن ذلك غالياً جداًّ، قياساً على ما أُنفق في إصلاح الفراكيط الأربعة الأخرى في شتاء السنة الماضية.

ثم أخبر في رسالته المؤرخة في سادس عشر غشت سنة تسع وسبعين وسبعمائة وألف (16 غشت 3/1779 شعبان 1193)[410] بأن الرئيس المستغانمي لا زال بجبل طارق منتظراً وصول الهدية العجيبة التي ستقدمها إنكلترا لجلالة سلطان المغرب، حسبما أعلمته بها.

وفي انتظار وصولها، سيبقى مقيماً بجبل طارق حتى تصل.

والعمل جار باستمرار في إصلاح السفينة المغربية وتجديد صبغتها، كما تقدَّم.

---

409) «مراسلة القنصل لوي شينيي»، ج 2، ص 738.
410) المصدر السالف الذكر، ج 2، ص 756 .

وفي رسالته المؤرخج في (31 غشت /18 شعبان) من السنة المذكورة أعلاه[411] المتضمنة حكاية الأقوال الرائجة بسبب ما قيل ونُقل من حدوث فتور في العلاقات السياسية بين إنكلترا وإصبانيا والمغرب.

فقال إنَّه لم ينفذ لجبل طارق من التموين الذي كان يُوجَّه له من المغرب إلا شيء يسير جداً، مع صعوبة كثيرة في الإذن فيه وتهييئه.

وإنَّ أحد أهل الثقة والأمانة في الأخبار حقَّق له أنَّ جلالة سلطان المغرب رُبَّما يرفض نهائياً، في الظروف الحالية، كل إعانة توجَّه لإنكلترا بجبل طارق، وإنَّه سيأمر الرئيس المستغانمي بالرجوع حالاً لوطنه بسَفينَته على الحالة التي توجد عليها، بل ربَّما سيأمره بالتخلّي عنها إذا كانت في حالة لا تُمكِّنها من عبور البوغاز، وإنَّ الرئيس فراج هو الذي سينهي إليه هذه الأوامر.

وفي رسالته المؤرخة في خامس وعشري أكتوبر سنة تسع وسبعين وسبعمائة وألف (25 أكتوبر 14/1779 شوال 1193)[412] التي خصَّصها لإعلام رئيسه بما يروج ويُقال ويُتناقل من الأقوال والأفعال والحوادث والأخبار، وخصوصاً ما يتعلَّق منها بالهيئة الاجتماعية المغربية، والسياسة السلطانية، مع بعض الدول الأوروبية، وخصوصاً الإصبانية والإنجليزية، وسجَّل ذلك كلَّه من غير تحرٍّ في صحَّتها وعدمها، على عادته، من تَلَقُّف الأخبار من الوارد والصادر، والإعلام بها، وعدم التثبت في مصادرها وَصدق رُواتها، ومن جملتها أنَّ اليهود كانوا يتلاعبون بالتجارة المغربية كيفما شاؤوا، وأنَّ يهود جبل طارق أرادوا أن يقدِّموا للسلطان قدراً مهمّاً من الحديد حصلوا عليه وجمعوه عندهم هناك بثمن بَخْسٍ دراهم معدودة، وأنَّ الرئيس المستغانمي هو الذي سيتولّى حيازته منهم، ثم تراجع السلطانُ عن قبول ذلك، لما فيه من الشّبْهة والتعريض بالتجارة الإصبانية معه.

وهكذا كان يكتب وينقل كلَّ ما يُشاع ويُذاع، ويقدّمه ويصوِّره في صورة تنبوا عنها الأبصار والأسماع، لمخالفتها للواقع والأوضاع، ولسان حاله يقول :

وقلت ما قلت إنْ صدقاً وإن كذباً   والقول ما قُلْتُهُ قد شاعَ في الناس

ومن أخبار هذا الرئيس التي ألمَّ بها في رسالته المؤرخة في الواحد والثلاثين من غشت سنة إحدى وثمانين وسبعمائة وألف (31 غشت 11/1781 رمضان 1195)[413] أنه بلغه أنَّ

411) نفس المصدر السالف الذكر، ج 2، ص 759.

412) نفس المصدر السالف الذكر، ج 2، ص 781.

413) نفس المصدر السالف الذكر، ج 2، ص 954.

السلطان عزَّز البعثة التي كان وجَّهها إلى جزيرة مالطة بالرئيس الهاشمي المستغانمي، وكلفه بفداء الأسرى الذين هناك.

وقال إنَّه لا يَدْرى هل سيصحب معه قدراً من المال في مقابلة الفداء، أَوْ سيتَّفِق مع الحكومة عليه إلى أجل.

وأخبر أيضاً بأنَّ الرسول الذي جاء أخيراً من مالطة توجَّه إلى السويرة، ولكنَّه يجهل هل سيرجع إلى مالطة في سفينة غير معيَّنة من سُفُن بعض الدول المحايدة، أو في فركاطة سلطانية تُخصَّص له.

وعلى كلِّ حال فتفاصيل هذه البعثة، وما يترتَّب عنها، ربَّما تكون معلومة مفصَّلة بمرسيليا أكثر ممَّا هو شائع بالرباط، لأنَّ الظروف المحتفَّة به، أَيْ القنصل، الآن بالمغرب بمناسبة سفره لمراكش، تمنعه من تتبُّع سير هذه الحوادث وما يتعلَّق بها، أو ينتج عنها.

وفي رسالته المؤرخة في ثلاثين أكتوبر (30 أكتوبر /23 قعدة) من السنة المتقدِّمة الذكر، التي خصَّصها لوصف محنته بمراكش، وما آل إليها أمره بعدها، وختمها بملحق يتعلَّق بهذا الرئيس فقال[414] : إنه يلاحظ مع شكّ منه هل هذا الرئيس المستغانمي الذي تولّى رياسة سفينة مغربية بقصد التوجُّه إلى مالطة وطرابلس سيُعَرِّجُ على مرسيليا ليستريح بها، ويستفيد من الفرنسيين، ويستطلع مقاصدهم ونواياهم أم لا ؟

ولأجل هذا الظنِّ أو الشكِّ يظهر له أنَّه يتعيَّن إشعار الغُرْفَةِ التجارية بمرسيليا بذلك، وبالمتعيَّن في شأنه، وما ينبغي سلوكه معه، إذْ ربَّما يظهر لرؤسائها، أنَّ غضّ الطرف عنه وعن سفينته وغيرها من سفن قراصنة آخرين مغاربة أيضاً إنَّما هو مُجرَّد سياسة وأدب لا غَيْر، وتلك هي الوسيلة الوحيدة النَّاجحَة لتحقيق المخابرات، إذا كان القصد منها إحكام عقدتها، وإتقان رباطها، بحيث لا يشكُّ فيها ملك المغرب، المعروفة سيرته وصموده، وأنَّه لا تلين قناته لأحد.

ويظهر له أيضاً أنه ينبغي سلوك التحفّظ والاحتياط نحو المغاربة الذين تسوقهم الأقدار، والأمور التجارية وغيرها إلى مرسيليا، لا سيما إذا لم تكن بيدهم وصية أو إعلام مكتوب من مكتب أو إدارة خاصَّة معلومة... انتهى ما ذكره في هذا الموضوع وما يئول إليه، أو ينتج عنه علي عادته.

414) المصدر السالف الذكر، ج 2، ص 960.

ثم خاطب رئيسه برسالة أخرى مؤرخة بخامس عشر نونبر سنة إحدي وثمانين وسبعمائة وألف (15 نونبر 29/1781 قعدة 1195)[415] وأخبره بأن الرئيس المستغانمي الذي كان أعلمه به بأنَّه سيتوجّه إلي مالطة وطرابلس، وصل إلى طنجة، وأرسى سفينته بمرساها، بقصد تزويدها بما تحتاج إليه من المئون، ولا زال مقيماً بها.

وقد اتّصل به، وأخبره بأنه سيتوجّه إلى مالطة للمذاكرة في تعيين قيمة فداء مناسب للأسرى الذين يطالب بهم سلطان المغرب، بحيث لا يكون فيه فرق بين الشبان والشيوخ، أو الحالة التي يوجد عليها الشخص المطلوب فداؤه، حسبما كان عَيَّنَ ذلك قبل هذا لسفيره. وهو أمْرٌ مردود، ولا يمكن قبوله، ولا يؤدّي إلى نتيجة. ومن مالطة، سيتوجّه إلى نابولي (Naples) حاملاً معه رسالة سلطانية إلى أولي الأمر بها.

ثم يعرِّج على طرابلس، ويستودع بها الأسرى السبعة عشر الذين وصلوه من سردينيا (يعني إلى أن يُنظر فيهم، ويتمّ الاتفاق على مئالهم).

ويفسِّر ذلك ما ورد في رسالته المؤرخة في عاشر دجنبر سنة إحدى وثمانين وسبعمائة وألف (10 دجنبر 4/1781 محرم 1197)[416].

وحاصله أنَّ السلطان عيّن عشرة آلاف دوكا ذهبية[417]، وأودعها عند قنصل الدانمارك بطرابلس، لتُسلَّم إلى الباي بطرابلس، ولكن ذلك يطول أمره، ويستدعي مخابرة طويلة.

والغالب على الظن أنَّ السلطان، بلا شكّ، لا يريد المخاطرة بهذا القدر من المال في سفينة الرئيس المستغانمي التي بارحت المرسى في وجهتها آخر الشهر الماضي، ولا يعرِّضه للخطر، لأنَّه يريد أنّ يكون في مقابلة القمح الذي كان وجَّهه لِلْبَاي بطرابلس منذ نحو ثلاثة أعوام، واعترضته في طريقه فرقة عسكرية نابولية، واختطفته. وكان ذلك في مقابلة ما قام به من الاعتناء، وما أسداه من الكرم للمولى اليزيد وأمِّه، لمَّا رجعا من مكة المكرمة بعد حجِّهما، وعرَّجا على طرابلس، اعترافاً بالجميل، لا غير.

هذا ما وقفنا عليه والتقطناه من أخبار هذا الرئيس التي سجَّلها القنصل لوي شينيي، في رسالته المرسلة إلى رئيسه بفرنسا المتضمِّنة إعلامه بالشاذَّة والفاذَّة من أخبار المغرب، ولم نقف على مئال أمره بعد ذلك.

415) المصدر السالف الذكر، ج 2، ص 968.

416) المصدر السالف الذكر، ج 2، ص 977.

417) الدوكا (Le Ducat) : سكَّة قديمة، غالباً ما تكون ذهبية، تختلف قيمتها بحسب اختلاف الدول. وقد ضُربت لأول مرة بالبندقية في القرن الثالث عشر الميلادي، السابع الهجري.

نعم كان رؤساء آخرون مستغانميون مستعملين في أسطول السلطان سيدي محمد بن عبد الله وولده المولى سليمان، وهم الذين سنذكرهم بعد هذا.

رؤساء آخرون مستغانميون

كان رؤساء آخرون مستغانميون، مستعملين في أسطول السلطان سيدي محمد بن عبد الله أيضاً.

ذكرهم المؤرخ الشريف النقيب، أبو زيد عبد الرحمان بن زيدان، في تاريخه المسمى «إتحاف أعلام الناس، بجمال أخبار حاضرة مكناس» لمّا تكلّم على الرؤساء الآفاقيين الذين التحقوا بالسلطان المذكور، وانتظموا في سلك جيشه البحري،(418) ولم نتحقّق بجامعة النسب التي كانت تجمعهم، وهل هي نسبتهم كلهم إلى مدينة مستغانم الجزائرية ؟ لا ندري. وعلى كلِّ حال فقد كان لهم بسلا خلف وذرية، أَدْرَكْنا بعضهم، ولكنهم انقرضوا الآن، وهم :

* الرئيس محمد المستغانمي

ورد له ذكر في دفتر الرئيس الأميرال في ذلك العهد، السيد الحاج الطاهر بن الرئيس الأميرال الحاج الهاشمي عوّاد السلاوي، في قائمة المجاهدين من أهل سلا وأهل المشرق الذين نفّذ لهم السلطان المذكور كسوة مشتملة على ملف وكيرية وثوب آخر ورِيالين.

ويُفضَّل الكبير علي الصغير بأخذ الملف الجيِّد وزيادة دروع في كميته.

قال : وفُرِّق ذلك على يد الرئيس عبد الله الْعَسْرِي، والأمين الحاج عبد العزيز عوّاد، والأمين الحاج قاسم بن القاضي، والحاج محمد المريني، والحاج محمد زنيبر، وذلك في ثالث عشر صفر عام ثمانية وتسعين ومائة وألف (13 صفر 7/1198 يناير 1807)(419).

وذكره أيضاً في قائمة المجاهدين البحرية المؤرّخة في خامس وعشري رمضان عام واحد وعشرين ومائتين وألف (25 رمضان 6/1221 دجنبر 1807)(420) ويوخذ منه أنّه طال عمره، وأدرك عهد السلطان المولى سليمان، رحمه الله. ولم نقف له على ذكر بعد هذا.

---

418) ج 1، ص 261.

419) «دفتر الرئيس الحاج الطاهر عوّاد»، ص 34، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

420) المصدر السالف الذكر، ص 94.

*** الرئيس المصطفى المستغانمي**

هو قرين الرئيس محمد المتقدِّم الذكر.

ذكره الشريف النيقيب أبو زيد بن زيدان أيضاً في «إتحافه»[421].

وذكره الرئيس الأميرال الحاج الطاهر عوّاد في دفتره[422]، وأنّه نفَّذ له بالأمر السلطاني ما نفَّذ لقرينه من الكِسوة والصِّلة.

وذكره مرة ثانية في دفتره المذكور، ووصفه بالحاج البحّار، وأنّه من جملة الطائفة المجاهدة التي ستسافر مع الرئيس الحاج الطاهر المذكور.

ثم ذكره في قائمة المجاهدين البحرية المؤرَّخة في يوم الأربعاء خامس وعشري رمضان عام واحد وعشرين ومائتين وألف (25 رمضان 6/1221 دجنبر 1806)[423].

وذكر معه الرئيس محمد المستغانمي المتقدِّم الذكر، ووصفه بالشرف.

وورد ذكر الرئيس المصطفى المستغانمي هذا أيضاً في الكناش المذكور[424] في قائمة تفريق العوائد على الطائفة الجهادية المعيَّنة للسفر مع الرئيس الحاج الطاهر عواد، صاحب الكناش المذكور، في العشرين من صفر عام اثنين وعشرين ومائتين وألف (20 صفر 29/1222 أبريل 1807) في عهد السلطان المولى سليمان.

ثم ذكره مرة أخرى في جملة المجاهدين والبحرية والطُّبْجية المُعَيَّنين للسفر مع الرئيس الحاج الطاهر المذكور، في خامس عشر شوال عام واحد وثلاثين ومائتين وألف (15 شوال 8/1231 شتنبر 1816)[425] في عهد المولى سليمان أيضاً.

ويوخذ منه أنَّه امتدَّت حياته إلى عهد هذا السلطان في هذا التاريخ، ولم نقف له على ذكر بعد هذا.

---

421) ج 3، ص 261.

422) ص 34.

423) ص 85.

424) ص 94.

425) نفس المصدر، ص 76.

*** الرئيس عبد القادر المستغانمي**

تفرَّد بذكره الرئيس الأميرال الحاج الطاهر السالف الذكر في دفتره[426]، وأنَّه عُيِّن للسفر معه في جملة الطائفة المجاهدة في ثامن وعشري صفر عام ثمان عشرة ومائتين وألف (28 صفر 19/1218 يونيو 1802) في عهد السلطان المولى سليمان، رحمه الله.

ولاشك أنَّ هؤلاء الرؤساء المستغانميون كان لهم أزواج وذرية، بهذه الحضرة السلاوية. وتُعدُّ الآن أسرتهم من جملة الأُسَر التي طواها الدهو طيّاً، وتبع بعضها بعضاً فسارت حديثاً مروياً، وسبحان من لا يزال على الدوام حيّاً باقياً.

---

426) ص 60.

المبحث السادس

بعض مشاهر رؤساء الأسطول السلاوي - الرباطي
في عهد السلاطين :
المولى سليمان والمولى عبد الرحمن بن هشام،
والمولى محمد بن عبد الرحمن، والمولى الحسن الأول

*** الرئيس إبراهيم لُبَّاريس الرباطي**

أسرة آل لُباريس برباط الفتح مشهورة، وأصلها من الأندلس، وتقدَّم فيها جماعة من رؤساء الأسطول المغربي، ومنهم الرئيس علي لباريس الذي كان في زمن السلطان سيدي محمد بن عبد الله، وقد تقدَّم التعريف به.

وكان منهم فقهاء وأدباء، منهم أبو عبد لله لباريس الضرير، والطاهر لباريس الكاتب العدل، وأبو زيد عبد الرحمن لباريس الفقيه المدرِّس، وأبو محمد عبد القادر لباريس الشاعر الأديب، وغيرهم.

وذكر أبو عبد الله الضُّعَيِّف في «تاريخه»(427) ـ ببعض تصرف في التعبير، مع المحافظة التامَّة على المعنى، أنَّ الرئيس إبراهيم لُباريس هذا كان بارح الرباط في الثالث والعشرين من صفر عام سبعة عشر ومائتين وألف (23 صفر 25/1217 يونيه 1802) وصحبته جماعة من بحَّارته متوجِّهاً إلى العرائش بقصد الخروج منها في غارة بحرية، عملاً بما أمر به السلطان المولى سليمان من تتبُّع سفن الأمريكيين وأخذها.

---

427) ج 3، ص 123-126-130.

وفي أوائل ربيع الأول سنة ثمان عشرة ومائتين وألف (أوائل ربيع الأول 1218/ أواخر يونيه 1803)، خرج من العرائش بحراً في سفينته، وعند خروجه مَكَّنَهُ العامل عشعاش من الكتاب السلطاني المتضمِّن للتعرُّض للسفن الأمريكية وأخذها، وأسر من يوجد فيها من البحّارة والركّاب، مهما وجد لذلك سبيلاً والإتيان بهم إلى طنجة.

ولمَّا فارقت سفينته البوغاز مُلَجِّجة في البحر نحو الجزائر، صادفت سفينة أمريكية، فاستولت عليها، وعلى من فيها من النصارى.

ولحقت بها سفينة أخرى للرئيس الحاج الطاهر عواد السلاوي فانضمَّت إليها.

وفي أثناء محاولة رجوعهما إلى طنجة باغتتهما سفينة حربية أمريكية، لأنَّ بعض نصارى طنجة، لمَّا بلغهم الخبر، طيَّروا لها الإعلام بما وقع من خروج سفينة لُبَاريس، وصِفَتها، وصِفَةَ رئيسها ومنْ معه أو انضمَّ إليه.

وكانت هذه السفينة الحربية الأمريكية فيها نحو أربعين مدفعاً، ونحو أربعمائة من البحّارة، فأوقفتهما، ولم يستطيعا مقاومتها.

وأمر رئيسُها الرئيسَ لُباريس أن ينزل إليه، فامتثل، وكلَّمه قائلاً له : «هل أنت هو الرئيس إبراهيم لُباريس ؟» فقال : «نعم». فأمره في الحين بالاستسلام، وإلاَّ أغرقه، فاستسلم، وأخذه أسيراً عنده. ثم لحقت به سفن أميريكية أخرى، ففرَّق فيها من كان معه من البحّارة المغاربة الذين أصبحوا أسرى عنده.

وخاطبه قائلا : «كيف يجوز لك أن تتعرَّض لنا أو تأخذنا ونحن في حالة صلح مع سلطانك ؟» وطلب منه إطلاعه على صكِّ الأمر السلطاني الصادر إليه بذلك فامتنع، ورَمَى بالكتاب السلطاني في البحر، وقال له «إنَّ الذي أمرني، هو القائد بطنجة عشعاش».

وبلغ الخبر إلى السلطان. فاهتمَّ به، وكلَّف الوالي الإنجليزي بجبل طارق بالتدخل مع الأميركيين في القضية ومباشرتها، وردِّ السفينة، وأطلاق سراح الرئيس إبراهيم لباريس ومن معه من البحّارة الأسرى.

فامتنع الرئيس الأميركي من ذلك حتى يأتي السلطان لطنجة، ويعقد معه صلحاً جديداً.

وبقي الأمر موقوفاً حتى جاء السلطان إثر ذلك في رحلة له إلى طنجة، وعقد مع الأمركيين صلحاً جديداً، بواسطة الإنجليز.

وحينئذ رُدّت إليه سفينته المأخوذة، وأُطلق سراح الرئيس إبراهيم لُباريس، ومن كان معه من البحّارة المأسورين، وعددهم مائة من شباب الرباط، بعد ما بقوا في الأسر نحو الثلاثة أشهر، في عذاب أليم وجوع مستمر، إذ كانوا لا يأكلون إلاّ مرّة واحدة في اليوم، وكان أهلهم وذويهم بالرباط في حزن وهمّ وغمّ وألمٍ شديد.

قال : وكان وصولهم يوم الخميس الثاني والعشرين من ربيع الثاني عام ثمانية عشر ومائتين وألف (22 ربيع الثاني 11/1218 غشت 1803) ونجّا الله الحاج الطاهر عوّاد، فرجع من وجهته هذه لبَلَدِه ليبقى سالماً.

ولعل هذه القضية كانت من جملة الأسباب التي دعت المولى سليمان، رحمه الله، إلى إبطال القرصنة، وحذف الأسطول المغربي.

وقد كان هذا الرئيس من جملة الرؤساء الذين أُمروا من قبل السلطان بالخروج إلى البحر والتجوّل فيه نحو الشهرين بسواحل البرتغال، فخرج وجال صحبة الرئيسين الحاج الطاهر عواد السلاوي والرئيس السبِيع الرباطي، ورجعوا سالمين في رجب من سنة تسعة عشر ومائتين وألف (1804/1219)، كما عند الضعيّف[428].

وذكر أيضاً أنّه كان في اليوم 21 من جمادى الأولى من السنة، عشية، تحت برج الصراط، ووجد فيه زورق الرئيس إبراهيم لُباريس، وفيه الشاب محمد بن الشريف قابضاً على مجدافه.

ثم ذكر الضعيّف أيضاً[429] أنّ القائد محمد السلاوي، لمّا كان بالرباط في ذي القعدة عام سبعة وعشرين ومائتين وألف (قعدة 1227/ نونبر 1813)، عزل الرئيس محمد السبيع وولده، وولّى على المرسى الرئيسان الحاج العباس غنّام وإبراهيم لُباريس.

*** الرئيس الحاج الطاهر بن الأميرال الحاج الهاشمي عوّاد**

من أعيان الفرقة الطلعوية[430] العوادية السلاوية، ومن ذوي الوجاهة والظهور فيها. وكان يفصل بين البحّارة ورؤساء الأسطول السلاوي إذا وقع بينهم شنآن أو جدال، وهو

428) ج 3، ص 142.

429) ج 3، ص 219.

430) نسبة إلى حي الطلعة الذي هو أقدم حي بسلا، حيث يوجد الآن المسجد الأعظم الموحدي والمدرسة المرينية. وبها كان نزول بني عشرة الذين عصّروا سلا، وبنوا بها قصرهم الذي ردّد ذكره المؤرخون، وتغنى به الشعراء، وتبوّأه السلاطين والأمراء.

صاحب الدفتر الجامع لأسماء البحرية والموظفين بالأسطول المغربي السلاوي الرباطي، وقد تقدَّم ذكره، ونقلنا عنه أسماء جُلِّهم، الدالَّة على الأُسَرِ الباقية والمنقرضة بالعدوتين أو التي في طريق الانقراض.

قال أبو عبد الله الضُّعَيِّف في «تاريخه» :[431] في رمضان عام أربعة عشر ومائتين وألف (رمضان 1214/ أبريل 1800)، ورد على العدوتين بلقاسم الزياني بالأمر السلطاني السليماني بإنشاء سفينتين :

إحداهما للرئيس السبيع الرباطي، والأخرى للرئيس الحاج الطاهر عواد السلاوي.

ثم قال : وفي يوم الأحد التاسع والعشرين من ذي الحجة، يعني عام ستة عشر ومائتين وألف، (ذو الحجة 1216/ ماي 1802) أُنزلت إلى البحر سفينة الرئيس السبيع الرباطي.

وأراد السلاويون إنزال سفينة الرئيس الحاج الطاهر عوّاد، فزلقت عن موضعها، ومسّت الأرض، لأنّ الفرش من العود الذي كان تحتها هوى بها.

فخرج السلاويون جميعاً، حتى الطلبة والأشراف ليلاً، وباتوا ساهرين عاملين على إصلاح فرش السفينة، وهم يحملون المشاعل والفنارات، حتى تَمَّ العمل، ورفعوها وأنزلوها إلى البحر صبيحة يوم الإثنين بعده، قال : وكنت حاضراً معهم في هذه العملية.

ثم ذكر[432] أنّ هذا الرئيس كان خرج في غارة حربية بحرية سنة ثمان عشرة ومائتين وألف (1803/1218)، لمّا أَمَرَ السلطان المولى سليمان بتتبُّع السفن الأمريكية وأسرها في البحر إنْ استطاع قراصنته ذلك، وكان في هذه الغارة مع الرئيس إبراهيم لُباريس، فاصطدموا ببعض السفن الأمريكية قرب البوغاز بالبحر الأبيض المتوسط، وأُسر الرئيس لُباريس حسبما ذكرناه في ترجمة التعريف به، ونجّا الله الرئيس الحاج الطهر عواد من الأسر.

وأخبر أيضا[433] أنَّه في ربيع الثاني سنة تسع عشرة ومائتين وألف (ربيع الثاني 1219/ يوليوز 1804) جَاءَ في سفينته من العرائش، وبقيت راسية نحو الشهر ونصف بمرسى سلا إلى أن جاء الأمر السلطاني له ولغيره من بعض الرؤساء كإبراهيم لُباريس والسّبِيع بالخروج

431) ج 3، ص 101 و ص119.

432) في تاريخه، ج 3، ص 126.

433) نفس المصدر، ج 3 ص 142.

إلى البحر والتجوُّل فيه نحو الشهرين بسواحل بلاد البرتغال، فخرج وجال، وكان رجوعه من لجبوة (لسبون) في شهر رجب (أكتوبر) من السنة. وإليه آل الخنجار والسكّين الذي كان أنعم به السلطان سيدي محمد بن عبد الله على والده الحاج الهاشمي، ثم آل إلى ورثته من بعده كما تقدم. وكانت وفاته، رحمه الله، سنة أربع وثلاثين ومائتين وألف (1819/1234).

*** الرئيس عبد السلام السلاوي**

هذا الرئيس أحد الأشراف السلاويين العلميين.

ويظهر أنهم انتقلوا إلي سلا في عهد السلطان المولي إسماعيل، وكانوا في أول عهدهم قائمين بنشر القرآن وتعليمه للصبيان. وفرعهم قليل اليوم بسلا. ومن أعيانهم مولاي عمر بن مولاي أحمد الذي كان يُعرف بولد الشاعر، ومولاي علي بن محمد، فتحاً، بن الفقيه، وكان من رؤساء البحر.

وفي عهد السلطان المول عبد الرحمن، كان منهم الرئيس مولاي عبد السلام بن محمد ابن الفقيه، أخو مولاي علي المتقدم الذكر، وهو المقصود بهذا التعريف. وكان مقدَّماً عند السلطان المذكور، ويوجِّهه في البعثات المهمَّة أثناء محاولته لإحياء الأسطول المغربي وقرصنته.

وقد أصدر له ظهيراً شريفاً بالإذن له في السفر في المراكب المخزنية بقصد التجارة، ونصُّه، كما سجَّله النقيب أبو زيد عبد الرحمن بن زيدان في «إتحاف أعلام الناس»[434] :

«كتابنا هذا أسماه الله وأعزَّ أمره، وأحلى في الملإ الأعلى ذكره، بيد خديمنا الرئيس عبد السلام بن محمد بن الفقيه الشريف السلاوي.

يعلم منه، بحول الله وقوته، وشامل يمنه وقُوته، أنَّنا أذناه بالسفر بقصد التجارة في مراكبنا السعيدة، البازركان، المشتملة على صاري واحد، المسمَّاة أزيلة، عدد بحريتها عشرة بالرئيس المذكور. ويخوض إن شاء الله، في البحر الصغير والكبير، مشترطاً عليه أن يشتغل في جميع أُمورِه كلها بما يعنيه، متحرِّياً للأمور المذمومة المُخلَّة بالدين، وأنْ لا يتعدّى القانون المتعارف بيننا وبين أجناس النصارى، وأن لا يحمل في مركبه مثل الخمر والخنزير، فإنْ حام حول ذلك، فقد تعرَّض لغضب الله، ونكالنا بحول الله.

---

434) ج 5، ص 151.

وبعد قضاء أربه، من المحل الذي حلّ به، يئوب إلى أي مرسى من مراسينا السعيدة بالله تيسَّرت، كما نؤكِّد على من يقف عليه من حُكَّام المدن من مدائن النصارى، والقراصين وخدامنا والمانضاطيس مراكب الحرب، وقراصين المصالحين معنا أن يوقِّروه، ويحترموه، وأن لا يحيدوا عمَّا أبرمه أمرنا الشريف، ولا يتعدّاه.

وعلى الرئيس وبحريته بتقوى الله سرّاً وعلانية، والصلاة في أوقاتها، وربُّنا الفتّاح، إنَّه على ما يشاء قدير، والسلام.

بهذا صدر أمرنا المعتزُّ بالله في رابع عشر ربيع النبوي الأنور، عام واحد وأربعين ومائتين وألف (14 ربيع النبوي 27/1241 أكتوبر 1825).

ونصُّ ظهير آخر أصدره له وللرئيس عبد الرحمن بريطل مع الرئيس عبد الرحمن بركاش اللذان سياتي ذكرهما، يأمرهما فيه بالخروج للبحر، والتقاط سفن بعض الأجناس(435).

الحمد لله وحده   وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم.

وداخل الطابع الشريف :

عبد الرحمان بن هشام، غفر الله له.

وبدائرته : «ومن تكن برسول الله نصرته، إنْ تلقاه الأسد في آجَامِهَا تَجِمِ».

وبزواياه : «وما توفيقي إلاَّ بالله، عليه توكلت، وإليه أنيب. الله، محمَّد، أبو بكر، عمر، عثمان، علي.

الخديمان الرئيس عبد الرحمن بريطل، والرئيس الشريف عبد السلام، أصلحكم الله وَوَفَّقَكُمْ وسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

وبعد، فليكن سفركم المبارك السعيد، المصحوب بالسلامة والغنيمة إن شاء الله، بانداش واحد، تقطعون للبحر الكبير على قاب سينط وتبحثون كل البحث على جنس «ابريمل»(كذا ؟)

وجنس لُوِيكْ (كذا ؟). وجنس بروسية، وجنس هامبورك.

وإذا احتجتم للماء، فادخلوا ليجبوة (Lisboa)، ولا تقيموا فيها أكثر من ثلاثة أيام، ولا تحملوا منها إلاَّ الماء.

---

435) «الإتحاف» للنقيب الشريف ابن زيدان، ج 5، ص 134.

وإياكم والفالطة، وعليكم بتقوى الله والصلاة في وقتها، وقراءة حزب القرآن، وحزب البحر صباحاً ومساءً، والله خليفتي عليكم.

وإذا تمَّ سفركم، وكمل بالخير إن شاء الله، فادخلوا مرسى العدوتين، إن ساعدتكم للدخول إن شاء الله، والسلام.

في السادس والعشرين من قعدة الحرام عام واحد وأربعين ومائتين وألف (26 قعدة 2/1241 يوليوز 1826).

ويوخذ من هذين الظهيرين الشريفين أنَّ من جملة ما اشتملا عليه إيصَاءُ الرئيسين المذكورين والبحَّارة الذين معهما على المحافظة على دينهما وأخلاقهما الإسلامية والقيام بِهَا أتمَّ قيام.

*** الرئيسان عبد الرحمان بريطل**

وعبد الرحمان بركاش

هذان الرئيسان من أشهر رؤساء رباط الفتح، وأسرتهما من الأسر المشهورة بالرباط قديماً وحديثاً.

وأسرة بركاش، تقدَّم فيها باشاوات وعُمَّال وقُوَّاد وأُمناء ونُوَّاب عن السلطان وسفراء ووُزراء، وتداولوا هذه الوظائف بينهم خلفاً عن سلف، إلى وقتنا هذا.

وقد كان هذان الرئيسان من جملة الرؤساء الذين صدر لهم الأمر السلطاني العبد الرحماني بالخروج إلى البحر، لمَّا قرَّر إحياء الأسطول المغربي والقرصنة التي كان أبطلهما عمُّه السلطان المولى سليمان، رحمه الله، كما تقدَّم.

وقد وقفت على كتاب شريف كتبه المولى عبد الرحمن لهما وإلى الرؤساء والبحرية وأهل العدوتين سلا رباط الفتح، وتطوان ونصه :

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه.

خدامنا المجاهدين الرئيس عبد الرحمن بريطل والرئيس عبد الرحمن بركاش وكافّة خدامنا المجاهدين المسافرين معهم، وأهل سلا ورباط الفتح وتطوان، أمنكم الله، وسلام عليكم رحمة الله وبركاته، وبعد،

فنأمركم بتقوى الله والتوكل عليه، فإنه من يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب، ومن يتوكل على الله فهو حسبه. ونأمركم بالمحافظة على الصلوات في أوقاتها، وبقراءة حزب البحر والحزب الكبير للشادلي صباحاً ومساءً، فإنهما أمان من كلّ سوء. وعلى الرؤساء أن يشتغلوا في جميع أمورهم كلّها بما يعنيهم، ويتحرّزوا من الأمور المذمومة المخلّة بالدين، وأن لا يحملوا في مراكبهم مثل الخمر والخنزير، فمن حام منهم حول ذلك فقد تعرّض لنكالنا. وعلى البحرية أن يسمعوا ويُطيعوا لرؤسائهم، ويلزموا معهم الأدب، ومن أساء فقد جنا على نفسه. فإذا نشرتم القلاع على بسيط البحر، فسيروا على بركة الله، وابتغوا من فضل الله، وليكن سفركم السعيد المصحوب بالسلامة الكفيل إن شاء الله بالغنيمة والكرامة سفرياً (كذا) قداش (كذا)، بحيث لا تفترقون ولا يغيب أحدكم عن رؤية الآخر، لتكونوا رداءً لأنفسكم وعوناً على عدوّكم، وسيروا في البحر الكبير طوقة (كذا) من أشقار إلى فارر إلى قبر سينط (كذا) إلى جزائر بريكش. وإذا اضطررتم إلى دخول مرسى فادخلوا مرسى جبوة لمصلحة تعيّنت، فإذا لقيتم أحدا من أجناس النصارى الذين نحن معهم على الصلح والمهادنة فالقوهم بهمم نفيسة عالية كريمة أبيّة على القانون المتعارف، وعاملوهم بألطف معاملة، وانصرفوا عنهم بمجاملة، وإذا لقيتم جنس بريمل، وجنس بروشكة، وجنس أوباك، فجدوا في تحصيلهم كل الاجتهاد، فإنهم المقصود والمراد، عسى أن تغنموهم، وكونوا على أهبة لملاقاتهم، وإيّاكم أن تسمحوا بإفلاتهم، وانتهزوا فيهم الفرصة ما أمكنتكم، ولا تقصروا، واستعينوا بالله عليهم، واصبروا، فإن النصر مع الصبر.

ونسأل الله أن يعينكم على الجهاد وأمره، وأن يمدّكم بعونه ونصره. يا أيها الذين آمنوا إنْ انتصروا الله ينصركم، ويثبت أقدامكم، وأنتم الأعلون والله معكم. وأستودعكم الله، وهو خليفتي عليكم. إن الذي فرض عليك القرآن لرادّك إلى معاد. والسلام.

في 19 حجة عام 1243.

وقال النقيب أبو زيد عبد الرحمن بن زيدان في كتابه «إتحاف أعلام الناس»[436]، ما نصه :

«بناء على الأوامر الصادرة من السلطان المولى عبد الرحمن للرؤساء بالخروج إلى البحر، خرج الرئيسان عبد الرحمن بركاش، وعبد الرحمن بريطل فصادوا بعض المراكب الأجنبية وليس بيدهما ورقة الجواز التي تخوّلهم التجوُّل بتلك السواحل طبق الاتفاق الواقع بين الدولة الشريفة والدول الأوروبية. فغنموا تلك المراكب وأتوا بها إلى مرسى العدوتين والعرائش.

---

436) ج 5، ص 132.

وباثر ذلك، وقع الهجوم على مرسى العرائش أخذاً بالثأر، ووقع قتال عظيم بين أهل ذلك الثغر والمهاجم الأجنبي دام طيلة النهار، وانجلى بالظهور على المهاجم.

وذلك يوم الأربعاء ثالث ذي القعدة عام خمسة وأربعين ومائتين وألف (3 قعدة 20/1245 شتنبر 1849)».

وقد تقدم الكلام على هذه القضية مفصّلاً بأبسط من هذا أثناء عرض حالة الأسطول المغربي في عهد السلطان المولى عبد الرحمن، وما نتج عنه من الحوادث، نقلاً عن «الاستقصا»[437].

وكانت هذا الواقعة، وما نشأ عنها من فتح أبواب المشاكل بين الدولة الشريفة والدول الأجنبية، من أعظم ما فتَّ في عَضُد السلطان المولى عبد الرحمن، وأكبر حائل بينه وبين الوصول لبغيته، وضالّته المنشودة وغايته.

*** الرئيس الحاج أحمد بن محمد بن الهاشمي عوّاد**

كان مُتَّصِفاً بالرياسة البحرية في عهد السلطان المولى عبد الرحمان، رحمه الله، كوالده وجدِّه وأسلافه لخبرته ومعرفته التامّة بالقوانين البحرية واطّلاعه عليها، حتى أنَّه كان في سفره للحج في سفينة برتغالية، يذاكر رئيسها في القوانين والشئون البحرية كلِّها، ويفحمه ويعجزه.

ولمَّا أعرض السلطان المذكور عن شئون البحر، وأبطل الأسطول والقرصنة، كما تقدم في محلِّه، أَسْنَدَ إليه عمالة سلا والنظارة على أحباسها، فأحسن السيرة في ذلك وكان يكلِّفه بإنجاز الأعمال المهمَّة الراجعة للعمالة أو النظارة.

ومن ذلك أنَّه كلَّفَهُ، بإعادة بناء منار المسجد الأعظم بسلا الموجود اليوم، حسبما تقدم عند الكلام علي بناء المسجد المذكور.

وحيث كان له إشراف على رؤساء الأسطول بسلا، فقد كان يكلِّفه بإنهاء الأوامر المتعلّقة بخطتهم إليهم.

---

437) ج 4، ص 183، طبع القاهرة، 1894، وج 8، ص 30-31، طبع الرباط 2001.

ومن ذلك ما ذكره أبو زيد عبد الرحمان بن زيدان في «تاريخه»[438] في ترجمة السلطان المولى عبد الرحمن قال :

«كان السلطان ينعم على رؤساء المراكب بالْيَطَقَانِ تشريفاً لهم، وهو سيف قصير، مُحَلَّى بالفضَّة، له قبضة من العاج، أو كركدان، مُرصَّع بالذهب والأحجار الكريمة، وله غمد كله من ذهب، وقد يُكتب على نصله اسم صانعه واسم السلطان المُنْعِم به.

وكان هذا اليطقان سلاحاً ملوكياً ينعم به السلطان على رؤسائه ما داموا أحياء. فإذا مات صاحبه، حيز من ورثته، ليُدفع لمستحقيه، يدلُّ على ذلك الظهير الذي أصدره لخديمه الفقيه الحاج عبد الوهاب محبوبة.»

ووقفت في كناش الرئيسين الحاج الهاشمي والحاج الطاهر عوَّاد على أنَّ الاسترجاع أو الحيازة كانت تقع إذا كان المنفذة له الكِسْوة أو الخنجار مثلاً قَرِيبَ عَهْد بالتنفيذ قبل موته.

ولذلك أدركنا من بقي عنده وتصرَّف فيه ورثته، كما أثبتناه في محلِّه.

ونَصُّ الظهير الذي أصدره، بعد الحمدلة والتصلية على رسول الله ﷺ والطابع الشريف:

نَأْمُرُ خديمنا الفقيه الحاج عبد الوهاب محبوبة، أن يحوز اليطقان التي كانت عند الرئيس عبد السلام، رحمه الله، فإنَّها من آلة الحرب ا لتي لا تورث، وإنَّما يَنْتَفِعُ بها من كانت عنده في حياته، وتُدْفَعُ لمن يستحقُّ الانْتِفَاعَ بها بعد مماته، والسلام.

وفي التاسع من جمادى الأولى عام تسعة وأربعين ومائتين وألف (9 جمادى الأولى 24/1249 شتنبر 1833).

وبعده أعمال بعض القضاة له.

ونصُّ كتاب من الوزير ابن إدريس مخاطباً بِهِ الرئيس الحاج أحمد عوّاد المذكور في الموضوع :

محبّنا الأودّ، الأرضى، الحاج أحمد عوّاد، سلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته، عن خير مولانا أيده الله ونصره.

---

438) «الإتحاف»، ج 5، ص 133 و134.

وبعد فإنَّ يطقاناً كان عند الرئيس عبد السلام بن الفقيه، ولمَّا تُوفي حازه منه محبوبة.

وعليه فيأمرك مولانا أن تَحُوزَهُ منه، ووجِّهه إلينا ليصل لمحله إن شاء الله تعالى، والسلام.

في سابع عشر شعبان الأبرك عام ستة وخمسين ومائتين وألف (17 شعبان 12/1256 نونبر 1840).

الإمضاء : محمد بن إدريس لطف الله به.

وكان مكلفاً أثناء ولايته علي سلا بقبض جزية أهل الذِّمة وتوجيهها للحضرة الشريفة، كما يدلُّ عليه الجواب السلطاني بوصولها إليه.

ونصه بعد الحمدلة والصلاة على النبي ﷺ، والطابع الشريف :

خديمنا الأرضى الحاج أحمد عوّاد، وفقك الله، وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته.

وبعد فقد وصل لحضرتنا العلية بالله كتابك وصحبته ألف مثقال، جزية أهل ذمَّة سلا حسبما بيَّنت، وذلك على يد خديمنا الطالب محمد السويسي، وذلك جزية ثلاث سنين مضت عن تاريخه، والسلام.

في رابع وعشري محرم الحرام عام ستة وخمسين ومائتين وألف (24 محرم 28/1256 مارس 1840)، وبعده :

الحمد لله، أعلم بأعمال الكتاب الشريف أعلاه، عبد الله تعالى محمد بن العربي زنيبر (بشكله).

وممَّا وَقَفْتُ عليه من المكاتب الرسمية الدالَّة على اهتمامه بولايته وحسن تصرفه في عمالته ما كتب له بِهِ قبل هذا التاريخ، الوزير السيد المختار الجامعي جواباً عَنْ كتاب كان وجَّهه إليه.

ونصُّه بعد الحمدلة والصلاة على الرسول ﷺ :

محبُّنا الأودّ الأرضى، الخَيِّر الدِّين المرتضى، السيد الحاج أحمد عوّاد، سلك الله بنا وبك مناهج السداد. وبلَّغنا وإياك من رضاه غاية المراد، وسلام عليك ورحمة الله وبركاته، عن خير مولانا أيَّده الله ونصره.

وبعد، فقد وصلنا كتابك واستوعبناه، وأطلعنا عليه مولانا، فسُرَّ غاية ودعا لك بخير، وحمد الله على وجود مثلك، وهو ضالَّته المنشودة، وغايته المقصودة، فَابْقَ على عملك، فإنَّ الله يعينك ويسدِّدك، حيث لم تطلب هذا الأمر.

وما ذكرت في شأن ما ضربه المتولِّي قبلك من المكوس، وأحدثه من الأمور المذمومة شرعاً وطبعاً، أسْقِطْه واقْطَعْ مادَّته، فإنَّ سيدنا لا يُحِبُّهُ، ولا يرضى لولاة أمره أن يسمع عنهم ما يخالف الشرع، والسلام.

في رابع عشر ربيع الثاني عام سبعة وأربعين ومائتين وألف (14 ربيع الثاني 22/1247 شتنبر 1831).

وأسلم على الفقيه السيد محمَّد عوَّاد، والحاج العربي معنينو، والفقيه السيد التهامي مرسيل بأتَمِّه وأزكاه، والسلام.

المختار خَارَ الله له ولطف به.

ولمَّا عَلِمَ منه السلطان المولى عبد الرحمن، اهتمامه بكل ما يأمره به، أو يسنده إليه، من الشؤون المخزنية، وخصوصاً ما يتعلَّق منها بالأمور الدينية، ولاَّهُ نظارة الأحباس والقيام بها بالمدينة السلاوية، وأصدر إليه ظهيراً شريفاً بذلك.

نَصُّه بعد الحمدلة والصلاة على النبي ﷺ، والطابع الشريف :

وَلَّيْنَا بحول الله وقوته، وشامل يمنه ومنَّته، خديمنا الأمين الأرضى الحاج أحمد عوّاد، النظر في أوقاف سلا، وأسندنا إليه أمرها، وأذِنَّا له قبض مستفادها، وتصييره في مصارفه المعلومة، والوقوف على إصلاح الرباع، وحيازة ما هو مغصوب منها لمحلِّه، والبحث في ذلك كُلِّه.

وعليه بتقوى اللَّه، والوقوف على ذلك جهد استطاعته، والسلام.

في ثامن وعشري شعبان الفرد عام اثنين وخمسين ومائتين وألف (28 شعبان 9/1252 دجنبر 1836).

وبعد ولايته وجَّه له زمام دخل الأحباس وخرجه، فأجابه عنه بظهير شريف.

نصُّه بعد الحمدلة والتصلية :

خديمنا الناظر الأرضى، الحاج أحمد عوّاد السلاوي، أعانك الله، وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته. وبعد :

فقد وصلنا كتابك وصحبته زمام داخل الحُبُس وخارجه، وعلمنا مبلغهما.

فأمّا ما ذكرت على شأن أبواب المدينة فقد جرى العمل بذلك بسلا وغيرها، فابْقِ ما كان علي ما كان.

وَأمّا الساكنون بأوقاف المسجد، وليس لهم عمل فيه، فنامرك أن تقبض منهم الكراء المعروف، وقد أذنّا لك في جعل محمد الزواوي قَابِضاً، ويقبض مرتبه المعلوم له.

وفاس هي أُمُّ القرى، وقد جرى العمل فيها باعطاء البوابين وإصلاح أسوارها، من وَفْرِ أوقافها، والسلام.

في خامس ذي القعدة الحرام عام اثنين وخمسين ومائتين وألف (5 قعدة 11/1252 يناير 1837).

ثم كتب له رسالة خاصّة فيما يرجع لدور الأحباس المنفّذة بأيدي الناس، يقول فيها بعد الحمدلة والتصلية والطابع الشريف :

خديمنا الناظر الأرضى، الحاج أحمد عوّاد، وفّقك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته.

وبعد، فدور الحُبُس المنفّذة بأيدي الناس هُنَاكَ، أردنا التحرِّي منها، فإن كان من دور المخزن هناك ما يناسب فاعلمنا به لنكون نُنَفِّذُ منها، والسلام.

في ثاني وعشري ذي الحجة اثنين وخمسين ومائتين وألف (22 حجة 30/1252 مارس 1837).

وبعد ذلك أمره بإِصلاح ماء سلا، فأجابه بالامتثال، وأنّه شَرَعَ في ذلك داخل المدينة وخارجها.

وطلب منه الإذن ليتوجّه إلى حج بيت الله الحرام صحبة ولده في ذلك العام.

فأجابه على ذلك بِمَا نصّه بعد الحمدلة والتصلية والطابع الشريف :

«خديمنا الناظر الأرشد الحاج أحمد عوّاد وفّقك الله، وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته. وبعد،

وصلنا كتابك، مخبراً بامْتثالكَ لمَا أمرناك به من إصلاح ماء سلا، وأنّك ابتدأت بإصلاح موادِّه في المدينة في فصل الشتاء، وحين أقلعت، شرعت في إصلاح عيونه خارج المدينة، وأنّك مجتهد في ذلك.

وطلبت المحاسبة، لتتوجّه إلى الحج أنت وولدك، فقد أذنّا لك في ذلك، فتلك وجهة لا يُردُّ عنها أحد، وها نحن كتبنا لخديمنا الأمين الحاج أحمد الحدّاد، بأن يحضر محاسبتك، مع القاضي السيد محمد زنيبر، وأذنّا له في اعمال الكسور الواقعة في مستفاد الأحباس، وأمرناهما أن يُعَيّنا من يقوم مقامك، والسلام.

في حادي وعشري جمادى الأولى عام تسعة وخمسين ومائتين وألف (21 جمادى الأولى 19/1259 يونيو 1843) توجّه لوجهته الميمونة في تلك السنة صحبة ولده، وكانت هذه حجته الثانية.

ويُحكى عنه أنه قال عند وداعه : «ها أنا متوجّه، وإنْ كنتُ درهم حلال فَإِنَّنِي لا أرجع».

فقضى الله تعالى أنّه حجّ وتوجّه للمدينة المنورة بقصد الزيارة، فأدركته منيته بها.

وعليه فإنّ وفاته كانت في آخر سنة ستين ومائتين وألف (1845/1260) أو أوائل سنة إِحدى وستين ومائتين وألف (1846/1261).

ويوخذ ممّا وقفنا عليه من أحواله وسيرته أنّه كان رجلاً صالحاً ذا جدٍّ وعمل واستقامة، قدوة لغيره من الرؤساء والعُمّال والنُّظار، رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

* الرئيس عبد العزيز عوّاد

قال كوسطي (Cousté)، في كتابه الأسر السلاوية[439] : «كان الرئيس عبد العزيز عواد، المدعو القبطان، رئيساً بحرياً مشهوراً بالشجاعة والإقدام، وخلّف بسلا ذكراً خالداً في عهد السلطان المولى عبد الرحمن.

---

439) ص 85، طبع الخزانة العلمية الصبيحية، سنة 1989.

ثم قال : وكانت له سفينة صُنعت بالعرائش، وهي إحدى السفن التي كَانَ يعتمد عليها السلطان المذكور».

وذكر الزياني في «الترجمان» أنَّ هذه السفينة كانت بالعرائش لَمَّا هجم عليها جنس السويد، وهي يومئذ تحت رياسة القبطان عبد العزيز المذكور.

وخلَّف هذا الرئيس بعد وفاته ذرية بسلا كان لها شُفُوفٌ وظهور في بعد الوظائف المخزنية المتعلِّقة بالبحرية وصناعة القوارب بمرسى العدْوَتين لمَّا أبطل السلطان المولى عبد الرحمن القرصنة، لِمَا كان يترتَّب عليها من المشاكل السياسية الدولية، حسبما تقدم.

*** الرئيس عبد الرحمن بن عبد العزيز عوّاد**

كان هذا الرئيس مهندساً محاسباً ماهراً، يعرف كتاب أُقْلِيدس(440) حق المعرفة، وله اطِّلاع على جُلّ الفُنُونِ البحرية وصناعة السفن، طبق ما كان العمل جارياً به في القديم.

وكان يلقي دروساً في الهندسة والحساب بالمسجد الأعظم بسلا. وأخذ عنه جماعة من الطلبة الذين كان لهم شغف واهتمام بهذا الفن.

كما كان ذا حُظوة وامتياز عند السلطان المولى الحسن، رحمه الله، وهو الذي يتولَّى إجَازَتَهُ وادي أبي رقراق كلَّما كان بالرباط وأراد المجيءَ إلى سلا، وهو خاتمة رؤساء هذه الأسرة العوّادية السلاوية.

وكان السلطان ينعم عليه بالكسي الرسمية الخاصَّة برجال البحر ذوي الامتياز عنده، وقلَّده السَّيْفَ والخنجر المنبَّت بالأحجار الكريمة كأسلافه، وبقي ذلك الخنجر عند ورثته حتى باعوه وانتفعوا بثمنه، وكانت وفاته رحمه الله سنة (1884/1302).

هذه بعض أسماء وفقرات من أخبار بعض رؤساء هذه الأسرة السلاوية، حسبما وصلتنا واطَّلعنا عليها وسجَّلناها هنا.

---

440) عالم بالرياضيات يوناني (306-283) كان يعلم الهندسة في الإسكندرية على عهد بطلميوس الأول، وضع مبادئ الهندسة السطحية التي يوجد ضمنها فرضية أوقليدس الأولى (Postulat d'Euclide) الشهيرة، ويشتمل مؤلفه هذا على 13 باباً، المشهور منها ما يُسمَّى : «العناصر» (Les Eléments) والتي تعتبر كتاب «علم الهندسة» (Géométrie) على الإطلاق. يضاف إليها بابان آخران هما للرياضي هيبْسيكليس (Hypsicles) الذي عاش في الإسكندرية، ربما في القرن الثاني قبل المسيح عليه السلام.

وفي أوائل دولة السلطان سيدي محمد الرابع بن السلطان المولى عبد الرحمن، قدَّم له أهل سلا ورباط الفتح لائحة يطلبون منه فيها إحياء الأسطول المغربي، وإعادة تنظيم البحرية وصرف البال إليها، والاهتمام بها.

وعليها إمضاء خمسة من حفدة رؤساء البحر من آل عواد المحافظين على أسمائهم والمتَّصفين بصفتهم، والمُعْتَزِّينَ بالنسبة إليهم، كعلي عوّاد، والهاشمي عوّاد، والطاهر عوّاد، ومحمد عوّاد، وأحمد عوّاد، رَحِمَ الله الجميع.

هذا ما وُفِّقنا إلى الوقوف عليه، وجمعه وتحبيره، من أخبار ومآثر رؤساء وأميرالات الأسطول السلاوي – الرباطي، إبَّان تعاطيهم للقرصنة الجهادية مدة تنيف على القرنين من الدَّهر...

وكان المراد من ذلك تخليد ذكر وأسماء رجال مغاربة أبطال، كان لهم شهرة وشان، فيما غبر ودبر من الأزمان، لتحصل الفائدة المطلوبة، والغاية المنشودة. والله الموفق للصواب بمنه، آمين.

مصادر المؤلف
حسب ورودها في الكتاب

- مفاتيح العلوم : الخُوارِزْمي، أبو بكو محمد بن العبَّاس.
- كتاب الوزراء والكُتَّاب : الجهشياري، أبو عبد الله محمد بن عبدوس.
- تاريخ الطبري (أخبار الرسل والملوك) : الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير.
- الكامل في التاريخ : ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد.
- أعتاب الكُتَّاب : ابن الأبَّار، أبو عبد الله، محمد بن عبد الله.
- الفرج بن الشِّدَّة : التنوخي، أبو علي، المحسن بن علي.
- الفخري في الآداب السلطانية : ابن طباطبا.
- كتاب الأغاني : الإصبهاني، أبو الفرج علي بن الحسين.
- تاريخ ابن عساكر (تاريخ دمشق الكبير) : ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن.
- تاريخ اليعقوبي : اليعقوبي، أبو يعقوب أحمد بن إسحاق.
- المواعظ والاعتبار بذكر الخِطَط والآثار : المقريزي، أبو العباس أحمد بن علي.
- معجم الأدباء (إرشاد الأريب) : ياقوت الحموي، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله.
- سقيط الدُّر ولقيط الزهر : ابن اللَّبَّانة، أبو بكر محمد بن عيسى.
- جغرافية الفزاري (كتاب السِّير في الأخبار والأحداث) : الفزاري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد.
- جغرافية الوزَّان (وصف إفريقية) : الحسن بن محمد الوزَّان.
- جغرافية الإدريسي (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) : الإدريسي محمد بن محمد، أبو عبد الله.
- جغرافية ابن حوقل (المسالك والممالك) : ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن حوقل.
- كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار : مؤلف مجهول.

- جغرافية أبي الفدا (تقويم البلدان) : أبو الفدا، إسماعيل بن علي.
- معجم البلدان : ياقوت الحموي، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله.
- تاريخ ابن خلدون (كتاب العِبَر والمبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن خالطهم من ذوي السلطان الأكبر) : أبو زيد، عبد الرحمان بن محمد بن خلدون.
- كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى : أبو العباس، أحمد بن خالد الناصري.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب : المقَّري، أبو عبد الله، محمد بن محمد.
- إتحاف أشراف الملا ببعض أخبار الرباط وسلا : أبو عبد الله محمد بن علي الدكالي.
- الذخيرة السنية في محاسن أهل الجزيرة : أبو الحسن علي بن بسَّام الشنتريني.
- الذَّيل والتَّكملة لكتابي الموصول والصلّة : ابن عبد الملك المراكشي.
- صبح الأعشى في قوانين الإنشا : القلقشندي، أحمد بن علي الفزاري.
- جمهرة أنساب العرب : ابن حزم، علي بن أحمد الظاهري.
- القصد والأمم في التعريف بأصول العرب والعجم : ابن عبد البرِّ.
- المسند الصحيح الحسن في مآثر المولى أبي الحسن : ابن مرزوق العجيسي، محمد بن أحمد.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : ابن خلِّكان البرمكي، أحمد بن محمد.
- ديوان البحتري : البحتري الطائي، الوليد بن عبيد بن يحيى.
- العقد الفريد : ابن عبد ربه، أحمد بن محمد.
- تاريخ مصر الحديث : جرجي زيدان.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة : ابن تغري بَردي. أبو المحاسن جمال الدين يوسف
- فوات الوفيات : محمد بن شاكر الداراني الدمشقي.
- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة : السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر.
- البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب : ابن عِذاري، محمد أو أحمد المراكشي القُضاعي.
- الحلة السِّيْراء : ابن الأبَّار، محمد بن عبد الله بن أبي بكر.
- الأعلام : الزركلي، خير الدِّين.
- تاريخ الجزائر العام : مبارك الميلي.

- ديوان ابن هانيء : محمد بن هاني بن محمد الأزدي الأندلسي.
- بغية الملتمس في تاريخ الأندلس : الضبِّي، أحمد بن يحيى.
- أخبار المهدي (أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين : ابن البيذق، أبو بكر بن علي الصنهاجي.
- الحُلَل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية : مؤلف مجهول.
- تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية : الزركشي، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللولوي.
- رحلة التيجاني.
-التشوُّف إلى رجال التصوُّف : الحجاج يوسف بن يحيى التادلي الزيات.
- تاريخ مراكش (الإعلام بمن حلَّ مراكش وأغمات من الأعلام) : العباس بن إبراهيم المراكشي.
- تكميل الصلِّة : ابن الأبَّار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله.
- الروض المِعْطار في أخبار الأقطار : محمد بن محمد بن عبد المنعم الحميري.
- المُغرب في حلى المَغرب : ابن سعيد، علي بن موسى.
- ديوان الأعمى التُّطيلي : أبو جعفر، أحمد بن عبد الله.
- ديوان ابن حمديس الأزدي الصِّقلي : أبو محمد، عبد الجبار بن أبي بكر.
- مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس : الفتح بن خاقان القيسي.
- قلائد العقيان : الفتح بن خاقان القيسي.
- معجم السفر : أبو طاهر أحمد بن محمد السِّلفي (الحافظ).
- رحلة (مِلْءُ العيبة فيما جمع بِطول الغيبة إلى مكة وطيبة) : ابن رشيد محمد بن عمر الفهري السبتي.
- البغية (بغية الرائد في ما في حديث أم زرع من الفوائد) : القاضي عيَّاض، عياض بن موسى اليحصبي السبتي.
- المفاخرة بين سلا ومالقة : ابن الخطيب محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني.
- حاشية : الرهوني.
- تحفة (تحفة الحكَّام في نكت العقود والأحكام) : ابن عاصم محمد بن محمد القيسي الغرناطي.
- تاريخ الإسلام : الذهبي محمد بن أحمد.

- تاريخ بُخاري : غنجار.
- شرح فرائض مختصر الشيخ خليل : بنيس.
- أخبار وتراجم أندلسية.
- المن بالإمامة على المستضعفين : ابن صاحب الصلاة، عبد الملك بن محمد الباجي.
- تحفة الزائر في مناقب الشيخ ابن عاشر : الحافي أحمد السلاوي.
- الحوالة الإسماعيلية للأحباس الكُبرى السلاوية.
- معيار الأختيار في ذكر المعاهد والديار : ابن الخطيب، محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني.
- المشترك وضعاً، المختلف صِقْعاً : الحموي، ياقوت بن عبد الله الرومي.
- تقويم البلدان : أبو الفدا، إسماعيل بن علي.
- الرسائل الموحدية.
- تاريخ الدولة العلوية : الضُّعيِّف، محمد بن عبد السلام بن أحمد الرباطي.
- الأنيس المطرب بروض القرطاس : ابن أبي زَرْع، علي بن عبد الله.
- حدود (شرح حدود ابن عرفة) : الشيخ الرصّاع.
- شفاء الغليل فيما في كلام العرب من دخيل : الخفاجي، شهاب الدين، أحمد بن محمد.
- المعجب في تلخيص أخبار المغرب : المراكشي، عبد الواحد بن علي.
- المقدمة : ابن خلدون، عبد الرحمان بن محمد.
- رقم الحلل في نظم الدول : ابن الخطيب، محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني الغرناطي.
- تاج العروس.
- الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية : ابن أبي زرع، علي بن عبد الله.
- المجموعة الوصفية التاريخية التي أصدرتها إدارة المعارف والفنون الجميلة والآثار القديمة بالمغرب.
- بهجة الناظرين وأنس الحاضرين : محمد بن عبد العظيم الأزموري.
- رحلة : الخطيب القسمطيني، أحمد بن حسن ، المعروف بابن قنفد.
- المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزي : الصومعي، أحمد بن أبي القاسم التادلي.
- رسائل ابن عميرة : أحمد بن يحيى الضّبِّي الأندلسي.

- ديوان : الإمام أبي علي الحسن اليوسي.
- الإتحاف الوجيز : محمد بن علي الدكالي السلاوي.
- جذوة الاقتباس في ذكر من حلَّ من الأعلام مدينة فاس : أحمد بن محمد بن أبي العافية المكناسي الزياتي.
- أنس الفقير وعزّ الحقير : الخطيب القسمطيني، أحمد بن حسن، المعروف بابن قنفد.
- السلسل العذب : الحافي، أحمد بن محمد بن عاشر السلاوي.
- سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس : الكتاني، محمد ابن جعفر الفاسي.
- الدفتر التاريخي : الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري.
- رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) : ابن بطوطة، محمد ابن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي.
- المحاضرات : اليوسي، أبو علي الحسن بن مسعود اليدراسني.
- نظم السلوك في الأنبياء والخلفاء والملوك : الملزوزي، أبو فارس عبد العزيز بن عبد الواحد المكناسي.
- ابن الخطيب بسلا : الناصري، جعفر بن أحمد بن خالد.
- الرسائل الكُبرى : ابن عبَّاد، محمد بن إبراهيم النفزي الرُّنْدي.
- تعظيم المنَّة بنصرة السُّنة : الناصري الشيخ أبو العباس، أحمد بن خالد.
- حياة الحيوان : الدَّميري، محمد بن عيسى.
- المرشد المعين (الدُّرُّ الثمين في شرح منظومة المرشد العين) : الشيخ مَيَّارة، محمد بن أحمد.
- نفاضة الجراب في عُلاَلَةُ الاغتراب : ابن الخطيب، محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني الغرناطي.
- الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون : ابن غازي، محمد بن أحمد العثماني المكناسي.
- المعيار الكبير (المعيار المعرب، والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية، والأندلس والمغرب) : الونشريسي، أحمد بن يحيى التلمساني، الفاسي (نزيل فاس).
- البدور المضويِّة (أو الضاوية) في ذكر الشيخ وأصحابه وتلامذته وبناء الزاوية) : العكَّاري،

علي بن محمد الرباطي

- نزهة الناظر، وبهجة الناضر : أحمد بن عبد القادر المباركي الحسني
- صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر : محمد الصغير الأفراني المراكشي.
- ممتع الأسماع في ذكر الجزولي والتّبّاع : محمد بن أحمد الفاسي.
- فتاوى (المعيار الجديد) : الوزّاني.
- نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي : محمد الصغير الأفراني، أو اليفراني.
- مقدمة الفتح : محمد بن مصطفى بوجندار الرباطي.
- الأنوار النبوية في آباء خير البرية : الشيخ محمد عبد الرفيع الأندلسي
- فرحة الأنفس : ابن غالب.
- تاريخ الدولة السعدية : مؤلف مجهول.
- البدور الضاوية في التعريف بالسادات أهل الزاوية الدلائية: الشيخ الحوات، أبو الربيع سليمان.
- زهرة الشماريخ في علم التاريخ : الفاسي، عبد الرحمن بن عبد القادر.
- رسائل : الناصري، الشيخ الإمام مَحمد بن ناصر.
- رحلة العياشي، أبو سالم.
- الجيش العرمرم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السِّجلماسي : أكنسوس المراكشي، محمد بن أحمد.
- المرشد المعين على الضروري من علوم الدين.
- الروضة السليمانية في ملوك الدولة الإسماعيلية ومن تقدمها من الدول الإسلامية : الزياني، أبو القاسم بن أحمد بن علي.
- شرح ميارة الكبير.
- الخبر عن ظهور الفقيه العياشي بهذه البلاد وذكر سبب قيامه بوظيفة الجهاد : أمَلاّق، عبد القاهر بن محمد.
- التُّحف والطُّرَف : المقّري، التلمساني، أحمد بن محمد.
- مجموعة في الأدب والتاريخ : ابن القاضي، أحمد بن محمد بن محمد بن أبي العافية المكناسي.

- ديوان شعر : الحلِّي العراقي، الإمام نجم الدين.
- نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني : القادري، محمد بن الطيب.
- البستان الظريف في دولة أولاد مولانا علي الشيرف : الزياني، أبو القاسم بن أحمد بن علي.
- إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس : العلوي عبد الرحمن بن زيدان، أبو زيد.
- الروض المعطار في خبر الأقطار : الحميري التونسي، ابن عبد المنعم، محمد بن عبد الله.
- التكملة لكتاب الصلة : ابن الأبَّار، محمد بن عبد الله القضاعي البلنسي.
- التقاط الدُّرر ومُستفاد المواعظ والعِبر : القادري. محمد بن الطيب.
- الدُرر البهية والجواهر النبوية في الفروع الحَسَنِيَة والحُسَيْنِيَّة : الفضيلي، إدريس بن أحمد العلوي الحسني الفاسي.
- فهرست : العميري، أبو القاسم بن سعيد.
- المقصد الأحمد في التعريف بسيدنا أبي عبد الله أحمد : القادري، عبد السلام بن الطيب.
- الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب : الزياني، أبو القاسم بن أحمد بن علي.
- نتيجة الإجتهاد في المهادنة والجهاد : الغزَّال، أحمد بن المهدي.
- تاريخ تطوان : محمد بن أحمد داوود.
- الواسطة في أخبار مالطة : الشدياق أحمد فارس.
- المغرب في بداية العصور الحديثة : العقاد صلاح.
- البدر السافر لهداية المسافر إلى فكاك الأسرى من يد العدوِّ الكافر : ابن عثمان، محمد بن عبد الوهاب المكناسي.
- العز والصولة في نظم الدولة : العلوي، أبو زيد عبد الرحمن ابن زيدان.
- الاغتباط بتراجم أعلام الرباط : بوجندار، محمد بن مصطفى الرباطي.
- إحراز المعلّى والرقيب في حج بيت الله وزيارة القدس الشريف والتبرك بالحبيب. : ابن عثمان المكناسي، محمد بن عبد الوهاب.
- رسالة الجامعة الإسلامية : رفيق بك العظم.
- حسن البيان عمَّا بلغته إفريقية في الإسلام من السطوة والعمران : النيفر التونسي، محمد ابن محمد الطيب.

- المؤنس في أخبار إفريقية وتونس : ابن أبي دينار.
- العرب والروم : فَسِّلْييف (Vassiliev).
- تاريخ الجزائر العام : الجيلاني، عبد الرحمن بن محمد.
- الكامل في التاريخ : ابن الأثير، علي بن محمد الشيباني الجزري الموصلي.
- رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة : الشريف الغرناطي، أبو القاسم محمد بن أحمد.
- ديوان شعر : تميم، بن المعز بن باديس الصنهاجي
- عصر المرابطين والموحدين بالمغرب والأندلس : محمد عبد الله عنان..
- رسالة في فضل الأندلس : أبو الوليد إسماعيل بن محمد.
- تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين : يوسف أشباخ.
- كتاب الاعتبار : ابن منقذ، أُسامة بن مرشد بن علي الكِنَاني الشيزري.
- كتاب الروضتين في أخبار الدولتين : الشهاب المقدسي.
- ديوان شعر : الرصافي البغدادي، معروف بن عبد الغني.
- أدب الحروب الصليبية : عبد اللطيف حمزة.
- الإسلام والنصرانية في إفريقية : بوني موري.
- اختصار الأخبار عمّا بسبتة من سني الآثار : السبتي، محمد بن القاسم.
- دُرَّة السلوك فيمن حوى المُلْكَ من الملوك : الملزوزي، أبو فارس عبد العزيز بن عبد الرحمن.
- مناهل الصفّا في أخبار الملوك الشرفا : الفشتالي، أبو فارس عبد العزيز بن محمد.

المراجع الأجنبية
حسب ورودها في الكتاب

Nom de l'ouvrage	Nom de l'Auteur
- Description de l'Afrique	Léon l'Africain
- La ville de Rabat jusqu'au protectorat français	Jacques Caillé
- Les Corsaires de Salé	Roger Coindreau
- Les Sources Inédites de l'Histoire du Maroc	Henri de Castries
- Histoire des Musulmans d'Espagne	Reinhardt Dozy
- Histoire de l'Espagne Musulmane	E. Levy-Provençal
- Histoire des Bérbères (Trad. d'Ibn Khaldoun)	Henri de Castries
- Villes et Tribus du Maroc - Rabat et sa région	Archives Marocaines
- La Correspondance du Consul Louis Chénier	Pierre Grillon
- Les Almohades	René Millet
- La Captivité du Sieur Mouëtte	La marquise de Serres
- Recherches Historiques sur les Maures et Histoire du Maroc	Chénier
- Inscriptions Arabes de Fès	Afred Bel
- Voyages au Maroc	A. Brives
- L'Afrique	Marmol
- Conditions Sociales des Morisques d'Espagne, Causes de leurs expulsions, ses Conséquences	Florencio Janer
- Histoire du Maroc	Henri Terrasse
- Les Historiens des Chorfas	E. Lévi-Provençal
- Histoire de Barbarie et ses Corsaires, des Royaumes et des Villes d'Alger, de Tunis, de Tripoli et de Salé.	Le Père Dan
-La Piraterie	Jeannel,

- Histoire de la Piraterie	Jean Mercier
- Histoire des Pirates et des Corsaires	Ludwig Bühnau
- Histoire des Corsaires	Jean Merrien
- L'Esprit des Lois	Montesquieu
- Traités de Paix et de Commerce et Documents concernant les Relations des Chretiens avec les Arabes de l'Afrique septentrionale au moyen-âge 1865	Mas Latrie
- L'Espagne Catalane et le Maghreb au XIII° et XIV° siècle.	Charles E. Dufourcq
- Moulay Ismaël et Jacques II	H. De Castries
- Les Captifs Français au Maroc au XVII° siècle	Charles Penz
- Ismaël le Grand Empereur du Maroc	Defantin maxange
- Les Emerveillements Parisiens d'un Ambassadeur de Moulay Ismaël en 1682	Charles Penz
- Etat Présent de l'Empire du Maroc	Chevalier de St Olon
- Moulay Ismaël Empereur du Maroc et la Princesse de Conti.	Eugène Plantet
- Récits d'Aventures au temps de Louis XIV	Le Père Busnot
- Relation des Voyages des Rédempteurs en 1704, 1708 et 1712.	Le Père Nolasque
- La Petite Histoire de Rabat	Jacques Caillé
- Histoire de l'Afrique du Nord	Ch. A. Julien
- Histoire du Maroc	Coissac de Chavrebière
- Histoire de Moulay Rachid et de Moulay Ismaël	Mouëtte
- Les Accords Internationaux de Sidi Mohamed ben Abdellah	Jacques Caillé
- Une Ambassade Autrichienne au Maroc en 1805	Jacques Caillé
- Le Consulat de Tanger	Jacques Caillé
- La Bérbérie Musulmane et l'Orient au moyen âge	Georges Marçais
- Les Almohades	René Millet
- Les Banu Ghanya	Alfred Bel
- Le Maroc d'Autrefois et les Corsaires de Salé	Henri de Castries
- Histoire de la Barbarie	Le Père Dan
- Les Etats Barbaresques	Jean moulieras
- Au Seuil du Maroc Moderne	Weisgerber

مُلحق

فيه الصور المتّصلة
بمحتوى الكتاب

لوحة رقم 1

28 السلطان الاعظم مولاي الرشيد بن الشريف العلوي
L'ILLVSTRE & MAGNIFIQVE CHERIF MVLEY-ARXID
Roy de TAFILETE, FEZ, MAROC, TARVDENT, Et autres Prouinces.
Ports, villes Maritimes dans la Mauritanie en Afrique, quil à Conquis par la
Force de Ses Armes Redoutables.

لوحة رقم 2

السلطان الأعظم مولاي إسماعيل بن الشريف العلوي

لوحة رقم 3

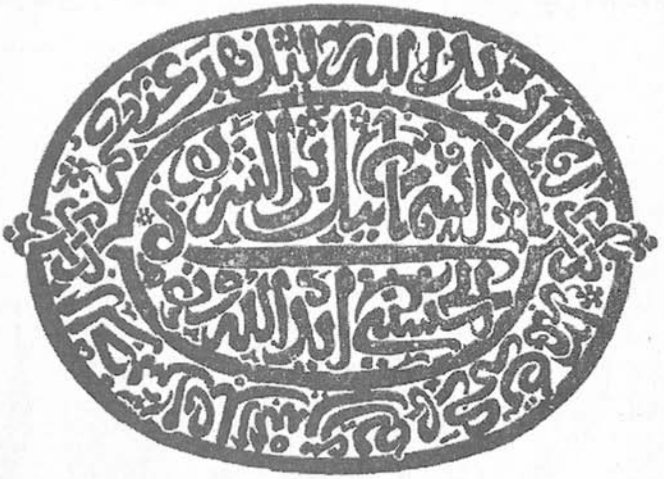

طابع السلطان المولى إسماعيل بن الشريف العلوي

لوحة رقم 4

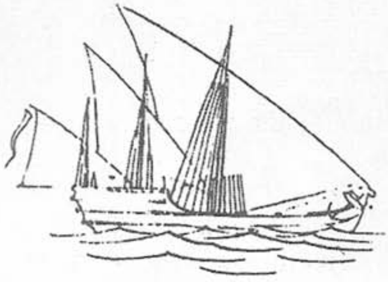

كارافيل (Caravelle)

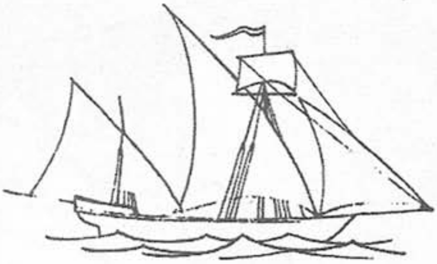

طارطان (Tartane)

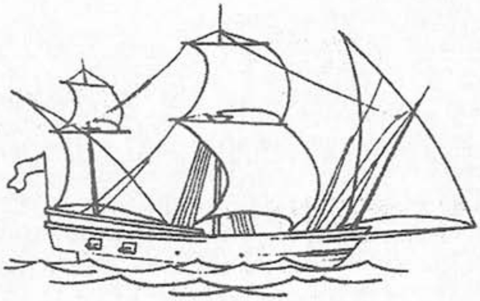

پولاكر (Polacre)

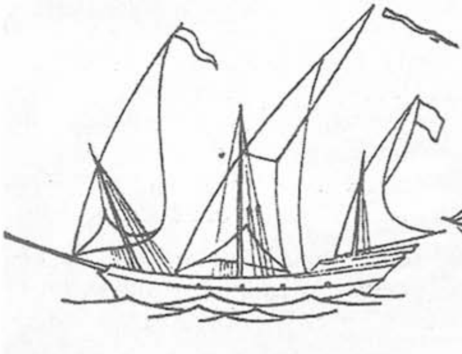

قبق (Chebec)

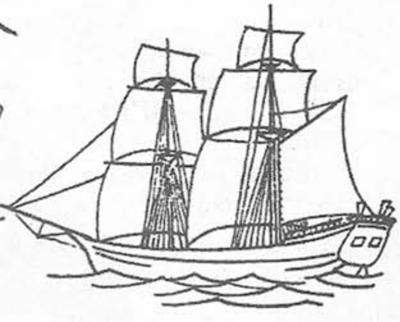

سينو (Senau)

الأشكال الرئيسية للسُّفُن التي كان يستعملها
الأسطول القرصاني السلاوي - الرباطي

لوحة رقم 5

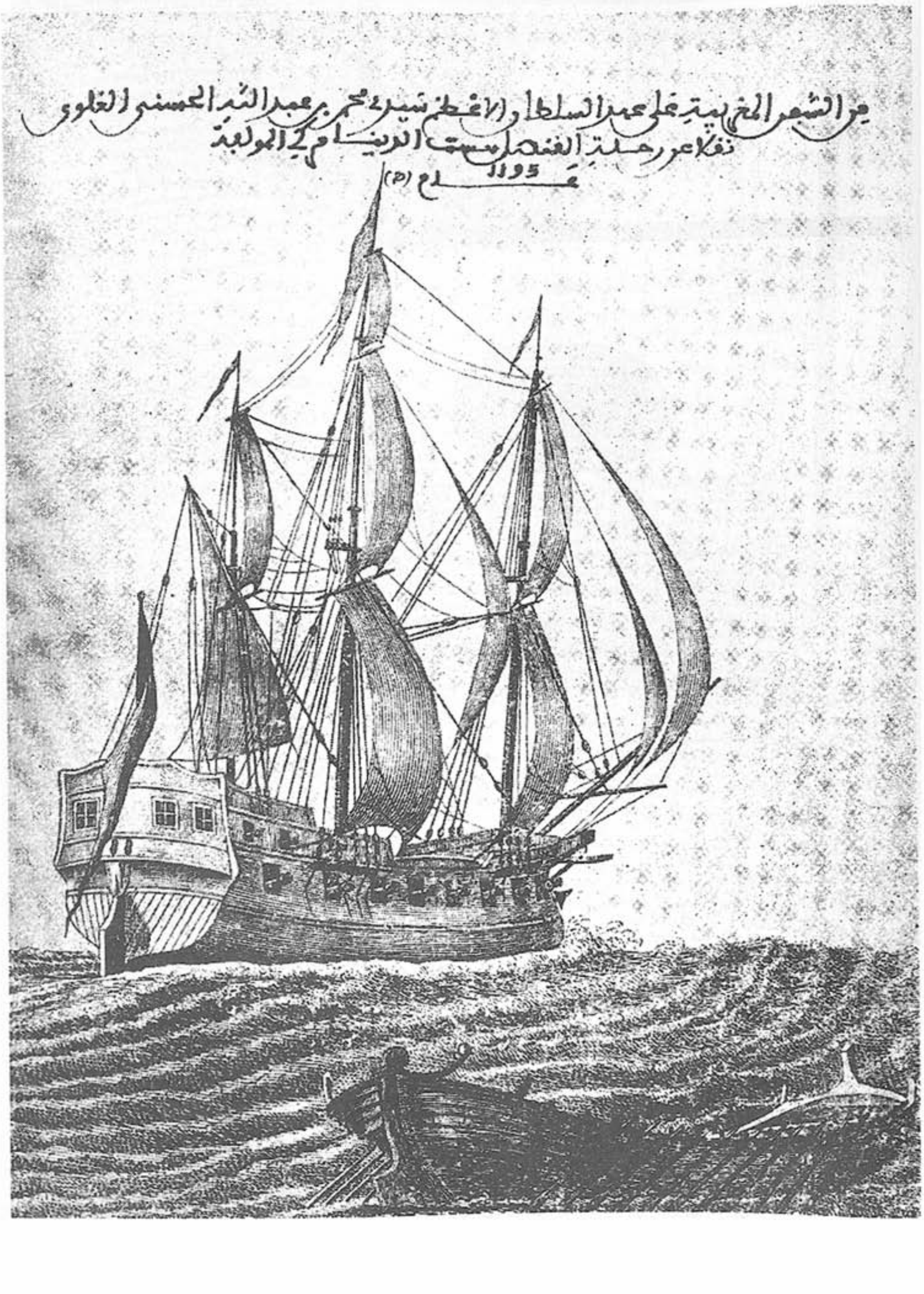
من السفن المغربية على عهد السلطان الاعظم سيدي محمد بن عبد الله الحسني العلوي
عام 1195 (هـ)

لوحة رقم 6

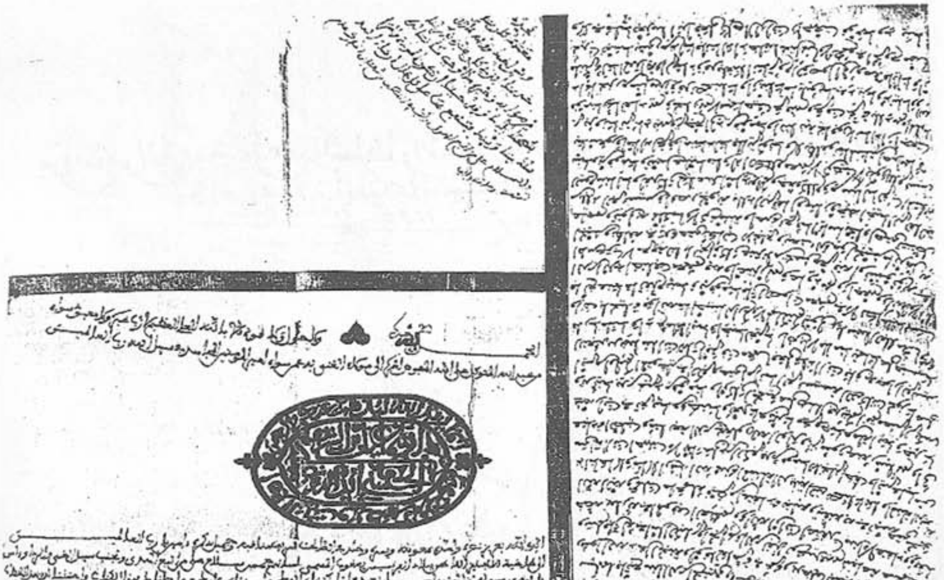

رسالة المولى إسماعيل إلى جاك الثاني، ملك إنجلترا، لما كان ملتجئاً إلى فرنسا، بعد خلعه يدعوه فيها إلى الإسلام، وإن لم يفعل، ينصحه بالتخلي عن الديانة الكاثوليكية، والرجوع إلى دين شعبه، الأنجليكانية، ليتمكن من استرجاع ملكه.

وتحمل تاريخ : 15 شعبان 1109، الموافق لـ 26 يناير 1698.

وهي محفوظة بوثائق وزارة الخارجية الفرنسية بباريس

لوحة رقم 7

En nombre de Vnsolo Dios todo Poderosso

A Yacob Rey de ingalaterra guarde Dios porquanto lasmuchas
finesas que Vuestra Hermano que Dios aya hiso Conmi Embaxador ilorbuno
tratos quetubimos Yo iel tanto Enlo detanxar como otros negosios que vbo
demi al Ybez Subuna Correspondensia meobligo Aescribiros Estamicarta dan
dos aentendia porella dos temas, Vna temporal, Y otra Spiritual, laespiritual
es queno ignorais que Dios Es vno I que christo Es alma de Dios hecho por
obra suya comouna podensio, iquenotiene Compañero Ensureyno, ni porvna Cosa
tanjusta Comesto. Vsenais perdido El Rey ... obiera Sido mas aseto alos ojos de Dios
que perdialos poradorar las imajenes Es, es tangrande queno cabe Enuestro buen
juisio sabiendo que Dios dixo maldito Sea El hombre que adorare Enidolos, ime
espanto queya quedexasteis la ley debuestros Padres fuese para apesarse nopara amejo
rarse deley hazer que me obligado causo idome lastima aescribiros para que espiritual
mente mejoreis deley para que gosseis tempo al Espiritual, y ruandoos aportugal para
estar mas serca delos tratos ipedid perdon aVuestro Reyno delyerro quedesreyno
ibasallos nohallaren Otro comovos, ni otro tan Como Vuestro Rey no iaved demiparte
quanto poder Sufisiente porlamiga tubiere Os ayudara conbuena Volumtad pero hare
Enello todo quanto demiparte pudiere, i mejor benis ique los reyes deportugal an
sido Vuestros Suegros noaiduda quoosdara ... El devido alafamo ... to queaze quiera Vuestra
persona hasta hasor ... asuntos iquesiendo Dios quebolbais ... Vuestro Reyno hare
mos Entrenos ijo unas Generales pases que puedan benir Vuestr. ... Embarcasiones anue
stros puertos libres detodo Riesgo ilas nuestras y alos vuestros iaiga Entrenosotros una Er
mandad Vniforme desgenero de fraude, nimas motibo, que uzreconosorme aora
deuido alas muchas finesas que aVuestro hermano mereci, asi vos escribo Esta Rezebil
da Como delcariño icomo quien quiere Vuestro bien estar quien os Estima

رسالة المولى إسماعيل إلى جاك الثاني، ملك إنجلترا،

وهي ملخص للرسالة المكتوبة بالعربية، المؤرخة بـ 15 شعبان 1109 الموافق لـ 26 فبراير 1698

وهي محفوظة بوثائق وزارة الخارجية الفرنسية بباريس

لوحة رقم 8

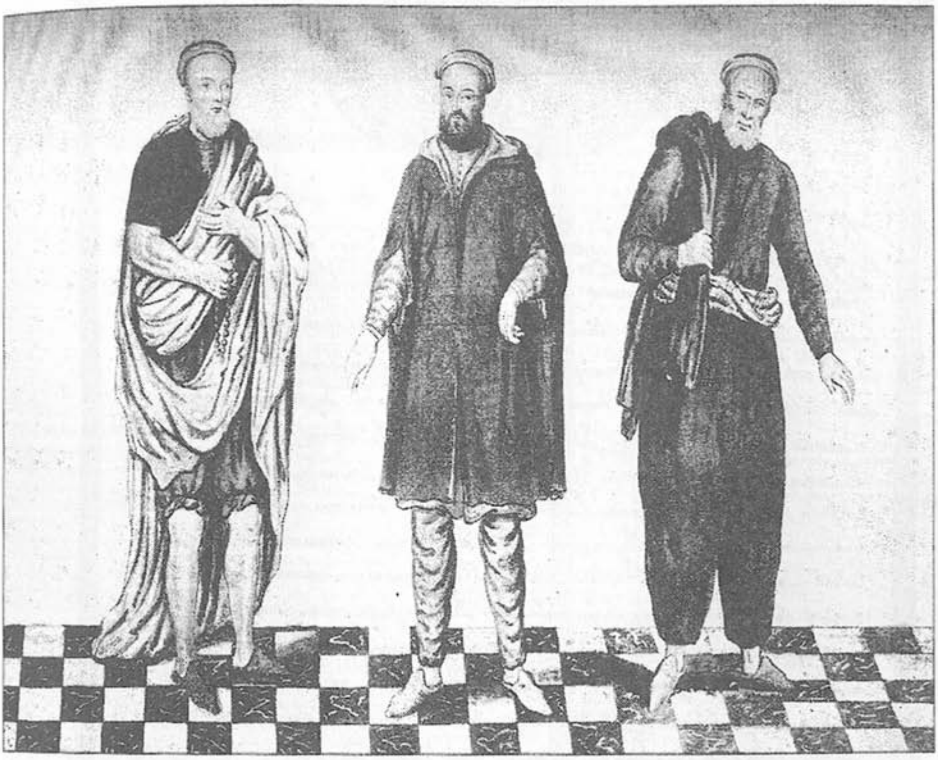

سفارة الأميرال عبد الله بن عائشة
إلى لويس الرابع عشر، ملك فرنسا

إلى اليمين : محمد التغيري
قبطان بحري
خليفة سفير المغرب

في الوسط : عبد الله بن عائشة
أميرال سلا
سفير المولى إسماعيل
إلى لويس الرابع عشر

إلى اليسار : أحمد سوسان
كاتب السفارة

لوحة رقم 9

الأميرة ماري – آن، بنت لويس الرابع عشر
المشهورة بالأميرة دوكونتي، وهو اسم زوجها

لوحة رقم 10

السلطان سيدي محمد بن عبد الله

نشرت هذه الصورة في «منشورات معهد فرانكو للبحث الإسباني - العربي» بطنجة، سنة 1939

لوحة رقم 11

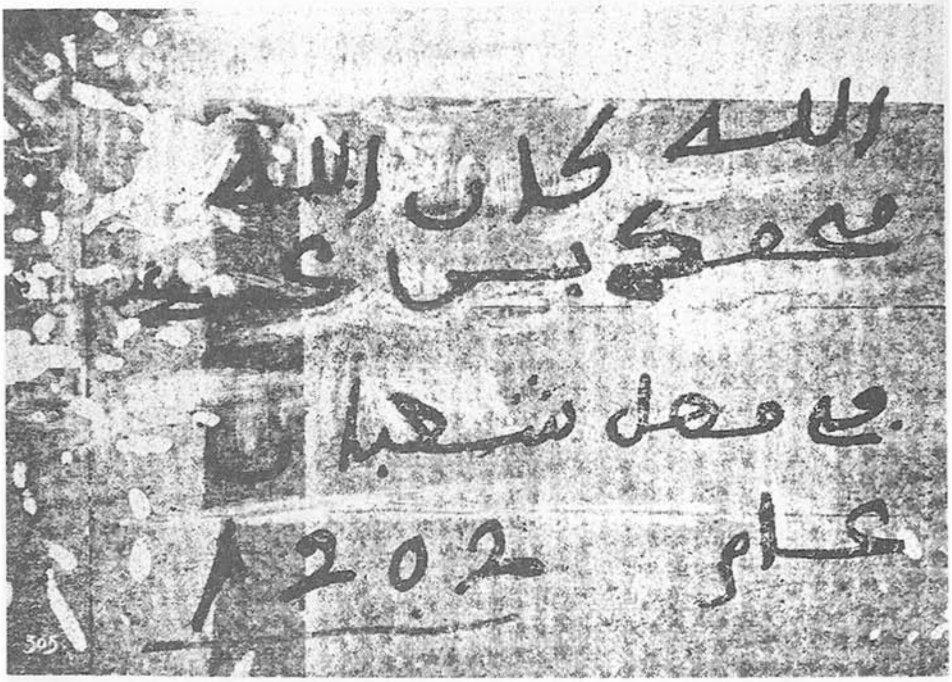

خط السلطان سيدي محمد بن عبد الله

وقد أكلت الأرضة (له) من (كان الله له)

(مقتبسة من كتاب «إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس» للشريف النقيب عبد الرحمن بن زيدان)

لوحة رقم 12

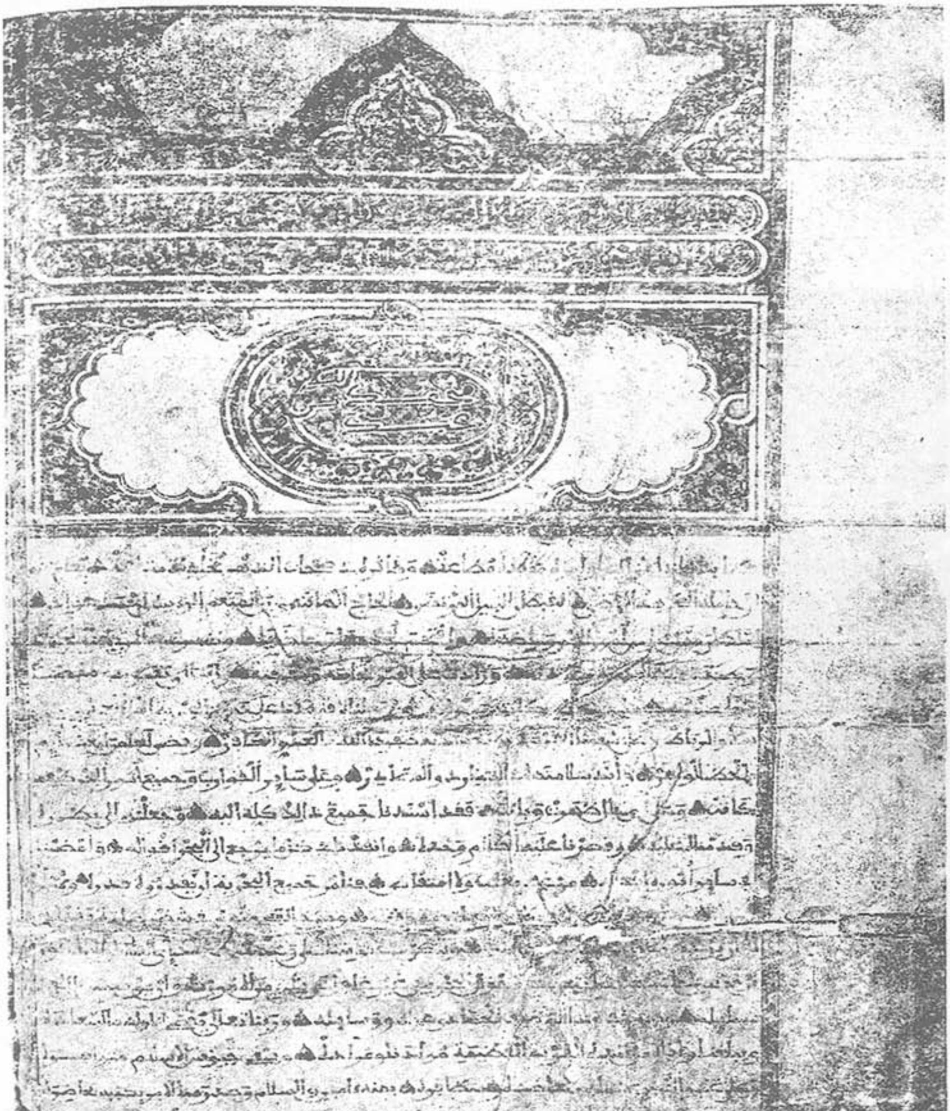

ظهير السلطان سيدي محمد بن عبد الله بولاية الرئيس الأميرال
الحاج الهاشمي عوّاد على بحرية العدوتين
(الصورة مأخوذة من كتاب «إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس»
للشريف النقيب عبد الرحمن بن زيدان)

لوحة رقم 13

ظهير السلطان سيدي محمد بن عبد الله
للرئيسين علي الصابونجي ومحمد التركي

لوحة رقم 14

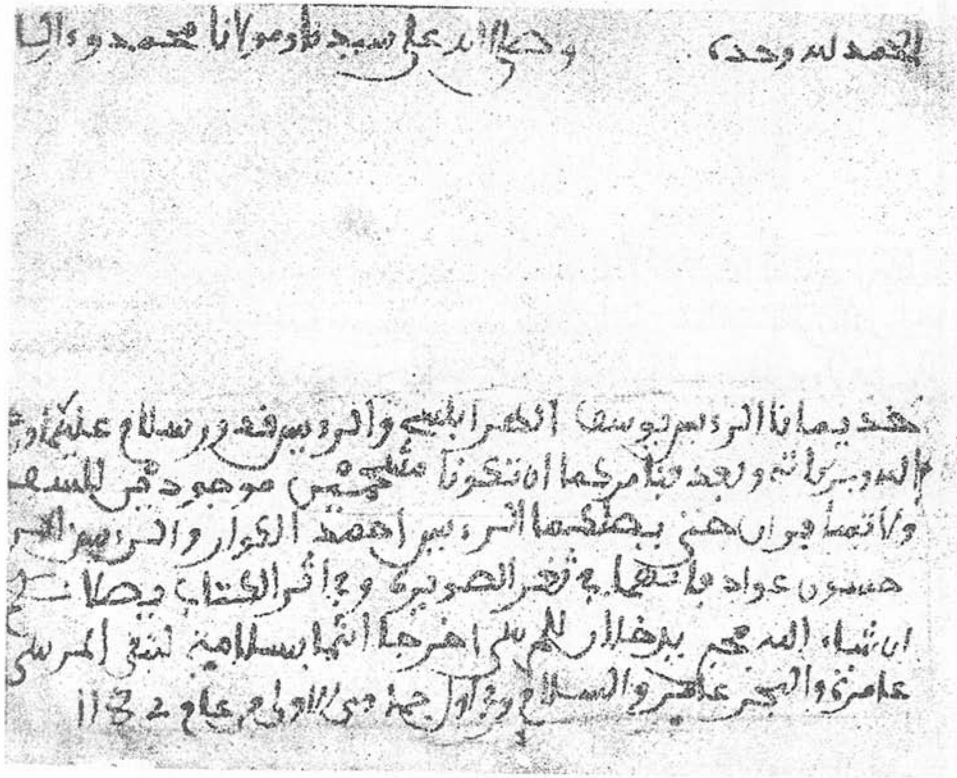
الحمد لله وحده . وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وءاله

خديمانا الرئيس يوسف [illegible] والرئيس قدور [illegible] وسلام عليكما ورحمة
الله وبركاته وبعد فنأمركما ان تكونا متهيئين موجودين للسفر
واتيتما فوران حتى يصلكما الرئيس ابن احمد [illegible] والرئيس [illegible]
حسون [illegible] الصويرة وجاء الكتاب [illegible]
ان شاء الله [illegible] انتما بسلامة [illegible] المرسى
عامرة والبحر [illegible] والسلام في اول جمادى الاولى عام [illegible]

كتاب للسلطان سيدي محمد بن عبد الله إلى الرئيسين يوسف وقدور

لوحة رقم 15

الكونت دوبرونيون (Le Comte de Breugnon)
القائد العام للجيوش الملكية الفرنسية الذي بعثه لويس الخامس عشر سفيراً
إلى السلطان سيدي محمد بن عبد الله، وذلك سنة 1767 (1181)

لوحة رقم 16

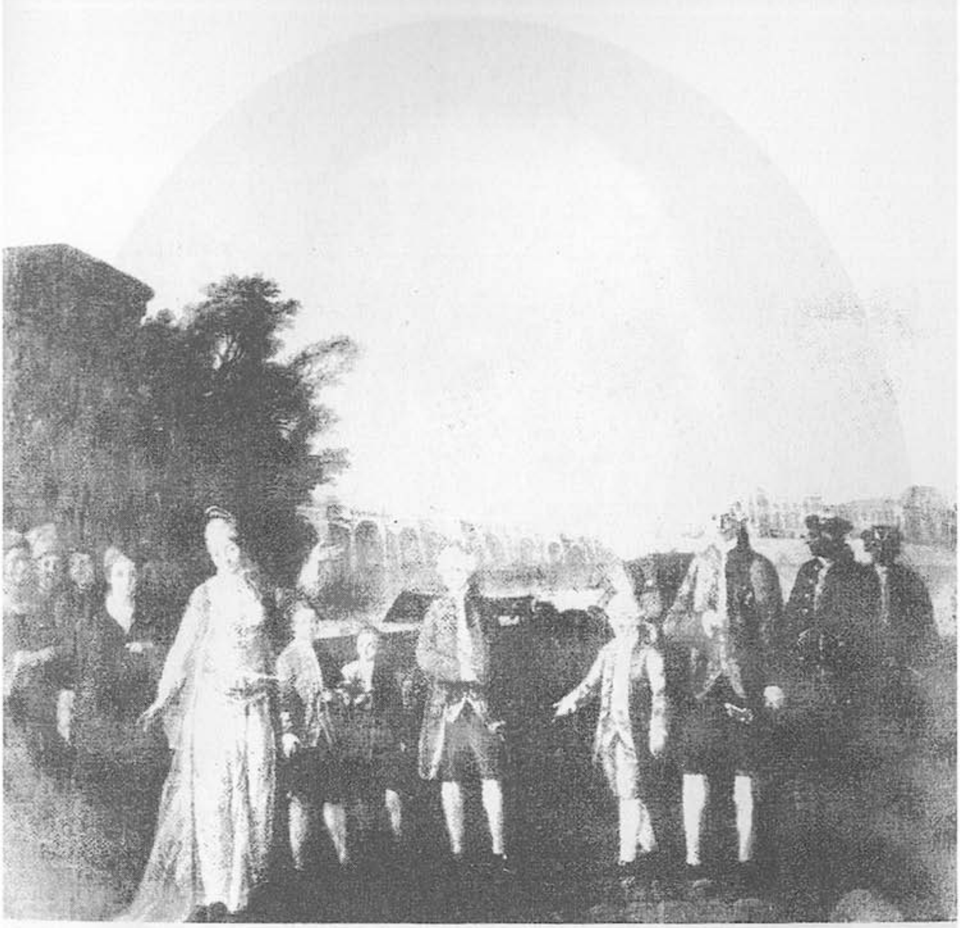

القنصل لوي شينيي (Louis Chénier) محفوفاً بأولاده وزجته ويُرى إلى يمين الصورة، في المقدمة

لوحة رقم 17

الحمد لله وحده نسخة من كتاب شريف لمولانا أمير المؤمنين السلطان الإمام العادل المطاع
محمد بن مولانا المنصور بالله مولانا عبد الله بن مولانا إسماعيل قدس الله روحه كتبه إلى الرؤساء
والبحرية وأهل العدوتين وتطوان

ونصه

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه خدامنا المجاهدين الرئيس
عبد الرحمن بريطل والرئيس عبد الرحمن برڭاش وكافة خدامنا المجاهدين البحرية ومن معهم من أهل
سلا ورباط الفتح وتطوان أمنكم الله وسلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد فنأمركم بتقوى الله
والتوكل عليه فإنه من يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله
فهو حسبه ونأمركم بالمحافظة على الصلوات في أوقاتها وبقراءة حزب البحر والحزب
الكبير للشاذلي صباحا ومساء فإنهما أمان من كل سوء وعلى الرؤساء أن يشتغلوا في جميع
أمورهم كلها بما يعنيهم ويتحرزوا من الأمور المذمومة المخلة بالدين وأن لا يجعلوا في مراكبهم
مثل الخمر والخنزير ومن ظهر منهم على شيء من ذلك فقد تعرض لنكالنا وعلى البحرية أن يسمعوا
ويطيعوا لرؤسائهم ويلتزموا معهم الأدب والحياء فقد جعلناكم [illegible] فإذا انشرت القلاع
على سطح البحر [illegible] وفضل الله [illegible]
[illegible] بالسلامة [illegible] والكرامة [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] الذين [illegible] معهم على الصلح والمهادنة [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] واستعينوا بالله عليهم [illegible]
[illegible] ونسأل الله أن يعينكم على الجهاد [illegible] بعونه ونصره يا أيها الذين
آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم وأنتم الأعلون والله معكم [illegible]
[illegible] والسلام في 19 حجة عام 1243

كتاب للسلطان سيدي محمد بن عبد الله

إلى الرئيسين عبد الرحمن بريطل وعبد الرحمن برگاش وأهل العدوتين سلا ورباط الفتح، وتطوان

الحمد لله وحده   وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم

وداخله الطابع الشريف عبد الرحمن بن هشام غفر الله له ؛ وبدائرته ومن تمسك بحبل الله نصره إن
تلقد الله شرع أجابه نجم ؛ ومن والاه وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب. الله محمد أبوبكر عمر عثمان علي

المحترمان الرئيس عبد الرحمن بريطل والرئيس الشريف عبد السلام أصلحكم الله ووفقكم وسلام عليكم
ورحمة الله تعالى وبعد فالقد وجهنا إليكم سفنكم المباركة السعيدة المصحوبة بالسلامة والغنيمة إن شاء
الله ما هو إلا أن تقلعوا للبحر الكبير على قانون سيدنا وتحرسوا كل البحث على جنس البرتغال وجنس
لويط وجنس البروسية ؛ وجنس هنبورغ وإذا احتجتم للماء فادخلوا الجبوة ولا تقيموا فيها أكثر
من ثلاثة أيام ولا تحملوا منها إلا الماء، وإياكم والغفلة وعليكم بتقوى الله والصلاة في وقتها وقراءة حزب
القرآن وحزب البحر صباحا ومساء والله خليفتي عليكم وإذا أتممتم سفركم وكملتم بالخير إن شاء الله فادخلوا
مرسى العرائش إن ساعدتكم للدخول إن شاء الله والسلام في 26 من محرم الحرام عام 1241

ظهير للسلطان المولى عبد الرحمن بن هشام
للرئيسين عبد الرحمن بريطل، وعبد الرحمن بركاش
يأمرهما فيه بالخروج إلى البحر

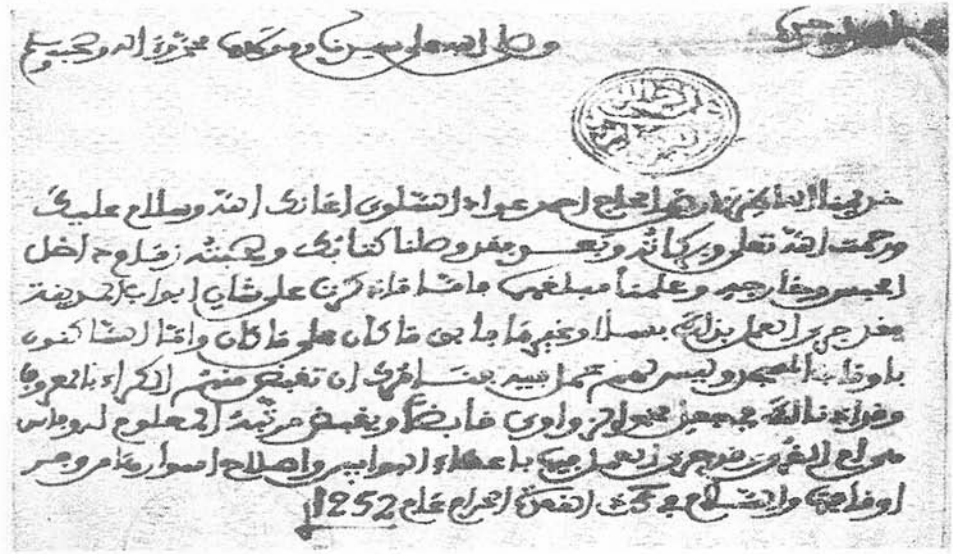

جواب المولى عبد الرحمن بن هشام لناظر سلا الحاج أحمد عواد
عن وصول قائمة الداخل والخارج وغير ذلك

جواب المولى عبد الرحمن بن هشام لناظر سلا الحاج أحمد عوّاد حول إصلاح ماء سلا

لوحة رقم 20

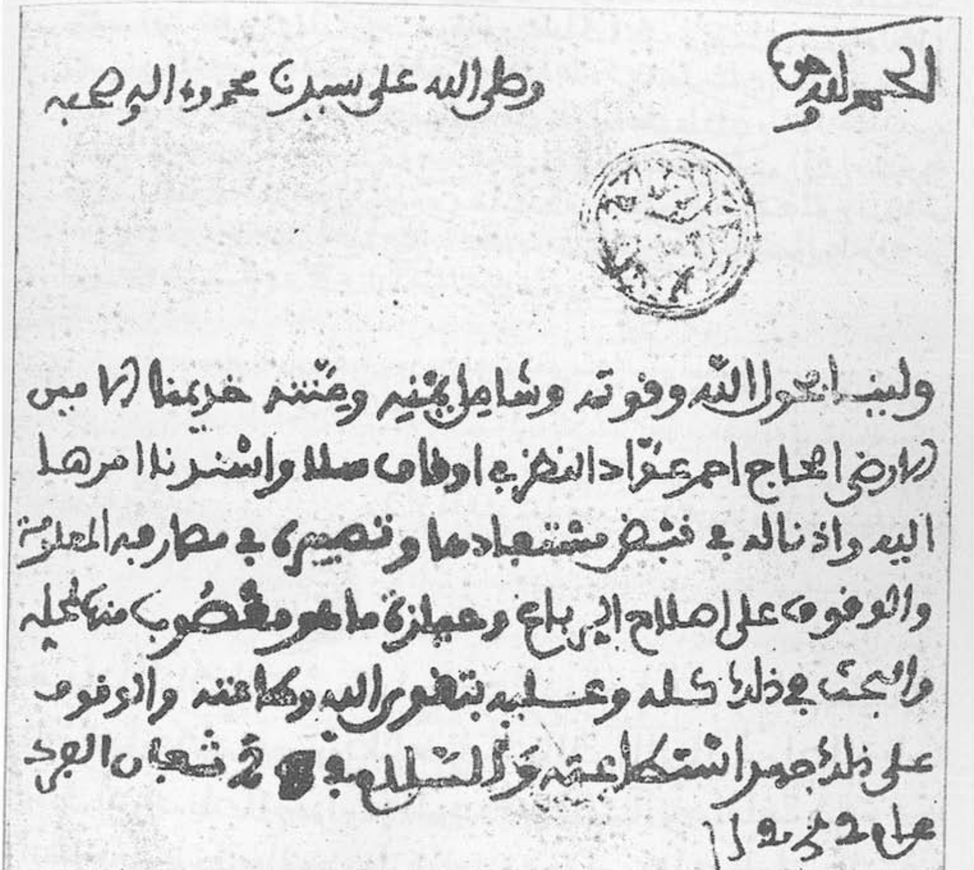
الحمد لله وحده — وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

ولينا بحول الله وقوته وشامل يمنه ومنته خديمنا الأمين
الأرضى الحاج أحمد عواد النظر في أوقاف سلا وأسندنا أمرها
إليه وأذنا له في ضبط مستفادها وتصييره في مصارفه المعلومة
والوقوف على إصلاح الرباع وحيازة ما هو مغصوب منها بحيلة
والبحث في ذلك كله وعليه بتقوى الله وكل ما عنه والوقوف
على ذلك جهد استطاعته والسلام في 17 شعبان الأبرك
عام 1290

ظهير رحماني بولاية الحاج أحمد عوَّاد النظر في أوقاف سلا

الفهرس

الفصل الأول : عن رجال الأسطول القرصاني السلاوي – الرباطي وسفنهم 3

المبحث الأول : رجال الأسطول القرصاني السلاوي – الرباطي، أصنافهم ولباسهم وسلاحهم 5

- مدخل 5
- أصول ورجال الأسطول القرصاني السلاوي – الرباطي 9
- أصنافهم ورتبهم 9
- لباسهم وسلاحهم 10

المبحث الثاني : أنواع السفن المنشأة بسلا 13

الفصل الثاني : عن رجال الأسطول القرصاني السلاوي ـ الرباطي في بداية قرصنته الجهادية 15

مبحث فريد : بعض مشاهير رؤساء الأسطول القرصاني السلاوي – الرباطي في العهد السعدي والأندلسي الانفصالي والدلائي 17

* الرئيس الحاج علي 17
* مورا رايس أو الرئيس مراد 19
* مامي رايس 20
* الرئيس مراد، أميرال سلا والرباط 20
* شعبان رايس 24
* الرئيس الهسكوري 24

* الرئيس حسن إبراهيم 24
* الرئيس شافار 25
* الرئيس الحاج محمد فنّيش 25
* الرئيس علي مارشيك 25
* الرئيس أحمد القرطبي 25

الفصل الثالث : عن رجال الأسطول القرصاني السلاوي - الرباطي في عهد العلويين 29

المبحث الأول : بعض مشاهير رؤساء البحر في عهدي المولى الرشيد والمولى إسماعيل 31

مدخل 31
* الرئيسان : القرطبي ومحمد رايس 32
* الرئيس علي بُوْدْري 32
* الرئيس محمد السنشولي 32
* الرئيس محمد التَّاج 32
* الرئيس علي كامبو 36
* الرئيس فينيسا (Venetia) 36
* الرئيس الحاج إبراهيم 36
* الرئيس علي حكم 37
* الرئيس العربي حكم 37
* الرئيس محمد الحاج كانديل 38
* الرئيس الرُّوسّي 39
* الرئيس معيز 41
* الرئيس الحاج عبد الله بن محمد فنيش 43

المبحث الثاني : الرئيس الأميرال عبد الله بن عائشة السلاوي 45
نسبه وأسرته 45
أعمال عبد الله ابن عائشة القرصانية 48
أعماله القرصانية مع أخيه الرئيس عبد الرحمان وولده الرئيس محمد 51
أسر عبد الله بن عائشة بإنجلترا 54
سفارة ابن عائشة إلى انجلترا 55
اجتماع عبد الله ابن عائشة بجاك الثاني بفرنسا 56
مذهب ابن عائشة السياسي وتقلُّبه فيه 56
* سفارة ابن عائشة إلى فرنسا 57
استدراك 60
ولاية عبد الله ابن عائشة النَّظَر في الشؤون البحرية والمخابرة مع الدول الأوربية.. 64
توسطه في خطبة الأميرة دوكونتي (De Conti) بنت لويس الرابع عشر
للسلطان المولى إسماعيل 68
اتصاله بالتاجر جوردان الفرنسي واتفاقه معه على تأسيس حركة تجارية بالرباط . 74
مسألة الأسير السمَّار 80
مسألة الزربية والمرايا 80
مصادقة المولى إسماعيل علي شركة جوردان التجارية
وإصداره له ظهيرا شريفا بذلك 81
تدخل ابن عائشة في تسمية قنصل فرنسي بالرباط 86
مسألة الصور الأثرية المكتشفة بشالة 92
محنة عبد الله ابن عائشة 94
المحنة الكبرى 97
أسر ابن عائشة بهولاندا 98

دار سكنى عبد الله ابن عائشة بالرباط 99

شخصية عبد الله ابن عائشة 100

ديانة عبد الله ابن عائشة 101

وفاة عبد الله ابن عائشة 102

* الرئيسان محمد بن عبد الله ابن عائشة وعبد الرحمان ابن عائشة 104

المبحث الثالث : بعض مشاهير رؤساء الأسطول القرصاني السلاوي – الرباطي في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله 105

الرؤساء من آل فنيش 105

* الرئيس عبد الحق فنّيش 106

* الرئيس الحسن فنيش 108

* الرئيس الحاج الطاهر فنيش 109

* الرئيس أحمد فنيش 110

* الرئيس عبد العزيز بن محمد فنيش 111

الرؤساء من آل عوّاد بسلا 111

* الرئيس الحاج علي بن محمد عواد 116

* الرئيس الحاج بن حسون عواد 116

مضمن اللائحة التي رفعها القنصل للسلطان سيدي محمد بن عبد الله 119

* الرئيس محمد عواد المعروف بمانطة 122

* الرئيس الحاج الهاشمي بن أحمد عواد 123

المبحث الرابع : الرئيس علي لُباريس وما يتصل بترجمته من أخبار القنصل الفرنسي لوي شينيي (Louis Chénier) **الذي كان في الرباط في ذلك العصر**.. 125

سفارته إلى فرنسا، وتدخل القنصل لوي شينيي (Louis Chéner) فيها لإبطالها ... 126

بعض أعمال علي بيريس الحربية البحرية 139

قضية القبطان الإصباني 144
توجه الرئيس علي بيريس مع الكاتب ابن عثمان إلى إصبانيا
في مسائل تتعلق بالأسرى 145
المشاكل التي كانت بين السلطان سيدي محمد بن عبد الله وحكومة مالطة
وما ترتب عنها 146
سفارة الرئيس علي بيريس الثانية إلي فرنسا وما ترتب عنها 147
توجه الرئيس علي بيريس إلى فرنسا 152
تنكر السلطان للقنصل شينيي وابتداء محنته 166
ابتداء مأمورية لوي شينيي القنصلية وانتهاؤها بالمغرب، وانسحابه منه
وتعيين دار سكناه 171
اشتغال شينيي بالجاسوسية 178
لال طريدة 179

المبحث الخامس : بقية أخبار بعض مشاهير رؤساء الأسطول القرصاني السلاوي – الرباطي في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله.. 181
* الرئيس الحاج الطيب والعلو السلاوي 181
* الرئيس السيد الحاج محمد والعلو 184
بعض أعمال الرئيس الحاج الطيب والعلو الحربية وأسفاره البحرية 185
* الرئيس علي الصابونجي السلاوي 189
ما ذكره القنصل شينيي (Chénier) في رسائله من أخبار الرئيس علي الصابونجي..191
* الرئيس صالح 195
* الرئيس عمورا 202
* الرئيس عمر العلج 204
إحدى غاراته البحرية وأخذه ثلاثة سفن فرنسية 205
* الرئيس ميلود 210

* الرئيس فراج 212
جولان الرئيس فراج بالبحر الأبيض المتوسط
وما سلكه القنصل لوي شيني في ذلك 214
* الرئيس أبو عبد الله محمد العربي المستيري 222
ولايته على الرباط 223
بعض أخبار رياسته وأعماله في الأسطول 224
بعض ما سجّله لويس شيني في رسائله التاريخية عن هذا الرئيس 225
سفارته إلى تونس 226
* الرئيس الهاشمي المستيري 227
* الرئيس إسماعيل 228
* الرئيس الهاشمي التركي الكوار الرباطي 231
* الرئيس الحاج سليمان التركي الجزائري 233
* الرئيس أحمد التركي الكوار 235
* الرئيس يوسف الطرابلسي 239
* الرئيس سالم الطرابلسي 241
* الرئيس قاسم 242
* الرئيس قدّور شايب عينو 246
* الرئيس الهاشمي المستغانمي 251
رؤساء آخرون مستغانميون 259
* الرئيس محمد المستغانمي 259
* الرئيس المصطفى المستغانمي 260
* الرئيس عبد القادر المستغانمي 261
المبحث السادس : بعض مشاهر رؤساء الأسطول السلاوي – الرباطي
في عهد السلاطين : المولى سليمان والمولى عبد الرحمن بن هشام،
والمولى محمد بن عبد الرحمن، والمولى الحسن الأول 265
* الرئيس إبراهيم لُبَاريس الرباطي 265

* الرئيس الحاج الطاهر بن الأميرال الحاج الهاشمي عوّاد 265
* الرئيس عبد السلام السلاوي 267
* الرئيسان عبد الرحمان بريطل وعبد الرحمان برگاش 269
* الرئيس الحاج أحمد بن محمد بن الهاشمي عوّاد 271
* الرئيس عبد العزيز عوّاد 276
* الرئيس عبد الرحمن بن عبد العزيز عوّاد 277
مصادر المؤلف 279
المراجع الأجنبية 287
ملحق 289
الفهرس 311